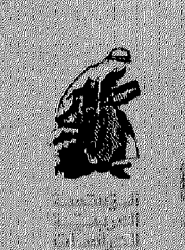
نبيل خالد الآغا



مدائن فلسطين

دراسات ومشاهدات

مدائن فلسطين

مدائن فلسطين

دراسات ومشاهدات

نبيل خالد الآغا

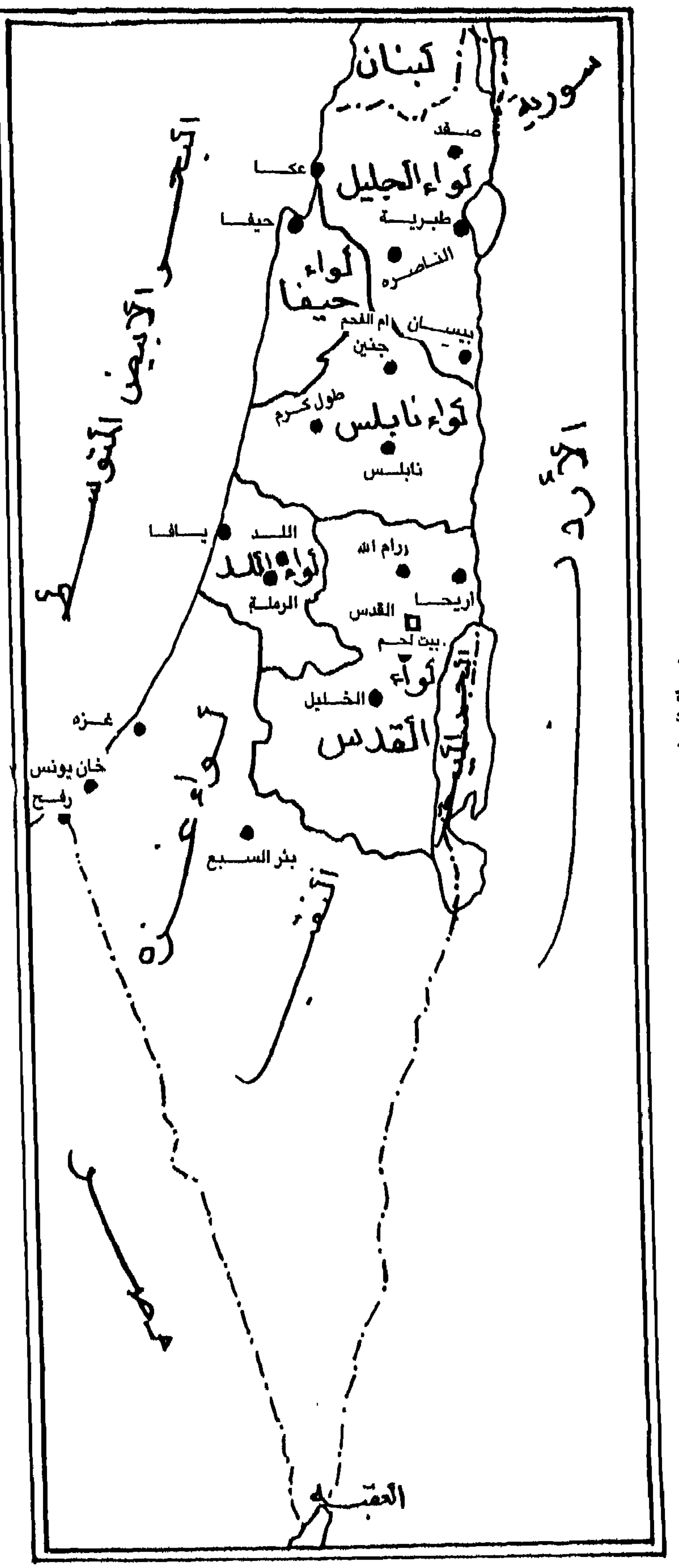


المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم
من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل
الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر
لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار
ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ،
وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب
وبشر المؤمنين

(قرآن کریم)



خريطة فلسطين

إهداء

إلى صديقي الأشهم وأستاذي الأكرم .. أكرم زعيتر

الرمز النابض لعطاء جيل الآباء، طهراً وجهاداً، وتضحيةً، وتفانياً بلا حدود.

وإلى أبنائي .. أسماء وخلدون وحمزة وسماح ومحمد

الرمز الحي لاغتراب الجيل الفلسطيني الجديد، وأملاً

في معرفة أكثر شمولاً لمفردات الوطن الأسير.

أبو خلدون

مقدمة

أعترف مقدماً أن أولى مواد الكتاب كانت مقالاً صحفياً مصوراً نشر في عدد شهر أكتوبر من عام ١٩٧٩م بمجلة «الدوحة» القطرية على أثر أول زيارة قمت بها إلى وطني المحتل «فلسطين»، بعد وقوعه أسيراً في فك الاحتلال الصهيوني البغيض في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م.

وبعدئذ تجسدت لديّ فكرة كتابة استطلاعات صحفية مصورة عن مدن فلسطين المحتلة حملت عنوان «وجه مدينة من فلسطين»، وتم نشر العديد منها في تلك المجلة الفكرية السامقة التي كنت أعمل يومئذ سكرتيراً لتحريرها وحتى احتجابها في أغسطس (آب) عام ١٩٨٦م.

ثم دأبت على نشر بقية الاستطلاعات في مجلة «أخبار الأسبوع» القطرية حتى تم اكتمالها بوصولها إلى ثنتين وعشرين مدينة.

والتقت رغبتي يومئذ برغبات أعداد وفيرة من الأصدقاء والقراء لإصدارها في كتاب مستقل يكون مرجعاً في مادته، وهأنذا أضعه بين أيدي القراء. آملاً أن يجد لديهم حسن القبول، وقد حاولت جهدي أن يكون في أجمل هيئة، وأفضل صورة، وعندما كنت أنسج خيوطه كانت ملامح الأجيال الفلسطينية المتتالية تتوهج في مخيلتي، وبخاصة أجيال الاغتراب والشتات التي لم تعرف عن وطننا المغتصب إلا النزر اليسير من المعلومات، فما بالنا بباقي الأجيال العربية والإسلامية بل والإنسانية؟!!

ولقد أردت من وراء هذا العمل أيضاً أن يكون نوعاً من التواصل الايجابي مع

كل من سمع بفلسطين أو اعتمرها أو أسكنها في وجدانه سواء أكان هذا التواصل عربياً أو إسلامياً أو إنسانياً، وهنا تلمع أمامي مقولة المجاهد المغربي أحمد بن سوده «. . . وها هي الأيام تثبت أن تحرير فلسطين يمر عبر تحرير الإنسان العربي من مشاعر الإقليمية والقُطْرية ومعانقة النضال الفلسطيني ليقظة الوجدان الإسلامي وصحوة الضمير الإنساني».

وفي اطار وضع النقاط على الحروف فيما يتعلق بمادة هذا الكتاب أود الإشارة إلى الآتي:

أولاً: ما برحت أشعر بالأسى الممتزج بالأسف لعدم استطاعتي زيارة كافة مدائننا الفلسطينية الغالية أثناء زيارتي القصيرة التي لم تتعدّ الأسبوعين وكانت سبباً مباشراً في اصدار هذا الكتاب، وقد حاولت ألا ينعكس الوضع سلباً في التغطية المتوخاة عن تلك المدن.

وإذا لوحظ تباين في مساحة المعلومات المقدمة عن بعض المدن، فذلك عائد إلى مدى فعالياتها التاريخية من جانب، وإلى مدى توافر معلوماتها ومصادرها عندي من جانب آخر.

ثانياً: برغم السعي الدؤوب والعمل الحثيث، فهناك قصور في إضافة المزيد من أسماء العائلات والشخصيات المنتسبة إلى المدائن الفلسطينية بشكل عام، ولكنه جهد المقلّ الذي يعترف بقصوره وإقلاله مقارنة بآماله وطموحاته في الوفاء للماضي، والتخليد للحاضر، والعبرة للمستقبل.

ولعلّ طول مدة إقامتي في دولة قطر، ومن قبلها الجمهورية العربية الليبية، بعيداً عن كثافة التجمعات وزخم المعلومات الفلسطينية الرافدة لمادة الكتاب، كانت سبباً في هذا النقص، إضافة إلى قلة المراجع في بعض النواحي.

وأود التأكيد هنا على أن أي تقصير عن تسجيل أسماء بعض الشخصيات لا يعدو أن يكون سهواً، وغمطاً غير متعمد لجنود نبلاء قاموا بأداء أدوارهم المنوطة بهم على مسرح الحياة الإنسانية.

وأستطيع أن أقول بكل ثقة وتجرد وتواضع، أنني طرقت كثيراً من الأبواب ذات العلاقة المباشرة بالقضية الفلسطينية طمعاً في الحصول على مزيد من المعلومات

والتفاصيل، وبخاصة عن الشخصيات البارزة المتوفاة، فسمعت جعجعة، ونلت وعوداً، لكنني لم أر طِحْناً!!

ثالثاً: ليسامح الله أولئك الذين بلغ بهم الظن حد الإثم، لتقوّلهم بما لم يخطر لي ببال فيما يتعلق بتسجيل بعض أبرز العائلات ضمن التعريف بالمدن!

ويعلم الله تبارك وتعالى أنني ما فضلت مدينة على أخرى، ولا ميّزت عائلة على سواها، ولا حابيت شخصية على حساب شخصية ثانية، بل كان الحق رائدي، والعدل منهاجي، أو هكذا انتويت وسعيت، وإذا كنت قد أعطيت مدائننا أبعاض حقوقها، وشخصياتنا بعض حقوقها، فأتمنى على الله تعالى أن يهبني العزم والقدرة على إعطاء هذه الشموع مزيداً من حقوقها المستحقة علينا، وذلك في الكتاب القادم الذي سيحمل عنوان «وجوه فلسطينية خالدة»، والذي أحتاج فيه إلى مساعدة كل من لهم علاقة ما بتلك الوجوه النيّرة التي سطعت في الحياة الدنيا، ثم أفَلَتْ فاستقرت في الحياة الأبدية الخالدة.

رابعاً: إن تسجيل أسماء بعض العائلات ضمن العرض العام للمدن، لا يعني إعلاء لشأنها، وبالمقابل فإن السهو عن تسجيل بعض العائلات لا يعني أبداً إنقاصاً من قدرها، فالأمران مرتبطان بجهد شخصي بشري محدود لا يصل البتة درجة قريبة من الكمال، وكذا الحال بالنسبة لذكر أو عدم ذكر شخصيات بارزة.

وليرحم الله العماد الأصفهاني المعبر بصدق عن واقع الحال بقوله: «إنّي رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلّا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُسْتَحْسَن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

وبهذه المناسبة فإنني أناشد كافة المهتمين بالشؤون الفلسطينية أن يكتبوا مصححين أية غلطة من الأغاليط، أو يكتبوا مضيفين أية معلومة من المعلومات ربما أكون سهوت عنها أو جهلتها، وَوَعْدٌ أن تكون ملاحظاتهم الايجابية محل اهتمام في الطبعة التالية لهذا الكتاب إن شاء الله.

خامساً: لم يُراع أي ترتيب في تسجيل أسماء العائلات، بينما روعي النظام التصاعدي لسنوات الوفاة بالنسبة لتسجيل الشخصيات مع وجود بعض الاستثناءات التي أملتها الضرورة.

ويلاحظ كرام القراء وجود سنتي الميلاد والوفاة لدى البعض، وخلو إحدى السنتين أو كلتيهما لدى البعض الآخر، وهذا الأمر متعلق كلية بعدم توافر المعلومات وليس لاعتبار آخر.

أدعو الله تبارك وتعالى أن يتقبل هذا العمل المتواضع، وأن ينفع به البلاد والعباد، انه نعم المجيب، «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقة لنا به، واعفُ عنا، واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل».

الدوحة: رجب ١٤١٣ هـ

يناير ١٩٩٣ م

المؤلف

أيام بين الأهل والأعداء[1]

لم أكن قبيل تلك الأمسية الهادئة في عَمّان ـ صيف عام ١٩٧٩ ـ قد فكَّرت جدِّياً في زيارة أهلي ووطني الفلسطيني المحتل، وذلك برغم مرور إثني عشر عاماً على آخر رؤية رأيتها لتلك الديار الحبيبة، وبالتحديد منذ الهزيمة العربية الثانية عام ١٩٦٧ م. فلقد قررت يومذاك ألا تطأ قدماي ثرى الـوطن ما دام أسيـراً في قبضة الصهاينة، اللهم إلا إذا كان ذلك ضمن خطة عربية موحدة لتحريره وإنقاذه!!

لكنني أخيراً وُضِعْتُ في الزاوية الحادة، حين تسلمت من الـوالدة الكـريمة رسالة نابضة يقطر منها الحنين والشوق تتوسلني أن أحقق أمنيتها في رؤيتي وأسرتي إلى جانبها قبل أن يقضي الله بشأنها أمراً كان محتوماً. وأرفقت بالرسالـة تصريحـاً رسمياً من الحاكم العسكري الصهيوني لقطاع غزة يسمح لي بالزيارة!!

والحقيقة أنني كنت شغوفاً ملهوفاً لهذه الزيارة لكن كانت هناك بعض الكوابح في تنفيذها.

أولهـا: كراهيتي الـلامحدودة لـرؤيـة العلم اليهـودي وهـو مـرتفـع على روابي فلسطين.. وطني، وحبي الأكبر.

ثانيها: كراهيتي اللامحدودة أيضاً لرؤية السِّحَن العبرية المختلفة وهي تسرح وتمرح وتعربد في بلاد ليست بلادها، وفي جنة ليست جنتها!

---

(١) نشر هذا الموضوع في حينه كاستطلاع مصور وملون بمجلة الدوحة القطرية في عددها رقم ٤٦ ـ أكتوبر ١٩٧٩.

ثالثها: شعوري بالخوف. . أجل خوفي من غدر اليهود المعهود الذي لازمهم مذ وجدوا، وعرفه التاريخ كواحد من أخس طبائعهم وأحقرها.

وأخذت أحاور نفسي وأناقشها، تارة اقنعها بالسفر، وتارة أخرى أقنعها بعدم السفر. وبقيت على هذه الحالة الحائرة ثلاثة أيام بين مدٍّ يدفعني، وجَزْر يحسرني، وطلبت خلالها مشورة بعض من زاروا الأرض المحتلة، فاختلفت آراؤهم، وتباينت نظراتهم، إلا أن الأغلبية أكدت بأن إصدار اليهود لتصريح الزيارة معناه أن صحيفة سوابقي لديهم بيضاء، ولا ضير يضيرني منهم إن شاء الله!

أما بالنسبة لما كتبته عنهم من مقالات ودراسات فهم لا يقيمون ـ عادة ـ وزنا لما يقال أو يكتب إلا بالقدر الذي يرتئونه في صالحهم لأن الفي قذيفة من كلام لا تساوي عندهم قذيفة من حديد!

وأخيراً. . قررت حسم هذا الموضوع الذي أرقني، وقررت تلبية استغاثة أمي متكلاً على ربي.

حملت حقيبة صغيرة في يدي، واتجهت غرباً إلى مدينة «الشونة» الأردنية فوصلتها صبيحة يوم تموزي حار من عام ١٩٧٩ م. وبعد ساعتين من الاجراءات وجدت نفسي «مضغوطاً» في ممر إحدى الحافلات القديمة متوجهاً إلى جسر «الملك حسين»، وهناك وجدنا أمامنا أربع حافلات تنتظر إذناً لعبورها نهر الأردن من السلطات العبرية!

اتجهت ببصري إلى نهاية الجسر الخشبي الذي لا يزيد طوله على مائة متر. . يا الله. . ما الذي أرى أمامي؟ إنه هناك منتصب على السارية، السارية ليست مغروسة في أحشاء وطني، إنها مغروسة في أفئدة نحو مائتي مليون من العرب، ونحو ألف مليون من المسلمين. . إنه هو. . ذلك العلم الأزرق الذي تتربع وسطه نجمة داود السداسية الأضلاع. . وحَلَّقْتُ بعيداً بأفكاري وهواجسي وهمومي. .

استحضرت من قواميس العربية ظروف الزمان والمكان، وأفعال الماضي والمضارع والأمر، وكل أدوات التمني والترجي والندبة والندم!!

ومر وقت لم أدرك مداه، وإذ بنا أمام البوابة الصهيونية الرئيسة. أحد أعداء أمتي يتفحص تصاريح السفر، ثم يأمر سائق الحافلة بمواصلة المسير، إحدى السيدات

الفلسطينيات المسنات تنظر باشمئزاز إلى بعض الثكنات العسكرية الصهيونية المتناثرة على جانبي الطريق وتقول بصوت خفيض: أدعو الله أن يكسر جاهكم، ويحطم قوتكم، ويذلكم كما ذللتمونا، ويشردكم كما شردتمونا.

أحد المواطنين العرب يهمس في أذني: سقى الله أيام زمان.. قبل عام سبعة وستين. لقد كنت أعمل سائقاً بين القدس وعمان، ولم تكن المسافة تستغرق مني أكثر من ساعتين، بلا حدود وبلا يهود، فسبحان مغير الأحوال. أدعو الله أن ينتقم من أولاد الحرام!

وصلنا مبنى الجوازات والجمارك، وبعد انتهاء التدقيق في تصاريح الدخول دلفنا إلى قاعة التفتيش الذاتي، وإذا أردنا الانصاف لقلنا بأنها «قاعة الذل والهوان»، حيث توجد فيها مجموعات من الجنود الصهاينة مهمتهم تفتيش كل مسافر على حدة في «كبائن» معدة خصيصاً لهذا الغرض.

أغلق أحد الجنود باب «الكابينة»، ثم أمرني أن أخلع عن جسمي كل إضافة بشرية أضيفت إليه بعد ولادتي ابتداء من النظارة، ومروراً بالبنطال، وانتهاء بالجوارب، عدا ورقة التين!! ثم تناول جهازاً صغيراً وأخذ يمرره على كل خلية من جسمي، والله وحده العالم بمدى غيظي وضيقي في تلك البرهة. لكنني كظمت انفعالاتي ولذت بالصمت والتسبيح سراً، وربما أثار ذلك ريبته، فأمرني بفتح فمي، وأدخل فيه جزءاً من الجهاز، ولما تأكدت لديه براءتي أشار عليَّ بارتداء ملابسي، ثم اتجهت إلى غرفة مجاورة في انتظار حذائي الشقي الذي أخذوه للفحص الآلي!

هل أترجم مشاعري خلال تلك اللحظات؟ لن أستطيع، لكنني شعرت بأنها اللحظة الوحيدة في حياتي التي تمنيت فيها ألا تكون أمي قد ولدتني كي لا أشهد هذا الموقف المهين الذليل!! وأخذت أحدث نفسي: إن موقفاً كهذا يرغمنا أن ننحني خشوعاً لكل فدائي فلسطيني يشارك في عملية عسكرية حتى ولو فشلت!

همس خفي في أعماقي يقول: لا بد لليهود أن يفعلوا ذلك، ولو لم يفعلوا لما استقروا في بلادنا منذ عشرات السنين وحتى يأذن الله تعالى بالتحرير. وأخذت اتلو قوله جل جلاله في سورة الحشر: ﴿لأنتم أشد رهبةً في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

تم التدقيق في حقائبنا بأكثر من الدقة ذاتها، ثم ركبنا سيارة يقودها شاب فلسطيني من سكان مدينتي الحبيبة خان يونس. وبعد نصف ساعة مررنا بمدينة أريحا التاريخية التي تعتبر من أقدم مدن العالم وأكثرها انخفاضاً عن مستوى سطح البحر والبالغ ٢٥٠ متراً. وهي أول مدينة فلسطينية شهدت أولى الغزوات اليهودية بقيادة يشوع بعد وفاة نبي الله موسى عليه السلام.

ها نحن على قمة جبل الزيتون، وذاك جانب من سور الحرم القدسي، وتلك مآذن، وكنائس، وشواهد كثيرة، ومبان أثرية لا تحصى بسهولة..

أما قبة الصخرة فهي تبدو في منظر ساحر أخاذ حيث تنعكس عليها أشعة الشمس وكأنها تودعها قبل ساعات من الرحيل اليومي السرمدي فتتلألأ صورتها البهية في حدقات العيون الناعسة فتبعث فيها النشوة والحبور. ولقد بحثت عن النشوة في عيني فوجدتها دموعاً ساخنة يزفر بها فؤادي.. وسرحت بخواطري بعيداً.. بعيداً.. ثم استيقظت على صوت العقل يصيح في أعماقي: ما هكذا القدس تعود يا رجل، حتى ولو ابيضت كل عيون المسلمين من الأسى والحزن!

وتذكرت موقفاً مشابهاً لقاضي الطور مجد الدين بن محمد بن عبد الله حسين حين زار القدس عام ١٢٢٨م فأنشد يقول:

مَرَرْتُ على القدس الشريف مُسَلِّماً ... على ما تبقَّى من ربوع كأنجم
ففاضَتْ دموعُ العينِ منّي صبابَةً ... على ما مضَى من عصره المتقدِّم
وقد رام «عِلْجٌ» أن تُعَفَّى رسومه ... وشَمَّر عن كفَّيْ لئيم مُذمَّم
فقلت له شُلّت يمينُك خَلِّها ... لمعتبر أو سائل أو مُسَلِّم
فلو كان يُفدى بالنفوس فديته ... بنفسي، وهذا الظن في كل مُسْلم

أنهضت رأسي قليلاً، وعدت أتلمس واقعنا المرير، وابتهلت إلى الله في خشوع وضراعة قائلاً: رباه.. لقد فتحها خليفتنا عمر، وحررها قائدنا صلاح الدين، وأضاعها بالأمس تخاذلنا وهواننا، فمن لها اليوم؟ أنت لها وحدك يا رباه.. ولا أحد سواك.

تخطينا القدس العتيقة، سائق السيارة وقد عرف إنني أهبطها للمرة الأولى - قال: ألا ترى تلك القلاع والمباني الضخمة المنسقة التي تشبه قوس قزح؟ إنه حزام

المستعمرات اليهودية يلتف حول خاصرة القدس. وهذه الطريق على يسارنا تؤدي إلى دير ياسين وما أدراك ما دير ياسين!

ألا ترى هذه المصفحات القديمة التي تعانق سفح الجبل؟ إنها نفس المصفحات اليهودية التي أعطبتها قوات الجهاد المقدس بقيادة البطل عبد القادر الحسيني في معركة القسطل الشهيرة في الثامن من أبريل عام ١٩٤٨.

إن اليهود يحرصون على تخليد المعارك الشهيرة التي خاضوها. ففي الطريق إلى اللد أقاموا مصطبة حجرية ووضعوا عليها أول دبابة مصرية غنموها في حرب حزيران عام ١٩٦٧م.

وفي إحدى المنعطفات الجبلية المؤدية إلى قرية الكابري بشمال فلسطين أقام اليهود معرضاً صغيراً يحتوي على صور وأسلحة ومخلفات حربية لنحو خمسين جندياً يهودياً لقوا مصرعهم في نفس المكان حين انقضت عليهم مجموعات من الفدائيين الفلسطينيين. ودمرت الشاحنات الثلاث التي كانت تقلهم أثناء الحرب العربية ـ اليهودية الأولى.

لقد قطعنا ساعتين من الوقت، وها نحن على مشارف مدينتنا الغالية، قلت للسائق أهذه خان يونس؟ قال:

أجل، وتلك قلعة الملك برقوق!

. . . ولأنها قد تغيرت معالمها، ولأنني قد غبت عنها طوال هذه المدة، ولأن منازلها مرقمة ترقيماً عبرياً فلقد فوجئت تماماً حين أوقف السائق سيارته وقال لي: تفضل! حمداً لله على سلامتك، قلت له: إلى أين؟ قال: إلى بيتكم!

وأين هو؟ إنه ذاك. قلت له أرجوك لا تتركني، إنه ليس بيتنا! وأُسقط في يده! وأخذ يشير بيده ليعرفني على الجهات الأصلية الأربع، ووجدتني مصاباً بصداع عنيف شهد الله أنني ما أدركت كعنفه منذ حييت.

أحد أقربائي المسنين كان ماراً بالصدفة فعرفني وعرفته، فتشابكت أيدينا وأذرعنا وعبراتنا وقادني إلى البيت. هأنذا أتخطى عتبات بيتنا، أمي الحبيبة واقفة على بعد خطوات فاتحة ذراعيها، مهللة بمقدمي، وقبيل أن أصافحها خانتها قواها فهبطت

أرضاً[1].. إنها تبكي، وكل من حولنا يبكي.. إنه لمشهد مأساوي تنفطر له أقسى القلوب.. إلا قلوب اليهود!

زحفتُ ألثم أرضي وهي باكيةٌ ... والقلبُ باكٍ وراحت تنتشي القُبَلُ
أهلي على الدار تُدْميني جراحهم ... في حبّهم يتساوى العذرُ والعذَلُ

مكثت في البيت ثلاثة أيام لم أبرحه، التقيت خلالها بالأهل والأقارب والأصدقاء الذين أتوا للسلام وللتهنئة. ولقد تعرفت على شباب من أبناء عمومتي وخئولتي وعشيرتي، منهم من كنت رأيته رضيعاً، ومنهم من كنت أعرفه طفلاً، ومنهم من لم أكن أعرفه ولم أعلم بوجوده على الأرض من قبل! وكذلك علمت بموت الكثيرين، ومرض البعض، وهجرة واعتقال آخرين.

وفي اليوم الرابع ـ وقد صادف اليوم الثاني من شهر رمضان المبارك ـ عزمت أن أجوب بعض المدن الرئيسة الفلسطينية التي سمعت عنها وعشقتها دون أن أراها، ولم تكد تنتهي أيام زيارتي لفلسطين المحتلة حتى كنت قد زرت أغلبيتها. وسأسجل هنا بعض المشاهد والمواقف العابرة التي صادفتني في بعض المدن، تاركاً استنباط مغازيها لحصافة القارىء الكريم، وليعذرني إن اضطررت لحجب بعض الأمور عنه لست بمستطيع نشرها!

لقاء في يافا

●● خلال زيارتنا لمدينة يافا الساحرة الجمال كنت حريصاً على رؤية الحي العربي فيها. ولما انتهيت من زيارته لاحظت وضعاً غريباً فيه، فالمناطق العربية بشكل عام ما زالت باقية على صورتها القديمة منذ الهزيمة العربية الأولى عام ١٩٤٨. الشوارع ضيقة ومتسخة، والمحال التجارية شبه مهملة، والمنازل متصدعة، بينما المناطق المأهولة بالسكان اليهود عكس ذلك تماماً. فما هو الهدف؟ أغلب الظن أن الهدف دعائي بحت، حتى يرى السائح بأم عينيه الفارق الشاسع بين «تأخر» العرب، و«تحضر» اليهود!

وقد التقيت أحد المواطنين العرب في مقهى، وبعد أن اطمئن لي سرد الكثير من معاناتهم تحت الحكم الصهيوني، ومن جملة أقواله قوله: لحظتان لا أنساهما ما حييت، أولاهما حدثت عندما أوشكت يافا على السقوط، ووسط لهيب المعارك

(١) توفاها الله تعالى بعد هذا اللقاء بنحو خمسة أعوام.

المحتدمة فقدت اتصالي بأهلي، فلجأت إلى بيت عمتي، وبعد توقيع اتفاقية الهدنة علمت عن طريق الاذاعة بأنهم قد وصلوا إلى غزة بحراً، فلم أستطع اللحاق بهم وبقيت هنا. وقد التقيتهم بعد حرب حزيران.. بعد تسعة عشر عاما من الفراق. لقد استطاعت اسرائيل أن تحقق الهدف الذي لم تستطع كل الدول العربية مجتمعة أن تحققه.. هدف وحدة فلسطين.. ولكن تحت الراية الصهيونية! ورغم ذلك فلم تسمح لي «الديمقراطية اليهودية» أن التحق بأهلي في غزة، ولم تسمح لهم كذلك بأن يلتحقوا بي في يافا! أما اللحظة الثانية فقد حدثت عشية حرب رمضان في السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ حينما أتت ثلاث عائلات يهودية إلى بيتنا لتحتمي من الجنود العرب الذين سيحتلون اسرائيل! وبعد انتهاء الحرب أخذوا يشتموننا ويشمتون فينا!

تركنا «عادل» بهمومه وأحزانه، وذهبنا لتناول طعام الافطار الرمضاني في أحد المطاعم العربية المواجه للشاطىء، ثم توجهنا لصلاة المغرب في «مسجد يافا الكبير» الذي تحرص الاذاعة الصهيونية بالعربية أن تنقل منه وقائع صلاة بعض أيام الجُمع، فوجدناه موصداً بقفل حديدي قديم، ولما سألنا صبياً عربياً عن سبب قفله أخبرنا بأن المسجد لا يُفتح للصلاة إلا يوم الجمعة فقط!

مشاهد من حيفا

لولا ثقتي بأن هذا هو جبل الكرمل، وبأن هذا الذي أمامي هو خليج عكا لما صَدَّقْتُ بأنني موجود في حيفا ذاتها!

لقد استغل اليهود جمالها الطبيعي الفتّان الذي أسبغه الله عليها، وأضافوا عليه العلم والفن والهندسة.. واللغة العبرية، ولا يمكنك إزاء كل هذا إلا أن تشعر بغربتك التامة فيها، وبأنك موجود في مدينة ليست محددة على خارطة المنطقة العربية!

لقد كنت مهتماً بالتمعن في قسمات وجوه اليهود الذين تكتظ بهم حيفا، خليط عجيب من البشر، لا تناسق في أشكالهم، ولا تآلف في سحنهم، ولا توافق في ألوانهم.. شيء واحد فقط يضمهم تحت لوائه: الصهيونية!!

عندما حان وقت صلاة الظهر، بحثنا على مسجد فلم نجد، ذهبت إلى شرطي يهودي وقلت له بالإنجليزية: أنا عربي مسلم، أبحث عن مسجد لأصلي فيه، فهل لك أن ترشدني؟ لم يفهم مقولتي، تحادث بالعبرية مع مجندة يهودية برتبة «عريف»

التفتت لي وقالت بالإنجليزية: إن زميلي لا يتحدث إلا العبرية. ماذا تريد؟ كررت عليها السؤال فأجابتني: لقد فهمت ما تريد، ولكنني لا أعلم مكان وجود أي مسجد، فاستعانت بأحد أصحاب المحلات التجارية، فوصف لنا مكان وجود مسجد ما، فوصلناه بعد عناء ومشقة، فماذا رأينا؟ نوافذ محطمة، مغطاة بقطع من القماش الممزق، وحصير بال، ودورات مياه قذرة، وبضعة أحجار مكومة قيل لنا إنها المنبر، وثلاثة رجال بين نائم وهائم وقائم يصلي، ظللت أتمحك في أحدهم فعرفته بنفسي، فأخذ يحدثني عن مآسيهم التي يعيشونها صباح مساء. ومنذ أكثر من ثلاثين عاماً خلت. من الحكم العسكري، إلى الإداري، إلى إثبات الوجود، إلى محاولات تهجيرهم بعد تدمير منازلهم، وسكناهم ـ منذ سنوات ـ فوق أنقاضها.. وحكايات أخرى كثيرة تبرهن مدى الظلم الذي وقع على السكان العرب منذ هزيمة عام ١٩٤٨.

انضم إلينا رجل ثان، وأخبرنا أنه مقيم حالياً في الناصرة، وسرد على مسامعنا نماذج من وقائع حياتهم، وقد خلص إلى القول بأن اليهود يخشون انتقال المشاعر القومية من الضفة الغربية وقطاع غزة إلى الجليل، وإثارة هذا المشاعر من جديد.

وقد ربطت ـ فيما بعد ـ حديث الرجل بحديث الميجور جنرال أفيغدور بن غال قائد المنطقة الشمالية في فلسطين المحتلة في حديث له إلى إذاعة العدو قال فيه: «إن النصف مليون عربي من الجليل ينتظرون فرصة للاطباق علينا وخنقنا، إنهم يزدادون تشبعاً بروح النضال والقومية، وإنهم يشكلون سرطاناً في جسم اسرائيل».. ولا نامت أعين الجبناء!!

عكا. وقبعة نابليون

أثناء وقوفنا على سور عكا العظيم التقيت بثلة من الشباب العربي يتحدثون بلهجة الشمال الفلسطيني، واعترتني رعشة من الحنين والأسى، فانفردت بأحدهم وأخذت أحاوره فقال مجيباً عن أسئلتي: إسمي عماد الدين، ولدت في عكا عام ١٩٦١م، يوجد مدرستان عربيتان فقط في المدينة، إحداهما ابتدائية، والأخرى إعدادية، وأنهيت دراستهما، وأعمل حالياً في مصنع يهودي لتعبئة السردين، لي أربعة أخوة وأربع أخوات، عشنا حياة مضنية، وكان أبي حريصاً على تربيتنا دينياً وقومياً برغم بؤسه وشقائه(!)، ومشهود له بأنه أكبر متابع لنشرات الأخبار لأكثر من عشرين عاماً، لكنه أصيب بصدمة نفسية عنيفة عشية هزيمة حزيران، فأخذ يهذي ويشتم

ويلعن. . وبعد شهر واحد منذ ذلك اليوم الأسود أصيب بشلل نصفي ألزمه الفراش، وما زلنا نعاني من آثار رقوده، واعذرني إذا قلت لك إننا نتمنى موته اليوم قبل الغد حتى يستريح ويريح

نحن مؤمنون وواثقون بنصر الله، وصامدون صمود مدينتنا العريقة التي حطمت غرور نابليون عندما حاصرها لعدة شهور ولم ينلها، وعندما ملَّ من حصارها ويئس من فتحها قذف قبعته فوق سورها الشاهق قائلاً: يكفي إن قبعة نابليون دخلتك يا عكا!

اليهود ـ بشكل عام ـ لا يكترثون بالكلام، نشتمهم ونلعن أكبر شخصية فيهم، فلا يكترثون أبداً، هناك نوع واحد من الكلام لا يقبلون به ولا يسكتون عنه. . إنه القدح في ديانتهم اليهودية!

إنني أكره السياسة، ولا اتعاطاها، أو أتعامل معها، أبحث عن لقمة العيش فقط. وإذا كان لا بد من الحديث فيها فأرجو من إخواننا العرب أن يضعونا في ذاكرتهم، وأن يذكرونا كما يذكرون أخوتنا في الضفة الغربية وقطاع غزة!

حوار عابر مع يهودي

بئر السبع. . عاصمة النقب، ودرة صحراء فلسطين، ذهبنا إليها في إحدى الأمسيات الرمضانية، لها عدة مداخل كأغلبية المدن والقرى الفلسطينية، فاليهود حريصون على ربطها بشبكة ضخمة من الطرق. . هكذا أراد الخبراء العسكريون.

تحاورت مع أحد المزينين اليهود فقال: أنا مغربي من الرباط، وصلت إلى البلاد قبل واحد وعشرين عاماً، أولادي لا يتكلمون العربية، أمهم يهودية من أصل نمساوي، هي أيضاً لا تتحدث العربية، أنا فقط أتكلمها بطلاقة كما ترى، ولم أنسها لأن أغلب زبائني من البدو الذين يفدون إلى بئر السبع خاصة يوم السوق الكبير، ألا تود أن أزين لك شعرك أو لأحد أصدقائك؟ رد عليه أحدنا مداعباً: لست مجنوناً كي أطأطيء رأسي ليهودي، وأُسلمه رقبتي بسهولة! من الذي يضمن لي أنك لن تذبحني؟

وهنا ضغطت بخفية على يد صديقي، فلم أشأ لهذه المحادثة أن تتطور أبعد من هذا الحد!

جولة في نتانيا

أثناء تجوالنا في منتجع نتانيا على شاطىء المتوسط بالقرب من تل أبيب استوقفنا حارس يهودي في الخمسين من عمره، طلب منا أن نطلعه على بطاقاتنا الشخصية، فقال له أحد الزملاء مداعباً: أضروري ذلك؟ أجابه الحارس بعربية ركيكة: يا حبيبي . . إذا لم نحافظ على «أمن اسرائيل» دمرنا «المخربون» «يعني بهم الفدائيون»، ففي الشهر الماضي ارتشى أحد اليهود بمبلغ خمسين الف ليرة مقابل بيعه لثلاثة كيلو جرامات من الديناميت لأحد العرب، وقد استطعت أن أحبط المحاولة بمجهودي الفردي، وحصلت على مكافأة من مديري، إن الأسرائيليين لم ينسوا ـ بعد ـ عملية «المخربة» دلال المغربي!

وأستأنفنا تجوالنا على الشاطىء الفتّان وبينما نحن نتأمل ونتحسر اقتربت منا فتاة يهودية ترتدي «المايوه» وأخرجت من ثناياه بطاقتها الشخصية وعرضتها علينا قائلة: أنا عضو في شرطة «اسرائيل» وهذه بطاقتي، فأروني بطاقاتكم، ففعلنا، ومضينا في طريقنا، ولكن بعد أمتار قليلة جاء شرطي آخر وطلب أن نطلعه أيضاً على بطاقاتنا، ثم سألنا عن آلة التصوير التي نحملها، بل أصر على أن نفتحها له ليتأكد من عدم وجود متفجرات بداخلها، فأفهمناه إن ذلك يعني خراب «الفيلم»، وأقسمنا له بأغلظ الأيمان بأنها خالية مما يظن ثم تركنا وانصرف، فقلت للزملاء؛ أرجوكم هيا بنا نغادر هذا المكان قبل أن يحاسبوننا على نوايانا!!

الجدير بالذكر أن بلدة نتانيا الاستيطانية أقيمت على أنقاض قرية أم خالد العربية.

العروة الوثقى

حدثني أحد العمال العرب من العاملين في المشاريع اليهودية في قلب فلسطين المحتلة فقال: أعلم بأن الكثيرين منكم ـ أيها المغتربون ـ عاتبون علينا لأننا نعمل مع أعدائنا، ولكن ماذا نفعل لو لم نعمل معهم؟ إفترض نفسك مكاني فكيف ستتصرف لو كان ابنك مريضاً ولا تملك أن توفر له الدواء؟ ماذا لو جاع أولادك؟ ماذا لو بليت ملابسهم؟ ماذا لو احتاج بيتك لضرورة من ضرورات الحياة؟ هناك مائة «لو» أستطيع سردها عليك، كيف ستتصرف والسلع والحاجيات كما ترى، بنزين ونار، الغلاء يحرق أطرافنا ونحن صاغرون للاحتراق حفاظاً على رمق الحياة.

ولله در نزار قباني إذ يقول:

يـا من يُعـاتِبُ مَـذْبـوحـاً على دَمِـه ... ونَـزْفِ شِـريـانـه مـا أسهـلَ العَتَبـا
مَنْ جَـرَّبَ الكيَّ لا ينسى مـواجعَـه ... ومَن رأى السُّمَّ لا يشقى كمن شـربـا
حَبْـل الفجيعـة ملتفٌّ على عـنقـي ... مَنْ ذا يعـاتبُ مشنـوقـا إذا اضـطربـا!

إن مشكلتنا - يا أخي - ليست فردية، بـل جماعيـة، وهناك أكثر من خمسة وسبعين ألف عامل عربي يعملون في المشاريع اليهودية المختلفة (١٩٧٩م) مثل الطرقات، والمصانع والمستوطنات، والمزارع، نحن بحاجة إلى قروش اليهـود، واليهود بحاجة إلى سواعدنا. إن الفرق كبير بين ما تسمعونه في الاذاعات، أو تقرأونه في الصحف، وبين ما نعايشه ونعانيه. إننا واقعون فعلاً بين المطرقة والسندان. العدو محكم قبضته على مقدراتنا، ونواجذه منغرزة في لحومنا وحلوقنا فماذا نفعل؟! قل لي - بربك - أيها الأخ المغترب هل ما زال في العرب من يتصور بأن اسرائيل «دويلة» ضعيفة وذنب للاستعمار؟ لا يا أخي أرجوك أن تبلغ هذه الفئة بأن اسرائيل أكبر من ذلك بكثير، وهي تمتلك قنابل نووية في ديمونة، وتصدر السلاح لأكثر من ثلاثين دولة في العالم، ويجب على كل العرب أن يعيدوا حساباتهم من جديد، حسب المعطيات الجديدة، فكل يوم تشرق فيه الشمس على أعدائنا يزدادون فيه قوة وصلفاً، لكنهم في النهاية ليسوا القوة الخارقة التي لا تُقهر، بل هم مقهورون فعلاً ومنهزمون إن شاء الله إذا استمسكنا كلنا بالعروة الوثقى!

يا أخي.. أرى وجهك مربداً، فهل آلمتك الحقيقة، أجبته: ربما: قال: إذاً فلتعلم بأننا نتعايش والألم بثوانيه ودقائقه وأيامه، واللّه وحده العالم متى تنتهي هذه المعاناة. فإلى متى. أجل إلى متى؟!

لقاء مع مسؤول

السيد كامل خيري عمدة إحدى القرى في قطاع غزة المحتل، طلبت منه أن يحدثني باقتضاب عن أهم المشاكل المعيشية في ظروف الاحتلال فقال:

إن السلطات الاسرائيلية لم تقم بأية إضافات أو إصلاحات تذكر في المـدن والقرى الفلسطينية التي يسكنهاالعرب وبخاصة في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧م، مما يجعل هذه المناطق تبدو في صورة أقل ما توصف به إنها كالحة وكئيبة. هناك أمور

ملحة نحن بحاجة إليها كتعبيد الطرق، وإنارة الشوارع، وتنفيذ شبكات المجاري وخلافه، والبلديات عندنا محدودة الموارد، وأغلبية رؤسائها لا يحظون باحترام العدو مما يعرقل تسيير الأمور.

ثم هناك الضرائب الباهظة التي يجبرنا اليهود على دفعها لهم، هل تتصور بأننا ندفع ضريبة عن كل شجرة نزرعها حتى تلك التي نغرسها في حدائق منازلنا!

منذ بداية الاحتلال قاموا بإحصاء عدد الأشجار المغروسة في المزارع والمنازل، وإذا أردنا استئصال شجرة أو غرس أخرى فلا بد أن نخبرهم بذلك ليتم تسجيلها في سجلاتهم الخاصة، والآبار الارتوازية الموجودة في مزارعنا وضعوا لها عدادات حسابية، ومحظور علينا أن نتجاوز رقماً معيناً حددوه لنا!

والليرة الاسرائيلية ميتة، تافهة القيمة، ودائمة الانخفاض والتدني، ففي بداية الاحتلال كان الدينار الاردني يعادل عشر ليرات، أما اليوم (١٩٧٩) فهو يعادل تسعين ليرة، وما زالت النسبة تتدنى[١].

ثم هناك مصيبة المصائب المتمثلة في إفساد كثير من أبنائنا وشبابنا، فلم نعد نسيطر على سلوكهم، لقد أغرقهم الاحتلال في حمأة الانحلال، إنها خطة يهودية لئيمة تهدف إلى إفساد الشباب وتمييعهم، وإبعادهم عن الصراط المستقيم.. هناك المخدرات بأنواعها المختلفة، وحبوب الهلوسة، والأفلام الساقطة، إننا نطالب جميع إخواننا العرب ليقفوا بجانبنا، ولا يبتعدوا عنا، خاصة في هذه الظروف الحالكة السواد التي نواجه فيها أصعب المواقف، وأتعس الأوضاع.

أسبوعان من عمر الزمن قضيتهما بين الأهل والأعداء، ثم عدت إلى عمان.. وفي طريق العودة لم أشعر بوعثاء السفر، فلم أخضع، ولم تخضع حقائبي لأي تفتيش، وفي الدوحة.. تساءلت مراراً: هل أنا سعيد بهذه الزيارة أم غير سعيد؟ لست أدري؟!

---

(١) تم استبدال الليرة بالشاقل في أواسط الثمانينات، والشاقل يساوي (٢,٤) دولار (١٩٩٢). الجدير بالذكر أن الشاقل أو الشيكل عملة كنعانية معروفة في الدراسات التراثية والدينية، وقد سطت حكومة الارهابي «ميناحيم بيجن» على هذا التراث العربى ونسبته للتراث اليهودى!!

تعريفـــات

بهدف زيادة الوعي والمعرفة رأينا إضافة هـذه المعلومات المتعلقـة بالقضيـة الفلسطينية [1].

● الاسرائيلي. هو الانسان المنحدر من صلب اسرائيل، واسرائيل هو نفسه يعقوب بن إسحاق، ولكن هذه الكلمة تطلق على العبرانيين من غير أنسال يعقوب عليه السلام.

● العبراني: هو الانسان المنحدر من صلب إبراهيم أو إسحاق أو يعقوب، والتوراة تطلق على إبراهيم لفظ «العبراني»، وبناء على هذا المفهوم فهذه الكلمة تطلق على اليهود والاسرائيليين معاً، وقد تسمى العبرانيون بهذا الاسم لأنهم من أبناء عابر بن سام بن نوح كما يقول البعض، وعلى قول آخر إنهم دعوا كذلك لأنهم عبروا نهر الأردن.

● اليهودي : هو العبراني أو الاسرائيلي الذي كان تابعاً لمملكة يهوذا البائدة، ولكن استعمالها فيما بعد شمل الجميع.

● الصهيوني: هو المنتمي إلى الصهيونية، والصهيونية مشتقة من لفظ (صهيون) الذي ورد ذكره لأول مرة في التوراة، وتكرر ذكره بعد ذلك في الأسفار الدينية اليهودية. و«صهيون» في الأصل جبل يقع إلى الشرق من مدينة القدس، وقد ورد في التوراة أن النبي داوود انتزعه من «اليبوسيين العرب» الذين كانوا يسكنون فلسـطين قبل غـزو العبرانيين لها. وصهيون بحسب الادعاء اليهودي اسم آخر لمدينة (القدس).

ويتلخص مفهوم الصهيونية بمعناها الخاص في الاعتقاد بضرورة تكوين مجتمع يهودي يحكم نفسه بنفسـه في فلسطين، وتحقيق أمـل اليهود بـالعودة إلى الأرض

---

(١) اعتمدنا في كثير من هذه التعريفات على كتاب «الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ» للأستاذ جعفر الخليلي.

المقدسة. والصهيونية بمعناها العام هي حركة سياسية تستمد أصولها من الفكر الصهيوني النابع من عقائد التوراة وشرائع التلمود (الكتاب المقدس الثاني عندهم)، كما تستمد حيويتها من ارتباط الفكر الصهيوني بعقائد دينية وعنصرية ثابتة في أذهانهم.

● الديانة اليهودية: حرفها ـ فيما بعد ـ ذووها وأتباعها، اتخذها الصهاينة مطية لتحقيق مآربهم العنصرية والقومية، ونشر تعاليمهم الزائفة التي تفيد بأنهم شعب الله المختار، الذين اختصهم الله بمميزات عديدة ـ دون شعوب الأرض ـ وجعلهم أوصياء على باقي المخلوقات الآدمية!!

● لقد اتفق أهل العلم على أن نسخة «التوراة» الأصلية ـ أي التي نزلت على موسى عليه السلام ـ وكذلك نسخ العهد القديم ضاعت من أيدي جنود (بختنصر)، ولما فتح (أنثيوكس) ملك ملوك الافرنج (أورشليم) أحرق جميع نسخ العهد القديم، وأمر بقتل كل من توجد عنده نسخة منها، فوجدها اليهود فرصة لكتابة التوراة من جديد، فمسخوا توراة موسى مسخاً فظيعاً وكتبوها من جْديد، وملأوها بالأكاذيب التي بدأت تفضحها الاكتشافات الأثرية يوماً بعد يوم وتكذب جميع ما جاءت به التوراة[1]. إضافة إلى أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى تحريفات اليهود. قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فويلٌ للذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثم يَقولونَ هذا من عند اللهِ ليشْتَروا به ثَمَناً قليلاً، فويْلٌ لهم مما كَتَبَتْ أيديهم وَوَيْلٌ لهم مما يَكْسِبون﴾ الآية ٧٩.

● ابتدع اليهود في وضع «التوراة» فكرة دينية مؤداها أن الرب قد منح أرض كنعان ـ فلسطين ـ إلى إبراهيم وذريته!! لذلك فإن الرب بناء على هذا أمر بابادة الكنعانيين، واخراجهم بشيوخهم وأطفالهم ونسائهم من هذه الأرض وتمليكها (لبني اسرائيل) الذي نسب اليهود أنفسهم إليه. واعتبروه جدهم، وإنهم من سلالة الساميين العرب الذين هاجروا من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب.

● الدين اليهودي محصور (بالتوراة)، وهو العهد القديم. وقد وضع اليهود كتاب «التلمود» في القرن الثالث للميلاد كشرح لتعاليم اليهودية وشريعتها، وما لبث أن اكتسب قدسية التوراة!

● تنقسم التوراة إلى ثلاثة أقسام، ويتناول القسم الأول خمسة أسفار وهي:

---

(١) الصهيونية وربيبتها اسرائيل ـ عمر رشدي ـ ١٩٦٥م، وكذلك المركز القانوني لمدينة القدس د. سالم الكسواني ـ ١٩٧٨م.

الأول: سفر التكوين ويتضمن شرحاً لبداية الخليقة، ولليهود أنفسهم كشعب مختار.

الثاني: سفر الخروج: ويتناول خروج اليهود من مصر إلى سيناء تحت قيادة نبيهم موسى عليه السلام.

الثالث: سفر اللاويين، نسبة إلى لاوي بن يعقوب، ويتضمن طقوس العبادة لدى اليهود.

الرابع: سفر العدد ويهتم بصورة خاصة بتعداد فروع الشعب المختار.

الخامس: سفر التثنية، وهو بمثابة التتمة لشريعة موسى.

أما القسم الثاني من التوراة فيدعى قسم الأنبياء، والثالث يهتم بالأشعار.

● التلمود: كلمة عبرية تعني «التعاليم» أو التفاسير، وهو كتاب يجمع تعاليم وشروح على نصوص التوراة، واليهود ينسبون محتواه إلى موسى، ويدعون أنه ألقاها شفاهاً على قومه، ونقلها عنه «هارون» و«اليعازر» و«يشوع» وسلموها للأنبياء، ثم انتقلت منهم إلى المجمع العلمي (السنهدرين).

والتلمود عند اليهود كتاب سماوي مقدس كالتوراة تماماً، ولكن الفرق بينهما هو أن التوراة نزلت مكتوبة على موسى، أما التلمود فنزل على لسانه مشافهة. والتلمود في نظر اليهودية هو دراسة التوراة.

وكما في التوراة، فإن التلمود يتضمن تأكيداً لمبدأ تفوق العنصر اليهودي على بقية شعوب الأرض، وكل شعوب الأرض غير اليهودية مخلوقين عبيداً لليهود.

ومن مضامين التلمود الطعن بالسيد المسيح، وبالمسيحيين عموماً ووصفهم بالفحش والبذاءة، وبما لا يستسيغه الخُلُق الانساني.

ومن أهم مضامين التلمود أيضاً جواز الكذب والغش والخداع والسرقة، وإساءة معاملة كافة الأقوام غير اليهودية.

● بروتوكولات حكماء صهيون: تعني محاضر الجلسات التي كان يعقدها كبار الزعماء الصهاينة في بعض مؤتمراتهم السرية، والثابت أن الكثير من هذه المحاضر أو البروتوكولات مستقى من التلمود الذي تتجسد فيه روح التعصب المعادية لغير اليهود.

● نبوخذ نصر: ويسمى (بختنصر) أيضاً وهو أشهر ملوك الكلدانيين. قام بغزو (يهوذا) في أورشليم، وسَبى اليهود وسار بهم إلى بابل ووصفت تلك المرحلة بمرحلة السَّبْيِ البابلي.

● تابوت العهد: هو الرمز اليهودي لالههم (يهوه)، وهو كما يقول اليهود عبارة عن خزانة من الخشب مكسوة بالذهب أودع فيها حجران نُقِشتْ عليهما شريعة موسى ولم يعرف مصيرهما.

● الأنبار: مدينة عراقية قديمة تقع على ضفة نهر الفرات اليسرى، وقد أُسكِنَ اليهود الذين سباهم (نبوخذنصر) فيها، وبعد ذلك هاجر اليهود إليها باختيار منهم.

● عبر مراحل التاريخ المختلفة اكتسبت القدس ما يقرب من سبعة عشر اسماً منها: شلم ـ أورشليم ـ أورسالم ـ يبوس ـ صهيون ـ موريا ـ ايلياء ـ بيت المقدس ـ القدس الشريف.

● «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع العليم». عندما نزلت هذه الآية الشريفة لم يكن بالقدس مكان معروف بالمسجد الأقصى، ولا بناء آخر اسمه مسجد الصخرة، وإنما سمى في الآية الكريمة بالمسجد لأنه «مكان للعبادة» ويقع هذا المكان اليوم بين أسوار الحرم الشريف بالقدس «وحقيقة الحال أن الأقصى اسم لجميع المساجد مما دار عليه السور».

● الصخرة المشرفة ذات العلاقة الوثيقة بقصة الاسراء والمعراج يبلغ طولها ١٨ متراً، وعرضها ١٤ متراً، وهي ليست معلقة في الفضاء كما يعتقد البعض، ولكنها متصلة بالارض من جميع أطرافها.

● قبة الصخرة: يطلق عليها في بعض الأحيان اسم جامع عمر، لأن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد أقام في موقعها مصلى من الطين والخشب، ثم شيد عبد الملك بن مروان على انقاضه البناء الحالي عام ٦٩٠هـ.

● وصفت القدس بأنها أولى القبلتين لأن المصطفى عليه الصلاة والسلام وصحابته أُمِرُوا بالتوجه في صلواتهم شطرها لمدة ستة عشر شهراً قبل أن تتحول القِبْلَةُ إلى البيت الحرام بمكة المكرمة.

● حائط المبكى: يزعم اليهود أنه البقية الباقية من سور أورشليم القديم، وأنه يمثل الحائط الخارجي لهيكل (معبد) سليمان، وهم يتخذونه اليوم ركيزة لدعواهم بحق الاستيلاء على القدس القديمة. وهم يزورونه بين آونة وأخرى، ولا سيما في التاسع من أغسطس كل عام، يقفون إلى جواره يبكون مجدهم الضائع، ويندبون حظهم العاثر، وفي الواقع إن الصهيونيين يغالون جداً في تكريم حائط المبكى المزعوم، بهدف إثارة المشاعر الدينية للوصول إلى مآرب سياسية بحتة.

● حائط البراق: يعتقد المسلمون أن هذا الحائط ليس حائط المبكى كما يدعى اليهود، بل هو جزء لا يتجزأ من الحرم القدسي الذي يملكه المسلمون منذ مئات السنين، وأنه ثالث الحرمين الشريفين، وهو بعينه المسجد الأقصى المبارك الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وأنه عندما أسرى الله بنبيه المصطفى ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى بالقدس ربط النبي براقه الشريف (دابته الملائكية) عند الحائط، ومن هنا جاء اسمه «البراق»، وهو مبني من حجارة ضخمة ويبلغ طوله ١٥٦ قدماً، وارتفاعه ٥٦ قدماً، ويشكل جزءاً رئيسياً من الجدار الغربي للحرم الشريف. وقد أكدت إسلامية هذا الحائط اللجنة الدولية التي انتهت بالتحقيق فيه عام ١٩٣٠ ثم أصدرت حكمها القاطع الذي نص على أنه «للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق االعيني فيه لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف، وللمسلمين أيضاً تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط لكونه موقوفاً حسب أحكام الشرع الاسلامي لجهات البر والخير»، وقد صادق على التقرير مجلس الملك الخاص البريطاني.

أما بالنسبة للهيكل فبرغم كل الحفريات المكثفة التي تقوم بها السلطات الصهيونية فلم يوجد له أثر، وتقول دائرة المعارف البريطانية حرفياً «إنه ليس من المؤكد أن الهيكل كان في حرم المسجد الأقصى، خاصة وأن «تيطس» عندما هدم المدينة عام ٧٠ م لم يترك شيئاً قاسماً فيها، وطمست سائر معالمها، فالبحث عنه إذن عبث في عبث.

● أول من سكن فلسطين هم الكنعانيون العرب الذين ينتسبون إلى الساميين الذين لجأوا إلى بلاد الشام في الألف الرابعة قبل الميلاد، وقد تم ذلك على شكل موجات سامية توجهت من الجزيرة العربية إلى كل من بلاد الشام وبلاد الرافدين ومصر، وقد

تعرضت فلسطين في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد لموجة عربية سامية كثيرة هي الموجة المعروفة باسم «الأمورية ـ الكنعانية» فنزل الأموريون داخل بلاد الشام وجنوبها الشرقي، بينما استوطن الكنعانيون ساحل بلاد الشام وجنوبها الغربي وفلسطين. وعندما دخل الكنعانيون بلاد الشام كانوا على درجة رفيعة من المدنية.

وكان الكنعانيون في فلسطين ينقسمون إلى قبائل متعددة منها: اليبوسيون، وهم أحد بطون الكنعانيين، وقد أقاموا حول مدينة القدس وإليهم يرجع الفضل في تسمية القدس باسم «يبوس».

تقسيمات فلسطين الادارية

كانت فلسطين قبيل الانتداب البريطاني خاضعة للدولة العثمانية طيلة أربعمائة سنة وبالتحديد خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٥١٧ ـ ١٩١٧ م. كما كانت فلسطين جزءاً من بلاد الشام التي تشمل حالياً سورية ولبنان والأردن وفلسطين.

وكانت بلاد الشام مقسمة إلى ثلاث ولايات هي: سورية وحلب وبيروت، وكذلك إلى ثلاث متصرفيات مستقلة هي لبنان والقدس ودير الزور.

وكانت ولاية بيروت تضم متصرفيات طرابلس واللاذقية وعكا ونابلس، والمتصرفيتان الأخيرتان ضمتا إلى متصرفية القدس، وتضم أقضية يافا وغزة والخليل وبئر السبع ودعيت جميعها بعد الحرب العالمية الأولى «فلسطين».

وكانت فلسطين حتى يوم ١٥ من مايو (أيار) عام ١٩٤٨ واقعة تحت الانتداب البريطاني يديرها مندوب سام انتدبته بريطانيا ذاتها بصفتها دولة منتدبة من لَدُن عصبة الأمم.

وكان يساعد هذا المندوب في إدارته مجلسان: مجلس استشاري يرأسه المندوب السامي نفسه، ومجلس تنفيذي يرأسه كذلك المندوب السامي.

وكانت فلسطين وفقاً للتقسيمات الادارية لعام ١٩٤٥ تتكون من ستة ألوية «أقاليم» وتسعة عشر قضاء مقسمة كالآتي:

أولاً: لواء القدس.

ويتبعه أقضية: القدس، رام الله، الخليل، بيت لحم، أريحا.

ثانياً: لواء اللد.

ويتبعه أقضية: يافا، الرملة، اللد.

ثالثاً: لواء حيفا.

ويتبعه أقضية: حيفا، عكا.

رابعاً: لواء الجليل.

ويتبعه أقضية: الناصرة، طبريا، صفد، بيسان.

خامساً: لواء السامرة (نابلس).

ويتبعه أقضية: نابلس، طولكرم، جنين.

سادساً: لواء غزة.

ويتبعه أقضية: غزة، بئر السبع.

وبحكم التطور الحياتي والعمراني فقد أضفنا مدينة «أم الفحم» إلى لواء السامرة «نابلس»، وكذلك مدينتي خان يونس ورفح إلى لواء غزة، وسنحاول الالتزام بهذه التقسيمات في دراسة مدننا الفلسطينية الغالية.

وهذا جدول بمساحة ألوية فلسطين وأعداد سكانها عام ١٩٤٥ والنسبة المئوية.

اللواء	المساحة بالدونم	النسبة المئوية	عدد السكان	النسبة المئوية
الجليل	٢,٨٠١,٣٨٣	١٠,٦٤	٢٣٠,٨٤٠	١٣,٠٨
حيفا	١,٠٣١,٧٥٥	٣,٩٢	٢٢٤,٦٣٠	١٢,٧٣
السامرة «نابلس»	٣,٢٦٢,٢٩٢	١٢,٤٩	٢٣٢,٢٢٠	١٣,١٦
القدس	٤,٣٣٣,٥٣٤	١٦,٤٦	٣٨٤,٨٨٠	٢١,٨١
اللد	١,٢٠٥,٥٥٨	٤,٥٨	٥٠١,٠٧٠	٢٨,٤٠
غزة	١٣,٦٨٧,٥٠١	٥٢,٠٠	١٩٠,٨٨٠	١٠,٨٢
المجموع	٢٦,٣٢٣,٠٢٣	٪١٠٠	١,٧٦٤,٥٢٠	٪١٠٠

ويلاحظ من خلال قراءة الجدول السابق أن لواء غزة هو أكبر ألوية فلسطين مساحة، ويلاحظ إن نحو ٧٧ بالمائة من مساحة اللواء هي أراض متروكة أو مسجلة باسم قبائل بدوية تسكن المنطقة.

أما من حيث عدد السكان لنفس العام (١٩٤٥) فيأتي لواء اللد في المرتبة

الأولى حيث تبلغ نسبة السكان فيه نحو ٢٩ بالمائة من جملة عدد سكان فلسطين. وتبلغ نسبة عدد السكان في غزة نحو ١١ بالمائة.

ووفقاً لاحصاءات القرى عام ١٩٤٥ يتبين إن مساحة الأراضي التي يملكها اليهود في فلسطين لا تزيد عن ٦٪ فقط.

وهذا جدول بالنسبة المئوية لسكان فلسطين العرب واليهود حسب الألوية وحسب نفس السنة.

اللواء	العرب	اليهود	المجموع
الجليل	٨٣,٨٢٪	١٦,١٨٪	١٠٠٪
حيفا	٥٣,٤٧٪	٤٦,٥٣٪	١٠٠٪
السامرة «نابلس»	٩٣,٥٨٪	٦,٤٢٪	١٠٠٪
القدس	٧٣,٩٥٪	٢٦,٠٥٪	١٠٠٪
اللد	٤١,٤٢٪	٥٨,٥٨٪	١٠٠٪
غزة	٩٨,٥١٪	١,٥٩٪	١٠٠٪
المجموع	٦٨,٦٣٪	٣١,٣٧٪	١٠٠٪

تقسيمات
الانتداب البريطاني (١٩٤٥)

لواء القدس	لواء اللد	لواء حيفا	لواء الجليل	لواء نابلس (السامرة)	لواء غزة
قضاء القدس	قضاء يافا	قضاء حيفا	قضاء الناصرة	قضاء نابلس	قضاء غزة
قضاء رام الله	قضاء الرملة	قضاء عكا	قضاء طبرية	قضاء طول كرم	قضاء بئر السبع
قضاء الجليل	قضاء اللد		قضاء صفد	قضاء جنين	مدينة خان يونس (إضافة)
قضاء بيت لحم			قضاء بيسان	(مدينة أم الفحم) (إضافة)	مدينة رفح (إضافة)
قضاء أريحا					

الباب الأول

لواء القدس

ويتبعه أقضية القدس،

رام الله، الخليل،

بيت لحم، أريحا



القدس
محارة أديان السماء

كان ذلك اليوم يوماً مشهوداً في حياتي.

صليت الفجر بالمسجد الكبير في مسقط رأسي بمدينة «خان يونس» واتجهت بصحبة ابن العم منير إلى ساحة القلعة، وركبنا سيارة أجرة، واتجهنا شمالاً صوب مدينة غزة.

كنا قد عقدنا النية مسبقاً على أداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى المبارك بالقدس الحبيبة الغالية، ونظراً لعدم وجود سيارات أجرة تنطلق مباشرة فقد اتجهنا إليها عن طريق غزة.

كان صوت منـادي السيارات يصيـح بصوت نصف جهـوري بلهجة فـلاحينا البسطاء: الكُدُس.. الكُدُس.. راكب واحد إلى الكُدُس!

يالله. أهذا معقول.. إنها المرة الأولى التي سأزور فيها عاصمة بلادي، وهي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا النداء الذي يدعوني لزيارتها حقاً وواقعاً.. وكنت قد سمعت وقرأت اسم القدس مئات.. بل ألاف المـرات من ملوك ورؤساء وزعمـاء وخطباء وأدباء وشعراء مشفوعة كلها بالتعظيم والتحرير والنصر المبين!

لكن صوت المنادي يختلف عن كل الأصوات.. وأشعة الصباح التي بدأت تنسكب على ربوع غزة تختلف عن كل أشعة سبقتها، هناك قاسم مشترك بين حقيقة الدعوة وحقيقة الضياء.

ورحلت إلى عالم أفكاري وهمومي ولم أتوقف إلا حينما وقفت السيارة أمام

حاجز ضخم أقامته القوات الصهيونية على مشارف القدس، حيث «تفحّص» أفراد الحراسة هوياتنا، ورأيت على مقربة من الحاجز لوحة تحمل اسم «القسطل» مع سهم يشير إلى اتجاه القرية العربية التي ارتبطت بالمعركة الباسلة التي حملت اسمها مقروناً ببطولة وشهادة ابن القدس البار عبد القادر الحسيني حيث استشهد في الثامن من ابريل (نيسان) عام ١٩٤٨ م.

وكنا قد رأينا قبل ذلك بمسافة قريبة بعض المصفحات القديمة المعطوبة ملقاة على بعض سفوح الجبال القريبة من الطريق العام، وقد قيل لنا بأنها مصفحات يهودية نسفها المجاهدون العرب خلال معارك الحرب العربية الصهيونية الأولى، وقد بقيت في نفس مواقع إصابتها، وأصبحت فيما بعد مزاراً للاسرائيليين يذكّرهم بالتضحيات التي بذلوها في سبيل «تحرير أورشليم» من المحتلين العرب!

دخلنا قلب مدينة القدس «الجديدة» التي كان الصهاينة قد احتلوها منذ عام ١٩٤٨ م. وهي مدينة حديثة البناء، قد لا تفرقها عن أية مدينة أوروبية من حيث اتساعها ونظافة شوارعها، وروعة هندستها.

قال السائق: الحمد لله على السلامة. وأطفأ محرك سيارته.. ونظرت قدامي وإذا أنا أمام الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف.

قال الأخ منير مشيراً بسبابته: عند تلك النقطة كان الحد الذي يفصل بين القدس الجديدة والقدس القديمة، لقد كان الحجاج المسيحيون يعبرون من هنا لزيارة الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم خلال أعياد رأس السنة الميلادية.

ولكن بعد الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م تمت إزالة الحواجز وتوحدت القدس ولكن تحت خفقات العلم الصهيوني ذي النجمة السداسية، وليست تحت زركشات أعلام أقطارنا العربية!

ودلفت إلى الحرم الشريف.. واقتربت رويداً رويداً من المسجد الأقصى المبارك ومن مسجد الصخرة المشرفة..

وتسارعت دقات قلبي، واعترتني نوبة حادة من الدوار، وشعرت بأن المكبر وهملان والتوباد وأوراس والأخضر والمقطم وكل جبال الوطن العربي قد استقرت على كتفي وجمجمتي، كما شعرت بأن كل أحزان يعقوب، وحسرات أم موسى، وكل فواجع الخنساء قد سكنت جميعها في سويداء قلبي فأوشكت أن توقف نبضاته،

وضغطت على صدري فكادت أن تحطم أضلاعه.

ومهما يكن من أمر فأنا أقف الآن وأشاهد واحدة من أقدس وأطهر بقاع الارض، والناس في هذا العيد الأسبوعي الكريم يملأون المكان على رحابته، لقد جاءوا من كل فج وصوب، ليشهدوا منافع لهم، ومن ضمنهم أعداد كبيرة من أهلنا الذين بقوا مغروسين في مدنهم وقراهم منذ عام ١٩٤٨، وقد حرموا طوال السنوات اللاحقة من زيارة هذه المقدسات، لكنهم عوضوا ذلك الحرمان بعد الخامس من حزيران حيث تم توحيد شطري المدينة، كم والله أشعر بحبهم واحترامهم، وكم أشعر بالخجل منهم!

ولكن ما بالي أفيض في الحديث عن مشاعري وأحاسيسي، أليست قراءة تاريخ القدس أكثر جدوى من المشاعر والعواطف؟

وإن مجرد ذكر اسم القدس، يثير في الأنفس مشاعر الوَجْد والحب والاجلال، ممزوجة كلها والقداسة.

والقدس بهيبتها وجلالها تبسط أمامنا تاريخاً حافلاً بكل دلائل البطولة والصمود، برغم كل الموجات البشرية التي تعاقبت في حكمها، منذ أسسها اليبوسيون العرب وحتى جثم عليها الاحتلال الصهيوني.

ويكفي القدس زهواً وافتخاراً أنها، موئل الأكثرية من الأنبياء، ومبعث كلمة الله عيسى، ومسرى نبينا المصطفى محمد ﷺ وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

فبيت المقدس «بنته الأنبياء، وسكنته الأنبياء، ما فيه موضع شبر إلا وصلّى فيه نبي أو قام فيه مَلَك».

وهذا القول على إيجازه يختصر أمامنا رحلة القدس مع التاريخ منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة.

إن تاريخ الانسانية لا يعي في ذاكرته الحية مدينة التقت فيها الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والاسلام كما التقت في مدينة القدس، كما لم يع التاريخ أيضاً مدينة تعانقت في فضائها المعابد والكنائس والمساجد كما تعانقت في سماء القدس، ولم يشهد التاريخ ـ بكل جوارحه ـ نمو فضيلة التسامح الديني كما شهدها تنمو وتترعرع إبان الحكم الإسلامي خلال ثلاثة عشر قرناً، منذ «العهدة

العمرية» السمحاء، وحتى الخامس من حزيران الأسود «حين هوت مدينة القدس، وتراجع الحب، وفي قلوب الدنيا استوطنت الحرب».

شيء في التاريخ

تعتبر الموجة الكنعانية واحدة من أكبر الموجات البشرية التي غادرت شبه الجزيرة العربية واستوطنت الجنوب الغربي من الشام، فعرفت فيما بعد بأرض كنعان أو فلسطين.

واليبوسيون يمثلون بطناً رئيساً من بطون الكنعانيين. وهم أول بناة القدس، وإليهم نسبت فعرفت أولاً باسم «يبوس» وكان ذلك حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد (بلادنا فلسطين).

ولما استتب لهم المقام بنوا حصناً يبوسياً قوياً على الرابية الجنوبية الشرقية للمدينة حماية لهم من غارات العبرانيين والفراعنة.

وذكرت «الموسوعة الفلسطينية» أن اسم «أوروشالم» هو أقدم اسم لها وينسبها إلى الإله «شالم» أي إله السلام لدى الكنعانيين، فدعيت فيما بعد «أوروشالم» أو مدينة السلام.

وفي الفترة الواقعة بين بناء يبوس واحتلال اليهود لها حالياً تعاقب كثير من الأمم على موضع المدينة مما أدى إلى تعاقب البناء والهدم بما لا يقل عن ثماني عشرة مرة خلال تاريخها الطويل.

وقد حاول بنو اسرائيل بعد وفاة رمسيس الثاني الخروج من مصر باتجاه فلسطين عن طريق البحر الأحمر فتبعهم فرعون وجنوده، وفي ذلك نزلت الآية الكريمة:

«وجاوزنا ببني اسرائيل البحر. فأتبعهم فرعون وجنودُه بَغْياً وعَدْواً، حتى إذا أدركه الغرق قال آمنْتُ أنه لا إله إلا الذي آمَنَتْ به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين».

وقاد موسى بني اسرائيل واجتاز بهم صحراء سيناء فتاهوا فيها أربعين عاماً، ولم ينجحوا في دخول فلسطين «لأن فيها قوماً جبارين»، فاتجهوا إليها من الناحية الشرقية لنهر الاردن، وفي تلك الأثناء مات موسى عليه السلام، فتولى القيادة بعده يوشع بن نون فاستطاع أن يعبر نهر الاردن عام ١١٨٩ قبل الميلاد، فاحتل بنو اسرائيل أريحا، وقاموا بارتكاب أول مجزرة دموية في تاريخ صراعهم الطويل مع سكان هذه المنطقة،

فكانت تلك المجزرة المروعة بداية لمئات المجازر اللاحقة، وورد في سفر يشوع «أهْلِكُوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف.. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها..».

وبعد موت يوشع تمكن بنو اسرائيل من المدينة فترة من الزمن، لكنهم اضطروا إلى مغادرتها بسبب مقاومة اليبوسيين لهم، بيد أنهم عادوا لاحتلالها زمن الملك داود وهو الذي أطلق عليها اسمها الكنعاني «أورشليم» الذي ما زال الصهاينة يتداولونه حتى اليوم.

ولما استقر في المدينة أراد داود أن يبني هيكلاً «معبداً» له ولبني ملته للتعبد فيه، فاشترى من اليبوسي «أرنان» قطعة أرض بمبلغ خمسين شاقلاً من الفضة، لكنه مات قبل إتمامه (استمر حكمه ٣٠ عاماً) ولم يكتمل إلا في عهد ابنه سليمان عليه السلام، حيث اتسعت في عهده حدود مملكة اسرائيل من الفرات إلى النيل (استمر حكمه ٤٠ عاماً) وبالسبعين عاماً هذه يعتمد صهاينة اليوم في دعواهم بامتلاك فلسطين، وإعادة بناء مملكتهم الممتدة من نهر الفرات إلى نهر النيل!

ولكن سرعان ما انشطرت المملكة إلى شطرين: مملكة يهوذا وعاصمتها «أورشليم»، ومملكة اسرائيل وعاصمتها «السامرة»، لكن الخلاف استشرى بينهما فضعفت قوتهما، مما حدا بملك بابل «نبوخذنصر» بغزو أورشليم وتدمير هيكل سليمان وسبي أعداد كبيرة من اليهود إلى بابل بالعراق والذي عُرِف بالسبي البابلي، وانتهت على يديه مملكة يهوذا بينما أضحت مملكة اسرائيل في قبضة الآشوريين.

وعندما تهيأت للفرس ظروف الانتصار على البابليين، سمح ملكهم «قورش» ليهود السبى بالعودة إلى أورشليم، فاستردوا أنفاسهم بعد طول عناء، وأعادوا بناء السور والهيكل من جديد (٤٤٥ ق.م).[1]

وفيما بعد تعرضت القدس لغزوتين كبيرتين خلال فترة زمنية تمتد ما بين عامي ٢٣٢ ق. م و٦٣ ق. م، الأولى يونانية بقيادة الاسكندر المقدوني، والثانية رومانية بقيادة بوبي.

---

(١) بلادنا فلسطين ـ مرجع سابق.

القدس زمن السيد المسيح

في السنة الثلاثين من عمر السيد المسيح عليه السلام هبط أورشليم، وأخذ يلقي تعاليمه لانقاذ المجتمع من الرذائل التي غرق في حمأتها. واستمر السيد المسيح مواصلاً مسيرة الاصلاح والهداية، فازداد حواريوه «أنصاره» يوماً بعد يوم، وبخاصة عندما كان يأتيهم بالمعجزات الخارقة، وبديهي أن تتأجج صدور اليهود حقداً عليه، فترصدوه وقدحوه بنعوت يعف المؤمن عن ذكرها، واتهمه أحبارهم وكهنتهم بأنه يعمل على تشجيع الخطيئة والرشوة والظلم وابتزاز الأموال، وفي نهاية المطاف قبضوا عليه وقدموه إلى رئيس الكهنة الذي حكم عليه بالموت صلباً. وزعموا أنهم قتلوه. ولكن الله كذبهم ودحض افتراءاتهم فقال تعالى: ﴿وقولهم إنّا قتلْنا المسيحَ عيسى بن مريمَ رسولَ الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وأن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من عِلْمٍ إلا اتِّباع الظن وما قتلوه يقينا﴾ (سورة النساء آية ١٥٧).

وتذكر كتب التاريخ بأنه أثناء حكم هدريانوس الممتد بين عامي (١١٧ - ١٣٨م) تعرض اليهود لاضطهاده فانتقم منهم ومن أورشليم حيث دمر المدينة تدميراً كاملاً، وحرث أرضها حرثاً، وطردهم منها طرداً قاضياً، وحطم هيكل سليمان للمرة الأخيرة، وعلى أنقاض المدينة القديمة التي زالت عن وجودها الصبغ اليهودية أبتنى الرومان مدينة جديدة سموها إيليا نسبة إلى الامبراطور «إيليوس هدريانوس».

بعد أن تنّصر الملك قسطنطين بفترة وجيزة اعتنقت أمه الملكة هيلانة الديانة النصرانية، وعندما جاءت لزيارة القدس في عام ٣٢٦م، قامت ببناء كنيسة القيامة، وأمرت بتضييق الخناق على اليهود بسبب غدرهم بالسيد المسيح فحرمت المدينة عليهم، وتحول مكان الهيكل إلى مجمع للقاذورات والنفايات.

القدس في رحاب الإسلام

في عام ٦١٠م أشرقت أنوار ديننا الاسلامي الحنيف، وأرسل الله نبيه المصطفى ﷺ (هادياً ومبشراً ونذيراً). واتخذ المسلمون من القدس قبلتهم الأولى لمدة ستة عشر شهراً (وقيل سبعة عشر)، وأُسْرِيَ بالنبي الكريم إلى المسجد الأقصى، ومن على الصخرة المشرفة كان معراجه إلى السماوات العلى ليلة السابع والعشرين من رجب، وقد أحب الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته القدس حبًّا جمًّا، وأوصى بفتحها.

في عام ٦٣٨م ـ ١٥ هـ . . وبعد أن انتصر المسلمون في معركة اليرموك قرروا إخراج فلسطين بأسرها من حوزة الرومان، فقام القائد الصحابي أبو عبيدة عامر بن الجراح بمحاصرة بيت المقدس لمدة أربعة أشهر، حتى خرج البطريرك الروماني (صفرونيوس) وطلب الصلح والأمان، غير إنه اشترط تسليم المدينة للخليفة ذاته، وإجلالاً لقداسة هذا البلد حضر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكتب لرجال الدين المسيحي وثيقة الأمان التي اشتهرت فيما بعد بالعُهْدَةِ العُمرية، وهي ـ دون مغالاة ـ من أروع العهود وأرفع الوعود في تاريخ الحرب البشرية، فقد أعطى الخليفة العادل أهل إيلياء (أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تُسْكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا يُنتقص منها ولا من صليبهم ولا من أي شيء من أموالهم، ولا يُضار أحد منهم).

وللمرة الأولى في حياة القدس يسجل التاريخ فتحاً سلمياً لم ترق فيه نقطة دم واحدة. ومنذ ذلك الحين سميت بالقدس أي البيت المقدس الذي يتطهر به من الذنوب، وأثناء جولة تفقدية لأمير المؤمنين حان موعد صلاة العصر، فدعاه صفرونيوس للصلاة داخل كنيسة القيامة، فاعتذر الخليفة عمر وقال: «إنني لو أقمت الصلاة في كنيسة القيامة لوضع عليها المسلمون الأيدي من بعدي بحجة إقامة الصلاة فيها، وإني لأبي أن أمهد السبيل لحرمانكم منها، وأنتم لها أحق وأوْلى».

بيت المقدس . . ومكانته في الإسلام

إن أعظم تكريم لبيت المقدس تلك الآية الشريفة التي كرمه الله تعالى بها في سورة الاسراء ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُرِيَهُ من آياتنا أنه هو السميع البصير﴾ .

في معرض حديثه عن هذه الآية الكريمة يقول شهاب الدين أبو العباس السيوطي: «فلو لم يكن لبيت المقدس من الفضيلة غير هذه الآية لكانت كافية، وبجميع البركات وافية، لأنه إذا بورك حوله فالبركة فيه مضعفة، ولأن الله تعالى لما أراد أن يعرج بنبيه ـ ﷺ ـ إلى سمائه جعل طريقه عليه تبيُّناً لفضله، وليجمع له فضل البيتين وشرفهما. وإلا فالطريق من البيت الحرام إلى السماء كالطريق من بيت المقدس».

أما دلائل فضله ومكانته من السنة الغراء وأقوال الصحابة والأئمة فكثيرة، ومنها

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا».

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أربع من مدائن الجنة، مكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس». وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فُضّلت الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة الف صلاة وفي مسجدي بألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة».

وعن أبن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «مَنْ أراد أن ينظر إلى بقعة من بقع الجنة فلينظر إلى بيت المقدس».

ورُويَ عن الإمام علي بن أبي طالب إنه قال: «وسط الأرضَيْن أرض بيت المقدس، وأرفع الأرض كلها أرض بيت المقدس، وأرفع الأرض كلها إلى السماء بيت المقدس».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن الجنة تحنُّ شوقاً إلى بيت المقدس، وصخرة بيت المقدس من جنة الفردوس، وهي صُرَّةُ الأرض».

وقال كعب: «لا تقوم الساعة حتى يزور البيتُ الحرامُ بيتَ المقدس، فينقادان إلى الجنة جميعاً، وفيهما أهلهما، والعرض والحساب ببيت المقدس».

وقال مقاتل بن سليمان «. . . . ومن مات مقيماً محتسباً في بيت المقدس فكأنما مات في السماء وأول أرض بارك الله فيها بيت المقدس، ويجعل الرب جل جلاله مقامه يوم القيامة في أرض بيت المقدس، وكلم الله موسى في أرض بيت المقدس، وتجلى له جل جلاله في بيت المقدس، وبشر الله زكريا بيحيى في بيت المقدس، وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقربون القرابين ببيت المقدس، وأوتيت مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء ببيت المقدس، وولد عيسى عليه السلام وتكلم في المهد صبياً ببيت المقدس، ورفعه الله إلى السماء منه، وينزل إلى الأرض من السماء ببيت المقدس، وأنزلت عليه المائدة ببيت المقدس، وأوصى إبراهيم وإسحق عليهما السلام لما ماتا أن يدفنا ببيت المقدس، وأوصى آدم عليه السلام لما مات بأرض الهند أن يدفن ببيت المقدس، وصلى نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ في بيت المقدس، وركب البراق إلى بيت المقدس، وأُهبط به من السماء إلى بيت المقدس، والمحشر والمنشر إلى بيت

المقدس، ويأتي الله في ظلال من الغمام والملائكة إلى بيت المقـدس، وتوضـع الموازين يوم القيامة ببيت المقدس، وينفخ اسرافيل في الصور ببيت المقدس، ومن سره أن يمشي في روضة من رياض الجنة فليمشِ في صخرة بيت المقدس، ونشر الله الأنبياء كلهم لرسوله صلى الله عليه وعليهم فصلى بهم في بيت المقدس. . . . »

هذا وقد دخل بيت المقدس كثير من الصحابة رضي الله عنهم من أبرزهم: معاذ بن جبل، بلال بن رباح، خالد بن الوليد، أبو ذر الغفاري، أبو الدرداء، عبادة ابن الصامت، سلمان الفـارسي، أبو مسعـود الأنصاري، تميم الـداري، عمرو بن العاص، عبدالله بن سلام وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم.

مسجد قبة الصخرة

بعد أن استقر المسلمون في القدس سمحوا لليهود بزيارتها والتعبد فيها، بعد أن حرموا منها طوال حكم الرومان، واستمر المسيحيون في استمتاعهم بحرية الاقامة والعبادة، وقد شهد ثقاة المؤرخين بأن الوَرِعين من حكام المسلمين لم يفرقوا البتة بين معتنقي الديانات السماوية طوال فترة الحكم الاسلامي للقدس.

أراد المسلمون أن يبتنوا لهم مسجداً يؤدون فيه شعائر الصلاة، ومعروف أنه حتى عهد الخليفة الأموي السادس عبد الملك بن مروان لم يكن بداخل أسوار الحرم القدسي سوى «مسجد عمر» الصغير المبنى من الطوب والخشب، فقام الخليفة ببناء مسجد رائع فوق الصخرة التي عرج عنها الرسول الأكرم إلى السماء «حيث اقترب من عرش الرحمن، واستضاء بنوره الوهاج».

ورفع الخليفة على المسجد قبة ضخمة يبلغ قطرهـا من الداخـل ٢١ متراً، وارتفاعها ٢١ متراً أيضاً، وقد رصد للبناء خراج مصر لسبع سنوات. . وأصبح مسجد الصخرة بقبته الرائعة، وتكوينة البديع آية رائعة في الفن الهندسي الإسلامي الممزوج ببعض الطراز الفارسي، والأسلوب البيزنطي.

وإن المرء إذا أمعن النظر في هندسة القبة ستدهشه حتماً إقامتها على شكل سداسي الأضلاع، لكنه مستدير وقائم على أعمدة ضخمة من الـرخام، أمـا أروع مشهد يستهويك ويبقى عالقاً في ذاكرتك ما حييت فهو منظر القدس بشكلها العام حين تراها من مكان مرتفع وقبة الصخرة المذهبة تتربع في أحضانها بمهابة وإجلال.

وإذا كان الوقت نهاراً استمتعت بمنظر القبة وهي تتلألأ تحت أشعة الشمس النورانية، أما إذا كان الوقت ليلاً والقمر بدراً فأنت على موعد مع لوحة ناطقة بكل أسرار الروعة والسحر والجمال. وإذا بحثت عن الخشوع والرهبة فستجدهما قطعاً إذا كتبت لك مشيئة الرحمن أن تحيى ليلة القدر المباركة في مسجد الصخرة أو المسجد الأقصى حتى طلوع الفجر!

المسجد الأقصى المبارك

فيما مضى كان اسم (المسجد الأقصى) يطلق على الحرم القدسي بأكمله، أما في الوقت الحاضرة فهو يطلق على المسجد الواقع في الجهة الجنوبية من رقعة الحرم الشريف. أمر ببنائه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، لكنه توفى قبل أن يتم البنيان، فتولى إتمامه ابنه الوليد بن عبد الملك عام ٨٦ هـ - ٧٠٥ م.

يقوم المسجد الأقصى على ٥٣ عموداً من الرخام، ٤٩ سارية مربعة الشكل، طوله ٨٠ متراً، وعرضه ٥٥ متراً، وله أحد عشر باباً تؤدي إلى صحن المسجد، كانت جميعها مرصعة بالذهب والفضة حتى عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، ولكنه أمر بخلعها وبيعها وصرفها على المسجد.

وعندما احتل الصليبيون القدس عام ١٠٩٩م حولوا قسماً منه إلى كنيسة، وقسم آخر جعلوه مستودعاً لسلاحهم، وبعد أن تحررت القدس على يد البطل صلاح الدين الأيوبي أمر بإصلاح المسجد والمحراب، وكساء القبة بالفسيفساء، ووضع فيه منبراً خشبياً جميلاً، زاد من جماله طلاؤه الفاخر الذي بقى عليه منذ أن أقيم. ولقد روعي عند بنائه أن لا يوضع فيه مسمار معدني واحد برغم ضخامته!

وقد اتخذ المسلمون من ساحة الحرم الشريف ومن المسجدين العظيمين مدرسة دينية واسعة، وقصده معظم الحجاج في ذهابهم إلى البيت الحرام بمكة المكرمة وإيابهم منه، وذلك بقصد الزيارة والتبرك، بل إن كثيراً منهم استحب الاحرام بالحج والعمرة منه. وهم بذلك يتبعون بعض أحاديث الرسول والصحابة في هذا الخصوص، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ : «من أهلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غفر الله ما تقدم من ذنبه».

القدس . . والحروب الصليبية

في عام ١٠٩٥م، أعلن البابا (أوربانوس الثاني) في إحدى خطبه «ضرورة إنقاذ (قبر) السيد المسيح من أيدي «الكفار»، ومنح المنقذين غفراناً تاماً عن جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر، وأما الذين يموتون فيها فلهم جنات الخلد»!

وفي عام ١٠٩٩ وقعت القدس أسيرة في قبضة الصليبيين الذين قتلوا سبعين ألفاً من أهلها وأمروا الأشخاص الذين بقوا أحياء من العرب أن يجمعوا جثث موتاهم أكواماً، ويحرقوها بالنار وبعد ذلك قتلوا هؤلاء أيضاً! (هذا الوضع يذكرنا بالفتح الاسلامي). ولم ينحصر الأمر عند هذا الحد، بل إنهم حولوا قبة الصخرة. وجزءاً من المسجد الأقصى إلى كنيسة وإلى مستودع للأسلحة كما ذكرنا سابقاً. كما أنهم نهبوا أموالاً طائلة من ذهب مسجد الصخرة وفضته، وغيروا الكثير من المعالم الاسلامية.

وقد وصف المؤرخ الفرنسي المعروف «جوستاف لوبون» سلوك الصليبيين عندما اجتاحوا بيت المقدس وصفاً دقيقاً فقال: «كان قومنا يجوبون ـ كاللبؤات التي خطفت صغارها ـ الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، كانوا يذبحون الأطفال والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرْباً إرْباً، كانوا لا يستبقون إنساناً وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة! كانوا يقبضون على كل شيء يجدونه ويبقرون بطون الموتى بحثاً عن قطع ذهبية ! ثم أحضر «بوهيموند» جميع الذين اعتقلهم في برج القصر فأمر بضرب رقاب العجائز والشيوخ والضعاف». ويستأنف «جوستاف لوبون» وصفه الكئيب فيقول: «لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان. كانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك! وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنما تريد الاتصال بجثث غريبة عنها. . وأراد الصليبيون الاستراحة من عناء تذبيح الأهالي قاطبة فانهمكوا في كل ما يستقذره الانسان من ضروب السكر والعربدة. . . . »[1].

وبعد ثمانية وثمانين عاماً من الاحتلال الصليبي أذن الله للقدس أن تستعيد حريتها تحت راية الاسلام من جديد. ففي اليوم الثالث من يوليو عام ١١٨٧ م سحقت قوات صلاح الدين الأيوبي جيوش الصليبيين في معركة حطين الخالدة، وقد

---

(١) حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ القاهرة ١٩٥٦ .

أثبت القائد العربي بهذا الانتصار العظيم إنه «أمهر قائد نزل إلى ميادين الحروب خلال القرون الوسطى». وفي يوم ٢٧ من رجب عام ٥٨٤ هجرية وفي نفس ذكرى الأسراء والمعراج دخل صلاح الدين بيت المقدس «فأظهر من فضيلة التسامح ما تحدثت به الركبان والرهبان».

وبعد هزيمة المماليك في معركة «مرج دابق» عام ١٥١٧م، انتقلت تبعية القدس إلى الأتراك العثمانيين، والذين استمروا في محافظتهم على روح العهدة العمرية، بل أن كثيراً من سلاطينهم أضافوا وأصلحوا كل ما من شأنه أن يخدم العرب والمسلمين. واستمرت القدس في كنف الدولة العثمانية أربعة قرون كاملة (١٥١٧ - ١٩١٧)، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث وقعت القدس في قبضة الإنجليز. وقد تهيأ لليهود الصهيونيين أن يدخلوا القدس وفلسطين بشكل عام تحت حماية الغازي الجديد، والذي أنعم عليهم «بوعد بلفور» الذي قال لعرب فلسطين: اذهبوا فقد جئنا دونكم بخلق جديد!

وبقيت القدس عاصمة لفلسطين حتى عام ١٩٤٨م حين أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين لتستحوذ عليها العصابات الصهيونية وتعلن قيام «دولة إسرائيل» في يوم ١٥ مايو ١٩٤٨م، وتشهر على العالم أن «أورشليم» هي العاصمة التاريخية لاسرائيل الجديدة!

المقدسات الاسلامية في القدس

تتمتع القدس بأهمية دينية وعسكرية وتجارية وسياسية، ومن أروع مهامها الدينية أنها نقطة نشوء الديانتين اليهودية والمسيحية ومركز اشعاع لهما، وقد جاء الاسلام بعدئذ ليربط بين مكة والقدس روحياً ومادياً.

وليس من اليسير على المرء أن يقوم باحصاء المقدسات الاسلامية في القدس، ولكن يمكن إيجاز أهمها، فإضافة إلى ما ذكرناه آنفاً من هذه المقدسات هناك: - أربعة وثلاثون مسجداً إضافة إلى المسجدين الكبيرين مسجد الصخرة والمسجد الأقصى، سبعة وعشرون منها في المدينة القديمة داخل السور، وسبعة في المدينة الجديدة خارج السور، وهذه احصائية عام ١٩٤٧.

- عشرات الزوايا التي يأوي إليها الغرباء من حجاج المسلمين، والمتدينون

المنتمون إلى طرائق مختلفة مثل: الزاوية النقشبندية، الزاوية الأدهمية، زاوية الشيخ جراح، الزاوية الرفاعية، الزاوية اللؤلؤية، الزاوية البسطامية، الزاوية القادرية، زاوية الخانكي، الزاوية المجيدية وخلاف ذلك، إضافة إلى العشرات من المدارس التي أنشئت خلال العصور الإسلامية المتعاقبة.

ـ ضريح نبي الله داود عليه السلام، وبجانبه مسجد ومقبرة.

ـ مقام النبي موسى عليه السلام، وعليه مسجد.

ـ عشرات المقامات والأضرحة التابعة لبعض الصحابة والتابعين والشهداء والصالحين مثل قبر الصحابي شداد بن أوس، وقبر الصحابي عبادة بن الصامت، وقبر أم الخير رابعة العدوية، وقبور أعداد كثيرة من العلماء والقضاة والوجهاء المسلمين الذين دفنوا في أكثر من عشرين مقبرة إسلامية في مختلف العصور. ومن أشهر هذه المقابر مقبرة باب الساهرة، مقبرة باب الرحمة، المقبرة اليوسفية، مقبرة النبي داود.

أما أكبر المقابر الإسلامية قاطبة فهي مقبرة «مأمن الله» أو «ماميلا» وتبلغ مساحتها حوالي مائتي ألف متر مربع، وقد نقض اليهود قبورها ونثروا عظام الموتى، وبنوا فوقها الملاهي والمراقص والمقاهي ودور العبث.

ومن الأماكن الأثرية نذكر:

ـ قصر معاوية بن أبي سفيان، وقصر عبد الملك بن مروان.

ـ باب العامود، وهو من أهم أبواب مدينة القدس وأجملها، ويسمى أيضاً باب نابلس، ومنه دخل الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مدينة القدس. وسمي بباب العامود نسبة إلى عمود أسود من الجرانيت كان داخل الباب، أما بالنسبة للأسبلة ففي القدس وحدها ثمانية وعشرون سبيلاً، والسبيل عبارة عن عين ماء، وبهذا المعنى أستعملت في أواخر القرن السابع الهجري، أي في عصر المماليك ، أما في العصر الأيوبي فكانت تستعمل كلمة «سقاية» أو «مسقاة» حيث كانت تخزن فيها المياه شتاء ثم تفتح للسابلة طوال العام.

وفي ساحة الحرم الشريف أحد عشر سبيلاً، وخمسة عشر سبيلاً داخل البلدة القديمة وسبيلان خارجها، ومن أشهر أسبلة القدس: سبيل قايتباي، سبيل شعلان، سبيل باب الحبس، سبيل البديري، سبيل قاسم باشا.

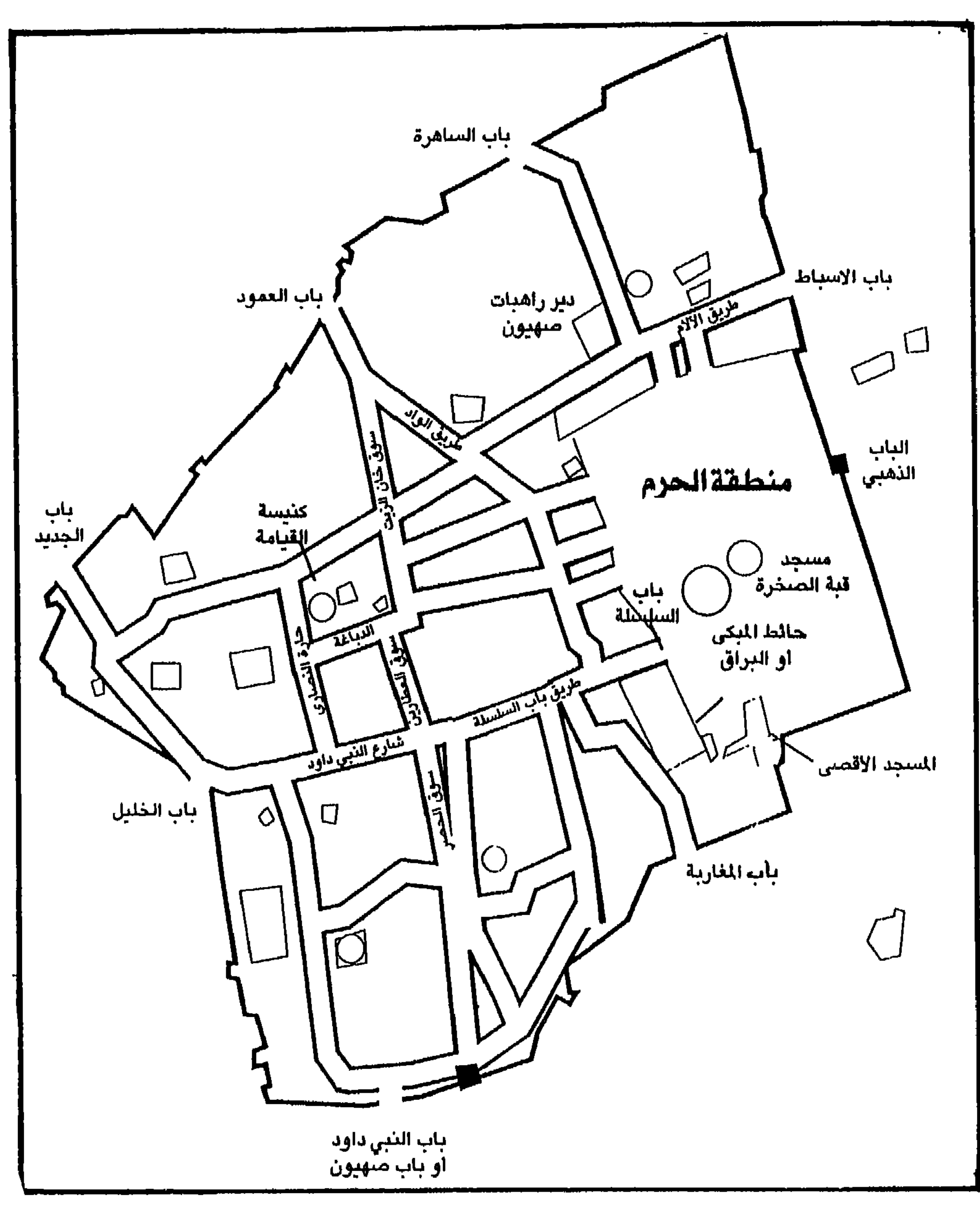
آثار الأنبياء ببيت المقدس

ذكر العلامة أحمد بن عبد ربه (٨٦٠ - ٩٤٠م) مؤلف «العقد الفريد» آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ببيت المقدس فقال: مربط البراق الذي ركبه النبي ﷺ تحت ركن المسجد، وفي المسجد باب داود عليه السلام، وباب سليمان عليه السلام، وباب حِطّة التي ذكرها الله في قوله تعالى (وقالوا حِطّةٌ) وهي قول لا إله إلا الله، فقالوا: حِنْطَة، وهم يسخرون، فلعنهم الله بكفرهم، وباب محمد ﷺ ، وباب التوبة الذي تاب الله فيه على داود، وباب الرحمة التي ذكرها الله تعالى في كتابه (له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِهِ العذاب) يعني وادي جهنم الذي بشرقي بيت القدس. وأبواب الأسباط، أسباط بني اسرائيل وهي ستة أبواب، وباب الوليد، وباب الهاشمي، وباب الخضر، وباب السكينة وفيه محراب مريم بنت عمران رضي الله عنها التي كانت الملائكة تأتيها فيه بفاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، ومحراب زكريا الذي بشرته فيه الملائكة بيحيى وهو قائم يصلي في المحراب، ومحراب يعقوب، وكرسي سليمان صلوات الله عليه، ومغارة إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام الذي كان يختلي فيه للعبادة، والقبة التي عرج النبي ﷺ منها إلى السماء، والقبة التي صلى فيها النبي ﷺ بالنبيين، والقبة التي كانت السلسلة تهبط فيها زمان بني اسرائيل للقضاء بينهم، ومصلى جبريل عليه السلام، ومصلى الخضر عليه السلام».

هذا، وليست جميع الأبواب التي ذكرها ابن عبد ربه موجودة في الوقت الراهن، فالموجود حالياً أحد عشر باباً، منها سبعة يستعملها المصلون والزائرون وهي:

باب العامود وهو المعروف بباب دمشق، باب الساهرة وهو المعروف عند الغربيين باسم باب هيرودوس، وباب الأسباط، وباب المغاربة، وباب النبي داود، وباب الخليل المعروف بباب يافا، ثم باب الجديد، وأما الأبواب المغلقة الأربعة فهي: باب الرحمة، باب التوبة، باب البراق، باب السكينة.

ومن ناحية أخرى فإن القدس عرفت (٣٩) تسعة وثلاثين من صحابة رسول الله ﷺ ودفن فيها تسعة منهم، كما دفن فيها (٦٢) اثنان وستون تابعياً ورجلاً صالحاً، وقد عاش فيها (٤٤٠) أربعمائة وأربعون عالماً وقاضياً ومؤلفاً وخطيباً نابغاً بين سنتي ٥٨٣



خريطة توضح منطقة الحرم وأبوابه

هـ و٩٠٠ هـ ، ومن هؤلاء العلماء والقضاة والصالحين (٢٨٦) دفنوا في أرض المدينة[1].

الأماكن المسيحية في القدس

ما دمنا نتحدث عن القدس كمحارة لأديان السماء فجدير بنا أن نتعرض لذكر الأماكن المسيحية المقدسة في هذه المدينة الغالية التي تعانقت في فضائها المعابد والكنائس والمساجد، فكفلت الحرية لكل من دخلها أو زارها أو أقام فيها.

وكما تنسحب هذه المقولة على المسلمين فهي أيضاً تنسحب على اليهود والمسيحيين. فنلاحظ أن لكل طائفة من الطوائف المسيحية في القدس كنائس وأديرة تمارس فيها طقوس العبادة في طمأنينة وسكينة وحرية مطلقة، وقد وفدت لهذه الغاية عبر تواريخ مختلفة إرساليات دينية غربية اتخذت من القدس مقراً دائماً لها.

وفي مقدمة الأماكن المسيحية الموجودة في القدس نذكر:

كنيسة القيامة:

وتعد هذه الكنيسة أهم الأماكن الدينية المقدسة لدى كافة الطوائف المسيحية قاطبة، وقد بنتها الملكة هيلانه (أم الملك قسطنطين) عام ٣٣٥م في نفس الموقع الذي يعتقد بأن السيد المسيح صلب ودفن فيه.

وفي هذا المجال يقول أستاذنا مصطفى مراد الدباغ

إن قصة صلب المسيح ودفنه ثم صعوده إلى السماء من الشروط الأساسية في الديانة المسيحية، وخلاصة قصة صلب المسيح ودفنه ـ كما ذكرتها الأناجيل ـ تتلخص في أن أحد تلامذته واسمه يهوذا الأسخريوطي سلم سيده وهو يصلي في بستان «جنيماني» إلى اليهود فحاكموه أولاً عند رئيس الكهنة، ثم عند بيلاطس الروماني، وحكموا عليه بالموت صلباً، فحمل صليبه معه، وخرج ليصلب على أكمة تدعى «الجلجثه» أي الجمجمة.

ولما تنصر الامبراطور قسطنطين جاءت أمه «هيلانة» إلى القدس، وأخذت تبحث عن المكان الذي صلب فيه المسيح وقبره ولما عثرت على المكان بنى ولدها

---

(١) مجلة «أرض الإسراء»، يوليو (تموز) ١٩٨٩. عمان ـ الأردن.

قسطنطين كنيستين متجاورتين إحداهما مكان الصلب والأخرى على القبر.

وعندما غزا الفرس فلسطين أحرقوا هاتين الكنيستين مع جميع الكنائس والأديرة التي كانت قائمة يومئذ في القدس، غير أن أحد رؤساء الأديرة ويدعى الراهب «مودستوس» أعاد بناء كنيسة القيامة.

وسبق أن ذكرنا بأن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اعتذر للبطريرك صفرونيوس الذي أشار عليه بالصلاة في داخل الكنيسة لخشيته إن هو صلى في الكنيسة أن يتخذ المسلمون ذلك من بعده حجة لحرمان المسيحيين منها.

وعندما حرر البطل صلاح الدين الأيوبي القدس في عام ١١٨٧م. وطهرها من رجس الصليبيين أشار عليه بعض صحابته أن يعمد إلى هدم كنيسة القيامة «كي لا يبقى لنصارى الغرب حجة لغزو البلاد المقدسة»، فرفض مجرد مناقشة الفكرة، وأمر المسلمين بألا يمسوها بسوء.

في عام ١٠٣٧م زار الرحّالة الفارسي المسلم ناصر خسرو بيت المقدس وتعرض للحديث عن كنيسة القيامة، فذكرها في كتابه «تاريخ القدس ودليلها» فقال : «. . . وللنصارى في بيت المقدس كنيسة يسمونها «بيعة القمامة» (القيامة)، ولها عندهم مكانة عظيمة، وهي فسيحة تتسع ثمانية آلاف رجل، وهي عظيمة الزخرف، ومزدانة من الداخل بالديباج الرومي والصور، وزينت بطلاء من الذهب، وفي أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام راكباً حماراً، وصور الأنبياء الآخرين مثل: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأبنائهم عليهم السلام، وليس لهذه الكنيسة نظير في أي جهة من العالم، ويقيم فيها كثير من القسس والرهبان، يقرأون الانجيل ويصلون ويشتغلون بالعبادة ليل نهار».

والكنيسة مقامة على قطعة من الأرض تبلغ مساحتها ٥٢٨٠ متراً، وقبر السيد المسيح قائم تحت القبة التي ترتكز على ١٨ عموداً، والقبر مقسم إلى غرفتين بهما عدة قناديل تابعة للروم واللاتين، والأرمن، والأقباط. وعدا عن «القبر المقدس» فهناك سبعة قبور اثنان منها ليوسف الرامي وبعض أفراد أسرته، وإثنان لملكين صليبيين هما جودفري وبلدوين.

وبالنظر لوقوع خلاف بين الطوائف المسيحية على خدمة الكنيسة وحراستها فقد

تم تسليم هذه المهمة إلى عائلتين مقدسيتين مسلمتين هما عائلة جودة، وعائلة نسيبة. وهما تقومان بهذه المهمة منذ فترة زمنية طويلة لا تقل عن ثمانية قرون وبالتحديد زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧م. فعائلة جودة تحتفظ بالمفاتيح، وعائلة نسيبة تفتح الكنيسة في مواعيدها، ولم يحدث طوال هذه المدة وما قبلها أن أخل المسلمون بواجب رعاية كنيسة القيامة أو غيرها من الأماكن الدينية المسيحية أو اليهودية، بل بقوا محافظين على هذه المهمة.

درب الآلام:

وهو طريق مقدس لدى كافة الطوائف المسيحية لاعتقادها بأن السيد المسيح قد سار في هذا الدرب وهو يحمل صليبه عندما اقتاده الجنود الرومان لصلبه تنفيذاً لأوامر الوالي الروماني «بيلاطس».

وهذا الدرب ينقسم إلى أربع عشرة مرحلة منها خمس مراحل داخل كنيسة القيامة، وتسع خارجها.

أما باقي المقدسات فموزعة بين الطوائف المختلفة. فطائفة الروم الأرثوذكس تمتلك ٢٢ ديراً منها: دير أبينا إبراهيم، دير مار يوحنا المعمدان، دير القطمون، دير البنات، دير الجليل، دير العذراء وغيرها. كما تمتلك كنيسة واحدة هي «ستنا مريم» والتي يقال بأنها تضم قبر مريم عليها السلام ووالديها عمران (يواكيم) ووالدتها (حنة). أما الطائفة الثانية التي تمتلك أكبر عدد من الأديرة والكنائس فهي طائفة الروم الكاثوليك ولها أكثر من ٢٤ ديراً وكنيسة، ومن ضمنها كنيسة القديسة حنة، وهي المعروفة بالمدرسة الصلاحية، وكذلك كنيسة الجسمانية المعروفة، ودار القديسة فيرونيكا، كما لهم أبرشية قديمة.

أما طائفة الأرمن فلها عدة ممتلكات مثل: دير القديس جيمس، ودير الزيتونة، وغيرهما.

أما طائفة الأقباط فلها ثمانية أديرة وكنائس منها: دير السلطان، دير مار جرجس، دير مار أنطونيوس، كنيسة السيدة، . وكنيسة مار يوحنا وخان القبط.

أما باقي الطوائف التي تمتلك عدداً قليلاً من الأديرة والكنائس فهي: السريان، الأحباش، الروس، الألمان، الأمريكان، الموارنة.

ومن الرهبنات الموجودة في القدس، والتي لها عدة أماكن «الأباء الفرنسيسيون»

ومن مقدساتهم: الكازانوفا، الفرير، رهبان مار يوسف، رهبان مار فرنسيس، الجزويت، دير اللاتين.

الأماكن اليهودية

ليس لليهود بالقدس سوى بعض الكُنُس (مفردها كنيس) وهي حديثة البناء نسبياً وكذلك بعض القبور.

ويرجع تاريخ بناء أول كنيس إلى القرن الثامن عشر الميلادي، وجميعها يقع في الحي اليهودي بالقدس القديمة، وهو الحي المعروف بحارة اليهود، ومنها: قدس الأقداس، طبرت اسرائيل، توماتوراة، بيت آيل، مدراش، طابية، مزغاب لاوخ.

ولليهود مقبرة خاصة بهم فيها أربعة قبور مميزة هي: قبر النبي زكريا وقبر يعقوب، وقبر أبشالوم، وقبر يهوشافاط.

أما بالنسبة لحائط المبكى الذي يقدسه اليهود فالاعتقاد السائد بأنه البقية الباقية من سور أورشليم القديم، وإنه الحائط الخارجي للمعبد الذي رجمه هيرودس (١٨ ق. م.)، ودمر جانباً منه تيطس(٧٠م)، وأتى على ما تبقى منه هدريانوس (١٣٥م)، ويقوم اليهود بزيارته وتقبيله وقراءة بعض النصوص التوراتية والتلمودية إلى جواره، وكذلك البكاء على مجدهم الضائع!!

ويشعر اليهود في قرارة نفوسهم بعقدة النقص المنبثقة عن قلة أماكنهم المقدسة بل انعدامها إذا ما قيست بالأماكن المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين في القدس، لذلك فهم يتوهمون باطلاً بأن المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة يقومان على أنقاض هيكل سليمان، ولا بد في نظرهم من تدمير هذين المكانين المسلمين المقدسين وإعادة بناء الهيكل المزعوم محلهما!

ومن أجل تحقيق هذا الوهم فقد عمد اليهود منذ اللحظات الأولى لاحتلالهم القدس القديمة في حرب حزيران عام ١٩٦٧ إلى تنفيذ كثير من الجرائم ليس في حق التراث الإسلامي والمسيحي فحسب، بل في إيذاء مشاعر المسلمين والمسيحيين من سكان القدس، وما برح أهلنا هناك يتذكرون ممارسات العسكريين الصهاينة داخل المسجد الأقصى وهم يهتفون بكل الحقد والشماتة: محمد مات، محمد أنجب بنات!!

وبهدف تغيير الطبيعة الديمغرافية والطبغرافية للقدس سارعت «اسرائيل» وفي

اليوم الرابع من احتلالها للقدس إلى إزالة حي المغاربة المجاور للمسجد الأقصى المبارك إزالة تامة. وشردت سكانه وحولته إلى مجمع يجتمع فيه اليهود عند زيارتهم لحائط المبكى.

وافتعلت اسرائيل جريمة الحريق داخل المسجد الأقصى المبارك وأتى على منبر صلاح الدين يوم ٢١ من أغسطس عام ١٩٦٩م بهدف جس نبض الرأي العام العالمي ـ والعربي الاسلامي بشكل خاص ـ ولكنها سرعان ما تنصلت من مسئوليتها وألصقتها بمأجور استرالي يدعى «مايكل روهان»، وقد أثبت القضاء الصهيوني أنه «مختل العقل»، فأطلق سراحه فيما بعد!

وتوالت الجرائم الصهيونية ضد القدس، وتصدى المواطنون العرب بصدورهم وقلوبهم لها، وكثيراً ما أحبطوا محاولات نظمتها جماعات وعصابات صهيونية حيث وضعت المتفجرات والقنابل المفخخة داخل مساجد وكنائس القدس، كما فعلت عصابة المتطرفين المتدينين من «لفتا» حيث ألقي القبض على بعض أفرادها أثناء محاولة إدخال الأسلحة والمتفجرات إلى ساحة الحرم القدسي الشريف.

أما عصابة التنظيم السري اليهودي فقد ذكرت صحيفة «دافار» الصهيونية في تقرير لها «بأنه اتضح أن تلك العصابة كانت تخطط لنسف وتدمير المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، وإن أعضاءها على استعداد لفعل ذلك حتى لو اضطروا لمهاجمته بالطائرات من الجو».

وفي إحدى المرات تم العثور في مدرسة «ياشيفا» الصهيونية في القدس القديمة على طن من المتفجرات اعترفت رابطة الدفاع اليهودية بتجميعها بهدف القيام بنسف المسجد الأقصى، ومهاجمة باقي المقدسات.

وفي خطوة أتت ضمن الدعم الأمريكي اللامحدود للعدو الصهيوني أصدر مجلس الشيوخ الأمريكي يوم ٢٣ من مارس عام ١٩٩٠ قراراً أكد فيه «أن القدس هي عاصمة لدولة اسرائيل ويجب أن تبقى كذلك!؟» واعتبر القرار أن «القدس يجب أن تبقى مدينة موحدة تحترم فيها جميع حقوق المجموعات الدينية».

وهذا القرار مخالف لجميع قرارات الأمم المتحدة الخاصة بمدينة القدس، كما يعتبر انتهاكاً صارخاً للحقوق التاريخية الثابتة للشعب الفلسطيني.

وقد ذهب الكاتب اليهودي «إيموس إيلون» في كتاب له صدر بالإنجليزية عام

١٩٩٠ بعنوان «القدس مدينة المرايا» إن القدس ليست مقدسة عند اليهود، وليس لهم أية آثار دينية، لكن اليهود المتعصبين اتخذوا منها طعماً للهجرة وجمع المال. بينما يتمسك بها الزعماء الاسرائيليون لمكانتها العالمية، ومن أجل تحدي أصحاب الديانتين السماويتين المسيحية والاسلام، ومن أجل موقعها الإستراتيجي في قلب فلسطين، ولكي تكون هدفاً لمفاخرة قادة اسرائيل باحتلالها، تم اتخاذها عاصمة لهم على الرغم من عدم اعتراف دول العالم بهذه العاصمة.

وبعد أن بدَّدَ الكاتب اليهودي خرافة التعلق الديني اليهودي بالقدس بوثائق صهيونية سابقة واسرائيلية لاحقة أشار إلى أن مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هيرتسل كان قد نصح بتجنب القدس وعدم شمول الدولة اليهودية لها وأوصى بأقامة عاصمة اسرائيل على سفوح جبل الكرمل في حيفا.

كذلك لم تتوقف منذ بداية الاحتلال محاولات تدنيس المقدسات الاسلامية في الحرم الشريف. عن طريق الاستمرار بأقامة المظاهرات والصلوات الدينية اليهودية في ساحاته، ويشارك في هذه الأعمال أيضاً جماعات من الجيش الاسرائيلي، ليس هذا فحسب، بل وصل الأمر إلى محاولات قام بها أعضاء لجنة الشؤون الداخلية في الكنيست الاسرائيلي لاقتحام المسجد الأقصى المبارك في مطلع عام ١٩٨٦، وهذا الحدث ينفرد عن كل الحوادث السابقة بأنه حادث «رسمي» من قبل لجنة الشؤون الداخلية في الكنيست، ينم عن سوء نية بصبغة رسمية مع سبق الاصرار.

أما بالنسبة للحفريات الصهيونية حول المسجد الأقصى المبارك وباقي المقدسات الاسلامية بالقدس فحدث عنها ولا حرج، فهي ذات أهمية كبرى لأعدائنا، فهذا مثلاً ـ وزير الأديان يصرح أثناء زيارة قام بها لمنطقة الحفريات يوم ٢٥/١٠/١٩٧٠ بأن «هذه الحفريات هي عملية تاريخية ومقدسة، وسوف نستمر بهدم المباني الموجودة بالمنطقة وإزالتها رغم كل العراقيل التي تقف في الطريق».

ودون الخوض في التفاصيل فقد نشطت ـ وما زالت ـ عمليات الحفر بشكل واضح، وتأثرت من جراء ذلك عشرات الأبنية الأثرية الاسلامية التي لا يمكن مستقبلاً تعويضها أو إعادة بنائها فيما ـ لو تفاءلنا ـ وتغير الوضع الراهن لصالح الأمة العربية! وقد نجم عن هذه الحفريات إلحاق الأذى والتصدع ـ بل الإزالة التامة ـ لعدد كبير من المساجد والزوايا والتكايا والمعابد والمدارس والمكتبات والبنايات والشواهد

والأسواق والحارات والمتاحف والأسبلة التي بنيت في عصور متفاوتة في قدمها. وقد زادت أعماق الحفريات في بعض المناطق عن ٢٥ متراً كما حدث أسفل ساحة الحرم وبعرض ستة أمتار.

ولم تقتصر الاعتداءات الصهيونية على الأماكن الاسلامية، بل شملت كذلك كثيراً من الأماكن المسيحية المختلفة في القدس، وقد تنوعت هذه الأعتداءات فشلمت إرهاب رجال الدين وأبناء الطوائف والضغط على بعضهم لاجبارهم على التنازل عن بعض العقارات والأملاك، وحمل الكثيرين منهم على النزوح من المدينة.

فعلى صعيد تحقير المقدسات المسيحية تعرضت كنيسة القيامة إلى عدد كبير من الحوادث خلال سنوات الاحتلال منها سرقة تاج السيدة العذراء في أواخر عام ١٩٦٧ من قبل بعض الاسرائيليين وكذلك تدمير دير راهبات القربان، ودير القديس يعقوب ودير رؤساء الملائكة، وإصابة كنائس القديسة حنة، والقديسين قسطنطين وهيلانه بأضرار. والاستيلاء على كنيسة مار جرجس وتحويلها إلى ملهى ليلي.

وقام الاسرائيليون أيضاً بتحطيم قناديل الزيت والشموع فوق القبر المقدس، كما قاموا بحرق أربعة مراكز مسيحية في القدس عام ١٩٧٤، وظهرت عام ١٩٨٠ على جدران المؤسسات والحوانيت شعارات معادية لأتباع عيسى عليه السلام من مثل: مبشرون خنازير، وشاربو دماء، وشعارات الصليب المعقوف. كما تعرض بعض رجال الدين المسيحي إلى الاهانات المختلفة التي يعف المرء عن ذكرها، وقد أدت الممارسات الصهيونية المهينة ضد المسيحيين العرب من سكان القدس إلى النزوح عن المدينة بصورة مستمرة، بحيث هبط عددهم ـ كما ورد في نشرة اللجنة الملكية لشؤون القدس بعمان ـ من ١٨,٣٠٠ نسمة سنة ١٩٦٧ إلى ١٢,٨٦٠ نسمة سنة ١٩٧٥، وإلى ما يقرب من نصف هذا العدد عام ١٩٨١، وقد أثارت هذه النتائج مخاوف رجال الدين المسيحي وفي مقدمتهم القاصد الرسولي في القدس (سفير البابا) الذي قال بأن «دور المسيحية في البلاد المقدسة سيتقلص عما قريب بحيث يتحول «رجال الدين» إلى مجرد حراس على متاحف وقيمين على مزارات».

غير أن الحكومة الاسرائيلية ذكرت في كتاب الاحصاء السنوي الخاص بمدينة القدس العربية (بجزأيها) في عام ١٩٨٣ أن عدد المسيحيين بها بلغ ١٣,٧٣٠ نسمة وعدد الدروز ٦١,٠٠٠، وعدد المسلمين ١٠٨,٥٣١، وعدد اليهود ٣٠٦,٣١٢ أما

العدد الاجمالي للسكان فبلغ ٤٢٨,٦٦٨ نسمة. وفي اليوم الرابع من شهر مايو عام ١٩٩١ ذكر راديو اسرائيل أن المعطيات الواردة في تقرير إحصاء السكـان الخاص بمدينة القدس توضح بأن عدد سكان المدينة يبلغ الآن أكثر من نصف مليون نسمة منهم (٧٢٪) من اليهود و(٢٨٪) من العرب. وبرغم عدم وجود إحصاء مستقل للسكان العرب بالمدينة المقدسة بعد احتلالها إلا أن الاجراءات الاسرائيلية التعسفية ضد كل ما هو عربي ومسلم يجعلنا لا نحسن النية مطلقاً في الاحصاءات اليهودية. وبتركيز شديد نقول بأن مجريات الأحداث تدل بشكل قاطع وجازم بأن الاعتداءات الصهيونية لن تقف عند حد معين، وإن الوقت يمضي سريعاً، وسريعاً جداً، والوقت ـ حسب ما نراه أمامنا من معطيات ـ ليس في صالح القدس العربية أبداً، ونتضرع لله مخلصين بألا تحمل إلينا وكالات الأنباء العالمية مستقبلاً نبأ هدم المسجد الأقصى المبارك، وهذا ليس تشاؤماً، ولكنه نتيجة منطقية لمعادلة منطقية ما دام الصلف الصهيوني مع التخاذل العربي يسيران في اتجاه واحـد، وساعتهـا لن تنفعنا كـل أساليب الإدانـة والشجب والتنديد والاستنكار مهما كان مصدرها ومسارها!!

وضمن إطـار المضايقـات الصهيونيـة ضـد الـوجـود المسيحي في فلسـطين المحتلة، فقد عمدت السلطات الصهيونية إلى الاستيلاء على دير مار يوحنا بالقدس وسمحت لمتطرفي اليهود بالاستيطان فيه . واعتداء الجنود الصهاينة على بطريـرك الروم الأرثوذكس ديودوروس وذلك في يوم الجمعة ٢٧ من نيسان (ابريل) ١٩٩٠م، فأغلقت كنيسة القيامة أبوابها في وجه المصلين والسياح، وقرعت أجراس الكنائس في القدس وبيت لحم والناصرة أجراسها حداداً بين ساعة وأخرى بناء على قرار اتخذه رؤساء الطوائف المسيحية في القدس احتجـاجاً على الاستيـطان اليهودي في حي النصارى.

وقام باغلاق أبواب كنيسة القيامة السيد وجيه نسيبة ممثلاً عن عائلته المقدسية التي تحتفظ بمفاتيح الكنيسة منذ أن تسلمتها من الخليفة عمر بن الخطاب وهي من يومها تفتح الأبواب وتغلقها يومياً، وأكد مصدر ديني أن هذه هي المرة الأولى التي تغلق فيها كنيسة القيامة وكل الأماكن المقدسة منذ ثمانمئة عام. وقد أغلق المسجد الأقصى أبوابه تضامناً مع نداء رؤساء الطوائف المسيحية[1].

(١) جريدة الحياة ـ لندن ـ ٢٨ ـ ٢٩ نيسان ١٩٩٠م.

بلدية القدس

يعتبر منصب رئيس البلدية من أرفع المناصب المحلية في فلسطين، وهو أكثر أهمية إذا كان يتعلق برئاسة بلدية عاصمة فلسطين السياسية والدينية.

ويدلنا التاريخ على أن أول بلدية أنشئت بالقدس كانت في عام ١٨٦٣، وقد قام الأتراك العثمانيون يومئذ بتعيين السيد عبد الرحمن الدجاني كأول رئيس للبلدية. ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٩١٣ بلغ عدد رؤساء بلديتها ستة عشر رئيساً نذكر منهم السادة: موسى فيض الله العلمي، ويوسف ضيا الخالدي، وعمر عبد السلام الحسيني، وشحادة فيض الله العلمي، وسليم الحسيني، وياسين الخالدي، وسعيد الحسيني، وفيض الله العلمي، وحسين سليم الحسيني.

ومن الذين انتدبوا للرئاسة خلال الحرب العالمية الأولى: عارف الدجاني وأحمد عارف الحسيني، وإسحق الشهابي، وحسين سليم الخالدي.

أما طوال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين (١٩١٧ ـ ١٩٤٨) فقد كانت الحكومة البريطانية تقوم بتعيين رئيس البلدية. وقد تولى الرئاسة خلال تلك الفترة السادة: حسين سليم الحسيني (وكان رئيسها يوم خرج العثمانيون من المدينة)، فموسى كاظم الحسيني، فراغب النشاشيبي، فالدكتور حسين فخري الخالدي، فمصطفى الخالدي، وبعد وفاته عينت بريطانيا نائبه (دانيال أوستر) وهو يهودي، فاحتج العرب على هذا القرار، ولما لم يستجب لرغبتهم بتعيين رئيس عربي قدم الأعضاء العرب بالمجلس البلدي استقالتهم، فألغت الحكومة المجلس، وأقامت مكانه في شهر تموز ١٩٤٥ لجنة بلدية برئاسة وعضوية شخصيات بريطانية بحتة.

ومن ضمن قائمة الآثار الأليمة لنكبة فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ انشطار القدس إلى شطرين: جديد وقديم. أما الجديد أو الغربي فقد استولت عليه «اسرائيل» ووضعته تحت جناحها، أما الشطر القديم الذي توجد فيه الأماكن المقدسة فقد بقي في الحضن العربي الأردني، وقررت الحكومة الأردنية في عام ١٩٤٩ تعيين السيد أنور الخطيب التميمي رئيساً لبلدية القدس واستمر في هذا المنصب حتى عام ١٩٥١، ثم خلفه السيد عارف العارف وأمضى ثلاث سنوات ثم خلفه الحاج عمر الوعري، وبعد وفاته عين نائبه السيد أمين صالح رئيساً بالإنابة.

وعندما اعتبرت الحكومة الأردنية القدس عاصمة روحية للمملكة استبدلت اسم

«بلدية القدس» باسم «أمانة القدس»، كما استبدلت في الوقت نفسه اسم «رئيس بلدية القدس» باسم «أمين القدس».

وبتاريخ ١٩/١/١٩٥٧ صدر قرار حكومي أردني بتعيين السيد روحي الخطيب أميناً للقدس.

ومن ضمن الآثار الأليمة لنكبة فلسطين الثانية عام ١٩٦٧ سقوط الشطر القديم من القدس تحت وطأة الاحتلال الصهيوني، واستمر السيد الخطيب في منصبه، ونتيجة لمواقفه الوطنية الشجاعة قامت السلطات الصهيونية بابعاده إلى الأردن يوم ١٩٦٨/٣/٧. فكان آخر أمين عربي للقدس العربية، وتم تعيين الارهابي تيدي كوليك الصهيوني رئيساً لبلدية القدس واستمر في منصبه حتى يومنا هذا.

* * *

وبالنسبة لقضاء القدس فتتبعه ست وستون قرية من أهمها: أبو ديس، بيت حنينا، بتير، بيت صفافا، بيت نوبا، بيت سوريك، دير ياسين، جبعة، سلوان، شعفاط، صور باهر، العيزرية، عين كارم، لفتا، القسطل، بيت نبالا، قلندية، النبي صمويل، الخان الأحمر، قالونيا، ابو غوش، بيت محسير، شرفات.

هذا وتنسب إلى القدس وقضاها عائلات كريمة كثيرة من ضمنها: الحسيني، النشاشيبي، الخالدي، نسيبة، جودة، الدجاني، الجاعوني، العلمي، البديري، الخطيب، أبو السعود، العسلي، المؤقت، شرابي، المفتي، العارف، معتوق، القزاز، مرمش، الزحيكة، رابية، نمر، عبد اللطيف، زحيمان، اسطانبولي، الطزيز، الداوودي، الشرفا، الكرد، البشيتي، القطب، قطينة، العوري، القرة، قليبو، أبو ناب، الغول، سرحان، شحادة، اسبيتان، أبو الهدى، زلاطيمو، البزلميط، حجازي، باكير، الكالوتي، القباني، الفتياني، درويش، الشهابي، عويضة، الترجمان، الخليلي، فخري، اللحام، كمال، الدقاق، وغيرها.

ويعتبر اليهود القدس عاصمة «لدولة اسرائيل» لذلك أقاموا فيها العديد من المنشآت العامة البارزة، مثل مبنى الكنيست «البرلمان»، والمركز الثقافي، والمركز الديني الأعلى، ومحطة الإذاعة، ومقر رئيس الدولة، ومحطة السكة الحديد، ومقر الوكالة اليهودية، وغرفة التجارة، ومقر الاتحاد النسائي، وإدارة البريد العامة، ودائرة البوليس المركزية. وجمعية الشبان المسيحية، والمحكمة العليا، وبنك اسرائيل

المركزي، ومحطة مراقبة الاشعاعات النووية وغيرها ومن أشهر معاهدها الثقافيـة: الجـامعة العبـرية وتعتبـر أكبر معهـد ثقافي في اسـرائيل. وهي مشيـدة على جبل سكوبس. وقام بافتتاحها في أول ابريـل (نيسان) عـام ١٩٢٥م اللورد بلفور وزيـر الخارجية البريطانية وصاحب الوعد المشؤوم.

ومن ضمن مواد الدراسة فيها اللغة العربية وآدابها وعلم الأسر الفلسطينية، «كما تقوم الجامعة العبرية إلى جانب نشاطها الأكاديمي الأساسي والذي يتمثل بـالتعليم العالي للطلاب بنشاطات علمية على جانب كبير من الأهمية وخاصـة في مجالات العلوم الطبيعية والرياضية والكيميائية، ومن هنا تنبع أهمية دورها في النشاط العلمي في اسرائيل». ويوجد في القدس الجديدة أكثر من عشرة مستشفيات متقدمة أشهرها مستشفى هداسا وهو أكبر مستشفيات «اسرائيل» وأكثرهـا تقدمـاً، في الوقت الـذي أغلقت فيه مستشفى «الهوسبيس» العربي عام ١٩٨٦ ويقع في القدس الشرقية. أما بالنسبة لشوارعها وسـاحاتهـا فمن أشهرهـا: ساحـة صهيون، جـادة الملك جورج الخامس، شارع يافا، شارع ابن يهودا، شارع الملك داود، شارع الملك سليمان، شارع غزة.

وقد بذلت مختلف الحكومات الاسرائيلية التي توالت منذ عام ١٩٦٧ كل ما في وسعها لجعل ضم القدس الشرقية للكيان الصهيوني أمراً راسخاً لا رجعة فيه، وأقيم حزام مسلح جبار على المرتفعات الشرقية لتقع المدينة بين فكي كماشة من جنوبي رام الله إلى بيت لحم.

كما قامت نفس هذه الحكومات باختلاق القوانين والأنظمة المختلفة لمصادرة الأملاك العربية وتصفيتها في القدس وضواحيها، ومن أهم هذه التشريعات التصفوية «قانون أموال الغائبين» الذي أتاح للحكومة أن تضع يدها نهائياً على أراضي وأملاك كل انسان عربي ترك محل إقامته وانتقل إلى مكان آخر خارج فلسطين أو داخلها بعد عام ١٩٤٧ باعتبار ذلك العربي غائباً، بمفهوم هذا القانون. ومن الأنظمة الأخرى كذلك : أنظمة الطوارىء، وأنظمة الضرائب التي تزيد عن عشـرة أنواع تؤدي في النهاية الى تعجيز المواطنين العرب وافلاسهم وبالتالي اضطرارهم الهجرة القسـرية ومن ثم تفريغ المدينة من أهلها العرب لتجسيد الاستمرارية الاستيطانية.

وبعد تدفق طلائع المهاجرين السوفيت في مطلع عام ١٩٩٠، تم الشروع في

بناء آلاف الشقق السكنية لاستيعاب أعداد هائلة منهم وذلك في القدس بشطريها الغربي والشرقي، وقد أعدت الحكومة الاسرائيلية خططاً سرية لاقامة ضاحية يهودية في القدس الشرقية تبلغ مساحتها مائتين وخمسة وعشرين فداناً، وذلك بهدف تعزيز سيطرة اسرائيل على القدس الشرقية.

وفي منتصف شهر فبراير من عام ١٩٩٢ كشف السيد روحي الخطيب عمدة القدس السابق عن مشروع اسرائيلي ضخم لتهويد المدينة تهويداً كاملاً وشاملاً يطلق عليه (القدس عام ٢٠٠٠) ويتضمن المشروع بناء ٢٦ ألف وحدة سكنية جديدة وإنشاء محطة سكك حديدية وسوق تجارية كبيرة ومحطة حافلات ضخمة وألف فيلا على أراضي قرية المالحة العربية المجاورة للجهة الغربية من القدس.

ويأتي هذا في نطاق تنفيذ مشروع «القدس الكبرى» الذي لا يهدف فقط إلى تهويد مدينة القدس فحسب بل يهدف إلى ضم معظم القرى المحيطة بها ورام الله والبيرة من جهة، وبيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور والقرى والمخيمات المحيطة بها من جهة أخرى. وتشكل مساحة هذه المنطقة نحو ثلاثين بالمائة من مساحة الضفة الغربية التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧م.

وأخيراً.. علينا أن نتذكر مقولة مجرم الحرب موشى دايان الذي احتل القدس الشرقية مساء يوم الثلاثاء السادس من حزيران (يونيو) من عام ١٩٦٧ وصلى على حائط المبكى ثم قال وهو يضع يده على حجارة الحائط: «لا فراق بعد اليوم، ولا عزلة ولا ابتعاد، سنبقى معاً: الشعب والأرض والحائط»! وإذا كنا نستنكر قرار الكنيست (البرلمان) الاسرائيلي بضم القدس الشرقية إلى اسرائيل وبعد أقل من ثلاثة أسابيع على انتهاء حرب عام ١٩٦٧، فلنا أن نستنكر ونعجب ونندهش ونحن نقرأ قرار مجلس الشيوخ الأمريكي (لا الاسرائيلي) الذي اعتبر «القدس عاصمة لدولة اسرائيل ويجب أن تبقى كذلك» والذي صدر يوم ٢٣ من مارس عام ١٩٩٠م أي بعد ٢٣ عاماً من صدور قرار الكنيست الصهيوني! وأمام واقعنا العربي الإسلامي المأساوي لا نملك إلا أن نقول بكل أسى وألم لمدينتنا الحبيبة الغالية: لقد عجز العرب والمسلمون عن تحريرك يا قدس، أو هم بالأحرى لم يحاولوا ذلك.. ولذلك سلمي أمرك لله، فالله وحده كفيل بك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

جامعة القدس

جامعة القدس مؤسسة عربية وطنية خاصة، وهي عضو في اتحاد الجامعات العربية، وتهدف إلى تهيئة الطلبة وتنشئتهم وتأهيلهم للمساهمة في بناء المجتمع العربي المعاصر.

وقد قامت الجامعة في عام ١٩٨٣ نتيجة جهود علماء أعلام لاعادة بناء قاعدة علمية حضارية للبلاد المقدسة، فقد تم توحيد الكليات الجامعية الموجودة منها والمتعددة الاختصاصات، وتشرف عليها هيئة عليا تقرر سياستها، وتضع الأسس والقواعد اللازمة لسير الحياة العلمية فيها، وتأمين الدعم المالي لها.

هذا وتتكون الجامعة من اندماج الكليات التالية..

أولاً: كلية الدعوة وأصول الدين ومقرها القدس.
ثانياً: كلية العلوم والتكنولوجيا ومقرها ابو ديس/القدس.
ثالثاً: الكليات العربية للمهن الطبية ومقرها البيرة/القدس.
رابعاً: كلية الآداب للبنات ومقرها القدس.

وجامعة القدس هي أول جامعة عربية وطنية حديثة بهذه المدينة المقدسة، هدفها بناء الانسان العربي على أسس علمية سليمة، وإتاحة الفرصة لأكبر عدد من أبناء فلسطين للالتحاق في كافة المجالات العلمية من أجل بناء صرح الحضارة العربية ومواكبة عصر التطور في العالم في إطار ديني مكين.

ومن ضمن الأهداف الرئيسة التي أُنشئت من أجلها جامعة القدس إعادة إبراز مكانة القدس الدينية والعلمية والعربية، فقد كانت القدس مناراً للعلم والتدريس، تشد إليها رحال العلماء من كل صوب وحدب للاستزادة والتدريس، فترعرعت فيها في الماضي علوم الفقه والحديث والتفسير والعلوم الطبيعية، وقام بالتدريس فيها مجموعة كبيرة من كبار العلماء، وقد اعتكف فيها العالم المسلم الشهير أبو حامد الغزالي حيث بدأ بتصنيف كتابه «إحياء العلوم»، وفيها عدد من دور الكتب وفيها مكتبات قديمة تحتوي على مخطوطات كثيرة، وفيها مدارس عديدة منذ الفتح الاسلامي الأول، أوقف عليها الكثير من الأملاك لتنفق على مدرسيها وطلابها وخدمتهم.

شخصيات بارزة من قضاء القدس

لقد أنجبت القدس وقضاها خلال المسيرة التاريخية الطويلة أفواجاً متتالية من الشخصيات البارزة في كافة مناحي الحياة، وحسبنا أن نشير هنا إلى ذكر بعض الشخصيات التي توفاها الله تعالى خلال الفترة الممتدة منذ بداية القرن العشرين وحتى تاريخ صدور هذا الكتاب في عام ١٩٩٢م.

شيخ المجاهدين الشهيد موسى كاظم باشا الحسيني (١٨٥٣ - ١٩٣٤)، عارف بكر الدجاني أحد أقطاب الحركة الوطنية (١٨٥٦ - ١٩٢٨)، الصحفي حنا عبد الله العيسى (١٨٥٨ - ١٩٠٩)، سعيد «بيك» الحسيني، وطني وسياسي بارز، (١٨٦٠ - ١٩٤٥)، الفقيه الشيخ خليل جواد الخالدي (١٨٦٦ - ١٩٤١)، الشيخ أديب جودة «غضية» الحسيني، رئيس مؤذني الحرم الشريف (ـ ١٩٤٠)، الفنان توفيق جوهرية (ـ ١٩٤٠)، القاضي إسحاق البديري (ـ ١٩٤٠)، الوجيه حسام الدين أبو السعود (ـ ١٩٣٥)، السياسي حسن صدقي الدجاني (١٨٩٠ - ١٩٣٨)، السياسي محمود جميل الحسيني (ـ ١٩٣٨)، الوجيه شبلي الجمل (ـ ١٩٣٨)، أنطون عطاالله، حقوقي وسياسي واقتصادي (١٨٩٧ ـ). روحي الخالدي، رائد البحث التاريخي الحديث بفلسطين (١٨٦٤ - ١٩١٣)، الاقتصادي شكري ديب (ـ ١٩٤١)، المربي إبراهيم درويش (ـ ١٩٤٣) راغب النشاشيبي رئيس حزب الدفاع الوطني، وحاكم الضفة الغربية من قبل الأردن (١٨٨٣ - ١٩٥١)، بندلي صليبا الجوزي، مؤرخ، وباحث، ولغوي وكاتب (١٨٧١ - ١٩٤٢)، الدكتور الشهيد علي عمر النشاشيبي (ـ ١٩١٦)، فيض الله العلمي، إداري، سياسي، ثري (١٨٦٥ - ١٩٢٤)، يوسف ضيا باشا الخالدي (١٨٤٢ - ١٩٠٦) السياسي المعروف. الشيخ الفقيه أديب إبراهيم السراج (١٨٩١ - ١٩٣٦)، الشيخ موسى خليل البديري (ـ ١٩٣٧) الشهيد سامي إبراهيم الأنصاري (ـ ١٩٣٦)، الشهيد علي حسين سليم الحسيني (ـ ١٩٣٩)، الشهيد محمد جميل الحسيني (ـ ١٩٤٨)، الشيخ فائق شحادة الأنصاري (١٨٩٥ - ١٩٤٨)، محمد اسعاف النشاشيبي، نابغة لغوي عرف بأديب العربية (١٨٨٥ - ١٩٤٨)، الشيخ ظاهر عبد القادر أبو السعود أحد مشايخ الحرم القدسي الشريف (١٨٦١ - ١٩٢١)، السياسي المناضل جمال الحسيني (١٨٩٢ - ١٩٨٢)، الحاج راغب الخالدي، رئيس وزراء أردني سابق (ـ ١٩٥٢)، الشيخ محيي الدين الحسيني (ـ ١٩٤٦)، المفتي الشيخ كامل الحسيني (١٨٨٥ ـ)، الشيخ عبد القادر المظفر،

مفتي الجيش التركي بفلسطين (١٨٨٠ - ١٩٣٣)، الشهيد البطل عبد القادر الحسيني، قائد جيش الجهاد المقدس (١٩٠٨ - ١٩٤٨)، السياسي فايز الحداد (ـ ١٩٥١)، القاضي مصطفى الخالدي (ـ ١٩٥١)، الموسيقي قسطندي الخوري (ـ ١٩٥٢)، الاقتصادي فايز المهتدي (ـ ١٩٤٨)، الشيخ عبد الباري بركات (ـ ١٩٥٤)، الدكتور فوتي فريج (ـ ١٩٥٨)، السياسي محمد يونس الحسيني (ـ ١٩٥٣)، حسين فخري الخالدي، وزير خارجية ثم رئيس وزراء في الأردن (١٨٩٤ - ١٩٦٢)، خليل السكاكيني، أديب ومرب ورائد من رواد العربية (١٨٧٨ - ١٩٥٣)، الشيخ حسن أبو السعود (ـ ١٩٥٧)، المربي شريف النشاشيبي (ـ ١٩٦٤)، المحامي شكري المهتدي، وزير أردني سابق (١٩٠٦ ـ)، أحمد حلمي عبد الباقي، رئيس حكومة عموم فلسطين (١٨٨٢ - ١٩٦٣)، أحمد سامح الخالدي، مرب وإداري (١٨٩٦ - ١٩٦١)، إسماعيل راغب الخالدي، رئيس قسم الشؤون السياسية بمجلس الأمن «سابقاً» (١٩١٦ - ١٩٦٨)، توفيق كنعان، طبيب ومفكر اجتماعي (١٨٨١ - ١٩٦٤)، جميل يعقوب وهبة، مدير عام الأوقاف في فلسطين «سابقاً» (١٨٩٧ - ١٩٧١)، السياسي المعروف والمجاهد الاستقلالي عوني عبد الهادي (١٨٨٨ - ١٩٧٠)، المؤرخ الشهير عارف العارف، رئيس بلدية القدس، ووزير أردني سابق (١٨٩٢ - ١٩٧٣)، عبد الحميد شومان نابغة اقتصادي، ومؤسس البنك العربي (١٨٨٩ - ١٩٧٤)، الشيخ عيسى منّون، عضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف (١٨٨٨ - ١٩٧٥)، الحاج محمد أمين الحسيني، مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا (١٨٩٥ - ١٩٧٤)، السياسي الوطني محمد إسحاق درويش (١٨٩٨ - ١٩٧٤)، موسى العلمي، نابغة اقتصادي معروف (١٨٩٧ ـ)، المربي عبد الحميد ياسين (ـ ١٩٧٥)، الشيخ عبدالله غوشة، قاضي قضاة ووزير عدل في الأردن «سابقاً» (١٩٠٨ - ١٩٧٠)، المجاهد كامل عريقات، رئيس مجلس النواب الأردني «سابقاً» (١٩٠٦ - ١٩٨٣)، الدكتور خليل موسى البديري وطني وسياسي (ـ ١٩٨٤)، زياد سعد الدين الخطيب، رئيس الدائرة السياسية في الهيئة العربية العليا لفلسطين (١٩٢٦ - ١٩٨١)، إميل الغوري، محام وسياسي وكاتب (١٩٠٧ - ١٩٨٢)، الشهيد الرائد إسماعيل درويش (١٩٤٥ - ١٩٨٤)، اليكس عوده، مسؤول اللجنة العربية الأمريكية المناهضة للتمييز العنصري (ـ ١٩٨٥)، الدكتور حسام وفا الدجاني (١٩٠٩ ـ)، الصحفي السياسي حنا مقبل (١٩٤١ - ١٩٨٤)، المربي فائز علي الغول، مدير تعليم سابق بالأردن (١٩١٥ - ١٩٧٢)، الشهيد الرائد جميل نمر أبو

غوش (١٩٤٧ - ١٩٨٥)، الشهيد علي محمد جوهر، (١٩٥٤ - ١٩٨٥)، الشهيد نبيل محمد قشعم (١٩٥٢ - ١٩٨٥)، الشهيد ماجد موسى أبو الحمص (١٩٤٦ - ١٩٨٥)، المحامي المجاهد أنور زكي نسيبة (- ١٩٨٦)، الشهيد العقيد راسم الغول قائد القوة (١٧) في جنوب لبنان (١٩٤٦ - ١٩٨٧)، الشهيد المناضل عمر القاسم (توفي في معتقل يهودي مكث فيه ٢٢ عاماً) (١٩٤١ - ١٩٨٩)، المناضلة زليخة الشهابي (١٩١٠ - ١٩٩٢) وغيرها.



رام الله والبيرة... ريحانتا فلسطين

هاتان مدينتان يزهو الجمال بجمالهما، ويتباهى الحسن بحسنهما، تتجدد الأشواق إليهما تلقائياً ودونما عناء، فأنت لا ترتوي من حبهما، ولا تملُّ الاقامة فيهما.

ورام الله والبيرة مدينتان توأمان، كانتا في الأصل قريتين متجاورتين، ثم تطورتا واندمجتا معاً فأصبحتا مدينة واحدة مشتركة، فعندما نتحدث عن رام الله بشكل عام فإنما نعني بها رام الله والبيرة معاً باستثناء بعض الخصوصيات التاريخية.

وتقع رام الله الساحرة على أكتاف التلال الجميلة الممتدة من جبال القدس، وهي تشكل حلقة في سلسلة المدن والقرى الفلسطينية التي ترصع قمم المرتفعات الجبلية بفلسطين.

ورام الله هي أروع مصيف جبلي في الديار الفلسطينية بلا منازع، حيث ترتفع مسافة ٨٦٠ متراً عن سطح البحر الأبيض المتوسط، وهي بذلك تزيد علواً بنحو ستين متراً عن القدس بينما تبعد عنها بمقدار ١٦ كم وتعتبر البوابة الشمالية لها.

ومما يزيد في روعتها وبهائها كونها محاطة ببساتين الزيتون والصنوبر وكروم العنب والتين من كافة جوانبها.

وإذا ما اعتلى المرء أية ربوة من روابيها فباستطاعته أن يرى بالعين المجردة مياه البحر المتوسط بكل ألقها وجمالها، كما يستطيع أيضاً ـ إذا كان حاد البصر ـ مشاهدة البواخر والسفن الراسية في ميناء يافا.

وتحدثنا كتب التاريخ بأن معظم الغزوات الحربية التي اتجهت نحو القدس

مرت من منطقة رام الله، وهذا ينطبق أيضاً على آخر تلك الغزوات، حيث استفاد الصهاينة أثناء هجومهم على القدس في عام ١٩٦٧ من مزايا موقع رام الله كمعبر سهل لتقدم قواتهم.

أما من حيث المناخ فهو معتدل بشكل عام لأنه ينتمي إلى مناخ البحر الأبيض المتوسط. ويبلغ متوسط درجة الحرارة ٢٢ درجة مئوية صيفاً، و١٢ درجة مئوية شتاء. وإذا كانت رام الله تغفو شتاء نظراً إلى برودة طقسها وسقوط الثلوج أحياناً على تلالها، فهي تنهض من هذه الاغفاءة على رائحة الأزهار المتفتحة في شهري آذار ونيسان (مارس وابريل) وتفتح أذرعها المفعمة بالحب والعشق لأبنائها المغتربين العائدين إليها خلال فصول الصيف.

وبسبب كل هذه الميزات الإيجابية فإن المقادسة يعتبرون رام الله رئتهم التي يتنفسون بها فيفدون إليها للترويح والاستجمام، كما يفد إليها المصطافون من أماكن متفرقة من فلسطين. وقبيل حرب حزيران كانت تؤمها أعداد كبيرة من أبناء الضفة الشرقية كما أن كثيراً من السياح العرب كانوا يأتون للاصطياف بها، وكان يشجعهم على ذلك وجود مطار «قلنديا» الذي كان يعتبر حتى ذلك الوقت مطار القدس الدولي بالقرب منها. أما في الوقت الحاضر فقد امتد التوسع العمراني لرام الله والبيرة فوصل إلى المطار نفسه.

وكان يشجعهم أيضاً حسن معاملة المواطنين. وكرم وفادتهم. وحدبهم على الضيوف. وتوافر جميع وسائل الاعاشة بأسعار زهيدة.

ورام الله هي مركز قضاء (إقليم) رام الله التابع إدارياً للواء القدس حسب تنظيم تقسيمات فلسطين الإدارية خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين وهذا المركز يشتمل على مدينتين توأمين هما رام الله والبيرة إضافة إلى ٥٨ قرية من أهمها: بيرزيت، الطيبة، بيت ريما، ترمس عيا، دير أبو مشعل، دير دبوان، سلواد، الطيرة، عين يبرود، عمواس، بيت نوبا، يالو، النبي صالح، دير قديس، المزرعة الشرقية، بيت عور الفوقا والتحتا، دير غسانة.

ومعلوم أن قضاء رام الله هو القضاء الفلسطيني الوحيد الذي لم يغتصب منه الصهاينة أي جزء حتى الرابع من حزيران عام ١٩٦٧. ويعتبر من ناحية أخرى من أحسن المناطق الفلسطينية نجاحاً في زراعة الزيتون.

وهو ـ أيضاً ـ القضاء الذي تتبعه بلدة بيرزيت ذات التاريخ النضالي والعلمي المشهور.

نشأة المدينتين

تعتبر البيرة من المدن الكنعانية القديمة، وهي أقدم نشأة من رصيفتها رام الله برغم أن الثانية أكثر شهرة من الأولى، وقد كانت البيرة فيما مضى تدعى «بئيروت» وقد مر منها ـ كما ذكر المؤرخ عارف العارف ـ جد الأنبياء إبراهيم عليه السلام عندما خرج من أور وأتى إلى أرض كنعان وهو في طريقه إلى مصر. وذلك في أواخر القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

وكلمة «بئيروت» كلمة كنعانية الأصل. والكنعانيون ـ كما هو معروف ـ هم سكان فلسطين الأقدمون الذين استوطنوها قبل بني اسرائيل، وقبل أن يأتي إليها سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام. والمرجح عند المؤرخين أن البيرة بُنيت على مكان «بئيروت».

وفي العهد الروماني حملت اسم «بيرة» ثم أضيفت إليها أل التعريف فيما بعد. وكلمة البيرة ـ كما ذكرت دائرة المعارف الاسلامية ـ هي ترجمة اللفظ الآرامي «بيرتا» بمعنى القلعة أو الحصن.

وذكر أستاذنا مصطفى الدباغ في «بلادنا فلسطين» بأن الفرنجة بنوا في البيرة عام ١١٤٦م قلعة صغيرة وكنيسة وداراً ينزل فيه حجاج بيت المقدس. وفي القرن السابع عشر للميلاد ترك الشيخ حسين طناش وجماعته منازلهم في منطقة الكرك، ونزلوا «البيرة» التي كانت تسكنها عشيرة «الغزاونة»، وطناش هذا هو جد عشيرة آل حسين في البيرة. وكان ذلك في الوقت الذي نزلت فيه جماعة «الحدادين» خربة رام الله ـ غير المأهولة ـ إلى الغرب من البيرة.

ويذكر السيد يحيي الفرحان في كتابه «رام الله والبيرة» عن السيد محمد حماد مؤلف كتاب مدينة «البيرة: مصيف الأردن الجميل» أن تركيا رحلت عن البلاد، وحل محلها انتداب بريطاني غاشم يهدف إلى وضع البلاد بأسرها في أحوال علمية واقتصادية وتجارية تسهل قيام الوطن القومي لليهود في فلسطين. وأخذت البيرة تعتمد على سواعد أبنائها للحصول على أسباب معيشتها فأخذوا يجدّون في زراعة بدائية.

وما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى بدأ العديد من أبناء البيرة بالهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وإثر ذلك تتابع تدفق الأموال على البيرة فانتعشت حياتها. وبعد نكبة عام ١٩٤٨ تدفق عدد كبير من اللاجئين إلى المدينة. فتضاعف عدد سكانها، وازدادت مبانيها. وأنشئت حديقة البلدية وبعض المرافق المهمة.

أما بالنسبة لرام الله فهي كرصيفتها البيرة هبة أبنائها، ولكن ليست لها جذور تاريخية عميقة مثلها والتي يمتد تاريخها إلى زمن اجدادناالكنعانيين. وكانت عبارة عن قرية صغيرة لا يميزها شيء عن غيرها من باقي القرى الجبلية بالمنطقة، ولم يرد لها ذكر في المراحل التاريخية السابقة لفترة الحملات الصليبية على فلسطين. أما بشأن تكوين الكلمة ذاتها، فيذكر السيد خليل أبو ريّا مؤلف كتاب «رام الله قديماً وحديثاً» ان كلمة رام الله تتألف من مقطعين. الأول (رام) وهو لفظ آرامي يعني جبل أو مرتفع، والمقطع الثاني (الله) وهو عربي صرف، وهذا يحملني إلى الاعتقاد بأن اسم (رام الله) كان أولاً (رام) أو (رامه). ولما جاء العرب ـ لسبب ما ـ أضافوا لفظة (الله) إلى رام أو رامة فأصبحت تدعى رام الله إذ لا يعقل أن يضيف شعب غير عربي لفظة عربية إلى لفظة أخرى غير عربية. ومن الثابت أن إضافة كلمة «الله» إلى «رام» قد تم قبل العصور الصليبية، وإن اسم (رام الله) كان معروفاً في العهد الصليبي وما زالت توجد بالمدينة بعض الآثار مثل مقام الخليل، وبناء البرج في حي الشقرة، ومعصرة «البلد».

اغتراب ونجاح

أما فيما يتعلق بسكان «رام الله» فتذكر الروايات الكثيرة المتعلقة بهذا الشأن أنه في أوائل القرن السابع عشر رحل إليها السيد راشد الحدادين عميد أسرة الحدادين العريقة المعروفة في مدينة الكرك بالأردن نتيجة لسوء تفاهم وقع بين قبيلته وقبيلة بني عمر المعروفة. فتوجه إلى إحدى ضواحي البيرة. فراقت له خربة تدعى «رام الله» لما فيها من أحراش وأشجار ضرورية لمهنة الحدادة التي كان يحترفها. فابتاع الخربة من أصحابها «الغزاونة» وهم أهل البيرة الأصليون. واستقر مع أولاده فيها. وفي الوقت نفسه تقريباً وصلت جماعة من قبيلة آل حصين واستقرت في البيرة وكانت قادمة من الكرك.

وفي عام ١٨٢٥ نزحت جماعة أخرى من قبيلة «الربضية» قدمت من جبل عجلون بالأردن واستقرت في رام الله وهي المعروفة اليوم بقبيلة «العجلوني» الشهيرة وهناك عائلات أخرى مشابهة.

إن رام الله تمتاز بحبها لأبنائها. وبحب أبنائها لها. وكلما ابتعد أبناء رام الله عنها ازدادوا حباً وعشقاً لها. فهم يغتربون عنها بعيداً وراء الأفق يكدّون ويكدّون ثم يبعثون بثمار كدهم لتحسين معاش أهلهم، ورفع مستوى مدينتهم اقتصادياً واجتماعياً وعلمياً.

وأهل رام الله لا زالوا يتذاكرون سيرة الشاب المغامر عيسى عبده الذي غادر المدينة عام ١٨٩٥. وبعد خمس سنوات بعث لوالده من بلاد المهجر بأول حوالة مالية وصلت رام الله وكانت قيمتها مائة جنيه ذهباً «ويومها حضر أهل البلد لتهنئة الوالد بهذه الثروة الكبيرة المفاجئة» وبعدها بدأت الهجرة إلى أمريكا على نطاق واسع لجلب (جنيهات الذهب) على حد تعبير مؤلف تاريخ رام الله.

ثم تتالت أفواج المغتربين. ونجح الكثيرون منهم في التجارة والصناعة. كما تخرج عديد من شبابهم من الجامعات الأمريكية وحصلوا على شهادات ومناصب عالية. وبعثوا إلى أهلهم بجنيهات ذهب كثيرة ووفيرة سرعان ما تحولت في أيدي الرجال والنساء إلى نهضة عمرانية شاملة امتدت إلى الارض الزراعية المحيطة بها. وظل الأعمار يزحف تدريجياً حتى اتصل بمدينة البيرة فاندمجت المدينتان معاً منذ أوائل الستينيات.

أما بالنسبة لعدد السكان فقد بلغ نحو خمسة الآف نسمة عام ١٩٤٥م. وقدر عددهم في عام ١٩٩٠م بنحو خمسة وعشرين ألف نسمة. ولعبت الهجرة دورها في هذا المضمار.

وتحدثنا كتب التاريخ بأن البريطانيين دخلوا رام الله بتاريخ ٢٧ من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩١٧ ويصف الأستاذ يوسف قدورة مؤلف «تاريخ رام الله» جزءاً مما حدث من مناوشات بين العثمانيين والإنجليز أثناء احتلال المدينة بقوله: وعلى أثر دخول رام الله حدثت مناوشات بين الأتراك والإنجليز في البلدة إذ كان هناك عش لمدافع الألمان الرشاشة على قمة جبل عين المصباح أوقف تقدم الإنجليز إلى أن قضت المدافع البريطانية على هذا العش وانسحب الأتراك من رام الله».

وتحدثنا أيضاً كتب النضال الفلسطيني بأن قضاء رام الله كان خلال ثورة فلسطين الكبرى عام ١٩٣٦ شعلة متوقدة من الجهاد ضد البريطانيين. وقد حدث ذات يوم أن هاجم بعض الثوار مركز بوليس المدينة وعلى رأسهم القائد محمد على النوباني. فاستطاعوا احتلال المركز وقتل بعض من كانوا فيه من الجنود ومن ضمنهم مفتش البوليس البريطاني بالمدينة. كما غنموا كثيراً من الأسلحة والذخائر التي وجدوها بالمركز. وبعد عدة ساعات وصلت قوات من الجيش البريطاني المرابط في القدس. وطائرات من بلدة صرفند، وعلى أثر ذلك اشتدت المعركة ضراوة خاصة بعد وصول نجدة من رجال القرى الفلسطينية المجاورة. وأسفرت النتيجة عن استشهاد ما لا يقل عن ثلاثين عربياً واستطاع الثوار قتل وجرح العديد من الجنود البريطانيين. كما تمكنوا من إسقاط طائرة عسكرية بريطانية بالقرب من قرية بيت عور.

وبقي حبل النضال الفلسطيني في هذا القضاء ممتداً أثناء وبعد الاحتلال الصهيوني للمدينة في حرب حزيران عام ١٩٦٧، ولا تمر مناسبة من المناسبات الوطنية إلا ويكون شباب رام الله وشباب قضائها في مقدمة المشاركين فيها، وفي يوم الأرض بتاريخ ١٩٧٦/٦/٣٠ صارت رام الله وبيرزيت ميداناً لمعارك مواجهة عنيفة بين المتظاهرين العرب وقوات الاحتلال الصهيوني، حيث سقط العديد من الشباب والشابات بين شهيد وجريح ومعتقل، وأمام كثرة عدد المعتقلين العرب خاصة في زخم الانتفاضة الفلسطينية المباركة التي اشتعل أوارها في التاسع من ديسمبر عام ١٩٨٧ اضطرت السلطات المحتلة إلى توسيع سجن رام الله الذي يقع شمال المدينة. وقد بُني في عهد الانتداب البريطاني، ورغم توسعته إلا أن أعداءنا يحشون فيه ثوارنا بنسبة تزيد على أربعة أضعاف طاقته الاستيعابية المقررة في الأصل، ويتم في هذا السجن التوقيف والتحقيق وتمارس فيه عمليات التعذيب الرهيبة، وهو واحد من أكثر من ثلاثين سجناً في فلسطيننا العربية المحتلة.

نهوض مبكر

تمتاز مدينة رام الله بتقدمها على كثير من المدن الفلسطينية من حيث نهوضها المبكر في المجال التعليمي بوجه خاص، وتذكر احصاءات التعليم في فلسطين بأن نسبة المتعلمين في المدينة قبيل الحرب العالمية الثانية كانت ٣٣ بالمائة ، حيث أنشئت فيها في وقت مبكر من هذا القرن مدرسة وطنية ومدرستين داخليتين أجنبيتين كان الطلاب يفدون إليهما من عدة مدن وقرى فلسطينية. . أما بعد نكبة فلسطين

الأولى عام ١٩٤٨ فقد قامت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأونروا» بإنشاء مركزين لتدريب المعلمين والمعلمات هما مركز تدريب الفتيات والمعلمات (١٩٦٢)، ومعهد تدريب المعلمين (١٩٦٠)، وفي عام ١٩٥٢ تم تأسيس معهد المعلمات الحكومي الذي ما برح يرفد المدارس والمعاهد في فلسطين المحتلة بعشرات من المدرسات كل عام ومدة الدراسة فيها سنتان. وهو الأول والأوحد من نوعه في الأرض المحتلة، كما أنشئت العديد من المدارس والمعاهد التعليمية في العهد الأردني مما ساعد على تطور الأساليب العلمية والتربوية وزيادة نسبة التعليم ويمكننا أن نقدر هذه النسبة ـ بكل ثقة ـ بما لا يقل عن تسعين بالمائة في الوقت الراهن.

أما نساء وفتيات رام الله والبيرة فهن مشهورات بمهارتهن الفائقة في صناعة المطرزات الجميلة التي يقبل عليها السواح، وتصدر منها كميات كبيرة إلى الولايات المتحدة بشكل خاص.

كما يتقن الحرفيون من أبناء رام الله الصناعات اليدوية التي تعد وليدة النشاط السياحي كصناعة التحف الخشبية من أشجار الزيتون والزان والبلوط.

وتقوم في المدينتين عدة جمعيات خيرية أبرزها جمعية النهضة النسائية وجمعية رعاية الطفل، والجمعية التعاونية للأشغال اليدوية، وجمعية انعاش الأسرة التي أسستها عام ١٩٦٥ المناضلة سميحة سلامة خليل (٦٧ عاماً) التي اعتقلتها السلطات الاسرائيلية عام ١٩٨٨ وأغلقت الجمعية لمدة عامين، علماً بأن الجمعية لا دخل لها في الأمور السياسية ونشاطاتها تنحصر في الأعمال الإنسانية وتضم مراكز التدريب المهني وروضات للاطفال، ومراكز انتاجية للخياطة والتطريز وأقسام ثقافية صدرت عنها نحو عشرة كتب ثقافية وبيت للاطفال الأيتام كما تقوم الجمعية بتقديم المساعدات للمحتاجين وأسر الشهداء والمعتقلين.. الخ.

وللتكافل الاجتماعي بين أبناء قضاء رام الله صور مشرفة لعل من أبرزها تبرع المغتربين ببناء مستشفى رام الله الذي افتتح عام ١٩٦٣. ويعد ـ حتى الآن ـ من أفضل مستشفيات الضفة الغربية وقطاع غزة، ومن أكثرها كفاءة.

خصوصيات رام الله

يصر الأستاذ يوسف قدورة على فتح شهياتنا حينما يتحدث عن خصوصيات رام الله قائلاً: إن الذين زاروا رام الله والبيرة شاقهم فيها الطعام المحلي بالإضافة إلى جمال الطبيعة الخلاب، وعذرية الجو، فأشهى المأكولات هناك هو «المسخن بالطابوق»، وهو نوع من الطعام يتألف من دجاج مشوي على حجارة صلبة، يكفي لشواء الدجاجة، فإذا نضجت فإنها توضع على الخبز البلدي المصنوع من القمح الصافي وتضاف إليها السلطة الخاصة وهي عبارة عن بصل مفروم محمر بالزيت والسماق والصنوبر وهو طعام لا ينساه من يتذوقه.

وتشتهر هناك أكلة «الزرب» وهي عبارة عن خروف يشوى داخل فرن مقفل مطمور، ولعله أشبه ما يكون «بالدفين» الذي يتقن عرب البادية صنعه ويتفاخرون فيه، وهناك ملك المائدة الدائم في الولائم والحفلات والدعوات العامة وهو «المنسف»، وهو عبارة عن فتيت الخبز الذي يضاف إليه مرق اللحم، وتطرح فوقه طبقة من الأرز المطبوخ وقطع اللحم الكثير.

بيــر زيت

باعتبارها البلدة الأشهر في قضاء رام الله سنحاول التعريف بإيجاز عنها، فقد أنشأتها قديماً جماعات من العرب وفدت من مناطق الكرك والقدس وغزة، وأقامت بيوتها وسط أحراج الزيتون فقامت صناعة زيت الزيتون التي أعطت البلدة اسمها الحالي.

وتقع بير زيت على مسافة ١٠ كم إلى الشمال من رام الله، وهي عقدة مواصلات ترتبط بطرق معبدة مع المدن والقرى المجاورة لها.

وهي بلدة جميلة ونظيفة ومزدهرة ومنظمة، وقد ساهم في أعمارها أبناؤها المغتربون الذين يرسلون الأموال إلى أهلهم، كما ساهم وجود جامعة بير زيت في ازدهار الحركة العمرانية والثقافية والتعليمية والتجارية في البلدة، ويتميز سكانها بارتفاع مستواهم التعليمي إذ بلغت نسبة المتعلمين من أبنائها ٩٠ بالمائة بين الذكور، و٥٠ بالمائة بين الإناث، وقد قدر عدد سكانها عام ١٩٩٠ بنحو عشرة آلاف نسمة، وتنتمي الأغلبية العظمى من السكان حالياً لثلاث عائلات رئيسة هي:

اولاً: عائلة عيد، وفروعها: علوس، غنيم، بربار، صايخ، أبو دية، ربيع، كيلة.

ثانياً: عائلة مُسلّم وفروعها: ناصر، عرنكي، القسيس، زبادة، الدوارة، شاهين.

ثالثاً: عائلة عبد الله، وفروعها: أبو جاسر، غياض، حنانيا، سعادة، شحادة.

وتعتبر عائلة ناصر ذات مكانة متميزة في المجالات التعليمية والوطنية، والسياسية يشهد بها الجميع، وقد قدر لهذه البلدة الوادعة أن تشهد في عام ١٩٤٨ حدثين مهمين، أولهما عندما حط بها الجيش العراقي فالتحق به بعض شبابها، وثانيهما عندما اتخذها القائد البطل عبد القادر الحسيني مقراً لقيادة جيش الجهاد المقدس.

جامعة بير زيت

إن وجود الجامعة فيها يعد بمثابة الحدث الأكبر في تاريخها، ونظراً للأهمية القصوى لهذه الجامعة باعتبارها بؤرة النضال الوطني ضد الاحتلال الصهيوني فسنحاول إلقاء بعض الضوء عليها. ففي البداية تأسست «مدرسة بير زيت» في عام ١٩٢٤ على يد المربية الفاضلة نبيهة حنا ناصر (وهي أم الشاعر المعروف كمال ناصر)، وكانت المدرسة ذات مستوى علمي رفيع جعل الطلاب يفدون إليها من كافة مناطق فلسطين وشرقي الأردن باعتبارها أولى المدارس الأهلية للبنين والبنات معاً، وبها قسم داخلي.

وفي عام ١٩٤٢ أطلق على المدرسة لقب «كلية بير زيت» وفي عام ١٩٥١ بدأت الكلية تُدرّس فوق المستوى الثانوي حيث أضيف إليها صف جامعي، وفي نهاية عام ١٩٦٦ تم إلغاء آخر الصفوف الثانوية.. وقد سبق ذلك إلغاء كافة الصفوف الابتدائية والاعدادية، ويعود الفضل في هذا التطوير إلى جهود السيد موسى ناصر الذي بقي رئيساً لها حتى وفاته في عام ١٩٧١، ثم تولى رئاستها ابنه الدكتور حنا ناصر الذي أبعدته سلطات الاحتلال في عام ١٩٧٩.

وفي أعقاب حرب حزيران (يونيه) عام ١٩٦٧ بدأ إعداد الكلية لتدخل مرحلة الجامعة، وتم إقرار برنامج التوسع لأربع سنوات جامعية، وفي عام ١٩٧٥ تقرر تغيير اسم الكلية لتصبح «جامعة بير زيت» بحيث يتوافق الاسم مع المُسَمَّى.. وفي نفس

العام أيضاً انضمت الجامعة إلى اتحاد الجامعات العربية وإلى اتحاد الجامعات العالمي.

شخصيات بارزة من قضاء رام الله

أنجب قضاء رام الله - مثل باقي أقضية فلسطين - افواجاً عديدة ومتلاحقة من الشخصيات البارزة في المجالات الحياتية المختلفة، وبرغم قناعتنا بالعجز عن حصر هذه الشخصيات، إلا أن ذلك لا يمنعنا من ذكر اسماء من توافرت لدينا معلومات عنهم مقتصرين على من توفاهم الله سبحانه وتعالى في العصر الحديث:

الدكتور فؤاد عيسى شطاره (١٨٩٢ - ١٩٤٢)، وطني نشط وسياسي بارز - خليل طوطح (١٨٨٧ - ١٩٥٥) مرب وكاتب - مغنم الياس مغنم، رجل سياسة بارز ومحام مشهور - حنا صلاح، عمل مهندساً ببلدية يافا - فرحات يعقوب زيادة، عمل أستاذاً بجامعة برنستون بأمريكا وله عدة مؤلفات - بولس شحادة (- ١٩٤٠) صاحب جريدة «مرآة الشرق» التي كانت تصدر بالقدس منذ عام ١٩١٩ ثم احتجبت بعد وفاته. - الدكتور سليم شحادة (١٩١٠ - ١٩٤٩) صحفي وكاتب - محمد عبد السلام البرغوتي (-، ١٩٥٢)، المحامي جورج صلاح (-، ١٩٥٠)، الخوري نقولا الخوري (١٨٨٠ - ١٩٥٠)، الشيخ علي الريماوي (١٨٦٠ - ١٩١٩) شاعر ومرب وصحفي ورجل دين - عمر صالح البرغوتي (١٨٩٤ - ١٩٥٥) حقوقي، سياسي تربوي عمل وزيراً للتربية والتعليم في الأردن - المجاهد خليل محمد عيسى (أبو إبراهيم الكبير) (١٨٩٧ - ١٩٧٩) أحد قادة ثورة فلسطين الكبرى المعروفة بثورة ١٩٣٦ - موسى حنا ناصر (١٨٩٥ - ١٩٧٠) سياسي تربوي تقلد عدة مناصب وزارية في الأردن هي المواصلات والمالية والخارجية - عبد الله نعواس (١٩١٧ - ١٩٥٨) محام وصحفي، وكان عضواً في مجلس النواب الأردني - عبد الله الريماوي (١٩٢٠ - ١٩٨٠) مناضل ومفكر وسياسي ورجل حقوق، كان عضواً في المجلس الاستشاري الأردني - كمال حنا ناصر (١٩٢٤ - ١٩٧٣) مناضل وسياسي وشاعر، كان رئيساً لدائرة الاعلام والتوجيه بمنظمة التحرير الفلسطينية، اغتيل في شارع الفردان ببيروت - الدكتور قاسم الريماوي (١٩١٩ - ١٩٨٢) سياسي ومناضل وتربوي، شغل عدة مناصب في الأردن كان آخرها وأهمها رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع، - علي سعيد خلف (١٩١٦ - ١٩٧٧) مرب، وأديب، وصحفي، كريم خلف (١٩٣٧ - ١٩٨٥)

وطني بارز حقوقي سياسي فَقَدَ ساقه اليسرى في محاولة صهيونية لاغتياله، كان رئيساً لبلدية رام الله ـ خليل أبو ريا (ـ ١٩٨٠) رجل علم وأدب وكرم، أشهر مؤلفاته «رام الله قديماً وحديثاً». توفيق عيسى صرداوي (١٩٣٣ ـ ١٩٨٦) أديب، مناضل، صحفي شغل منصب نائب مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في ستوكهلم/السويد. الشهيد الدكتور نبيل أحمد فليفل(ـ ١٩٨٤) من مخيم الأمعري وأحد علماء الذرة، اغتالته المخابرات الصهيونية وهو في ريعان شبابه وعطائه ـ الشهيد عطوة مصطفى حرز الله (١٩٦٢ ـ ١٩٨٩) شاب متحمس، عمل قائداً لاحدى الوحدات الشبابية الضاربة التابعة للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، استشهد على ثرى قريته «دير بزيع» في عنفوان الانتفاضة المباركة ـ الشهيد أمجد جبريل الطويل (١٩٧٤ ـ ١٩٨٩) ولد في أمريكا حيث يعمل والده الذي يحمل الجنسية الأمريكية، جاء إلى «البيرة» ليشارك في فعاليات الانتفاضة الباسلة فاختطفه الصهاينة وعذبوه بوحشية فمات تحت أيديهم الباطشة.

في نهاية تطوافي لذت بأبيات أحفظها للشاعر العربي الفحل «بدوي الجبل» وَرَدَتْ ضمن قصيدة رائعة عنوانها «غُرْبَة الروح» زادت أبياتها عن المئة، وقالها في رثاء الفارس السوري «فارس الخوري» وفي أبياته التالية يعزّي نفسه متباهياً بالبطولات العربية:

نحنُ كُنّا الزِّلْزَالَ نَعْصِفُ بالشّرقِ ... نَرُجُّ الشُّعوبَ حتّى تَفيقَا

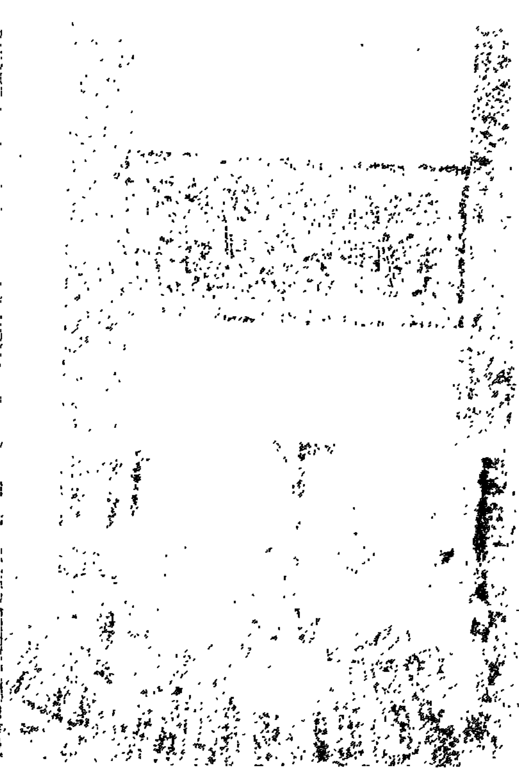
فابْتَدَعْنا من الرُّؤىٰ واقِعَ الحقِّ ... ومِنْ غَمْرةِ الظّلامِ البَريقَا

نحن عِطْر السُّجونِ عِطْرِ المنايا ... نَحْمِلُ الجُرْحَ مُطمئنًا عَميقَا

نحن كالشَّمْسِ جُرْحُها وَهَجُ الدُّنيا ... غُروباً مُنوّراً وشُروقا[1]

---

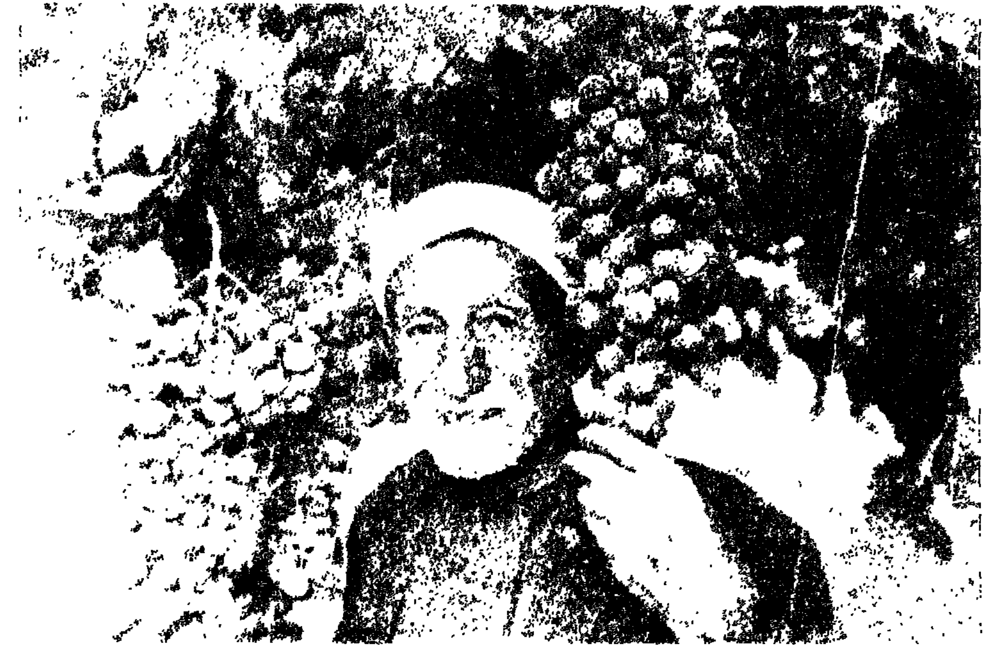
(١) بدوي الجبل وإخاء أربعين عاماً ـ أكرم زعيتر ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٧



ضريح إبراهيم الخليل



ثوب من منطقة الخليل



عنب الخليل الشهير

الخليل.. منجم الأصالة والفداء

هذه هي مدينة خليل الرحمن، العريقة في عروبتها وإسلامها وأصالتها، المعطرة بأريج النبوة الكريمة، الحاضنة لقبور الكثير من الأنبياء والصحابة والتابعين والشهداء. لقد تباركت ذرات التراب الفلسطيني في الخليل فضمت لكل الحنو والتحنان رفات أنبياء الحق: إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف ولوط ويونس، فاستحقت بجدارة لقب مدينة الأنبياء، إضافة إلى لقبها الأول مدينة خليل الرحمن. قال تعالى ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾.

وقد ورد ذكر أبينا إبراهيم سبعة وعشرين مرة في القرآن الكريم. وورد في الأنس الجليل إن حبيبا المصطفى ﷺ قال: «من لم تمكنه زيارتي فيلزر قبر أبي إبراهيم»[1].

لقد عشت مع الخليل كما المرء يعيش مع جزء غال من وطنه، قرأت تاريخها، وعشت بوجداني امتداد هذا التاريخ، وعاشرت العديد من أبنائها فلمست أصالة المحتد والأرومه، وصدق الكلمة وصفاء الوداد والوجدان. تعالوا نعبر معاً باباً نستقرىء من خلاله تاريخ الخليل..

الجذور الأولى

قبيل حوالي أربعة آلاف عام تقريباً نزل العرب الكنعانيون ديار الخليل، فأقاموا فيها وأنشأوا بعض المدن والقرى التي ما يزال بعضها قائماً حتى اليوم.

---

(١) الآية ٣٧ من سورة «إبراهيم».

ومن ضمن القرى المنشأة «قرية أربع» وهو أحد الأسماء القديمة لمدينة الخليل الحالية.

ودعيت الخليل «بأربع» نسبة إلى «أربعة» وهو رجل عربي كنعاني ينتسب إلى قبيلة «العناقين»، وهم الموسومون آنذاك بالجبروت والهيمنة على الجبال الممتدة بين الخليل ونابلس.

ويروي لنا التاريخ بأنه عندما ضيق أهل «أور» الكلدانية الدائرة على سيدنا إبراهيم هجر الجنوب العراقي واتجه إلى ارض فلسطين التي بارك الله فيها للعالمين. وأقام في مدينة الخليل بعض السنين، ثم ارتحل إلى مصر ومنها إلى الحجاز، وقد قام مع ولده إسماعيل ببناء البيت المحرم، وإقامة صرح الكعبة المشرفة. قال تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيلُ﴾. وهناك ترك زوجته هاجر مع ولدها إسماعيل «ليقيموا الصلاة»، فخاطب ربه خاشعاً متضرعاً: «ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل افئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون».

عاد إبراهيم ثانية إلى فلسطين حوالي عام ١٩٠٠ قبل الميلاد، والقى عصا التسيار في الموقع الذي تقوم عليه مدينة الخليل اليوم، حيث اشترى من «عفرون الحيثي» حقله الذي في «المكفيلة» بأربعمائة شاقل من الفضة «الشاقل حوالى ١١ جراماً».

وعندما توفيت «سارة» زوج إبراهيم دفنها في مغارة «المكفيلة» وهذا اسم سام معناه «المغارة المزدوجة».

وعندما توفي سيدنا إبراهيم عن مائة وخمس وسبعين سنة دفن في المغارة ذاتها حيث دفنت زوجه، ومن بعده ولده «إسحق» وزوجته «رفقه» دفنوا كلهم فيها. كما دفنت أيضاً «ليئة» زوجة سيدنا يعقوب عليهما السلام.

وفي زمن وجود يوشع دعيت الخليل «بحبرون» نسبة إلى أحد أقطاب اليهود الذي مات ودفن فيها. وحبرون اسم يهودي معناه «الرباط».

ويحدثنا التاريخ بأنه عندما تغلب اليهود على العناقين اتخذ داود بن سليمان حبرون مقراً له لفترة سبع سنوات حتى تمت له السيطرة على القدس، فانتقل إليها

واتخذها بعدئذ عاصمة لمملكته التي لم تعمر طويلاً.

وفي عهد سليمان بن داود أقيم حَيْر (أرض حرام) على قبور إبراهيم عليه السلام وعائلته، والمسلمون يعتبرون هذا النبي الكريم الذي اتخذه الله تعالى خليلاً هو نبيهم قبل رسالة حفيده محمد ﷺ ، وهم يصلون عليه خمس مرات يومياً في التشهد.

وقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم بأجلِّ الصفات، وعظَّمه أضعاف تعظيم التوراة له، والمسلمون مؤمنون بأنه قد وُجد قبل اليهودية والنصرانية، وإنه صاحب الملّة الحنيفية. قال تعالى: ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً.

أما المشهد الذي نراه اليوم على رفاته، فقد بناه الأمويون فوق المغارة التي تضم قبور الأنبياء الكرام. وهناك بعض المسلمين يعتبرون المشهد الابراهيمي رابع مسجد في الإسلام بعد المسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد النبوي بالمدينة المنورة والمسجد الأقصى في القدس الشريف.

الحرم الإبراهيمي

يبلغ طول ضلع السور ١٩٨ قدماً، وعرضه يبلغ ١١٢ قدماً، أما ارتفاعه فيصل إلى ٤٠ قدماً. وتعلو السور منارتان إحداهما ناحية الشرق والأخرى ناحية الغرب.

والأحجار التي يتكون منها السور ضخمة جداً، وحتى يسهل على القارىء تصور مدى ضخامة السور فإن حجراً واحداً فقط من حجارته الصلدة قد يصل طوله إلى سبعة امتار، وارتفاعه متراً ونصف المتر! والمثير للدهشة أن كثيراً من هذه الأحجار الضخمة قد رصت بنظام دقيق وبدون ملاط (روبة الاسمنت)!

وإذا دخل الزائر الحرم من وسط السور الشرقي رأى على ميمنته صحناً مكشوفاً يقسم المكان إلى جزئين: الجزء الجنوبي ويشمل الجامع الذي يضم ضريحي إبراهيم وسارة على هيئة قبتين مسدستي الأضلاع، وفي واجهة الجامع يوجد محراب رائع من الرخام مزين بالفسيفساء المذهبة، وفوقه نافذة ملونة. أما إلى جانب المحراب فيرتفع منبره البديع الذي يعود تاريخه إلى ايام الدولة الفاطمية، وهو مصنوع من خشب الجوز ومطعم بالعاج، وبعض ألواحه الأمامية مصنوعة من خشب الأبنوس.

والمحراب بشكله العام يعتبر آية خلابة من آيات الفن والاتقان، ويعد من أقدم منابر العالم الإسلامي وأبدعها، وقد أحضره صلاح الدين الأيوبي من عسقلان بجنوب فلسطين حيث كان موضوعاً بمشهد الحسين بن علي بعد أن خشي عليه من الصليبيين.

أما مضاجع الأنبياء الكرام وزوجاتهم فتقع داخل المغارة الشريفة، وما الأضرحة العليا إلا مجرد مشاهد فقط، وللمغارة ثلاثة منافذ، أحدها مواجه للمنبر، وثانيها واقع بين ضريحي إسحق وزوجته، وثالثها تحت القبة مباشرة. ومن الجدير بالذكر أن أحداً لم يدخل هذه المغارة منذ أكثر من ٧٠٠ عام. لكن الصهاينة بعد احتلالهم للخليل في عام ١٩٦٧ قاموا بتغييرات كثيرة شملت وضع مقاعد ومناضد عليها بعض من كتبهم في القاعة بين مقام سيدنا إبراهيم الخليل وزوجته سارة، وهيأوا السبيل لدخول الزوار اليهود إلى مقامات سيدنا إسحق وزوجته وسيدنا يعقوب وزوجته، ولم يبق مكان يصلي فيه المسلمون أمام المحراب والمنبر سوى رقعة صغيرة مستطيلة لا يزيد طولها عن عشرين متراً وعرضها يقرب من خمسة أمتار، ويفصل بينها وبين المكان حبل رفيع.

في عام ١١١٩ دخل جماعة من الافرنج مغارة «المكفيلة»، وقد أشار لذلك المؤرخ ابن القلانسي الذي أخذ عنه ابن الأثير قوله(.. وفي هذه السنة (٥١٣ هـ) حكى من ورد من بيت المقدس ظهور قبور الخليل وولديه إسحق ويعقوب الأنبياء عليهم الصلاة من الله والسلام، وهم مجتمعون في مغارة بأرض بيت المقدس وكأنهم كالأحياء لم يبل لهم جسد، ولا رم عظم، وعليهم في المغارة قناديل معلقة من الذهب والفضة، وأعيدت القبور إلى حالها التي كانت عليه، هذه صورة ما حكاه الحاكي والله أعلم بالصحيح من غيره).

وقد جاء في دليل (بدكر) المطبوع عام ١٩١٢ عن الحرم الإبراهيمي الشريف ما يلي: «لا يسمح لغير المسلمين دخول الحرم الشريف، ولم يدخله من غير المسلمين إلا أقلية ممتازة من الأوربيين، إنما كان يسمح لليهود وغيرهم الصعود إلى الدرجة السابعة فقط من سلم الحرم، وعند الدرجة الخامسة يوجد ثقب يعتقد اليهود إنه يمتد داخل الحرم إلى أن يصل بالقبور، وفي كل جمعة يأتون إلى الدرجة المذكورة يبكون وينوحون شأنهم في ذلك شأن نحيبهم عند جدار المبكى في بيت المقدس».

ولكن بعد ثورة عام ١٩٢٩ في فلسطين لم يعد اليهود يمارسون هذه الطقوس حيث اضطروا للخروج من الخليل.

خلال العهد الاسلامي الأول ذكر المؤرخون والرحالة مدينة الخليل بأسماء عدة منها: مسجد إبراهيم ـ حبرى ـ حبرون ـ مشهد الخليل ـ الخليل.

وينسب إلى قبيلة «لخم» العربية القحطانية التي نزلت فلسطين ناحية «حبرى» الصحابي(تميم بن أوس الداري) الذي قدم بين جماعته من «الدارية» لمقابلة رسول الله بمكة المكرمة، فقال تميم موجهاً حديثه إلى الرسول الكريم: يا رسول الله إن لي جيرة من الروم بفلسطين لهم قرية يقال لها «حبرى» وأخرى يقال لها «بيت عينون» فإن فتح الله عليك الشام فهبها لي! قال الحبيب: هما لك. وكتب كتاباً بذلك ومما جاء فيه«. . . . إن له قرية حبرى وبيت عينون قريتها كلها، سهلها وجبلها وماؤها وصرتها وأنباطها وبقرها ولعقبه من بعده».

هذا وليس لرسول الله ﷺ قطيعة بالشام غيرها، والمعلوم أن النص الكامل لهذه الرسالة ورد في كثير من المراجع الإسلامية ومن بينها صبح الأعشى، والطبقات الكبرى، وفتوح البلدان وغيرها. وعائلة التميمي المعروفة بالخليل اليوم تعود بأصولها إلى الصحابي تميم الداري.

ووصف الرحالة المقدسي الخليل فقال: هي قرية إبراهيم الخليل عليه السلام، فيها حصن منيع، يزعمون إنه من بناء الجن من حجارة عظيمة منقوشة وسطه قبة من الحجارة اسلامية، على قبر إبراهيم وقبر إسحق قدام في المغطى، وقبر يعقوب في المؤخر، حذاء كل نبي امرأته، وقد جُعِلَ الحير مسجداً وبُنِيَ حوله دور للزوار، وفي هذه القرية ضيافة دائمة وطباخ وخباز وخدام، مرتبون يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء، ويدفع إلى الأغنياء إذا اخذوا، ويظن أكثر الناس إنه من قِرَىٰ إبراهيم وإنما هو من وقف تميم الداري وغيره، والأفضل عندي التورع عنه.

هذا.. وقد زار الخليل عام ١٦٢٧م الشيخ المقرِّي صاحب «نفح الطيب» فقال: زرت مقام الخليل ومن معه من الأنبياء ذوي المقامات الشريفة فأنشدت قول ابن مطروح:

خليل الله قد جئناكَ نرجو شفاعتك التي ليستْ تُرَدُّ

أَنِــلْنَــا دعــوةً واشْــفــع تُـشَــفَّــعْ الـى من لا يـخـيـبُ لـديـه قـصـد
وقــل يــا رب أضـيــافٌ ووفــدٌ لــهـم بـمـحــمــدٍ صـلةٌ وعَـهْـدُ
أتــوا يـسـتـغـفـرونــك من ذنــوب عــظام لا تُـعـد ولا تُـحَـدُّ
فــيــامــولاهــم عــطفــاً عــلـيـهــم فــهــم أَتَــوْكَ وأنــتَ فــرد

الخليل وثورة البراق

اشترك أهل الخليل في جميع الاضرابات والثورات العديدة التي خاضها عرب فلسطين ضد الحكم البريطاني وحلفائه اليهود. ومن أبرز حوادث الخليل إبان الحكم المذكور خروج اليهود من المدينة على إثر ثورة البراق عام ١٩٢٩، ولم يعودوا إليها إلا بعد اليوم الثامن من حزيران الأسود عام ١٩٦٧م.

وقصة ذلك الحدث بدأت في اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس «آب»، فقد سار اليهود في مظاهرة إلى حائط المبكى (البراق) في القدس وأخذوا يستفزون مشاعرالعرب، وفي اليوم الثاني اقتفى العرب أثرهم وحدثت مشاحنات بين الطرفين امتدت إلى أنحاء كثيرة من فلسطين ومن ضمنها الخليل، ولما اشتد لهيب الثورة تدخل الجيش البريطاني وأوقف الاشتباكات. وقد تبين أن الذين قتلوا من اليهود ١٣٣ شخصاً والجرحى ٣٣٩. ولم يكن الجيش البريطاني يتدخل لولا حرج موقف اليهود، وقد ثبت أن أغلب الإصابات التي وقعت بالعرب كانت برصاص الجيش البريطاني الذي تدخل لصالح اليهود.

وفي الإجراءات القضائية التي اتخذتها السلطات الاستعمارية أصدرت أمراً بشنق ثلاثة شبان من العرب هم الشهداء: عطا الزير، ومحمد جمجوم وهما من الخليل، وفؤاد حجازي من صفد. وقد نفذ فيهم أمر الاعدام يوم الثلاثاء ١٧ من حزيران عام ١٩٣٠ في سجن عكا، وقد تم إعدام حجازي في الثامنة صباحاً، وجمجوم في التاسعة، والزير في العاشرة. وقد طلب الشهيدان الخليليان حناء خضبابها أيديهما حسب عادات وتقاليد أهل الخليل في أفراحهم وأعراسهم.

وقد خلد شاعر فلسطين المرحوم إبراهيم عبد الفتاح طوقان ذلك اليوم بقصيدة مجيدة أسماها «الثلاثاء» الحمراء قال فيها:

الساعة الأولى:

أنا ساعةُ النفسِ الأبيَّه　　الفضل لي بالأسبقيَّه
قسماً بروحك يا فؤادُ　　صعَدَتْ جوانحها زكيَّه
عاشت نفوسٌ في سبيل　　بلادها ذَهَبَتْ ضَحِيَّه

الساعة الثانية:

أنا ساعةُ الموت المشرِّف　　كل ذي فعل مجيدِ
قسماً بروح محمد　　تلقى الردى حلو الورودِ
ما نال من خدَمَ البلادَ　　أجَلٌ من أجْرِ الشهيدِ

الساعة الثالثة:

أنا ساعةُ الرجل الصبور　　أنا ساعةُ القلبِ الكبير
قسماً بروحك يا عطاء　　وجنة المَلِكِ القدير
ما أنقذ الوطن المفدّىٰ　　غير صبَّار جَسور

في أواخر العهد البريطاني كان قضاء الخليل يضم ٨٣ قرية من أشهرها: حلحول ـ بني نعيم، بيت جبرين، عجور، الضاهرية، دورا، السموع، صوريف، يطه، زكريا، العروب، أجنادين.

وفي موسوعة النضال الفلسطيني ارتبطت «بني نعيم» بمعركة حامية دارت في جبالها عام ١٩٣٨ بين وحدات من الجيش البريطاني وبعض فصائل الثورة الفلسطينية التي تولى قيادتها سعيد العاص وعبد القادر الحسيني. وقد قرر العدو مؤخراً سرقة أكثر من ٦٠٠ دونم من أراضي بني نعيم لإقامة مستوطنة عليها.

أما قرية «صوريف» فإليها ينسب المجاهد إبراهيم أبو ديه أحد أبرز قادة الجهاد في فلسطين خلال الأربعينات.

أما قرية أجنادين فإليها تنسب معركة أجنادين الشهيرة بين المسلمين والروم عام ١٣هـ.

الحياة الاجتماعية بالخليل

لقد عرف الخليليون بأنهم «من أشد الناس استمساكاً بدينهم وأرضهم وقوميتهم، كاملو الذمام والوفاء، وقد لا يفوقهم في إكرام الضيف أحد» كما يقول أستاذنا مصطفى مراد الدباغ في «ديارنا فلسطين».

ويبدو أن جيرتهم لهذه الكوكبة الكريمة من أصفياء الله رضوان الله عليهم قد صبغت حياتهم بالخصال البديعة التي اكتسبوها على تعاقب الأيام، ولعل هذا يفسر لنا المعنى المستتر وراء عدم وجود دار للسينما في الخليل حتى اليوم، أما من يرغب من أبنائها الشباب في مشاهدة بعض العروض السينمائية فعليه الذهاب إلى القدس التي تبعد ٣٦ كيلومتراً عن الخليل، وعليه ألا يشعر أحداً بنيته تلك، وإلا أصبح موضع تجريح من كبار السن!!

لقد أحب الخليليون مدينتهم حباً جماً، ولكن نظراً لمواردها الاقتصادية المحدودة فقدد اضطر الكثيرون منهم للهجرة، أما من يرفض الهجرة فسينطبق عليه المثل الخليلي الذي يقول «اللي بدو يسكن الخليل، لازم يرضى بالقليل».

إن موارد الخليل الاقتصادية محدودة، برغم وجود بعض الصناعات فيها، ومن أشهر هذه الصناعات التقليدية صناعة الزجاج والخزف، والمعاطف والدباغة والفخار والنسيج والمعلبات، ومصنع لقضبان اللحام الكهربائي.

وهناك بعض المنتوجات الزراعية ومن أشهرها العنب، وعنب الخليل يتمتع بشهرة واسعة النطاق «لتفرده بكبر حجمه، وشدة حلاوته، وقلة بذوره»، وتنتج الخليل ما يعادل ٨٥ بالمائة من إنتاج الأراضي المحتلة من العنب.

وبهدف الاهتمام بهذا المحصول الحيوي أكمل بعضهم قول الشاعر: من طلب العلا سهر الليالي بقوله «ومن طلب العنب نكش الدوالي» بمعنى أن من أراد الحصول على العنب الجيد فلا بد أن يضاعف نشاطه ويهتم بتسميد وتشذيب شجرته وهي «الدوالي». ومفردها «دالية».

ويهتم أبناء الخليل بشكل عام بزراعة هذه الشجرة الغالية في بيوتهم ومزارعهم وكذلك تفعل الأغلبية العظمى من أبناء فلسطين.

لقد وصل التجار الخليليون ـ منذ القرن الثامن عشر ـ إلى مناطق نائية نظراً لما

عرف عنهم من حب للمغامرة وطلب الرزق بالكد والتعب، وقد استقر جزء كبير منهم في عمان بعد الحرب العربية الصهيونية الأولى، أما في مصر فقد انطلقت إليها ثلاث موجات: الأولى حينما استولى إبراهيم باشا على الخليل وأجزاء أخرى من فلسطين، وكذلك أخذه مجموعة من شباب الخليل وضمهم إلى الجيش المصري، الثانية: في أواخر الحكم العثماني وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى. والثالثة بعد الهزيمة العربية الأولى عام ١٩٤٨.

وقد كوّن أهل الخليل في مصر جالية ثرية كثيرة العدد يقيم معظم أفرادها في القاهرة، ويشتغلون في مجالات التجارة والصناعة.

ومن العائلات المقيمة في مصر والخليل: العجيل ـ جمجوم ـ القواسمه ـ القاضي ـ شاهين ـ الشريف ـ قويدر ـ الزرو، وغيرها. وما زالت جذورها الأولى راسخة في الخليل، وإضافة لما ذكرنا فهناك من عائلات الخليل وقضاها: النتشه ـ الدويك ـ التميمي ـ الجعبري ـ ملحم، المحتسب ـ الحرباوي ـ العزة ـ العناني ـ طهبوب ـ السلايمة، ناصر الدين، الشرباتي، زلوم، أبو رجب، أبو سنينه، أبو شخيدم، أبو شخدم، قنيبة، غيث، الهيموني، الهشلمون. حجازي ـ عابدين ـ أحمرو ـ دودين ـ المناصرة، بدر، عمرو، أبو خلف، القيسي، مرقة، الدباغ، يغمور، الحنبلي، جابر، أبو غربية، الصغيّر، البكري، وهناك عائلات أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها.

هذا.. ومن اللافت للنظر أن كثيراً من مدارس الخليل تحمل أسماء عربية وإسلامية بحتة مما يدل على عمق اعتزاز أهل الخليل بعروبتهم وإسلامهم، ومن ضمن هذه الأسماء:

فلسطين، أسامة بن منقذ، الجزائر، النهضة، الأيوبية، الحسين بن علي، الإبراهيمية، ابن المقفع، المتنبي، عبد القادر الحسيني، الأمير حسن، ابن رشد، إبراهيم أبو ديه، فهد القواسمه.

ومن أسماء مدارس البنات:

نسيبة المازنية، آمنة بنت وهب، اليقظة، غرناطة، رابعة العدوية، الأندلس.

وعلى غرار ذلك نجد أسماء محلات وشوارع وصيدليات، هذا وقد بلغ عدد سكان الخليل نحو ٥٨,١ ألف نسمة حسب إحصاء عام ١٩٨٢م.

شخصيات بارزة من قضاء الخليل

لقد أنجبت الخليل وقضاها ـ وما زالت تنجب ـ أعداداً وفيرة من الشخصيات البارزة التي أدت دورها البارز في مجالات الحياة المختلفة. ومن الشخصيات البارزة التي توفاها الله تعالى خلال القرن الحالي نذكر: الشهيد البطل: إبراهيم أبو دية (١٩١٨ ـ ١٩٥٢)، صبحي أبو غربية (١٩٢١ ـ ١٩٦٧)، الشهيد فايز جابر (١٩٣١ ـ ١٩٧٦)، القائد الشهيد عبد الرحيم الحاج محمد (أبو كمال) (١٨٩٢ ـ ١٩٣٩)، القائد عبد العزيز السويطي (١٩١٦ ـ ١٩٨١)، الشهيد القائد ماجد أبو شرار (١٩٣٦ ـ ١٩٨١)، الشهيد محمد خليل جمجوم (١٩٠٢ ـ ١٩٣٠)، الشهيد باجس أبو عطوان (١٩٤٨ ـ ١٩٧٤)، الشهيد القائد فهد القواسمي (١٩٣٩ ـ ١٩٨٤) الشيخ حلمي المحتسب (١٩١٠ ـ ١٩٨٢). محمد أحمد التميمي، الحاج حسين الدويك، مخلص الحموري، عبد الرحمن عمرو، الشهيد محمد باسم مصطفى التميمي (١٩٥٠ ـ ١٩٨٨)، الشهيد محمد حسن بحيص (١٩٤٤ ـ ١٩٨٨)، الصحفي ياسر حجازي (١٩٣٩ ـ ١٩٨٩)، الشيخ محمد علي الجعبري (١٩٠١ ـ ١٩٨٠)، البطل عبد الحليم الجيلاني (الشلف) (١٩١٣ ـ   )، الشيخ درويش الجعبري، الحاج صالح عبد النبي، القائد عيسى البطاط، السيد محمد صبري عابدين، الشيخ نسيب البكري، الشيخ الشهيد عبد الحفيظ أبو الفيلات (ـ ١٩٣٦). الشيخ شكري أبو رجب التميمي، عبد الجواد الدويك، راشد عرفة، الشهيد عزمي الصغير (١٩٤٠ ـ ١٩٨٢)، عيد الخطيب، خالد عسيلي، حسن ملحم، رشاد التميمي، سلامة دودين، الشيخ يوسف طهبوب، عبد المغني النتشة، القائد عبد المحسن أبو ميزر (١٩٣٠ ـ ١٩٩٢).

هذا ولقد سرني ما عرفته عن «رابطة الجامعيين بمحافظة الخليل» التي تأسست عام ١٩٥٣ وعملت بموجب نظامها الأساسي على رفع مستوى المحافظة علمياً وثقافياً واجتماعياً، وأشرفت على تبني وإنجاح عدة مشاريع هامة تهم أبناء المحافظة، ولعل من أبرزها مساعداتها المالية لحوالي ألف طالب أتموا دراستهم الجامعية، وهذا يعكس جانباً واحداً لحقيقة التضامن والتعاضد بين أبناء الخئولة والعمومة في مدينة خليل الرحمن! لذا فلا تعجب حين يتكرر على مسامعك استعمال أحدهم لكلمة: يا خالي . . . وهو يناديك أو يخاطبك حتى ولو لم يكن يعرفك وذلك تودداً وتحبباً. !!

الجمعية الخيرية الإسلامية

يعتبر الترابط الأسري والاجتماعي بشكل عام ظاهرة ملموسة في قضاء الخليل. وتشكل «الجمعية الخيرية الإسلامية» صورة مشرقة من صور التكافل الاجتماعي بين المسلمين بالنظر لما تقوم به من جهود خيرة، وما تقدمه من صنوف العون والغوث والمساعدة للفقراء والمساكين والمعوزين.

وقد فرضت الظروف المأساوية التي مرَّ بها شعب فلسطين ضرورة قيام مثل هذه الجمعية الخيرية لمؤازرة أولئك الذين تضرروا بسبب الحروب والهجرات المتتالية التي تعرضوا لها. ولقد تأسست هذه الجمعية عام ١٩٦٣، وكانت في بداية نشأتها محدودة الإمكانات محصورة الخدمات، ولكن بعد حرب حزيران «يونيه» عام ١٩٦٧ ازدادت أعباء الجمعية وتضاعفت خدماتها ومسئولياتها.

وقد قامت هذه الجمعية بإنشاء «بيت الخليل الخيري للأيتام» ويضم في الوقت الراهن (١٩٩٢) نحو ١٥٠٠ يتيم ومحتاج يتلقون تعليمهم في المدرسة الشرعية التابعة للجمعية، حيث تقدم لهم كافة الخدمات الصحية والإجتماعية إضافة إلى المساعدات المادية حتى نهاية إكمالهم المرحلة الثانوية.

كما قامت الجمعية الخيرية الإسلامية بالخليل بإنشاء «المدرسة الشرعية» التي تأسست عام ١٩٦٧، ويزيد عدد طلابها حالياً عن ٧٠٠ طالب أكثر من نصف عددهم أيتام ومحتاجون ويقوم على تعليمهم ورعايتهم أكثر من ٣٥ معلماً وموظفاً، وقد تخرج من بين جدران هذه المدرسة حتى الآن ٢١ فوجاً واصل بعضهم الدراسة الجامعية ضمن بعثات ومنح خصصتها بعض الجامعات العربية، وبعض الأثرياء العرب، وقد قام المحسن الكويتي السيد عبد العزيز الوزان بتشييد مسجد داخل المدرسة على نفقته الخاصة.

كما قامت الجمعية أيضاً ببناء «بيت الخليل الخيري لليتيمات»، ويتكون هذا البيت من أربعة طوابق ويتسع لنحو ٢٥٠ طالبة يتيمة ومحتاجة. وتقبل فيه الطالبات من سن السادسة حتى الرابعة عشرة. وتوفر لهن الجمعية كافة الخدمات الصحية والاجتماعية، كما توفر لهن فرص تعليم الحياكة والتطريز والنسيج.

أما المنشأة الرابعة التي أسستها وتضطلع بها الجمعية فهي «المدرسة الشرعية للبنات». وبها حالياً أكثر من خمسمائة طالبة. وتوفر لهن كل فرص التعليم والتثقيف

والرعاية. أما فيما يتعلق بموارد الجمعية فهي تعتمد على عدة روافد مثل: زكاة الأموال، والوصايا، والوقفيات، والتبرعات، والهبات والنذور وعطايا المحسنين، ومعونات بعض المؤسسات في فلسطين المحتلة، والوطن العربي.

جامعة الخليل

تتمتع الجامعة بشخصية اعتبارية يشرف عليها مجلس أمناء عربي مؤلف من ١٢ عضواً، وهي عضو في اتحاد الجامعات العربية، وعضو فعال في مجلس التعليم العالي، وتقيم علاقات طيبة وتعاون مع كافة مؤسسات التعليم العالي في الأرض المحتلة ومع جميع المؤسسات الوطنية، وتمارس دوراً طليعياً في صقل فرسان الوطنية والنهضة العلمية في المنطقة المحتلة.

وقد شكلت نخبة من أبناء الخليل نواة الجامعة من خلال تأسيس مركز الدراسات الإسلامية، وبدأت الدراسة بافتتاح كلية الشريعة، وفتحت أبوابها للطلبة الفلسطينيين من كافة أرجاء الوطن المحتل، فكانت أول مؤسسة جامعية تفتح مصاريع أبوابها لهم، وتدفق عليها الطلبة بشكل خاص من الخليل والنقب ويافا وحيفا. كان ذلك في عام ١٩٧١. وفي عام ١٩٨٠ قرر مجلس أمناء الجامعة افتتاح كلية الآداب، وتدفقت مجموعات متتالية من الطلاب على الجامعة، حتى زاد عددهم حينئذٍ عن ١٦٥٠ طالباً وطالبة.

ويؤمل مجلس الأمناء أن يتمكن من تطوير الجامعة لتضم كليات أخرى في المستقبل، وتتضمن الخطوة التطويرية: توسيع الدوائر الموجودة، وفتح دوائر جديدة لاستكمال كلية الآداب، وفتح كليات جديدة وقد تم فتح كلية زراعة، ومركز بحث علمي، ومدرسة نموذجية، ومشروع تعليم الكبار، وتنظيم دراسات مسائية، واستحداث ساحات وملاعب رياضية، وتطوير المكتبة الجامعية وخلاف ذلك.

وتتعرض الجامعة لمضايقات مستمرة من قبل السلطات الصهيونية التي تنظر لها ـ ولكافة المؤسسات التعليمية الفلسطينية في الوطن المحتل ـ نظرة حقد وعداء وكراهية، لذلك تقف الجامعة في حالة استنفار دائم في مواجهة المشاكل التي تتعرض لها، مثل رسائل التهديد الإرهابية التي تتلقاها إدارة الجامعة بين فترة وأخرى، والإغلاق المتكرر، والضائقة المالية المزمنة التي تواجهها، وتحرشات قطعان المستوطنين الصهاينة بالطلاب..

وقد بلغت قمة هذه الجرائم بجريمة «يوم الثلاثاء» المشهودة، وذلك حينما هاجم خمسة إرهابيين صهاينة حرم الجامعة وفتحوا فوهات رشاشاتهم وقذفوا بعدة قنابل يدوية على جموع الطلبة وقت القيلولة ثم فروا بسيارة حملتهم سريعاً إلى مستعمرة كريات أربع. . وكانت حصيلة هذه المجزرة وقوع أكثر من أربعين طالباً بين شهيد وجريح.

الخليل تقارع الغزاة

لقد كانت الخليل من ضمن عدة مدن فلسطينية نجت من السرطان اليهودي عام ١٩٤٨. وقد بقيت منذ ذلك العهد تنعم بالدعة والسكينة والدفء في أحضان المملكة الأردنية الهاشمية، وشهدت المدينة خلال تلك الفترة نهضة شاملة في كافة قنوات النهضة والتقدم. وفي حزيران الأسود عام ١٩٦٧ تمكن اليهود من احتلال المدينة بعد أن بقوا يحلمون بها عدة قرون!!

لقد ظلوا يرفعون شعار «العودة إلى حبرون مدينة الآباء»، وتحت هذا الشعار داسوا كل القيم، وأهانوا كل الفضائل، فاقتحموا الحرم الإبراهيمي الشريف وأعلنوه كنيساً يهودياً وسموه «كنيس مكفيلة»، وقام حاخام اسرائيل الأكبر بإقامة قوس للحاخامية بجوار ضريح سيدنا إبراهيم الخليل ووضع التوراة عليه بدلاً من القرآن الكريم، وعقد مراسم زفاف ثمانية جنود صهاينة على ثماني مجندات من بينهم ابنة مجرم الحرب موشي ديان.

وقد منع المسلمون مؤخراً من دخول معظم ساحات الحرم والتي خصصت لصلوات اليهود. وتجدر الإشارة إلى أن حكومة الانتداب البريطاني لم تكن تأذن لليهود بدخول مسجد الخليل طيلة حكمها لفلسطين الذي استمر ثلاثين عاماً، بل إنها لم تسمح لهم بتعدي الدرجة السابعة من درجات سلمه.

وتحت شعار «العودة إلى حبرون» استولت سلطات العدو على آلاف الدونمات التابعة لأراضي الخليل. وفي عام ١٩٧٠ باشر العدو بناء أكبر وأخطر وأول مستعمرة يهودية في تلك المنطقة وأسماها «كريات أربع» في محاولة آثمة لاعادة دعواهم «بيهودية» الخليل، فقد قال سفاح دير ياسين ميناحيم بيجن: إن استيطان الخليل هو استيطان ميراثي لليهود!

وكريات أربع قائمة على أكثر من ثلاثة آلاف دونم، وهي أول مستوطنة صهيونية جرى انشاؤها فوق الأراضي العربية المحتلة بعد الاحتلال، وتشرف على جميع أنحاء مدينة الخليل، بل إن الخليل مهددة بالذوبان في هذه المستعمرة العسكرية الزراعية التي تأوي حوالى عشرين ألف يهودي. ، علماً بأن نسبة عدد اليهود في الخليل قبل عام ١٩٤٨ كان أقل من واحد بالألف بالنسبة لعدد سكانها، وكانوا يمتلكون ثلاثة بالألف من مجموع مساحتها فقط!

لقد أُقيمت مستوطنة كريات أربع لتكون الحصن العسكري ـ الاستيطاني الذي يفرخ المستوطنين ويخلق النوى الصهيونية التي تنطلق منها لزراعة مستوطنات صغيرة تشكل مستقبلاً حدوداً شمالية واقية للقدس. لذلك تحولت كريات أربع إلى مقر عسكري وسياسي لكافة المستوطنين في أنحاء الضفة الغربية.

وهي «مستوطنة حضارية» حسب المفهوم الاسرائيلي، ففيها المصانع والمتاجر والشوارع المنظمة والعمارات الشاهقة، والخدمات العامة متوافرة بشكل شبه كامل. وثمة مستوطنة أخرى موجودة تحت أرض كريات أربع تضم أنفاقاً وطرقاً وبوابات خشبية وقوع اشتباكات مستقبلة بين المستوطنين والمواطنين. ولقد دأبت السلطات الصهيونية والجماعات اليهودية المتطرفة على محاولات الاستيلاء على موقع قدم أو مربط عنزة لهم داخل الخليل نفسها فاستطاع نفر من غلاتهم أن يقتحموا بناية «الدبّويَة» ويسكنوا فيها، وقد بورك هذا العدوان من لدن مجلس الوزراء الاسرائيلي الذي أصدر قراراً بتاريخ ٢٨ ـ ٢ ـ ١٩٨٠ بشرعية احتلال الدبوية وما يجاورها من مبان عربية!!

وعلى أثر ذلك قامت العديد من المظاهرات العربية ضد هذا القرار الجائر، كما قام الفدائيون الفلسطينيون بعدة عمليات ناجحة ضد المستوطنين الذين اعتدوا مراراً وتكراراً على السكان العرب الأبرياء، كما أحرق المستوطنون سوق الخضار بالخليل في فترة سابقة وهدموا ١٦ محلاً تجارياً وروعوا الناس واعتقلوا مئات الشباب.

واتهمت السلطات الصهيونية ثلاثة من الشخصيات البارزة بالخليل بأنهم وراء كل الأعمال «غير المشروعة» التي حدثت، فأصدرت قراراً بإبعاد فهد القواسمة رئيس بلدية الخليل، مع رئيس بلدية حلحول السيد محمد ملحم، وقاضي الخليل الشرعي الشيخ رجب التميمي، كما عمدت الحكومة الاسرائيلية فيما بعد إلى إقالة السيد

مصطفى النتشه رئيس بلدية الخليل بالإنابة من منصبه، كما حلت المجلس البلدي وعينت ضابطاً عسكرياً لإدارة البلدية بهدف إنهاء الشرعية العربية المتمثلة في المجلس البلدي.

ونظراً لازدياد عدد المعتقلين العرب في سجن الخليل المركزي. ومن أجل استيعاب مزيد من الأبطال قامت إدارة السجون الإسرائيلية بإضافة طابق آخر، وهذا السجن بُني في عهد الانتداب البريطاني ويبلغ عدد زنزاناته قرابة المائة، وهو من أكثر سجون المناطق المحتلة ازدحاماً إذ لا يزيد نصيب المعتقل فيه على متر مربع واحد، ويقسم السجن إلى قسمين أحدهما للنساء والآخر للرجال، وأغلب نزلائه من أهلنا سكان الضفة الغربية.

إن جميع المخططات الاسرائيلية تشير إلى توسيع رقعة مستوطنة كريات أربع لتشمل جزءاً كبيراً من المنطقة الجنوبية لمدينة الخليل ذاتها بما في ذلك المدينة القديمة نفسها، وقد خطت تلك السلطات خطوات عملية كبيرة وكثيرة لتحقيق هذا الهدف من بينها مصادرة الكثير من المباني العامة وإحلال الجيش بها كما حدث بالساحة المقدسة الخاصة بالحرم الإبراهيمي الشريف، وإغلاق معظم مداخل المدينة الرئيسة بقصد الضغط على سكان المنطقة وإجبارهم على الرحيل وتكثيف الوجود العسكري وخلاف ذلك.

لقد حقق الصهاينة خطوات واسعة للاستيلاء على مدينة الخليل العربية بعد العبث بمقدساتها، وتغيير وجه المدينة الحضاري ضمن سياسة توسعية مرسومة، تماماً كما يحدث مع القدس الحبيبة.

إن كل القيم والفضائل تغيب في هذا الكيان العدواني، وتبرز أنيابه الوحشية الفاشية من بين كل الألوان الزائفة التي يدعيها ويلصقها بالحضارة والديمقراطية والدين! لقد أعطت هذه الديار المقدسة للبشرية بعداً حضارياً، وعمقاً إنسانياً، حتى غدت وجهة لكل عباد الله من مسلمين ومسيحيين ويهود، إلا أن العدو الصهيوني قد أهان كل المواثيق وداس كل القيم لأنه لا يرى في الأديان والرسالات إلا وسيلة تبرر غاياته الاستيطانية المحمومة.

وأخيراً.. فإننا نجد أنفسنا ملزمين لطرح السؤال التالي: هل هناك من يعتقد برغبة المحتلين الصهاينة في بناء صرح السلام الحقيقي المنصف والعادل؟!

* * *

أثناء عودتنا أخذت أردد مقطعاً للشاعر عزت الطيري يقول فيه:

مطر يجيء
كصوت سلوى، كابتسامتها
كغنوتها الجميله
حين ترقص
فاعلن.. مستفعلن!!
فأقول يا سلوى حنانك
أنت لي
رغم المسافات البعيده
والحواجز والمفاوز
وارتعاشات الزمن!!
أنت الحبيبة والقريبة
والبعيدة والقصيدة
والبداية والنهايه
والحماية من أعاصير المحن
بل أنت يا سلوى عصافير الوطن
أنت الوطن!!

بيت لحم.. ميلاد السلام

عندما أبديت رغبتي في زيارة المسجد الأقصى المبارك، أشار عليَّ بعض الاخوة أن أحقق امنيتي في يوم الجمعة كي أحظى بالثواب العظيم الذي رصده الله سبحانه وتعالى لمن يصلي في هذا المسجد العظيم حيث أن «الصلاة فيه كألف صلاة في غيره» كما ورد عن الرسول الكريم.

وبعد فجر الجمعة الرمضانية الثانية غادرت بيتي برفقة صديقي منير الذي لقيته في مدينتنا الأم «خان يونس» والذي لم أره منذ ما قبل نكسة حزيران بعامين حيث فرقتنا أعاصير الغربة العاتية.

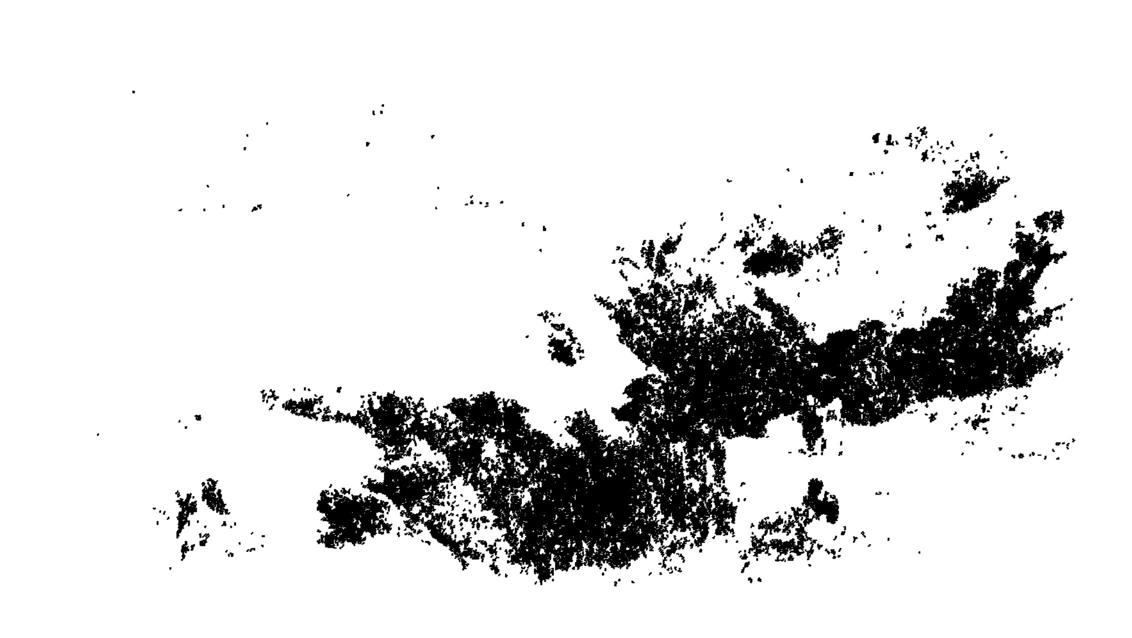
ها نحن نستقل السيارة، والسيارة تطوي الارض بسرعة ملحوظة، والركاب يتبادلون نظرات الاستياء، فتطوعت بالإنابة عنهم وأظهرت للسائق تخوفنا من شدة سرعته، فأجابني بلهجة تنم عن عدم الاكتراث: أمامي خمس «نقلات» قبل صلاة الجمعة يا «أستاذ» (والكل عند السائقين أستاذ!) وهذه هي «النقلة» الأولى ولا يمكنني التباطؤ فيها كي لا افقد الأخيرة! فألآف المصلين يزحفون من كافة أرجاء فلسطين بما في ذلك الارجاء المحتلة منذ عام ١٩٤٨، وهذه فرصة كسب اتاحها الله لنا.

إلى بيت لحم

أخيراً.. وصلنا القدس في السابعة صباحاً، فوجدنا أن الوقت ما زال مبكراً على دخولنا المسجد الأقصى فأمامنا خمس ساعات ونصف قبل أداء الصلاة، فاقترحت على منير أن نذهب لزيارة بيت لحم القريبة جداً من القدس، فلقد كنت

مدينة بيت لحم





تواقاً أيضاً لزيارتها، فوافقني الرأي واقترح ألا نتأخر فيها عن العاشرة حتى نضمن لنا جلسة تحت قبة المسجد.

وبعد أقل من نصف ساعة وصلنا بيت لحم، وهبطنا من سيارة الأجرة في باحة متوسطة المساحة، وإذ نحن وجها لوجه أمام كنيسة ضخمة لم أجد مشقة في التعرف عليها. إنها كنيسة «المهد» التي طالما رأينا صورها، وقرأنا تاريخها، هيا بنا ندخلها، تردد صاحبي قليلاً ثم قال: إنني لم أدخل أية كنيسة في حياتي، قلت له: وأنا كذلك، هيا بنا.. إنها فرصة نادرة ربما لا تتكرر!

واقتربنا قليلاً.. لاحظنا جنوداً صهاينة يتبخترون جوار باب الكنيسة الضيق الواطىء جداً، تهيبنا وترددنا وتخوفنا، انتظرنا دخول بعض السائحين فدلفنا وراءهم ونحن نحملق في الجنود المسلحين.

الكنيسة.. والرهبة

لا اكتمكم بأنني شعرت برهبة، ولم أدر ما أقول، واحتار دليلي كما يقولون، لقد كنت أحفظ عبارة واحدة من الانجيل فأردت أن أقولها في تلك البرهة، ولكن الذاكرة لم تسعفني حتى في استحضارها!

أخذت اتنقل بين ارجاء الكنيسة الفسيحة، ولا اكف عن ترديد بعض آيات القرآن الكريم وبخاصة من سورة «مريم» التي احفظها عن ظهر قلب منذ نعومة أظافري، عندما كنت اتلوها على مسمع من جدي الضرير فيكافئني على إجادة تلاوتها!

وفي مغارة المهد لم أجد تقديراً وإعظاماً لابن مريم عليه السلام أعظم من أن أقرأ «الفاتحة» على روحه الطاهرة ثم اترحم عليه. إنها فطرة حب الأنبياء جميعاً التي فطرنا عليها ديننا الإسلامي الحنيف وتلوت قوله تعالى: ﴿والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[1].

ولكن علينا أن نقرأ أولاً أول فصل من فصول حياة هذه المدينة العريقة.

---

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

شيء من التاريخ

يعود تاريخ بيت لحم القديم إلى نحو ألفي عام قبل الميلاد عندما سُكنت لأول مرة حسب ما ورد في ألواح تل العمارنة التي يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، حيث كان يطلق عليها في ذلك الوقت المبكر من التاريخ اسم «أفرانه» بمعنى ثمر، ثم دعيت باسمها الحالي «بيت لحم» نسبة إلى الإله «لخمو» وهو إله الخبز والخير عند الكنعانيين العرب، مع تبديل الخاءحاء. غير أن بعض المؤرخين يرى أن «بيت لحم» تعني بيت عبادة إله لحم العربي وتعني اللحم المعروف في اللغة العربية، والاسم الحالي للمدينة مشتق من هذا الاسم.

ومهما يكن من أمر فالإسم بشقيه وثيق الصلة بواقع المدينة ذات الموقع المهم، والأرض الخصبة، والخيرات الكثيرة التي تنتشر في ربوعها مثل حقول الزيتون والكروم والقمح والشعير.

وتقع المدينة على بعد ١٠ كم جنوبي مدينة القدس، وتتربع على جبل يرتفع نحو ٧٨٠ متراً عن سطح البحر الأبيض المتوسط، ونحو ١٢٦٧ متراً عن سطح البحر الميت، وذلك ضمن سلسلة جبال القدس.

وتشكل بيت لحم مع بلدتي بيت جالا وبيت ساحور تجمعاً عمرانياً ثلاثياً، فالواحدة لا تبعد عن الأخرى سوى ٢ ـ ٣ كم.

وقد اشتهر اسم بيت لحم بعد ولادة النبي «داود» عليه السلام فيها، لكنها اكتسبت أهميتها التاريخية والدينية العظيمة وطغت شهرتها في كل آفاق الارض بعد مولد السيد المسيح فيها، وانتشار الديانة المسيحية.

وورد عن مادتها في قاموس «الكتاب المقدس» (١٨٩٤) ما يلي: «بيت لحم بمعنى بيت الخبز، ولد فيها المسيح لأن مريم التي ولدت في الناصرة كانت من نسل داود، فأتت إلى بيت لحم للاكتتاب (الاحصاء) فحان فيها وقت ولادتها فولدت يسوع «المسيح»، ومنذ القرن الرابع وفي مارس ليلة ٢٤ ديسمبر (كانون أول) من كل سنة يحتشد الألوف من الحجاج والسياح والزوار ليشهدوا تمثيلية ولادة الطفل في منتصف الليل حسب الطقوس اللاتينية وتقرع الأجراس معلنة: «المجد لله في الأعالي، وفي الناس مسرَّة، وعلى الأرض السلام».

بيت لحم في عيونهم

وإبان عصر المماليك بشكل خاص زار بيت لحم عدد من الكتّاب والرحالة المسلمين، منهم الهروي، وياقوت، والقزويني، وابن بطوطة، والمقدسي، والبكري، والإدريسي، والحنبلي، والأصطخري، والنابلسي، واليعقوبي، وابن البطريق وغيرهم، وذكر معظمهم أن بالمدينة جذع النخلة التي آوت إليه مريم البتول ساعة مخاضها، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سَرِيًّا، وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً، فكلي واشربي وقرّي عينا فإما تَرَيِنَّ من البشر أحداً فقولي إنّي نذرتُ للرحمن صوماً فلن أُكَلِّمَ اليوم إنسياً.»

وقد أعطى هؤلاء المؤرخون والرحالة وغيرهم صوراً زاهية عن بيت لحم، كما أضاف بعضهم معلومات مهمة، فقد ذكر الادريسي المتوفى عام ١١٦٥م أن بيت لحم كنيسة حسنة البناء، متقنة الوضع، فسيحة مزينة إلى أبعد غاية، حتى إنه ما أبصر في جميع الكنائس مثلها بناء، وهي في وطأ من الأرض، ولها باب من جهة المغرب، وبها من أعمدة الرخام كل مليحة، وفي ركن الهيكل في جهة الشمال المغارة التي ولد بها السيد المسيح، وهي تحت الهيكل، وداخل المغارة المِذْوَدُ التي ولد فيها، وإذا خرجت من بيت لحم نظرت إلى الشرق منه كنيسة الملائكة الذين بشروا الرعاة بمولد السيد المسيح.

وذكر اليعقوبي في تاريخه، أن أصحاب الانجيل لا يقولون أنه تكلم في المهد، ويقولون إن مريم كانت مسماة برجل يقال له يوسف من ولد داود وأنها حملت، فلما قرب وضع حملها سار معها إلى بيت لحم، فلما ولدت ردها إلى ناصرة من جبل الجليل».

وفي تاريخ ابن البطريق ورد قوله: وأمر الملك يستنيانس الرسول أن يهدم كنيسة بيت لحم، وكانت صغيرة وأن يبنيها كنيسة عظيمة كبيرة حسنة، ولا يكون في بيت المقدس كنيسة أحسن منها، فلما وافى الرسول إلى بيت المقدس بنى بيمارستانا للغرباء وتمم كنيسة هيلانة وبنى الكنائس التي أحرقها السامرة وبنى ديارات كثيرة وهدم كنيسة بيت لحم، وبناها على ما هي عليه اليوم.. ثم ذهب عمر (ابن الخطاب)

إلى بيت لحم لينظرها فحضرته الصلاة فصلى داخل الكنيسة عند الحنية القبلية، وكانت الحنية كلها منقوشة بالفسفسة، وكتب عمر للبطرك مسجلاً أن لا يصلي في هذا الموضع من المسلمين إلا رجل واحد بعد واحد ولا تجمع به صلاة ولا يؤذن ولا يغيّر منه شيء.

وجاء في معجم البلدان لياقوت الحموي: بيت لحم بليد قرب بيت المقدس عامر حافل فيه سوق ومزارات ومكان مهد عيسى بن مريم، ولما ورد عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس أتاه راهب من بيت لحم وقال له معي منك أمان على بيت لحم. فقال له عمر: ما أعلم ذلك فأظهره، فعرفه عمر، فقال له: الأمان صحيح ولكن لا بد في كل موضع من النصارى أن نجعل فيه مسجداً فقال الراهب: إن في بيت لحم حنية مبنية على قبلتكم فاجعلها مسجداً للمسلمين ولا تهدم الكنيسة. فعفا عمر عن الكنيسة وصلى إلى تلك الحنية واتخذها مسجداً وجعل على النصارى إسراجها وعمارتها وتنظيفها. ولم يزل المسلمون يزورون بيت لحم ويقصدون إلى تلك الحنية ويصلون فيها وينقل خلفهم عن سلفهم إنها حنية عمر بن الخطاب، وهي معروفة الآن.

وأثناء رحلته المسماة (الحضرة الأنيسية في الرحلة القدسية) التي قام بها عام ١١٠١ هـ ذكر الرحالة الشيخ عبد الغني النابلسي انه أثناء زيارته لبيت لحم زار هناك المغارة فوجد عليها «قناديل» موضوعة من الذهب مشعولة في الليل والنهار، والمغارة مزينة بأنواع الأقمشة وأمتعة الديباج والنضار، حتى أن مهبط رأس عيسى عليه السلام غائص في الصخر، وقد زمّكوه (ملأوه) بالذهب ووضعوا فيه الماورد للتبرك، وعليه القناديل من الذهب الموقودة في جميع الأوقات، ومكان جذع النخلة نقرة في الأرض صغيرة مزمكة بالذهب، وعليها القناديل من الذهب أيضاً مشعولة في جميع الحالات، ثم خرجنا وذهبنا إلى مسجد هناك في قرية بيت لحم يقال أنه مسجد عُمري فدخلنا إليه.

وهذه القرية نصف أهلها القاطنين بها مسلمون والنصف الآخر نصارى، ومن عاداتهم أنهم يصنعون المسابح من خشب الزيتون ويخرطونها على أنواع مختلفة ويبيعونها للزوار فاشترينا منهم، ثم سرنا إلى بيت المقدس وبتنا بها بمحلنا بالسلطانية».

وكثير من الرحالة الأجانب زاروا بيت لحم.

ففي عام ١٧٨٥ زارها الرحالة الفرنسي «فولنى» وجاء على لسانه: «بيت لحم لا تبعد عن القدس سوى فرسخين جنوباً بشرق، وهي مطلة على أكمة في بقعة كلها تلال وأودية صغيرة، لذلك فهي جميلة الموقع، وتربتها تفوق بجودتها تربة غيرها من الأراضي التي تجاورها، فتنجح فيها أتم نجاح الأشجار المثمرة والكرمة والزيتون. وأصحاب الطقس اللاتيني عددهم مائة يقوم بخدمتهم الروحية أحد رهبان دير القدس الكبير، وكانوا يتعاطون جميعهم صنع السبح، غير أن الرهبان لم يستطيعوا شراء كل ما كانوا يصنعونه منها، لذلك اضطروا أن يعودوا إلى فلاحة أراضيهم، والمسيحيون في بيت لحم يعيشون بسلام ووئام مع مواطنيهم المسلمين، وجميعهم من الحزب اليمني، والفلسطينيون حزبان: يمنيون وقيسيون».

وفي عام ١٨٤٣ وصف الرحالة الإنجليزي «إيليوتت واربرتن» بيت لحم وصفاً طريفاً قال فيه: «لقد سمعت كثيراً عن جمال النساء في بيت لحم، ولكني أعترف بأنني لم أشاهد فيها جمالاً غير عادي، وقد يبتسم القارىء، ولكني في الواقع كنت أتطلع إلى النجارين في بيت لحم بكثير من الاحترام، حتى الحمير ذاتها كانت موضع اهتمامي، وبدت الجِمال في نظري كأنها قدمت من الشرق محملة بالهدايا قبل قليل، أما الرعاة فقد بدت عليها مظاهر الغموض.

أما شيوخ البدو فقد كان كل واحد من رجال عبد الله يرتدي ثوباً أبيض وحذاء خفيفاً وحزاماً من المرس، وعندما همَّ بامتطاء صهوة جواده خف رفاقه لمساعدته بتوقيرتام، وكان يحمل من الاسلحة بندقية ورمحاً وسيفاً».

النجمة تشعل الحرب

قلنا سابقاً بأن طائفة اللاتين المسيحية وضعت نجمة فضية في مكان ولادة السيد المسيح بكنيسة المهد، وقد كانت هذه النجمة سبباً من أسباب قيام حرب القرم بين روسيا وتركيا!

وتفصيل ذلك أن منازعات ومشاحنات شديدة حدثت بين الروم الأورثوذكس واللاتين حول ملكية الأماكن المقدسة في كل من القدس وبيت لحم وبخاصة في عام ١٧٥٧م مما اضطر السلطان العثماني إلى التدخل في الأمر حيث أصدر قراراً حدد بموجبه حقوق كل من الطائفتين المتخاصمتين، لكنه استأثر الأورثوذكس بملكية معظم تلك الأماكن، فاستشاط اللاتين غضباً، ومما زاد الأمر سوءاً اختفاء النجمة

الفضية المثبتة في مغارة المهد في ظروف غامضة عام ١٨٥٢م فاتهم اللاتين الروم بسرقتها. مما اضطر اللاتين إلى وضع نجمة جديدة عوضاً عنها. وازداد لهيب الفتنة اشتعـالاً فهبت روسيا لمنـاصرة الارثـوذكس، بينما اعتبـرت الدولـة العثمانيـة تلك المناصرة تدخلاً غير مشروع في المناطق الواقعة تحت نفوذهـا، فاهتـاجت فرنسـا الكاثوليكية وحتى فرنسا البروتستانتينية ضد مطالب روسيا التي رفضتها الأستانة بطبيعة الحال فنشبت حرب القرم المشهورة عام ١٨٥٣ بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا في جانب وروسيا في جانب آخر.

وأسفـرت الحرب التي انتهت عـام ١٨٥٦ عن انتصار العثمـانيين وحلفائهم فسمح للاتين بوضع يدهم على قسم من كنيسة المهد، وقُسِّمَت الكنيسة بينهم وبين الروم الأرثوذكس والأرمن، والقناديل موزعة بينهم بالتساوي.. وما زال هذا النظام معمولاً به حتى الآن.

والجدير بالذكر أن الخلاف ظل قائماً حتى عام ١٨٧٣ عنـدما هـاجم الروم الأرثوذكس الكنيسة واستولوا على بعض المقتنيات المهمة وجرحوا عـدداً من الأباء الفرنسيسكان، ومنذ ذلك الوقت وحتى السادس من حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ كان بعض أفراد الشرطة من المسلمين يقوم بحراسة الكنيسة وفض المنازعـات التي قد تنشب بين الطوائف. ولكن بعد سقوط الضفة الغربية في حمأة الاحتلال الصهيوني البغيض توارت الشرطة الفلسطينية المسلمة وانتصبت حراب الصهاينة على مدخـل كنيسة المهد لحماية مهد عيسى عليه السلام!! ولا نامت أعين الجبناء!

النشاط الاقتصادي في المدينة

تعتمد المدينة في اقتصادها على السياح الذين يفدون إليها من كل أرجاء العالم والذين تستهويهم بعض صناعات «التلاحمة» المشهورة كالتحف والنحاس والتطريز والتي وفدت بدورها إلى بيت لحم خلال القرن الثاني عشر الميلادي حيث اتقنها الحرفيون ومن ثم أخذت تتطور بدخول الآلات الحديثة إليها.

ويشكل الصدف أكثر من نصف دخل المدينة الصنـاعي، حيث يتم تصديـر الجزء الأكبر منه إلى الخارج ويتم تسويق الباقي في السوق المحلية حيث يتهافت السياح على شرائه تذكاراً من الارض المقدسة، وقد تحول في أيديهم إلى مسابح وصلبان وتماثيل لها مظاهر دينية وتحول في بيوتهم ومكاتبهم إلى مجسَّمات للأماكن

المقدسة من مسيحية واسلامية، كما يتم استغلال خشب الزيتون في صناعة نفس التحف تقريباً التي يستعمل الصدف في صناعتها.

وتتمتع بيت لحم كذلك بمرتبة متقدمة هي الثانية بعد نابلس في الانتاج الصناعي في الضفة الفلسطينية المحتلة، وخاصة صناعة النسيج والأثاث المعدني والألمنيوم وهوائيات التليفزيون والأدوات الكهربائية والبلاستيكية والصابون وأدوات التجميل، ومواد التنظيف والمبيدات الحشرية.

وأضافة لكل ما سبق فإن بيت لحم تحظى بشهرة واسعة في أشغال الابرة والتطريز والكنافاه، كما أن لأهلها زياً «تلحمياً تقليدياً يمتاز بألوانه الزاهية وتطريزه الدقيق».

وفي تعليله لمهارة أهل بيت لحم في مصنوعاتهم، يقول يعقوب حنظل:[1].

لا يبعد أن القوة الذهنية في الفنون والحرف الموجودة في أهل بيت لحم ترجع إلى تأثير افرنجي في الدم إذ أن الشرقي على الاجمال ميّال إلى العقليات بعكس الغربي الذي يتفوق في المحسوسات، ولقد تقدمت هذه الملكة الفنية في بيت لحم، وبلغت في الشهرة درجة رغّبت الملوك والقواد في امتلاك شيء من ثمارها، فلما جاء إبراهيم باشا إلى سوريا أخذ من أهل هذه البلدة ومن بيت جالا أيضاً عدداً من أصحاب الحِرَف والمهن الحاذقين بقصد إنشاء تلك الحرف في القطر المصري الشقيق.

وكذلك دعا «منليك» نجاشي الحبشة أبرع الحفّارين والنحّاتين والبنّائين من أهل بيت لحم لتشييد قصر جديد له في بلاده. ولقد بلغت هذه الدقة في العمل أنهم صنعوا صورة من جامع عمر المشهور من الصدف، ومثّلوه في كل أجزائه من أعمدة ونوافذ ونقوش قدموه للسلطان عبد الحميد فاستحسنه كثيراً.

وقد اشتهرت بيت لحم بمسابح اللؤلؤ. ويذكر حنظل في كتابه أنه كان «يستجلب الصدف من بومباي» في الهند وجدة على البحر الأحمر وأول من جلب عقد اللؤلؤ من الخارج إلى بيت لحم هما عبد الله عيسى مرقص وخليل عبد الله جقمان. وكان أرباب هذه الصناعة بادىء ذي بدء يأخذون مصنوعاتهم ويتاجرون بها في مصر وآسيا الصغرى، ثم توجهت أبصارهم إلى البلدان الافرنجية فاقتحموا البحار

(١) فلسطين وتجديد حياتها - يعقوب حنظل - نيويورك، ١٩١٩م.

وعرضوا بضاعتهم في اسواق أوروبا. وهناك لاقوا اقبالاً عليها مما رغب عدداً من أبناء سوريا في استبضاع المسابح والصلبان من بيت لحم والمتاجرة بها في البلدان الخارجية. . وبلغت صادرات ١٩١٣ بخمسة ملايين فرنك فيما عدا قيمة التجارة المهربة التي كانت رائجة. . وقد كان ارباب هذه الصناعة شديدو الاحتراس عليها لئلا تقع في ايدي غيرهم فيخسرون وسيلتهم الوحيدة إلى الرزق. لأن ثمانين بالمئة من السكان يشتغلون بهذه الحرفة وهم يحاذرون من كشف أسرارها لأحد. فلما حاول اليهود سنة ١٩١٢ اقتباس الصناعة بِرَشْوِ أحد العمال قام شركاؤه في الفن وهددوه وأوعدوه بالدمار إن باح بشيء.

جامعة بيت لحم

لقد نالت بيت لحم قسطاً وافراً من التعليم منذ فترة مبكرة من تاريخها، ويعود ذلك إلى الطابع الديني الغالب على المدينة، والذي أدى بدوره إلى وجود الارساليات والأديرة المختلفة التي أقامت المدارس الخاصة. وساعدت في ارتفاع نسبة المتعلمين بالمدينة. غير أن الوثبة الرئيسة في التطور التعليمي والتثقيفي بالمدينة والقضاء (اقليم) كانت بافتتاح جامعة بيت لحم عام ١٩٧٣.

وقد نشأت فكرة هذه الجامعة عندما زار البابا بولس السادس مدينة بيت لحم في عام ١٩٦٣ إبَّان الحكم العربي الأردني لها، حيث قرر أن ينشىء جامعة مسيحية خاصة في المدينة قادرة على أن تمنح المسيحيين الكاثوليك في الأرض المقدسة ـ وفي بيت لحم خاصة ـ التعليم الجامعي المطلوب بالمجان، ودون الاضطرار إلى مغادرة البلاد للخارج.

غير أن الخدمات التعليمية التي وفرتها الجامعة لم تقتصر على «المسيحيين الكاثوليك في الارض المقدسة» بل شملت «في أوسع المعاني خدمة السكان في الضفة الغربية وقطاع غزة بحيث تكون مركزاً للرقي، والمحافظة على المعرفة ونشرها واستعمالها. أن أعظم مطمح للجامعة هو اشباع العقل البشري بالمعرفة على أساس من التفاهم والرؤية الأخلاقية والمبادىء العظيمة التي يجلها العالم قاطبة أعظم اجلال». وتهدف الجامعة على وجه محدد إلى تزويد الضفة الغربية وقطاع غزة بمركز للدراسات العليا يسهل الوصول إليه بالنسبة للطلبة الناشئين». وهذا بعض ما ورد عن أهداف الجامعة في أول كتاب تم اصدره عنها.

وقد أرسلت السدة البابوية ثلاثة من رهبان «اخوة دي لاسال» (الفرير) لإدارة الجامعة، وتقع الجامعة فوق أعلى تلال مدينة المهد، وقد أضفى اسم المدينة بمضامينه الدينية والمعنوية دفعاً أساسياً لهذه الجامعة الفتية التي تأخذ بأسباب التطور والنماء بكل همة نشاط. ويطبق في الجامعة نظام الساعات المعتمدة، وبها مكتبة تضم نحو مائة ألف كتاب.

كما توفر الجامعة مواضيع عامة لدراستها أيضاً منها: الدراسات الثقافية والتربية واللغة الفرنسية واللغة الإيطالية واللغة الألمانية واللغة الأسبانية واللغة العبرية والتاريخ، والعلوم السياسية والفلسفة واللاهوت وعلم المكتبات والموسيقى والفن، وفي جميع الأقسام تمنح الجامعة درجة «البكالوريوس» بعد أربع سنوات دراسة، وتقسم السنة إلى فصلين، ويتبع كل فصل نظام الساعات المعتمدة.

وإضافة إلى رهبان الفرير الثلاثة يشترك في ادارة الجامعة نخبة من أبناء الضفة الغربية، ومجلس أمناء مكون من رؤساء بلديات بيت لحم وبيت ساحور وبيت جالا وعدد من رجالات التعليم في قضاء بيت لحم.

وعلى العموم فقد ساهمت جامعة بيت لحم وما زالت في إثراء الحياة الفكرية والثقافية في فلسطين وتساهم مع باقي المؤسسات التعليمية في الضفة والقطاع باعداد افواج متلاحقة من المتعلمين الذين تحتاجهم المنطقة، وهي بذلك تحد من عملية افراغ الاراضي الفلسطينية منهم.

كما أن الجامعة تساهم في زيادة الوعي الوطني بين طلابها، ويساهم الطلاب من جانبهم في كافة المناسبات الوطنية. وقامت السلطات الاسرائيلية باغلاق الجامعة وتعطيل الدراسة فيها عشرات المرات بحجة أنها «بؤرة للمبادىء السياسية الفلسطينية المتطرفة في تأييد منظمة التحرير الفلسطينية». كما تعرض الكثير من طلابها وطالباتها وأساتذتها إلى الاعتقال والتوقيف والتعذيب والابعاد، كما استشهد العديدون منهم ومن بينهم المناضلة تغريد البطمة، ونذكر بهذه المناسبة أنه يوجد ببيت لحم سجن كبير يستعمل غالباً للتحقيق والتوقيف، ولا تزيد مدة الاعتقال فيه عن ستة أشهر، ثم يوزع نزلاؤه على السجون الأخرى، وفيه تمارس عمليات التعذيب المختلفة أثناء التحقيق.

قضاء بيت لحم

يتبع قضاء بيت لحم تسع قرى هي: علار، أرطاس، بيت فجار، بيت جالا، بيت ساحور، حوسان، الخضر، وادي فوكين، نحالين. وقد وقعت في الأخيرة مذبحة صهيونية شهيرة في عام ١٩٥٤.

ومن أهم القبائل العربية التي سكنت أساساً في هذا القضاء: عرب السواحرة، عرب ابن عبيد، عرب التعامرة، عرب الرشايدة، وغيرهم.

ويذهب كثيرون إلى أن أهل بيت لحم يرجعون في أصولهم الأولى إلى الأمم اللاتينية، يدلك على ذلك اسماء عائلاتهم التي لا تنطبق على اسماء عربية وملامحهم القريبة من ملامح الغربيين كما يرى مؤلفا تاريخ القدس.

ويثبت ذلك وجود اسماء بعض العائلات الموجودة حالياً في بيت لحم مثل: جقمان، حزبون، مكيل، جبرية، مدلينا وغيرها. وأغلب أفراد هذه العائلات حضروا كسياح لزيارة المدينة، ثم طابت لهم الاقامة فيها، واندمجوا مع سكانها، واسماؤهم تختلف عن الاسماء العربية النصرانية التي تعيش بالمدينة والتي منها عائلات: البندك، فريج، أبو جارورة، أبو عطية، الأعمى، قطان، سابا وغيرها من كرام الأسر التلحمية.

وذكر «بدكر» في دليله المطبوع عام ١٩١٢ أن في المدينة ١٢ ألف نسمة جميعهم تقريباً من المسيحيين عدا ٣٠٠ من المسلمين، بينما قدر عدد السكان عام ١٩٧٨ بنحو ٣٤ ألف نسمة منهم قرابة ٩ آلاف نسمة من اللاجئين الفلسطينيين الذين لجأ الآلاف منهم إليها وسكنوا مخيمات ثلاثة بالقرب منها أكبرها مخيم الدهيشة ويليه عائدة، ويمتاز أهل بيت لحم بشكل عام بالجد والحيوية وحب المغامرة والعصامية، وقد كانوا في طليعة الفلسطينيين الذين هاجروا إلى الأمريكتين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي بداية القرن العشرين اتسعت دائرة الهجرة، وازدادت اتساعاً بعد مأساة عام ١٩٤٨ وبعد نكسة عام ١٩٦٧. ويقدر عدد من يعود إلى أصل تلحمي في الأمريكتين (١٩٨٤) بما يزيد عن ٥٥ ألف نسمة حسب ما اوردته الموسوعة الفلسطينية.

الأماكن الأثرية

توجد بالمدينة العديد من الأماكن الأثرية التي تعود إلى عهود قديمة من التاريخ ومنها على سبيل المثال:

● مغارة الحليب: وتقع بالقرب من كنيسة المهد، ويقال بأن سبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى تقليد مسيحي مفاده أن السيد المسيح عليه السلام عندما كان يرضع من ثدي أمه سقطت بعض نقاط من حليبها على الارض التي أصبحت مغارة فيما بعد فاكتسبت الاسم.

● قبر راحيل: وراحيل كلمة كنعانية معناها «شاة» وراحيل هذه هي زوجة سيدنا يعقوب عليه السلام، وأم سيدنا يوسف عليه السلام، وأم أخيه بنيامين.

وعندما ماتت «راحيل» دفنت في هذه البقعة التي تبعد نحو ٣ كم شمالي بيت لحم، وذلك أثناء ولادة بنيامين وهو آخر أولادها الاثني عشر.

● برك سليمان: وهي ثلاث: البركة الفوقا، والبركة الوسطى، والبركة التحتا، وتقع كلها بين جبلين، وكل واحدة تبعد مسافة خمسين متراً من الأخرى، ويذكر أن هذه البرك كانت في يوم من الايام مصدراً أساسياً لمد القدس بالماء.

والجدير بالذكر أن هذه البرك تستمد ماءها بصورة رئيسة من مياه الأمطار وبعض الأودية، وتحيط بها الأشجار الكثيفة من جميع الجوانب، لذلك فان كثيراً من الزوار يؤمونها للاستجمام والمتعة وبخاصة في فصل الصيف.

هذا وتحمل هذه البرك أيضاً اسم «المرجيع» وقد علل صاحب الأنس الجليل هذا التسمية بقوله: إن سيدنا يوسف لما أخذه أخوته وألقوه في الجب (البئر) مروا به على قبر أمه وهو بالقرب من المرجيع ، فلما رأى قبرها وهم طالعون، ألقى نفسه عن الناقة وقال: يا أماه ارفعي رأسك وانظري ما حل بولدك من بلاء. . . .».

أعلام من قضاء بيت لحم

ينسب إلى قضاء بيت لحم عدد من الشخصيات المرموقة لكننا للأسف نجهل الأغلبية العظمى منها وذلك بسبب ظروف التشتت والاغتراب.

وهذه أسماء لبعض الشخصيات البارزة التي تنسب لقضاء بيت لحم، وتوفيت في العصر الحديث.

توفيق كنعان (١٨٨٢ ـ ١٩٦٤)، اسكندر الخوري البيتجالي (١٨٩٠ ـ ١٩٧٣)، الدكتور حبيب قطان (١٨٨٤ ـ ×)، المحامي إميل جورج أبو خليل (١٩١٠ ـ ×)، الإذاعي يعقوب مسلم، انطوان داود (١٩٠٩ ـ ١٩٦٩). عيسى صليبا إجحا (١٨٩٥ ـ ×)، اسطفان حنا اسطفان (١٨٩٩ ـ ١٩٤٩)، عبد الله البندك (١٩١٠ ـ ١٩٧٤)، حسن مصطفى (١٩١٤ ـ ١٩٦٠)، المحامي عزيز بولس شحاده (١٩١٢ ـ ١٩٨٥). الملحن رياض البندك (١٩٢٦ ـ ١٩٩٢).

بطولة شاب تلحمي

في طريق عودتنا إلى القدس ذكرني منير بالفدائي البطل أنطوان داود أحد أبناء بيت لحم المخلصين.

كان هذا الشاب في عام ١٩٤٨ مستخدماً لدى القنصلية الأمريكية بالقدس، يقوم بقيادة السيارة الخاصة بالقنصل العام الأمريكي بفلسطين، سيارة «فورد» حديثة وفارهة تحمل لوحة «هيئة سياسية» وعليها يرفرف العلم الأمريكي، مائتان وخمسون كيلوجراماً من المواد الناسفة تم وضعها في الصندوق الخلفي للسيارة بناء على أوامر قائد «جيش الجهاد المقدس» عبد القادر الحسيني.

وفي ضحى اليوم الموعود انطلق الشاب متجهاً إلى المقر العام للوكالة اليهودية بالقدس، وفتحت البوابة الفولاذية المغلقة عادة أمام رفرفة العلم الأمريكي!

لقد كانت الوكالة اليهودية اشبه بقلعة تضم أقبيتها وثائق نصف قرن من النشاط الصهيوني، وقد أحيطت بسور فولاذي وحراسة دقيقة مستمرة.

استقرت السيارة في مرآب الوكالة، وتسلل أنطوان داود ببطء وحذر، وغادر المنطقة المستهدفة، وحدث كل شيء في فترة وجيزة، انفجرت السيارة وأدى انفجارها إلى تدمير العمارة ومقتل ٣٦ وجرح ما يقرب من المائة من بينهم بعض كبار الشخصيات الصهيونية.

والمناضل أنطوان لم يولد في فلسطين، بل ولد عام ١٩٠٩ ونشأ وتعلم في مدينة بوجوتا عاصمة جمهورية كولومبيا في أمريكا الجنوبية حيث كانت أسرته قد هاجرت إليها من بيت لحم في اواخر القرن التاسع عشر. لكنه عاد إلى جذوره في فلسطين عام ١٩٣٦ ليشارك بنفسه في ثورة شعبه، وبعد مأساة فلسطين عاد ثانية إلى

بوجوتا حيث انضم إلى الثورة الكوبية بقيادة فيدل كاسترو وحمل رتبة كولونيل.

ثم عاد إلى المشرق العربي وتوفي في الأردن عام ١٩٦٩.

● ونود الإشارة في النهاية إلى وجود مخيم الدهيشة للاجئين الفلسطينيين الذي يقع جنوب بيت لحم ويزيد عدد سكانه عن عشرة آلاف نسمة. ويشكل المخيم عنصراً فاعلاً من عناصر الكفاح الفلسطيني والانتفاضة المباركة. اضافة إلى العناصر الفاعلة الأخرى في مخيمات غزة وبلاطة وجباليا ورفح وعسكر وخان يونس وقلنديا والجلازون والشاطىء وباقي بؤر النضال الفلسطيني.

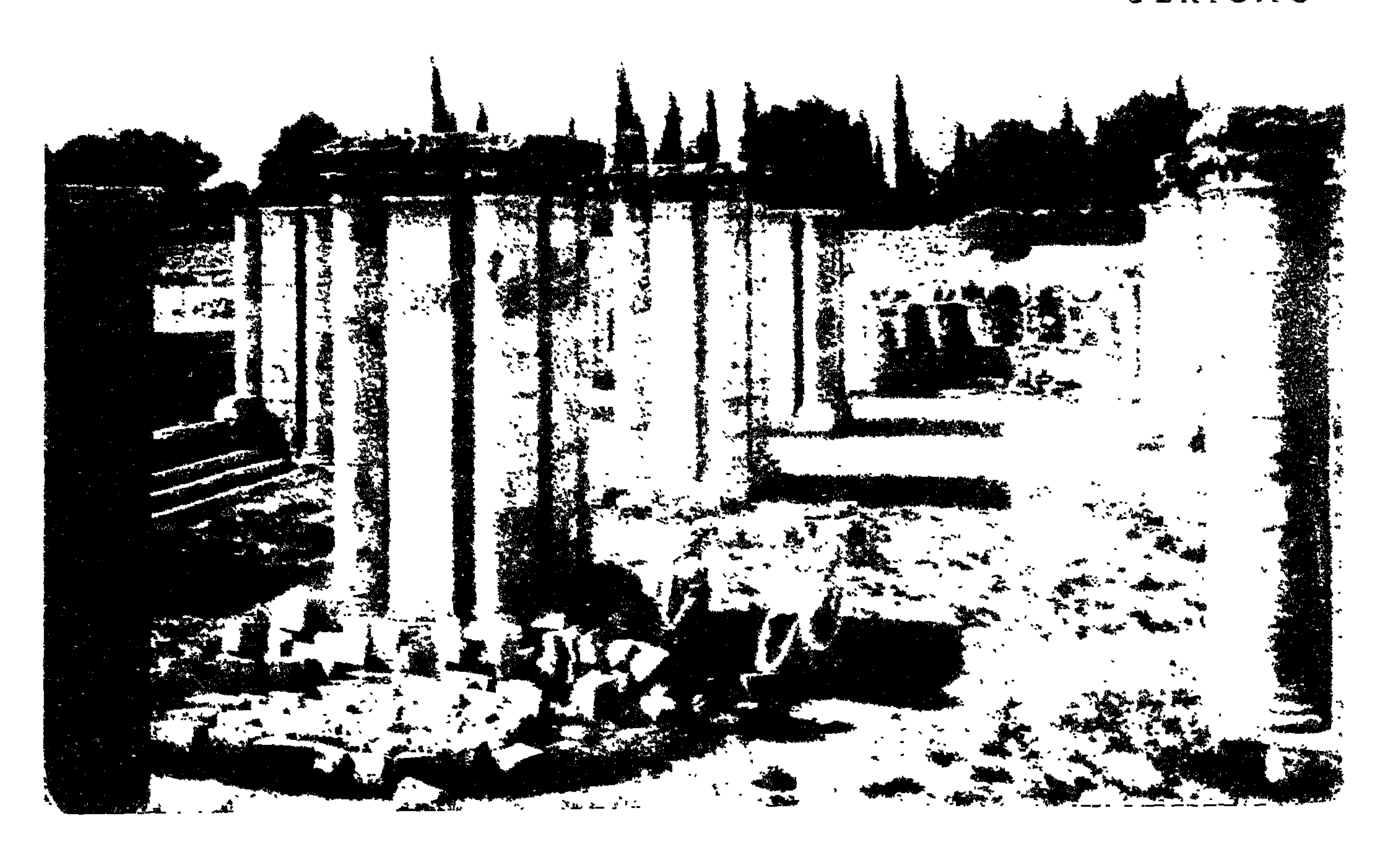
* * *

وفي نهاية القصة تذكرت انني على مشارف القدس الأسيرة، وتذكرت إنني غريب في وطني وداري، وانني لا بد أن أغادر هذا الوطن حينما ينتهي موعد التصريح الصهيوني الذي دخلت بموجبه لزيارة وطني وأهلي، ثم أخذت أردد بعض أبيات أحفظها للشاعر سعيد تيم يقول فيها[1]:

كَمْ بِتُّ أَحْبِسُ دمعتي وأُداري
يا موطني يا مَلعبَ التَذْكار
يا زفرةً في خاطري مخنوقة
سالتْ مؤججةً على أوتاري
لولا على شفة الخلودِ بقيةٌ
من يوم حطينَ تبلُّ أُواري
لتراقَصتْ في شطيَ المهجورِ
أمواجُ القنوطِ وضحكة الأقدار.

(١) المرافىء البعيدة (ديوان شعر)، سعيد تيم، بيروت.

JERICHO



أريحا
بوابة التاريخ

مفارقــة

● ورد في سفر يشوع ـ الاصحاح السادس ـ أن هذا القائد اليهودي أصـدر الأوامر لرجاله المتوجهين لاحتلال مدينة أريحا الفلسطينية نحو سنة ١١٨٧ قبل الميلاد فقال لهم:

«أهْلِكوا كل ما في المدينة من رجل وامـرأة وطفل وشيـخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف، وأحرقوا المدينة مع كل ما فيها، أما الذهب والفضة وأواني النحاس والحديد فاجعلوها في خزانة بيت الرب»[١].

* * *

● قبيل أن يتوجه الجيش الإسلامي إلى مؤتة بقيادة البطل الشاب أسامة بن زيد أوصى الخليفة «أبو بكر الصديق» أفراد الجيش وضباطه بقوله:

لا تخونوا، ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

فشتّان بين الموقفين المتناقضين!

* * *

(١) خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية ـ عبد الله التل ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

عشت مع أريحا غيابياً، وعشت معها حضورياً فلقد كنت شغوفاً لرؤيتها لأنني رغبت في رؤية التاريخ من خلالها.

وفي صيف عام ١٩٧٩ ارتبطت أريحا في خاطري بموقف محير.

فعندما وددت زيارة وطني الفلسطيني للمرة الأولى بعد حرب حزيران قال لي الناصحون في عمان ـ وكنت اسمتزج آراءهم ـ مصيرك يتحدد في أريحا: إما إلى المعتقل في صمت، وإما إلى البيت في أمان!

وكانت أريحا هاجسي لأكثر من أسبوع بنهاره وليله ودقائقه! واقتضت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تتم الزيارة، ففي ذلك اليوم القائظ من شهر يونيو اتجهنا إلى سهل الغور، وبعد ساعات قصار في السفر، وساعات طوال في الإجراءات، كانت حافلتنا الأردنية المتهالكة تقف على بعد خطوات من جسر «الملك حسين» وهو آخر نقطة أردنية صهيونية فرضتها نتائج حرب حزيران الأسود، ومكثنا ننتظر الإذن لنا بالدخول من الجانب الصهيوني.

الرموز الثلاثة!

وقفت مشدود البصر، محسور البصيرة أمام ثلاثة رموز رأيتها مجسدة لأول مرة، ومن خلالها نبع وتوالد ألف معنى ومعنى: نهر أردننا الوديع الذي تنساب مياهه الكالحة في ألم ممض ورتابة موحشة. و«جسر الأحزان» الذي يربط بين الضفتين المتعانقتين أبداً. والذي عبرته آلاف النفوس الحائرة، وارتوت خشباته المهترئة من دموع المفارقين والمودعين. والعلم الصهيوني القابع على صدورنا وأنفاسنا متحدياً طموحاتنا ووجودنا ذاته. وتطاير الشرر من عينيَّ وقلبي وكبدي، وتساءلت: من أوصلنا إلى هذا الوضع المهين الذليل؟ ووجدتني أردد بعض أبيات الشاعر العربي «قُرَيْطِ بن أُنَيْف»:

لو كنتُ من مازنٍ لم تَستبحْ إبلي	بنو اللقيطةِ من «ذُهْل بن شيبانا»
إذن لقامَ بنَصْري مَعْشَرٌ خُشُنٌ	عنْدَ الحَفيظةِ أنْ ذو لوثَةٍ هانا
لكنَّ قَوْمي وإنْ كانوا ذوو عَدَدٍ	ليْسوا من الشَّر في شيء وإنْ هَانا

وبينا أنا مسافر بخيالي عبر متاهات واقعنا العربي الموغل عجباً وغرابة، إذ بأحد أحفاد «هرتسل» يلوح بيده إيذاناً بالموافقة على دخول حافلتنا، وبعد ثلاثة أميال

واجهتنا لوحة كبيرة على مبنى الجوازات والجمارك مكتوبة باللغتين العبرية والعربية: مركز حدود أريحا، نرحب بالزائرين!

دلفنا أولاً إلى قسم الجوازات المنظم تنظيماً يثير الدهشة، وأغلب موظفيه من المجندات الصهيونيات، ثم اتجهنا إلى قسم التفتيش الذاتي ومنه إلى صالة الجمارك الضخمة، وبرغم الكثرة الهائلة في أعداد المسافرين العرب يـومياً ـ وبخـاصة في الصيف ـ إلا أن أعداءنا مستعدون لذلك تماماً.

ولن أسهب في شرح عمليات التفتيش المتناهية الدقة التي تعرض لها كل ذي نبض وروح فينا، لكنني أقول ـ بلا أدنى مبالغة ـ إنه يستحيل على المرء أن يدخل معه عود ثقاب واحداً دون أن تستشعره بعض حواس أعدائنا، وهذا في حد ذاته يعكس صورة القلق الذي يساورهم من نشاط الفدائيين الفلسطينيين. وسأذكر موقفاً عابراً.

في «كـابينة» التفتيش الـذاتي طلبوا أن أسلمهم كـل ما بحـوزتي من أشيـاء مختلفة، وفعلت. وسلمتهم خمس صور عادية جـداً لأطفالي، فـأخذوهـا لمكتب التدقيق، وخضعت لرقابتهم أكثر من ساعتين حيث أعادوهـا، وما زلت حتى هـذه اللحظة أجهل أبعاد الخطر الذي يهدد أمن «اسرائيل» من صور أطفالي!

وأخيراً.. خرجت من مبنى «القهر» الذي امتدت إقامتي فيه لأكثر من خمس ساعات، وفي الخلف وجدت ساحة واسعة تصطف بها عشرات السيارات المتجهة للمدن الرئيسة في فلسطيننا المحتلة. ركبت إحداها متوجهاً إلى مسقط رأسي. وبعد أيام مكثتها عند الأهل بخان يونس اتجهت إلى أريحا لاستقرئها بعض صفحات من تاريخها.

أريحا: مهد الحضارة

تعتبر أريحا أقدم المدن الكنعانية الحصينة التي ورد ذكرها في أكثرية الأسفار القديمة، وهي تقع على مسافة ٣٨ كيلومتراً شمال شرقي القدس، وعلى مسافة ٨ كم غربي نهر الأردن، ونحو ذلك شمال غربي البحر الميت.

وقد استدل الباحثون من الآثار التي تم اكتشافهـا في «تل السلطان» بـإحدى ضواحي المدينة على أن أريحا هي أقدم مدينة مُسوَّرَة عَمَرها الإنسـان، فهي مهد الحضارة الأولى للإنسان القديم.

وتأكيداً لهذه الحقيقة يقول الدكتور عوني الدجاني مدير الآثار السابق في الأردن «إن مدينة أريحا هي أقدم مدن العالم على الإطلاق كما بيّنها علم الآثار حتى اليوم، وهي أقدم من مدينة دمشق بخمسة آلاف سنة، وقد كانت أريحا مأهولة بالسكان قبل أيام أبي الأنبياء إبراهيم الخليل بحوالى ستة آلاف سنة. وقد ثبت بأدلة تاريخية أثرية إن تدجين الحيوان ومعرفة الفلاحة والزراعة الأولى نشأت في هذه البقعة من الأرض بالذات»[1].

وفيها ظهرت أول حكومة منظمة بقيادتها وبضرائبها وبأعمالها الجماعية كبناء السور حولها، والبرج ليتولى فيه الحراس مراقبة تحركات الأعداء، وبحفر قناة للماء تمتد من النبع إلى المزارع، وكذلك باكتشاف أقدم معبد مخصص لعبادة إله القمر (أريحو) الذي استمدت اسمها منه وهو لفظ كنعاني، وريحا في السريانية معناها الرائحة، و«يرحو» أقدم مدينة معروفة في التوراة اليهودية.

يقول: «لانكستر هاردنج» في كتابه آثار الأردن: «بالنسبة لأريحا القديمة وموضعها «تل السلطان»، فقد قامت مدرسة الآثار البريطانية في القدس بعدة حفريات على مراحل متعددة. وقد أسفرت أعمال التنقيب بإدارة الدكتورة كاثلين كينون (بين سنتي ١٩٥٢ ـ ١٩٥٨) عن بعض النتائج الباهرة خاصة فيما يتعلق بالمستويات النيوليتية القديمة جداً والتي يرجع تاريخها إلى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد».

وقد كان المفهوم لدى علماء التاريخ إن أول مدن العالم شيدت مع بداية تسجيل التاريخ منذ خمسة آلاف سنة في بلاد سومر ما بين النهرين دجلة والفرات.

غير أن رجال الآثار والتاريخ غيروا اعتقاداتهم السابقة حين تم الكشف مؤخراً عن أقدم ثلاث مدن في العالم وهي: أريحا في فلسطين و«شانال هويوك» في تركيا و«ليبنسكي فير» في يوغسلافيا، وأقدمها أريحا التي أثبتت الحفريات الأثرية ان أسوارها الشهيرة التي ورد ذكرها في التوراة ترجع إلى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد أي تسعة آلاف سنة حتى اليوم. وقد استعمل العلماء في أبحاثهم التي أوصلتهم إلى هذه النتيجة مادة «الكربون ١٤» التي ساعدت العلماء كثيراً في تحديد تواريخ الآثار بدقة كبيرة.

---

(١) عروبة فلسطين في التاريخ ـ محمد أديب العامري ـ المكتبة العصرية/صيدا ١٩٧٢م.

جولة جغرافية

لقد كان الغور الفلسطيني من أقدم المناطق التي سكنها البشر في عصور ما قبل التاريخ الميلادي. وكلمة «الغور» تعني «المنخفض» وجمعها «أغوار»، وغور الأردن هو الانخفاض العظيم الذي يقع بين فلسطين والأردن وسوريا، ووادي الأردن هو القسم الواقع بين بحيرة طبرية في الشمال والبحر الميت في الجنوب.

ويرى بعض المؤرخين بأن الغور كان عامراً بالحياة قبيل المناطق الفلسطينية الأخرى التي كانت وقتئذ ممتلئة بالغابات الكثيفة، وبقي الغور عامراً فترة طويلة وذلك مما دعا (لوط) عليه السلام «ابن أخ سيدنا يعقوب» لينزل به من أجل هداية أهلة لعبادة الله سبحانه وتعالى.

وقامت في الغور مجتمعات عدة منها مدينتا الإثم «سدوم وعمورة» اللتان كفر أهلهما لأنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ويقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، فأهلكهم الله بظلمهم، فأنزل عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴿ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾، وقد جاء ذلك مفصلاً في سورة «العنكبوت» وغيرها.

وجعلها الله عبرة للناظرين، وسماها البعض «الأرض المقلوبة» حيث لم ينبت فيها بعد ذلك ولمدة طويلة، أي نبات، وبقيت بقعة سوداء فرشت فيها حجارة ذكر انها الحجارة التي أمطرت عليها وعلى قومها.

وقد صور أمية بن أبي الصلت مأساة «سدوم» في قصيدة قال فيها:

ثم لوط أخو سدوم أتاها ... إذْ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا: ... قد نهيناك أن تقيم قِراها
عرضَ الشيخُ عن ذاك بناتٍ ... كظِباءٍ بأجرعٍ ترعاها
غضب القومُ عند ذاك عذاباً ... جعل الأرض سُفْلَها أعلاها
ورماها بحاصب ثم طينٍ ... ذي حروف مُسَوَّمٍ إذْ رماها

وعندما انبلج نور الإسلام على منطقة الغور، شرفها الله سبحانه وتعالى بحدوث معركة اليرموك فيها، وبضمها لرفات عدد من كرام الصحابة رضوان الله عليهم ومن ضمنهم أربعة من القادة يذهب الكثيرون لزيارتهم في الأردن حالياً وهم:

ـ أبو عبيدة عامر بن الجراح وهو فاتح بلاد الشام وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأمين الأمة الإسلامية وقد توفاه الله بطاعون عمواس عام ١٨ هجرية.

ـ شُرحبيل بن حَسْنة وهو أحد القادة العظام الذين بعثهم البطل خالد بن الوليد لفتح الشام، وبعد أن فتح شمالي فلسطين توفاه الله أيضاً بطاعون عمواس.

ـ ضِرار بن الأزْوَر وهو أحد الأبطال المسلمين المشهود لهم بالكفاءة الحربية، وقد أبلى البلاء الحسن في معركة اليرموك وتوفي عام ١١ هجرية.

ـ مُعاذ بن جبل أحد الأبطال الذين شهدوا الكثير من المعارك مع الرسول ﷺ، وهو احد الستة الذين جمعوا القرآن الكريم في عهده.

ولا ننسى بأن معركة حطين الخالدة حدثت أيضاً في منطقة الغور. هذا وقد أكدت الحفريات الأثرية في الأغوار أن العهد الإسلامي أيام المماليك شهد أخصب انتاج زراعي شهدته المنطقة.

نهر الأردن

يعتبر أعظم أنهار فلسطين، له ثلاثة روافد هي: نهر الحاصباني الذي ينبع من لبنان، وهو أطول مصادر نهر الأردن حيث يبلغ طوله ٢٩ كم، ويجري مسافة ١٤ كم منها في الأراضي اللبنانية قبل دخوله الأراضي الفلسطينية.

● **نهر دان:** وينبع من الحدود الفلسطينية ويلتقي مع نهر بانياس، ثم يتحدان بالحاصباني، ويعتبر نهر دان من أضخم مصادر مياه نهر الأردن.

● **نهر بانياس:** ينبع من سفوح جبل الشيخ قريباً من بلدة بانياس السورية على ارتفاع يبلغ ٩١٤ متراً، يبلغ طوله ٩ كم، يوجد كيلو واحد منها فقط داخل الحدود السورية.

عندما تتحد روافده يعرف بنهر (الشريعة)، وبعد خروجه من بحيرة طبريا يعرف بنهر الأردن، ويصل عرضه إلى ثلاثين متراً، وعمقه إلى ثلاثة أمتار ونصف المتر، وفي الأجزاء الشمالية يصل عمقه إلى ١٣٠٠ قدم، وخلال سيره من بحيرة طبريا إلى مصبه في البحر الميت تتحد معه أنهار ووديان كثيرة.

ويعتبر نهر اليرموك أكثرها أهمية حيث يلتقي بنهر الأردن جنوبي بحيرة طبريا في نقطة مشتركة بين الحدود الفلسطينية والسورية والأردنية، ثم نهر الزرقاء الذي يحمل إليه ٩٢ مليون متر مكعب من الماء سنوياً.

ويوجد حالياً جسران يربطان الضفة الغربية والشرقية لنهر الأردن وهما: جسر الملك حسين (اللنبي سابقاً)، وجسر الأمير محمد (داميه سابقاً).

البحر الميت

والبحر الميت ليس «بحراً بمعناه العلمي الدقيق»، إنما هو «بحيرة» مغلقة تقع على الحدود بين الأردن شرقاً وفلسطين غرباً، وتعرف المنطقة الممتدة من البحرالميت حتى خليج العقبة جنوباً باسم وادي عربة، بينما تعرف المنطقة الممتدة منه حتى بحيرة طبرية شمالاً باسم وادي الأردن.

وقد عرف عبر التاريخ بأسماء مختلفة فهو بحر الملح عند اليهود، وبحر الاسفلت عند الرومان، والبحر الميت عند الاغريق، وبحيرة لوط عند العرب.

والبحر الميت مستطيل الشكل تقريباً ويبلغ طوله ٧٦ كم ويبعد عن القدس مسافة ٢٤ كم، وحوالي ١٤ كم عن مدينة أريحا.

ويمتاز البحر الميت بعدة ميزات خاصة، فهو أكثر نقاط الكرة الأرضية انخفاضاً، حيث يصل عمقه إلى ما يزيد عن ٣٩٠ متراً عن مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط. إضافة إلى ذلك فإن حرارة الطقس في المنطقة مرتفعة جداً يصل حدها الأقصى إلى ٥١ درجة مئوية صيفاً، وبسبب ذلك فإن المرء يلاحظ بعينه المجردة تشكيل طبقات ضبابية كثيفة على سطحه نظراً لتبخر مياه الطبقة العليا من البحر.

ويعتبر نهر الأردن المصدر الأساسي لتغذية البحر الميت بالماء العذب، إضافة إلى أربعة جداول صغيرة تبلغ كمية المياه الاجمالية حوالي ١٩٠٠ مليون قدم مكعب تصب كلها سنوياً في البحر الميت، غير أن شدة حرارة المنطقة سرعان ما تتولى تبخير الكم الأعظم منها(١).

ونتيجة لهذا التبخر الكثيف فقد تخلفت فيه كميات كبيرة من الأملاح المعدنية التي لا تسمح لأي كائن حي بالحياة فيه باستثناء بعض أنواع البكتيريا.

ومياهه في حالة تغير دائم كيمياوياً وجيولوجياً ويتكون من ثلاث طبقات مائية تختلف عن أية تركيبات من أي بحر آخر.

---

(١) جغرافية فلسطين - محمد سلامة النحال - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٦٦م.

أما بشأن الأسماك التي يسوقها الحظ العاثر، وتنجرف مع تيار نهر الأردن فسرعان ما تختنق بعد لحظات من ملامستها مياه البحر الميت، ومن ثم تتحول إلى طعام شهي للطيور الحائمة على السطح.

وإذا أجرى المرء دراسة مقارنة لنسبة الأملاح التي يحتويها ماؤه. فسيثبت لديه بأن نسبة ملوحة البحر الميت تصل إلى ٥٥ بالمائة، وهي الأكثر في عالم الماء، أي تزيد تسعة أضعاف عن ملوحة المحيطات التي تبلغ ٦ بالمائة فقط.

والذي يريد السباحة في البحر الميت فإنه يستطيع براحة تامة أن يقرأ صحيفته وهو مستلق على ظهره فوق سطح الماء، لكنه لو أراد أن يمارس العوم فلن يستطيع أن ينزل كتفه بسهولة تحت الماء، لأن المياه الثقيلة تعاكسه وتدفع جسمه إلى السطح بصورة تلقائية.

وهذا البحر هادىء تماماً لا يعرف الموج ولا الموج يعرفه!

وإذا كنت محباً للاستطلاع، وحدث أن تذوقت مياهه، فأنت لن تشعر فقط بشدة ملوحته ولكنك سوف تشعر بالغثيان لأن ماءه يحتوي على نسبة من كلوريد المغنيسيوم، وإذا لمست الماء بيدك فستجد فيه لزوجة الزيت ونعومته وذلك بسبب احتوائه أيضاً على نسبة من كلوريد الكالسيوم.

ولقد اقتضت مشيئة الخالق عز وجل أن لا يعيش كائن حي في هذا البحر الميت الذي له من اسمه نصيب، لكنها قضت بالمقابل تعويض هذا النقص بما هو أغنى وأكثر ثروة.

فهذا البحر «الميت» يحتوي على ثروة خيالية ومذهلة من الثروات الطبيعية يقدرها بعض الخبراء بأنها تعادل ثروة الولايات المتحدة الأمريكية!! وهو يحتوي على كميات كبيرة من كلوريد الكالسيوم، وكلوريد المغنيسيوم، وكلوريد الصوديوم، وبروميد المغنيسيوم، وكلوريد البوتاسيوم، وغير ذلك من الأملاح والمعادن الأخرى.

وكعادة اسرائيل، فهي تسعى دوماً لانتهاز الفرص المتاحة لها، وتثبيت دعائم وجودها في فلسطيننا العربية المحتلة، وقد عمدت من جانبها إلى استغلال طبيعة البحر الميت حيث أنشأت عدة مصانع ومختبرات في الضفة الغربية منه.

وقد ذكرت المصادر الأردنية بأن اسرائيل تستخدم سفينة أبحاث في البحر الميت لدراسة المياه التي تحتوي على الثروات المختلفة، ويعمل في هذه السفينة

عدد من العلماء والباحثين والغواصين للوقوف على التطورات من التركيب المائي والمعدني للبحر الميت، ومعلوم أن اسرائيل تقوم أيضاً بتكوين بحيرة شمسية من مياه البحر الميت لتوليد الطاقة.

ومن أهم المناطق السياحية بالمنطقة بلدة «عين بقيق» التي تشتهر بينابيعها المعدنية، وبلدة «مسادا» وفيها بقية قلعة قديمة يقال إن اليهود حوصروا فيها، وانتحروا جميعاً في العصر الروماني، كما يوجد بالمنطقة كيبوتز «عين جدي» على البحر الميت حيث يوجد الشلال الوحيد في فلسطين. كما توجد بالمنطقة «كهوف قمران» حيث اكتشفت لفافات البحر الميت.

كما تعمل اسرائيل بكل مثابرة وجدية على إحياء مشروع صهيوني قديم لشق قناة ضخمة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت تعود عليها بفوائد عظيمة، وتعود على الأردن وفلسطين بمصائب عظيمة أيضاً.

والقناة المقترحة ستبدأ من شاطىء قطاع غزة المحتل غرباً، وتمر بجنوب بئر السبع لتصل إلى البحر الميت، حيث يبلغ طولها ١١٠ كم. وحين يكتمل المشروع فستستفيد اسرائيل من ثمرات مشروع هيدروكهربائي ضخم، وفي تبريد محطات الطاقة الكهربائية والنووية، إضافة إلى إنشاء بحيرة صناعية كبيرة، وزيادة الدخل السياحي ومكتسبات أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، لكنها تبقى في النهاية مؤشراً خطيراً على تثبيت الوجود الصهيوني الدخيل في منطقتنا العربية، وحافزاً أيضاً لكل العرب والمسلمين من أجل العمل الجاد لتقويض المخططات اليهودية الاجرامية..

يقول وزير الطاقة الصهيوني البروفيسير يوفال نعمان: إن مشروع القناة البحرية له استمرارية ويطل على آفاق أخرى كبيرة، إنه مفتاح لمجموعة برامج طاقة للخمسين سنة القادمة في دولة اسرائيل، وهذه البرامج سوف تزيد في طاقة محطات الكهرباء في النقب إلى جانب استغلال الصخور الزيتية «اي الشيل»، وربما الأهم من ذلك تحويل البحر الميت إلى حوض شمسي ضخم».

واعرب عن اعتقاده إن إنقاذ البحر الميت بإدخال مياه جديدة إليه سيسمح في المستقبل بانتاج حوالي ١٥٠٠ ميغاواط من الحوض الشمسي.

وأضاف أن مثل هذه المشاريع توفر مصادر عمل جديدة وتستقطب الهجرة إلى

البلاد، وتجدد الدافع الصهيوني والشعور بالابداع[1].

هذا وقد حملت الأنباء في بداية عام ١٩٩٠ إن نهر الأردن يتعرض إلى حرب إبادة كيماوية صامتة يشرف الكيان الصهيوني على تنفيذها، وإذا استمرت هذه الحرب التدميرية وحققت أهدافها البعيدة فستنعدم الحياة في النهر في ظل فساد المياه الصالحة للشرب والزرع، ومن المعلوم أن حوض نهر الأردن هو الارض الزراعية الخصبة التي تشكل ركناً مهماً في الاقتصاد الأردني، وتظهر هذه الحرب على شكل روائح كريهة قادرة على قهر البشر وهروبهم وهي على شكل قاذورات ونفايات كيماوية تلوث مياه النهر.

واقع أريحا

بعد حرب ١٩٤٨ توجه بعض سكان الساحل الفلسطيني إلى منطقة أريحا فاستقروا في أربع مخيمات خاصة أنشأتها وكالة غوث اللاجئين ووصل عدد سكانها إلى أكثر من مائة وعشرين ألف نسمة.

وحملت هذه المخيمات أسماء عقبة جبر وهو أكبرها عدداً وبلغ عدد سكانه قبل عام ١٩٦٧ نحو ٤٥ ألف نسمة، ثم مخيم عين السلطان وكان عدد سكانه قبل الحرب يربو على ٣٥ ألف نسمة، ومخيم النويعمة وبلغ عدد سكانه نحو ٢٥ ألف نسمة إضافة إلى مخيم العوجا وكان عدد سكانه عشرة آلاف نسمة.

ولكن بعد حرب عام ١٩٦٧ بدأت نظرة العدو تتغير سلبياً تجاه هذه المخيمات الأربعة لأن مجرد وجودها على طريق السائحين والمسافرين يعتبر شاهداً على بعض آثار جريمتهم الكبرى، فحدث تغيير جذري فيها، وتم هدم مخيم النويعمة هدماً تاماً، وأبيد عن بكرة أبيه بتاريخ ١٩٨٥/٧/٢٢م كما تم إزالة أكثر من ثلثي مخيم عين السلطان ولا يزيد عدد سكانه حالياً عن ألف نسمة!

أما مخيم عقبة جبر فلا يزيد عدد سكانه اليوم عن ثلاثة آلاف نسمة بعد أن تشرد الباقون داخل وخارج فلسطين المحتلة. أما مخيم العوجا فيقدر عدد سكانه حالياً بثلاثة آلاف نسمة.

هذا وقد تحولت مواقع اللاجئين حالياً إلى مستوطنات يهودية وأراض زراعية. كما أن السلطات الصهيونية ممعنة في حرمان سكان أريحا من حق حفر الآبار

(١) مجلة الجيل ـ قبرص ـ ديسمبر ـ ١٩٨٠م.

الأرتوازية التي يحتاجون إليها في ري مزروعاتهم. وهذه واحدة من خطط الضغط على أهلنا بالارض المحتلة لأفقادهم شهية العيش الهنيء في وطنهم واضطرارهم للرحيل في نهاية المطاف!

وهذا في حد ذاته هدف صهيوني رئيس، فمنذ الشهور الأولى لاحتلالها للمنطقة والسلطات الاسرائيلية تحاول تطبيق خطتهاالرامية إلى جعل غور الأردن بكامله من البحر الميت حتى طبريا كتلة استيطانية واحدة تخلو من أي وجود عربي مؤثر، وتشكل حزاماً أمنياً متصلاً، وقد زاد عدد المستعمرات المنشأة في منطقة أريحا حتى عام ١٩٩٠ عن ثلاثين مستوطنة!

وذكر الدكتور توفيق مرعي في كتابه «أريحا» أن عملية الاستيطان تشوه البنية التحتية والبنية الفوقية للسكان العرب، حيث تغتصب منهم أراضيهم ومياههم ومراعيهم، ويحرم عليهم التنقل في المناطق المغتصبة، ويحاربون في لقمة عيشهم وفي وجودهم ودينهم وحضارتهم وثقافتهم وعاداتهم لا في منطقة أريحا فحسب، بل وفي جميع الضفة الغربية.

وقام اعداؤنا بجعل مدينة سادوم منطقة صناعية مهمة، وقد ذكرت (الأنسكلوبيديا البريطانية) عن مادة سدوم أن المدينة الجديدة تأسست عام ١٩٣٤ حيث أنشئت شركة استغلال البوتاس، ولم تكن هناك طرق تصل إليها بل كان يصل إليها بواسطة قوارب في البحر الميت. وفي عام ١٩٥١ تم إنشاء طريق عالمي من بئر السبع إلى سدوم، وهي من أشهر مناطق صناعة البوتاس وبعض الصناعات الكيماوية.

وهي مصدر للسماد البوتاسي في كل آسيا وافريقية باستثناء الاتحاد السوفييتي سابقاً، وكانت تنتج سنة ١٩٧٠ مليون طن في السنة، ونظراً لرطوبتها وحرارتها الشديدة في أغسطس فإن عمالها يقيمون في ديمونة وعراد.

الجدير بالذكر إن اسرائيل استغلت الأبعاد التاريخية والجغرافية لأريحا وأطلقت اسم «أريحا واحد» على الصاروخ التعبوي أرض ـ أرض وهو متوسط المدى إذ يبلغ مداه ٤٨٠ كلم ويحمل نوعين من الرؤوس النووية، ومنذ اطلاقه في السبعينيات واسرائيل تحاول تطويره إلى (أريحا ـ ٢)، وفي شهر اكتوبر من عام ١٩٨٩ سقط هذا الصاروخ في البحر المتوسط على بعد ٤٠٠ كلم من مدينة بنغازي الليبية بعد أن نجح

اطلاقه من احدى القواعد العسكرية في صحراء النقب وقطع فعلاً مسافة ١٣٠٠ كلم.

واستطاعت اسرائيل بعدئذ استحداث صاروخ «أريحا ـ ٢» الذي يصل مداه إلى ١٥٠٠ كلم.

هذا وتدل تقديرات المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية لعام ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ بوضوح على أن اسرائيل لا تزال القوة العسكرية الأولى في منطقة الشرق الأوسط ولا ينحصر هذا في المجال النوعي وفي ما يختص بتسليح القوات وتجهيزها وتأهيلها فحسب، بل إنه ينطبق أيضاً على النواحي الكمية في مجالات عدة.

وبالاضافة إلى ذلك، فإن اسرائيل هي الدولة الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط التي يخصص تقرير «ميزان القوى» حيزاً لقواتها النووية الاستراتيجية. ويقول في هذا المجال أنه من المعتقد على نطاق واسع وأن وسائل الايصال اللازمة لهذه الذخائر النووية تضم طائرات قاذفة وصواريخ أرض ـ أرض تشمل الصاروخ «جريكو ـ ٢» وجريكو ـ ١[1].

* * *

في طريق عودتي من فلسطين إلى عمان. وعند جسر الأحـزان تلفت ورائي مغالباً دموعي وأخذت أناجي بلادي.. مردداً أبيات الشاعر سعدي يوسف:

يا بلادي التي لسْتُ فيها
يا بلادي الوحيده
أيها الرملُ والنخلُ والجدولْ
أيها الجُرح والسنبلْ
يا عذابَ الليالي المديده
يا بلادي التي لستُ فيها
يا بلادي الطريده
ليس لي منك إلا شراع المسافر
راية مزقتها الخناجرْ
والنجوم الشريده.

---

(١) جريدة الحياة ـ ٢٩/١٠/١٩٩٢م ـ لندن.

الباب الثاني

لواء اللد

ويتبعه أقضية:
يافا، الرملة، اللد



اللد.. مدينة تبحث عن أهلها!

مدينة صغيرة المساحة إذا قيست بغيرها من المدن الكبيرة، وهي كبيرة القيمة إذا قيست بغيرها من المدن الصغيرة، وهي كنعانية الأصل.

شهدت العديد من الحقب والعصور، وتدثَّرت بالعديد من الألقاب والأسماء، والذي يهمنا أنها عُرفت عند العرب بِـ (لُدّ) ثم أضيفت إليها أل التعريف فأضحت اللّد.

وقد ورد في العديد من الكتب التاريخية والجغرافية والدينية أن المسيح يقتل الدجّال بباب «لُدّ» أي اللّد.

وأورد ابن عساكر في تاريخه الكبير أن النبي ﷺ ذكر الدجّال، وبأن اليهود (الذي هو منهم) يكونون من أعوانه، ويقتله عيسى بن مريم هو ومن معه بباب لُدّ.

واحتلت اللّد مكانة دينية مرموقة في القرون الأولى من التاريخ الميلادي المسيحي، وقد اشتهرت بشكل خاص بقبر «القديس جورج» الأسطوري، وكانت لها شهرة أيضاً باعتبارها بلدة القديس (جاورجيوس) وهي مدينة الخضر عليه السلام [1]، ومعروف أن للخضر مقامات عديدة في فلسطين وهو مقدس عند المسلمين والمسيحيين على السواء.

---

(١) «جغرافية فلسطين المصورة» قسطنطين خمار ـ بيروت ـ ١٩٦٩م.

شيء من التاريخ

فتح القائد البطل عمرو بن العاص مدينة اللّد في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن تم له فتح غزة وسبسطية ونابلس، واتخذ اللّد عاصمة لجند فلسطين عام ٦٣٦م، ولما أنشئت جارتها الرملة سنة ٧١٥م على يد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك نقل إليها الكثير من السكان.

وبتاريخ ٣ يونيو (حزيران) عام ١١٠٩م احتل الصليبيون اللّد وهم في طريقهم إلى القدس، ودعوها حينئذٍ بمدينة «القديس جورج».

لكن اللّد عادت إلى أحضان المسلمين على أثر الانتصار العظيم الذي حققه البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين الشهيرة.

وقد عمد هذا القائد إلى تدمير حصون اللّد حتى يقطع خط الرجعة على ريكارديوس الصليبي.

وجعل المماليك اللّد مركز مقاطعة إدارية، ومحطة من محطات البريد بين دمشق وغزة.

وبعدئذ رقدت اللّد في حضن الزمن نحو أربعة قرون، واستيقظت في العهد العثماني عام ١٥١٧ أيام حكم السلطان سليم الأول مع مدن الشام وفلسطين، لكن العثمانيين أخلدوها إلى النوم مع عدد من مدن المنطقة.

غير أن أهمية اللّد الرئيسة لم تنبع من تاريخها.. ولكن نبعت من جغرافيتها.. فهي ظهير لمدينة يافا التي تبعد عنها مسافة ١٦ كلم، وهي البوابة الغربية للقدس وتبعد عنها مسافة ٥٠ كلم. وتبعد مسافة ١٢٠ كلم عن حيفا ثاني أكبر مدينة في فلسطين، والميناء الرئيسي فيها.

كما أنها توأم مدينة الرملة التي تبعد عنها نحو ٤ كلم فقط، وتقع على السهل الساحلي وفي موقع متوسط بالنسبة إلى الشمال والجنوب، وهي لذلك ذات مناخ مشترك بين البحر والجبل.

كما أنها تشتهر بصناعة الصابون وعصر الزيتون وذلك لتوافر أشجار الزيتون في السهل الخصيب المحيط بها.

غير أن اللّد اكتسبت أهمية كبرى إبان الحرب العالمية الأولى، حين جعل

الإنجليز منها عقدة مواصلات برية وجوية مهمة.

فعندها تلتقي خطوط السكك الحديدية والطرق المعبدة، بل اشتهرت وقتئذ بأن بها أهم محطة لسكك الحديد في الشرق العربي، وأصبح بامكان المسافر أن يستقل القطار من القاهرة إلى اللّد. ومن اللّد إلى حيفا وبيروت وطرابلس وحمص وحلب، وآسيا الصغرى عبر مضيق البوسفور[١].

كما أن اللّد كانت مركزاً لمحطة الهاتف الرئيسة في فلسطين، وفي قرية صرفند القريبة منها كان يوجد معسكر بريطاني حربي ضخم.

كما أنشأت بها السلطات البريطانية مطاراً مهماً عام ١٩٣٦ سرعان ما أضحى الأول في فلسطين.

اللد.. في قبضة المحتلين

لقد ساهمت اللّد كغيرها من المدن العربية الفلسطينية في مقاومة العدوان الاسرائيلي عام ١٩٤٨. وكانت مقاومة سكانها لهذا العدوان امتداداً طبيعياً لجهادهم خلال الثورات الفلسطينية المتعاقبة، وقد قدموا خلال عام ١٩٤٨ أكثر من ١٥٠٠ شهيد. من بينهم ما يزيد عن ٨٠٠ شهيد بين مناضل وطفل وشيخ سقطوا في كارثة اللّد وحدها[٢].

وفي صباح يوم ١٣ تموز نفذ الصهاينة قرارهم باجلاء أهالي اللّد ومن فيها من السكان الذين كانوا قد لجأوا إليها من المدن والقرى المجاورة، ورابط جنودهم على مشارف المدينة يسلبون النازحين ويجردونهم من كل ما يملكونه من أموال وحلي[٣].

وقد صور القائد الشهيد خليل الوزير (ابو جهاد) في مذكراته كيفية سقوط اللّد فقال: لقد جاء الاسرائيليون فاحتلوا اللّد بخديعة معروفة، إذ بعد أن تمكن سكان هذه المدينة من صد المهاجمين مرات متعددة، قامت القوة المعادية بتسريب إشاعة تتحدث عن وصول نجدات من الجيش العربي، وان هذه النجدات ستدخل اللّد في فترة قريبة للدفاع عنها وصد القوات المهاجمة[٤].

(١) جغرافية فلسطين ـ حبيب خوري ـ خليل طوطح ـ صيدا ـ ١٩٢٣م.
(٢) اللد.. دراسة في الموقع والتاريخ والشهرة، مصطفى محمد الفار ـ الأردن.
(٣) قصة مدينة اللد ـ عبد الرازق أبو ليل ـ سلسلة المدن الفلسطينية (١٣).
(٤) مذكرات الشهيد أبوجهاد ـ مجلة المجلة، العدد (٤٣١) تاريخ ١١/٥/١٩٨٨م.

وأردف ابو جهاد قائلاً: وفي الوقت الذي كان فيه سكان اللّد والرملة يتوقعون وصول نجدات عربية إذا بقوات اسرائيلية ترتدي ملابس وكوفيات الجيش العربي فتندفع بقوة باتجاه قلب اللّد، وعلى الفور ورغم هول المفاجأة فقد امتشق من معه من الأهالي أسلحة، وأخذوا يقاومون المهاجمين فوقعت في ذلك اليوم مذبحة المسجد الشهيرة (مسجد دهمش حيث استشهد نحو ثمانين شخصاً).

وأصاب الهلع السكان لا يلوون على شيء إلا السلامة، وقد صور جزءاً من هذا المشهد المأساوي قائد الجيش الأردني (١٩٥٦) اللواء على أبو نوار في مذكراته فقال: ليس من سمع كمن رأى، العرب سمعوا ولكنهم لم يروا، والجيوش ربما سمعت يومها ولكنها لم تشهد حرائر العرب وقد فقدن الوعي على الحياة وذهبن في هلوسة ترتفع حتى السماء، أقدامهن وأيديهن لا يقدرن على النهوض بعد أن أجهدهن الضرب في الارض الخشنة، أقدامهن مقرحة، وأيديهن خاوية، وأذرعهن أدركها الكلل من التناوب على حمل الصغار، وليس فيهن إلا ألسنة لا تسكت، ورؤوس أفزعها الرعب يستمطرون غضب الله على الدنيا، ويصببن لعناتهن على من حولهن[١].

جريمة جلوب باشا

هذا وقد قيل كلام كثير حول مسؤولية الجنرال جلوب باشا قائد الجيش العربي الأردني في حرب عام ١٩٤٨ وضلوعه في تسليم مدينتي اللّد والرملة إلى اليهود.

ولما سئل جلوب باشا من قبل أحد الصحفيين العرب بعد ست وثلاثين سنة عن اتهامه بتسليم اللّد والرملة بدون حرب لليهود اعترف بذلك فقال معللاً: أعطينا اليهود اللّد والرملة والمثلث مقابل إيقاف الحرب، ولو لم نفعل ذلك لخسرنا فلسطين وكل شيء، لقد اتخذت الحكومة الأردنية قراراً بعدم الدفاع عنهما، فقد كان خط مواجهتنا مع العدو يمتد ٧٠٠ كلم وليس لدينا سوى أربعة آلاف جندي، ومدينتا اللّد والرملة تقعان في منطقة سهلية، وأقرب التلال إليهما تبعد خمسة أميال عن المدينتين، وقد كانتا تخضعان لحماية جنود غير نظاميين، وكنا نحن نتمركز في اللطرون، والجيش العراقي يتمركز في مجدل يابا، واللّد والرملة تقعان في المنطقة التي تفصل بين الجيشين.

---

(١) قصة المخاض القومي ـ الحلقة الخامسة، جريدة القبس (٦٢١٩) بتاريخ ١٩٨٩/٩/٢م الكويت.

ومن سوء حظي في تلك الفترة ان إرنست بيفن وزير الخارجية البريطانية وجّه نداء إلى الأطراف المتحاربة في فلسطين بوقف الحرب، وبعد هذا النداء بيوم واحد سقطت اللّد والرملة في أيدي اليهود، فبدأ الفلسطينيون والعرب يضربون الأخماس في الأسداس[1]!

وحينما احتل اليهـود اللّد لم يكن بها إلا نحـو ألف فلسطيني، لكن سيـول المهاجرين اليهـود تدفقت على المـدينة، وفي نهـاية عـام ١٩٤٩ أضحى عددهم ١٠,٤٥٠ نسمة، وأخذ العدد يتزايد بفعل الهجرة والتناسل حتى وصل عددهم عام ١٩٧٣ إلى ٣٣,٢٠٠ نسمة بينهم ٣,٤٠٠ عربي، وقد يكون هذا العدد قد تضاعف اليوم، ولكن عدد السكان العرب فيها حالياً يزيد عن ٦,٠٠٠ نسمة.

ومنذ احتلالها للمدينة باشرت السلطات الصهيونية باقامة المستعمـرات على أراضيها. وزراعة مختلف أنواع المحاصيل فيها ولا سيما الزيتون والحمضيات.

وتعد اللّد حالياً مركزاً تسويقياً مهماً للمستعمرات الصهيونية المجاورة. وقـد ساهم مطار اللّد في ترويج الحركة السياحية داخـل المدينـة، فزاد عـدد الفنادق، والمحلات التجارية، ووكالات السياحة والسفر، وجعل من اللّد منفذاً جوياً رئيساً لفلسطين إلى العالم الخارجي، زاد عدد المسافرين المارين بالمطار على أكثر من مليون مسافر سنوياً.

كما يعد مطار اللّد أهم مصدر لتشغيل الأيدي العاملة بالمدينة لأنه يضم صناعة الطائرات وإصلاحها وصيانتها. وتنشط في اللّد ذاتها كثير من الصناعات الغذائية، والكهربية، والورقية، والنفطية، والتبغية، والمعدنية. وغالبية هذه الصناعة مقامة في مـدينة اللّد الجـديدة التي تعتبـر من المدن العصـرية التي تضم المبـاني الحديثـة والمحلات التجارية الكبيرة والشوارع المنسقة. بينما احتفظت اللّد القديمة بطابعها الشرقي. . وتقيم بها الأغلبية العظمى من السكان العرب وخاصة في «حي المحطة». ذلك الحي الذي يشكل «مخزن أسلحة لرجال المنظمات ومخبأ للعرب» كما وصفه مكسيم ليفي رئيس بلدية اللّد ضمن برقيات احتجاج بعث بهـا إلى رئيس حكومـة الاحتلال ووزير الحرب ورئيس الكيان الصهيوني، فقد حدثت عمليات مسلحة أدت إلى مقتل ثلاثة إسرائيليين.

---

(١) جريدة الخليج ـ الشارقة ـ العدد (١٨٢١) بتاريخ ٧ إبريل ١٩٨٤م.

وأعلن رئيس بلدية اللّد الصهيوني أيضاً بأنه «سيناضل من أجل تصفية الحي العربي الذي يتكون من الأكواخ التي أقيمت دون ترخيص، أن المشكلة تكمن في أن الحكومة لا تدرك أن في منطقة اللّد ـ الرملة قاعدة خطرة لزعزعة أمن السكان».

ويبدو أن هذا الرئيس الصهيوني نسي ـ أو تناسى ـ بأن المنصب الذي يشغله ـ كرئيس لبلدية اللّد ـ قد وصله على أشلاء مئات الضحايا وآلاف المشردين العرب من السكان الشرعيين لهذا البلد العربي الأصيل.

هل نحن بحاجة لنذكّره ببعض ما اقترفته عصابات حكومته ضد أهالي اللّد والرملة والنقب عام ١٩٤٨؟

لا بأس. ولنذكّر أيضاً معه كل الجاحدين لحقوقنا، وكل المشككين في نضالات شعبنا.

فقد صدر عام ١٩٨٤ كتاب باسم «الإسرائيليون الأُوَل ـ ١٩٤٩» ومؤلفه صحفي صهيوني يدعى «توم سيجيف» وصدر في تل أبيب عن مؤسسة رومينو للنشر ويقع في ٣٥٤ صفحة.

ويكشف الكتاب عما حدث من فظائع وقتل جماعي وطرد واغتصاب في المناطق الفلسطينية الثلاث ـ اللّد ـ الرملة ـ النقب معتمداً على الوثائق الرسمية الاسرائيلية التي تم السماح بالاطلاع عليها مؤخراً، ومن بينها وثائق مجلس الوزراء الاسرائيلي والتي يقول فيها وزير الزراعة آنئذ «أهارون زيسلنج»:

«لقد اقترف الجيش الاسرائيلي فظائع يصعق لهولها النازيون، إن روحي تتحطم ولا أستطيع النوم لجسامة ما شاهدته أنا ويعقوب شابيرا ـ النائب العام ـ واننا إذ لا نستطيع أن نكشف نتيجة تحقيقاتنا فيما جرى في اللّد والرملة والنقب فيجب أن يستمر التحقيق»[1].

كما يتحدث الكتاب عن دخول موشي دايان إلى الرملة على رأس الكتيبة ٨٩ من اللواء الثامن وتنسيقه مع ابن جوريون في تنفيذ ما جرى من تهجير قسري واستخدام سيكولوجي لاغتصاب العربيات لبث الذعر بين بقية العرب وطردهم!

---

(١) جريدة صوت الشعب ـ عمان بتاريخ ١٩/٨/١٩٨٤م.

الترحيل من اللد إلى النقب

إن التعهد بالنضال من أجل تصفية حي المحطة العربي الذي التزم به رئيس بلدية اللّد الصهيوني وصل إلى مرحلة التحقيق الفعلي، فقد كشفت مراسلة صحيفة (هآرتس) يهوديت غرينبلت النقاب عن محاولات قامت بها مؤخراً وزارة الاسكـان (الاسرائيلية) لاجبار عرب اللّد من سكان حي المحطة على الهجرة إلى بلدة «راهط» في النقب.

وقال سكان حي المحطة في المقال الذي نشر بعنوان «الترحيل من اللّد» بتاريخ ١٩٩٠/٦/٢٠ بأن تنفيذ هذه السياسة يتم من خلال شركة «الورم» المخولة بتطوير اللّد والرملة، وأعرب السكان عن تخوفهم بأن يشكل مخطط ترحيـل حي المحطة المرحلة الأولى فقط من مخطط أوسع يشمل جميع العرب في اللّد والرملة[1].

لقد تسلم العديد من سكان المحطة في اللّد ـ وأغلبيتهم جاءت بالأصل من النقب في الخمسينات والستينات في أعقاب عمليات المصادرة والتشريد لعرب النقب ـ مؤخراً أوامر بهدم البيوت التي يسكنونها في المحطة، وقد كان ذلك ضمن مخطط لتفريغ حي المحطة من السكان العرب حيث تم بناء حي جديد لهم يدعى «الوردة» لاستيعاب سكان الحي. وهناك أعداد كبيرة من المواطنين العرب يرفضون تنفيذ هذه الأوامر الجائرة. ولكن هل يستطيعون الوقوف في وجه السلطات الإسرائيلية ؟!

عمليتان فدائيتان في اللد

شهد مطار اللّد الدولي حدوث عمليتين فدائيتين جريئتين خلال شهر مايو (أيار) من عام ١٩٧٢م. ففي اليوم الثامن من ذلك الشهر قامت مجموعة البطل وليم نصار المكونة من أربعة فدائيين فلسطينيين (رجلان وامرأتان) بالاستيلاء على طائرة مدنية بلجيكية كانت قادمة من بروكسل إلى تل أبيب وعلى متنها مائة راكب وملاح وتوجهوا بها إلى مطار اللّد الدولي. وطالب الفدائيون بالإفراج عن مائة معتقل فلسطيني في سجون العدو، مقابل تأمين الافراج عن الطائرة وركابها، وقد حضر إلى المطار موشي دايان وزير الدفاع الاسرائيلي يومئذ مع بعض كبار العسكريين، وحدد الفدائيون ساعة

---

(١) جريدة الدستور ـ عمان بتاريخ ١٩٩٠/٨/٢٠م.

محددة لانتهاء الوضع، لكن السلطات الاسرائيلية طلبت عن طريق الصليب الأحمر الدولي بتجديد هذه المدة، وحين فتحت أبواب الطائرة لتزويد الركاب بالطعام دخل إليها جنود اسرائيليون كانوا يلبسون ثياب العمال واشتبكوا مع الفدائيين الأربعة، فاستشهد ثلاثة منهم وتم أسر الأخير[1].

أما العملية الثانية فقد حدثت بتاريخ ١٩٧٢/٥/٣٠ وفي نفس المطار الذي تمت فيه العملية الأولى. لكنها مختلفة في أدائها وأدواتها.

انهم مجموعة من ثلاثة فدائيين يابانيين من الجيش الأحمر المتعاطف مع حركة المقاومة الفلسطينية، وقد وصلوا إلى مطار اللّد الدولي كركاب عاديين على متن طائرة ركاب فرنسية، ودخل الركاب إلى صالة الجمارك بانتظار وصول حقائبهم، وعندما استلم الفدائيون الثلاثة حقائبهم سارعوا إلى فتحها وسحبوا رشاشاتهم وقنابلهم اليدوية وأطلقوا نيرانهم على رجال الأمن والجمارك.

وقد سيطر الفدائيون على المطار لمدة ربع ساعة أعطبوا خلالها طائرتين اسرائيليتين وقتلوا ٣١ شخصاً وجرحوا حوالي ٨٠، ومات فدائيان وأسر الثالث وهو كوزو أوكاموتو، وقد حكم عليه فيما بعد بالسجن المؤبد، ولكن لم يقض بالسجن سوى ١٣ عاماً حيث أطلق سراحه عام ١٩٨٥ ضمن عملية مبادلة أسرى تمت بين حركة المقاومة والسلطات الاسرائيلية بواسطة الصليب الأحمر الدولي[2].

شخصيات وعائلات من قضاء اللّد

ينسب إلى قضاء اللّد عديد من الشخصيات البارزة منهم المرحوم سليم اليعقوبي (أبو الإقبال) وهو شاعر وخطيب ومفت سابق لمدينة يافا ولد عام ١٨٨٠، وتوفي عام ١٩٤٦، وله عدة مؤلفات، ويروى على لسانه بيت مشهور من الشعر هو:

لِكُلِّ فَتَى هِنْدٌ يُرَدِّدُ اسمها   وهندي التي لم يَحْكِها أحدٌ «لُدُّ»

الشهيد القائد حسن سلامة(١٩١٣ ـ ١٩٤٨)، الشهيد المناضل علي حسن سلامة (١٩٤٠ ـ ١٩٧٩)، عبد الحميد ياسين (١٩٠٨ ـ ١٩٧٥)، الدكتور نجيب بك ابو جودة (١٨٩٢ ـ)، الشهيد القائد محمد يوسف النجار (يبنا) (ـ ١٩٧٣) القائد

---

(١) الموسوعة الفلسطينية ـ دمشق ـ ١٩٨٤م.

(٢) المرجع السابق.

ممدوح صيدم (عاقر) (١٩٤٠ ـ ١٩٧١)، الشهيد فايز جراد (١٩٣٦ ـ ١٩٦٩)، الشاعر عمر عبد الفتاح ابو زيد (ـ ١٩٦٧)، الشهيد حافظ صقر (ـ ١٩٣٦). الشهيد النقيب سعيد محمد بدوي (١٩٤٥ ـ ١٩٨٥)، الشهيد جورج خليل مريبع (١٩٤٨ ـ ١٩٨٥). الشيخ داود حمدان (١٩٠٥ ـ ١٩٧٩). الحاج علي الكرزون، فؤاد وعزت الكرزون، الحاج خليل دهمش، الشيخ طاهر حماد، سعيد الهنيدي، الشهيد حافظ صقر.

ومن العائلات اللّدية المعروفة نذكر: دهمش، شموط، الزمر، البابا، ابو زر، العلمي، اليعقوبي، الزين، الكرزون، الهنيدي، حسونة، الصالحي، الكيالي، الفار، أبو كويك، الشيخ قاسم، الحجار، حجازي، الحلتة، حبش، صنحن، الرنتيسي، سابا، الحافي، عازر، القاضي، اللولو، العايدي، العمري، العناني، غنيم، جرار، خرمة، الربعي، الدلق، الدلو، أبو إصبع، أبو فضة، المريدي، وهبه وغيرها.

* * *

وبعد هذه الرحلة أخذت أردد قول ابن أبي شريف:

يـا لـوعـةَ البَيْنِ مـا أبْقَيْتِ من جَلَدٍ	أيْقَنْتُ واللّهِ أنَّ الـصَّبْـرَ قَـدْ نـفَـدَا
حَشَـوْتُ أحشـائي نيـرانـا قـد اتَّقَـدَتْ	بـأَضْـلُعي فـأذابَـت منّـي الجَسـدَا
كيفَ السَّبيـلُ إلى عَـوْدِ اللِّقـاءِ وَهَـلْ	هـذا البِعـاد قَضى لـه المَـوْلى أمَـدا



الرملة.. هبة سليمان بن عبد الملك

واحدة من أعظم خمس مدن تم تشييدها في صدر الاسلام، إضافة إلى البصرة التي بناها عتبة بن غزوان عام ١٦ هجرية، والكوفه التي بناها سعد بن أبي وقاص عام ١٧ هجرية، والفسطاط التي بناها عمرو بن العاص عام ١٤ هجرية، والقيروان التي بناها عقبة بن نافع عام ٥١ هجرية.

أما الرملة فيرجع الفضل في إقامتها إلى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك عام ٧١٥ ميلادية، حينما ولاه الوليد بن عبد الملك جند فلسطين.

ومن شدة اعتزازه بها جعلها سليمان مقراً لخلافته، فكان أولاده يقيمون معه فيها «مما جعلهم جميعاً محبوبين من أهل فلسطين».

هذا.. وقد ذكر البلاذري بناء الرملة فقال[1]... ولّى الوليد بن عبد الملك أخاه جند فلسطين فنزل لُدّ (اللد)، ثم أحدث مدينة الرملة، ومصّرها، وكان أول من بنى فيها قصره والدار التي تعرف بدار الصياغين، وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً لها، ثم اختط للمسجد خطة وبناه، فولي الخلافة قبل استتمامه، ثم بُني فيه بعد في خلافته، ثم أتمه عمر بن عبد العزيز ونقص من الخطة، وقال أهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتصرت بهم عليه، ولما بنى سليمان لنفسه أذن للناس في البناء، فبنوا، واحتفر لأهل الرملة قناتهم، واحتفر آباراً، وولّى النفقة على بنائه بالرملة ومسجد الجماعة كاتباً له نصرانياً من أهل لدّ، ولم تكن مدينة الرملة قبل سليمان، وكان موضعها رملة..

(١) فتوح البلدان للبلاذري ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ مكتبة النهضة العربية ـ القاهرة.

وفي بداية تأسيسها كان سكانها اخلاطاً من العرب والعجم والسومريين، ثم أخذت القبائل العربية تسكنها، وأخذت الرملة تتقدم وتزدهر في مختلف ميادين العمران حتى غدت من مدن الشام الكبرى، كما كانت مركزاً لمقاطعة فلسطين من أعمالها بيت المقدس، وبيت جبرين، وغزة، وعسقلان، وأرسوف، ويافا، وقيسارية، ونابلس، وأريحا وعمان. وقد بقيت الرملة عاصمة لفلسطين إلى أن احتلها الصليبيون عام ١٠٩٩م نحو ٤٠٠ سنة. وقد وصف الأصطخري مدينة الرملة بقوله: (١) «فلسطين أزكى بلدان الشام، ومدينتها العظمى الرملة، وبيت المقدس يليها في الكبر».

أما السبب الذي دفع بسليمان بن عبد الملك لبناء الرملة في موقعها الحالي فيعود لوقوعها في منتصف السهل الساحلي الفلسطيني، وهي نقطة انقطاع بين بيئتي السهل الساحلي والبحر الأبيض المتوسط من جهة، وبيئتي الجبل والغور من جهة ثانية. ومن الطبيعي أن تصبح نقطة وصل بين هذه البيئات المتفاوته نسبياً.

وازدادت هذه الأهميات فيما بعد، حيث أضيفت إليها مهمة الرملة كمدينة توزع عن طريقها البضائع الأجنبية التي تفرغها السفن في ميناء يافا الذي يبعد عنها نحو ١٨ كم. كما إنها ترتبط بوسائل مواصلات جيدة مع العديد من المدن الفلسطينية وفي مقدمتها القدس التي تبعد عندها بنحو ٤٥ كم.

إضافة إلى ذلك فقد اكتسبت الرملة أهمية حربية فيما بعد، حيث كانت منطقتها مسرحاً لكثير من المعارك، كما اتخذها الفرنجة مقراً لجيوشهم، وكانت قاعدة عسكرية مهمة للجنود الأتراك والألمان خلال الحرب العالمية الأولى. أما في عهد الانتداب البريطاني فقد أقام البريطانيون معسكراً ضخماً لجنودهم في قرية صرفند التي تقع على بعد ٧ كم من الرملة. كما أقاموا مطار اللّد الضخم الذي يبعد نحو ٤ كم عن الرملة.

أما بشأن تسميتها بالرملة، فيقال بأنها سميت بامرأة اسمها «رملة» وجدها سليمان بن عبد الملك في بيت شَعَرٍ حين نزل مكانها يرتاد بناءها فأكرمته وأحسنت ضيافته، وعندما سألها عن اسمها قالت: رملة، فبنى البلدة وسماها باسمها!

---

(١) المسالك والممالك ـ أبو اسحق الأصطخري ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ القاهرة ـ ١٩٦٠م.

شيء من التاريخ

وفي القرن الرابع كان للرملة سور حصين من حجر وجص ذو أبواب من حديد، وبيوت المدينة من حجارة وطين، وقد زينت بيوتها بالرخام المزخرف ذي الألوان، وتتميز المدينة بكثرة الحمامات والفنادق والشوارع الواسعة والأسواق التي تزخر بحاصلات المدينة والريف من حولها، وخاصة من التمر والتين الذي رأى منها الرحالة التركي ناصر خسرو صنفاً ليس أحسن منه في أي مكان يصدر منها إلى جميع البلاد[1].

ونوّه المقدسي بجمال الرملة فقال: «ولو كان للرملة ماء جار لما استثنينا أنها أطيب بلد في الاسلام لأنها ظريفة خفيفة بين قدس وثغور، وتمور وبحور، معتدلة الهواء لذيذة الثمار، سرية الأهل[2]».

في الثالث من حزيران (يونية) عام ١٠٩٩ احتل الصليبيون مدينة الرملة بعد أن هجرها أهلها، وعقدوا فيها مجلساً حربياً لمناقشة خطة هجومهم على بيت المقدس.

وبعد معركة أرسوف عام ١١٩٢ عقد صلاح الدين الأيوبي مجلساً عسكرياً في الرملة لرسم خطة للدفاع عن عسقلان التي كانت يومئذ مركز الانطلاق لكافة الحملات الإسلامية الموَجَّهة من مصر في تلك الفترة.

وفي تلك الأثناء شهدت الرملة عقد مصالحة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وزعيم الصليبيين وهو ما اصطلح على تسميته «بصلح الرملة». وبرغم أن بنود تلك الاتفاقية تضمنت عودة الرملة للفرنجة ـ التي حررها الفاطميون بعد ثلاثة أعوام من احتلالها ـ إلا أن الاتفاقية لم تعمر إلا نحو ثلاث سنوات حيث تمكن الظاهر بيبرس من تحريرها بعد فترة وجيزة.

وبرغم أن الرملة تعرضت لعدة هزات أرضية في فترات زمنية متفاوته أصابتها بكثير من الأضرار إلا أن المدينة في مطلع القرن التاسع عشر كانت تتمتع بقسط وافر من الطمأنينة والخير والجمال. وقد زارها الرحالة الفرنسي شاتوبريان عام ١٨٠٦ ووصفها وصفاً دقيقاً في كتابه «مسيرة من باريس إلى القدس عبر اليونان» فقال: لقد

---

(١) سفرنامه ـ ناصر خسرو ـ نقله عن الفارسية د. يحيى الخشاب ـ القاهرة ـ ١٩٤٥م.

(٢) فلسطين في مؤتمر بلاد الشام د. احسان عباس. جريدة القبس الكويتية ٢١/٦/١٩٨٠م.

كنا نتمتع بمنظر رائع، فبيوت الرملة هي أكواخ جصية تعلوها قباب صغيرة كتلك التي تعلو مسجداً أو ضريحاً لأحد الأولياء، وهي تبدو وسط غابة من أشجار الزيتون والتين والرمان محاطة بالصبار الذي يتخذ أشكالاً غريبة، إنها تحتشد متشابكة تثير الفوضى في اللوحات المليئة بالأشواك، ووسط هذه المجموعة المضطربة من البيوت والأشجار تعلو أجمل أشجار النخيل في الغور، كانت هنالك بشكل خاص نخلة منتصبة وسط فناء الدير طالما استهوتني، إذ كانت تعلو أكثر من ثلاثين قدماً، وتزدهر في رشاقة بسعفها المائل الذي ينسدل من تحته الثمر كأنه حبات من المرجان.

الأماكن الأثرية في الرملة

يوجد في الرملة عدد من الأماكن الأثرية منها: .

● الجامع الأبيض: وهو من أشهر جوامع فلسطين، ويعود الفضل في انشائه إلى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك مؤسس الرملة ذاتها، وقد وصفه عدد كبير من المؤرخين والرحالة وأجمعوا على أنه كان من عجائب الدنيا في الهيئة والعلو، وقد دمره الصليبيون (حماة الصليب) عندما احتلوا المدينة، فأعاد صلاح الدين الأيوبي بناءه عندما استرد الرملة. أماالمئذنة القائمة حالياً فقد أقيمت على أنقاض منارة ثانية بناها الملك الظاهر بيبرس، وكان إنشاء المئذنة الحالية عام ١٣١٨، وهي مربعة الشكل ويبلغ طولها ٢٥ متراً ونصف المتر، وعدد درجات سلمها ١٢٥ درجة، وهو ثالث جامع يبنى في بلاد الشام بعد الأقصى في القدس والأموي بدمشق.

وفي الناحية الشمالية يوجد مقام للنبي صالح عليه السلام وعليه قبره، وهذه المقولة ليست مؤكدة ولكنها على أية حال وردت في «الأنس الجليل» و «مروج الذهب».

وهناك قول ثان بأنه عليه السلام توفي في قرية «النبي صالح» بقضاء رام الله، كما أن هناك قولاً ثالثاً بأن ضريحه موجود في المقبرة التي تحمل اسمه قرب عكا.

وكان النبي صالح قد هاجر ومن معه من المؤمنين إلى فلسطين بعد أن أنزل الله عقوبته على «ثمود» قوم صالح، فأهلكهم ربهم لأنه سبحانه وتعالى أراد لهم الهداية والرشاد ﴿فاستحبُّوا العمىٰ على الهدى فَأَخَذَتْهُم صاعِقةُ العذابِ الهُون بما كانوا

يَكْسِبون، ونَجَّينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

● بركة العنزرية، ويعتقد بأنها بركة «الخيزران» زوجة المهدي وأم هارون الرشيد.

● ضريح الفضل بن العباس ابن عم رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، وقيل إنه استشهد في فلسطين في طاعون عمواس سنة ٦٣٩م.

● آثار خزانات ماء بناها هارون الرشيد.

● ضريح أبي العون محمد الغزي الشافعي الفاروقي «قدوة الأولياء العاملين، شيخ شيوخ السادة القادرية بالثغور الفلسطينية والممالك الإسلامية».

● بقايا قصر سليمان بن عبد الملك.

● الجامع الكبير وكان يعرف من قبل بكنيسة «القديس مار يوحنا المعمدان» التي أنشأها الصليبيون في القرن الثاني عشر، ثم تحولت إلى مسجد بعد خروج الصليبيين من فلسطين.

● دير اللاتين. وتوجد فيه الغرفة التاريخية التي نزلها نابليون بونابرت وبات فيها عند مروره بالرملة أثناء زحفه.

موسم النبي صالح

يعتبر موسم النبي صالح من المواسم الرئيسة المهمة في فلسطين، والذي يتلهف على قدومه مرة واحدة في العام عشرات الآلاف من أبناء فلسطين وبخاصة شباب المدن والقرى المجاورة للرملة.

وأساس هذا الموسم عائد إلى الملك الظاهر بيبرس الذي أدرك أهمية موقع الرملة، فبنى على مقام النبي صالح مسجداً جعل له موسماً قومياً لتجميع أكبر عدد ممكن من المسلمين يحملون أسلحتهم وراياتهم لابراز قوة المسلمين أمام الصليبيين الذين كانوا يفدون من أوروبا لقضاء عيد الفصح في بلادنا المقدسة.

وشأن موسم النبي صالح هذا كشأن موسم النبي موسى الذي كان يتم الاحتفال به سنوياً في «قرية النبي صالح» قرب القدس في عيد الفصح الشرقي والغربي.

وعن مراسم هذا الاحتفال يقول السيد محمود علاء الدين آخر رئيس بلدية عربي لمدينة الرملة: [١].

---

(١) جريدة الدستور الأردنية ١٩٨٣/١٢/٢١.

يتجمع في موسم النبي صالح عشرات الآلاف من الرجال يحملون سيوفهم ورماحهم وراياتهم ويسيرون في موكب بهيج عندما يتم تسليم «البيرق» العلم لحامل العلم التقليدي، وهو عادة من آل عابدين والعلم يسمى علم النبي صالح حيث يتم حمله فوق صهوة حصان يسير من مقام البسطامي القريب من الحي التجاري والواقع بجانب الكنيسة الأرثوذكسية. ويسير الحصان محفوفاً بحراسة الشباب الرملي واللدي وفي المدة الأخيرة اتفق الشباب على أن يتناوبوا الحراسة القريبة من حامل العَلَم وسارت الأمور بين الطرفين بدون خلاف أو نشوب عراك.

وكان أثناء سير هذا الاحتفال ينشد الشباب الأناشيد الوطنية الحماسية، وتشترك الجوالة والكشافة في تنظيم هذا المهرجان العظيم.

ويسير الموكب ويقف بين حين وآخر عندما يقف أحد الخطباء على أحد الجدران ليلقي خطاباً حماسياً وطنياً، ثم يستأنف السير ثم يقف ليلقي شخص آخر وهكذا يستمر السير بمنتهى البطء، والمهرجان عادة يكون تحت حراسة فرسان البوليس الذين يعملون على حفظ الأمن والسير بالمهرجان إلى نهايته.

ويستطرد السيد علاء الدين قائلاً: وفي النهاية يصل المهرجان إلى مقام النبي صالح في الجهة القريبة من مدينة الرملة وبجانب البرج العظيم المسمى برج النبي صالح الذي بناه وشيده المماليك وبصورة خاصة محمد قلاوون. وهناك يكون عادة أحد وجوه آل الغصين، وكان يتولى ذلك خلال السنوات العشر الأخيرة المرحوم السيد يعقوب الغصين حيث كان يقوم بتسلم العلم وتسليمه إلى حراسه، وطبقاً للتقاليد والعادات المتبعة يُقَبل السيد يعقوب الغصين العلم ويدعو بعض الدعوات الخيِّرة قبل أن يسلمه إلى الحراس في آخر المطاف، ويلقي عندئذ خطاباً ترحيبياً بالمدعوين للمشاركة من خارج الرملة وداخلها يشكرهم فيه على مشاركتهم للرملة في الاحتفال بهذا الموسم، وذلك في سرادق بجانب برج النبي صالح أو مئذنة النبي صالح كما كانوا يسمونها.

ولم تجر العادة بإلقاء خطب في مقام النبي صالح قبل وعند وصول العلم «البيرق» سوى الكلمة الترحيبية التي يلقيها أحد أبناء آل الغصين باعتبارهم سدنة العالم الصوفي البسطامي للمحافظة على المباني الخاصة والعامة به، واستغلال الأراضي الزراعية الموقوفة على مقام السيد أبو يزيد البسطامي الذي كانت زاويته تقدم

الطعام والخبز «٣ وجبات» يومية لعابري السبيل والفقراء والمحتاجين من قِبل الأوصياء من آل الغصين».

ومن عادات آل الغصين تنظيم ولائم لمدعويهم في مثل يوم الجمعة «الجمعة الحامية» لطعام الغداء وكذلك في كل شهر رمضاني كريم.

ومن طرائف ما يروى عن هذا الموسم ذلك الاتهام المتبادل بالسذاجة وعدم رجاحة التفكير بين كل من أهل الرملة وأهل اللّد بالنظر إلى التقارب التـوأمي بين المدينتين.

فقد ادَّعى نفر من أهل الرملة أنهم ذهبوا ليلة خميس (الليلة السابقة للاحتفال بموسم النبي صالح) لينصبوا الخيام في ساحة الاحتفال بالقرب من مئذنة النبي صالح فشاهدوا نفراً من أهل اللّد قد سبقوهم إلى المكان وهم يربطون حبلاً حول المئذنة ومحاولين جرها إلى اللّد!!

ويرد أهل اللّد قائلين: أنظروا إلى عقلية أهل الرملة نحن لم نحاول أن نجر المئذنة، كل ما هنالك اننا أردنا أن نقارن طول المئذنة بعرضها، فأتينا بحبل لقياس الطول، ثم ربطنا الحبل حول المئذنة لقياس العرض[1]!

سقوط الرملة

في منتصف شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ سقطت الرملة بأيدي الجيش البريطاني. وزال عنها (وعن فلسطين) الحكم العثماني الذي خضعت له طيلة أربعة قرون كاملة أي منذ عام ١٥١٧. وفي منتصف شهـر يوليـو سنة ١٩٤٨ سقـطت الرملة بـأيدي العصابات الصهيونية، وزال عنها (وعن فلسطين) الحكم البريطاني الذي خضعت له مدة واحد وثلاثين عاماً أي منذ عام ١٩١٧. وكان اليهود قد مهدوا لاحتلال الرملة بعدة محاولات استهدفت إثارة البلبلة والفوضى بين سكانها.

وقبل سقوطها النهائي بثلاثة أشهر تقريباً حاول الصهاينة احتلالها فلم يفلحوا نتيجة لدفاع أهلها البطولي عنها، فاضطرت القيادة اليهودية لتغيير خطتها بصورة مؤقتة مما دفع الإرهابي ميناحيم بيجن إلى القول في مذكراته بعد ذلك: لو تيسر لنا احتلال

---

(١) خمس جنسيات والوطن واحد. من مذكرات طلعت يعقوب الغصين، مطبعة حكومة الكويت ـ ١٩٨١م.

الرملة لتمكنا بعدها من احتلال اللطرون، ولو تم ذلك لتغير الوضع لا في منطقة القدس وحدها، ولكن في جميع أنحاء فلسطين!.

وأطلق الإسرائيليون على عملية اللد والرملة الاسم الرمزي «داني» وخصصوا لها نخبة من الجيش اليهودي هي قوة البالماخ المؤلفة من ٦,٥٠٠ رجل مزودة بناقلات الجنود المدرعة المجنزرة والمدفعية والاسناد الجوي.

وبدأ الهجوم الإسرائيلي عشية يوم ١٩٤٨/٧/٩، وسعى الاسرائيليون إلى عزل المدينتين عن أي مساعدة خارجية قد تأتي لهما.

وتعرضت المدينتان في أثناء ذلك لقصف جوي ثقيل، وقصف مدفعي شمل الأحياء السكنية، وركز الأعداء أولاً هجومهم على مدينة اللد، وبالرغم من القتال العنيف الذي اشترك فيه المناضلون المحليون بالتعاون مع المقاتلين الأردنيين فقد تغلبت القوات المعادية في النهاية على المناضلين وتمكنت من سكان اللد فقتلت ٤٢٦ مواطناً عربياً منهم ١٧٦ قتلوا في مذبحة نصبت لهم في مسجد المدينة[١].

وأحكم الإسرائيليون الطوق على مدينة الرملة، وجاءوا بحشود جديدة وزادوا من قصفهم الجوي والمدفعي لها. ولما أدرك أبناء المدينة أن لا قدرة لهم في مواجهة هذا الكم الهائل من الاسرائيليين اضطروا للاتصال بالإسرائيليين من أجل التسليم، وقد اتفق على تسليم المدينة بشروط مكتوبة منها عدم التعرض للأهالي أو المساس بالأملاك، ولما عاد الوفد إلى الرملة كانت القوات الإسرائيلية قد احتلتها، ولم يلتزم العدو كعادته بالشروط التي تم الاتفاق عليها مع وفد المدينة، بل أجبروا معظم السكان على الرحيل وأركبوهم في سيارات كبيرة حملتهم إلى آخر نقطة باتجاه الشرق، وهناك تركوهم يسيرون على أقدامهم، واستمرت عملية الترحيل ثلاثة أيام. وقد أفاد أحد المناضلين الذين اشتركوا في الدفاع عن المدينة بأن المدينة سقطت قبل أن تسقط وذلك حينما انسحبت منها قوة أردنية كنا نعتمد عليها اعتماداً رئيسياً، وقد جاءتها الأوامر الصارمة بالانسحاب الفوري من قائدها البريطاني، وقد رأيت بأم عيني بعضاً من أفرادها يبكون ساعة الرحيل، بل إن أحدهم واسمه «طايع» لجأ إلى قواتنا وظل يقاتل معنا حتى ظفر بالشهادة[٢].

---

(١) النكبة ـ عارف العارف ـ بيروت ١٩٥٦م.

(٢) المرجع السابق.

الرملة الجديدة

نتيجة لعسف القوات الصهيونية لم يبق بمدينة الرملة بعد احتلالها سوى عدد محدود من السكان العرب لا يزيد عن ٤٠٠ نسمة. وحَلَّ المهاجرون اليهود بالمدينة.. وشيئاً فشيئاً توسعت الرملة في مبانيها ومساحتها، وتركز معظم الصهاينة فيما يسمى الآن بالرملة الجديدة، في حين بقيت الرملة القديمة مقراً لمن بقي من العرب، اضافة إلى من استقروا من اليهود إلى جانبهم.

وتوجد في الرملة اليوم حركة اقتصادية نشيطة نظراً لقرب الرملة من ميناء اسدود الحيوي، ونظراً لوجود عشرات المصانع المختلفة بها، ففيها أكبر مصنع للإسمنت في فلسطين المحتلة، وفيها مصانع للثلاجات والبيوت الجاهزة، والأطعمة المعلبة، والمنتجات المعدنية المتنوعة، والمحركات ومنتجات الأخشاب وغير ذلك.

أما الرملة العربية القديمة فقد كانت في عهد الانتداب البريطاني مركزاً لقضاء يحمل اسمها، ويضم القضاء مدينتي اللد والرملة اضافة إلى سبعين قرية عربية فضلاً عن بعض المستعمرات اليهودية.

وتعتبر قرى: يبنا والنبي روبين، ورنتيس، ومجدل بابا وقبية وقزازه وبشيت وقولة أولى قرى القضاء فيما تملكه من أراض.

أما أولى قرى القضاء في كبرها وكثرة عدد سكانها فهي: عمواس، وبيت نبالا، وبيت نوبا، ويالو، ودير محيسن، وزرنوقة، وعاقر، والمغار، والقباب وصرفند العمار، ويقال بأن هذه القرية يوجد بها قبر لقمان الحكيم الذي يرجح بأنه عاش في القرن العاشر قبل الميلاد، وقد أنشأ البريطانيون في هذه القرية منشآت عسكرية ضخمة. ومعتقلاً كبيراً.

أما قرية عمواس فهي التي ينسب إليها الطاعون الخطير الذي انتشر في بلاد الشام في العام الثامن عشر الهجري زمن خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والذي قيل إن نحواً من ٢٥,٠٠٠ قد ماتوا فيه كما ذكر الطبري.

وقد هدم الصهاينة هذه القرية وأزالوها عن الوجود كما فعلوا في قرى يالو وبيت نوبا واللطرون وقَوَلَه وعشرات القرى الفلسطينية.

وترتبط قرية (قِبْيَةَ) بالمجزرة الكبيرة التي ارتكبها اليهود ضد سكانها العرب عام ١٩٥٣.

سجن الرملة

ضمن أكثر من ثلاثين سجناً خصصتهم السلطات النازية الصهيونية لمعاقبة المناضلين الفلسطينيين يحتل سجن الرملة المرتبة الثالثة من حيث الأهمية.

وكان هذا السجن في الأصل مركزاً للشرطة البريطانية وقد حولته (إسرائيل) في عام ١٩٥٣ إلى سجن مشترك للسجناء العرب واليهود، وفيه قسم خاص للنساء، ويضم حالياً نحو ٧٠٠ سجين، ويتألف مبناه من طبقتين ومجموعة من الزنزانات المشيدة تحت سطح الأرض، ويحيط به سور ضخم يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار وتعلوه الأسلاك الشائكة المرتفعة.

وعلى بعد كيلومترين اثنين منه يقع سجن «نفي ترتستا»، وقد شيدته السلطات الإسرائيلية عام ١٩٦٧ وتسجن فيه المناضلات العربيات إلى جانب المومسات الإسرائيليات، والمصابات بأمراض جنسية معدية، وفيه قسم خاص بالتعذيب، وحوالي مائة زنزانة[١].

عائلات من الرملة

توجد في الرملة عائلات كثيرة من أبرزها: الخيري، الغصين، التاجي، علاء الدين، أبو الهدى، الجمّال، الكتة، زبانة، الصوصو، الجمل، فانوس، الانشاصي، الفاروقي، الكيالي، أبو الهدى، أبو طوق وغيرها.

شخصيات بارزة من قضاء الرملة

... هذا وقد عاشت في الرملة أو انتمت إليها طوائف عديدة من العلماء والفقهاء ورجال الفكر والسياسة يعجز المجال عن حصرها. لكن من أهم الشخصيات التي برزت في الفترة المتأخرة: الدكتور عبد الرحمن الكيالي (١٩١٦ -) سعيد التاجي الفاروقي (١٩١٤ -) الشيخ سليمان التاجي الفارقي (١٨٢٢ - ١٩٥٩) عيسى السفري (- ١٩٤٩)، خلوصي الخيري (١٩٠٨ -)، عبد الحميد الأنشاصي (١٩١٠ -) الشهيد القائد عبد الفتاح عيسى حمود (١٩٣٣ - ١٩٦٨)، المربي عبد المجيد شكري التاجي الفاروقي(- ١٩٨٦)، الدكتور

---

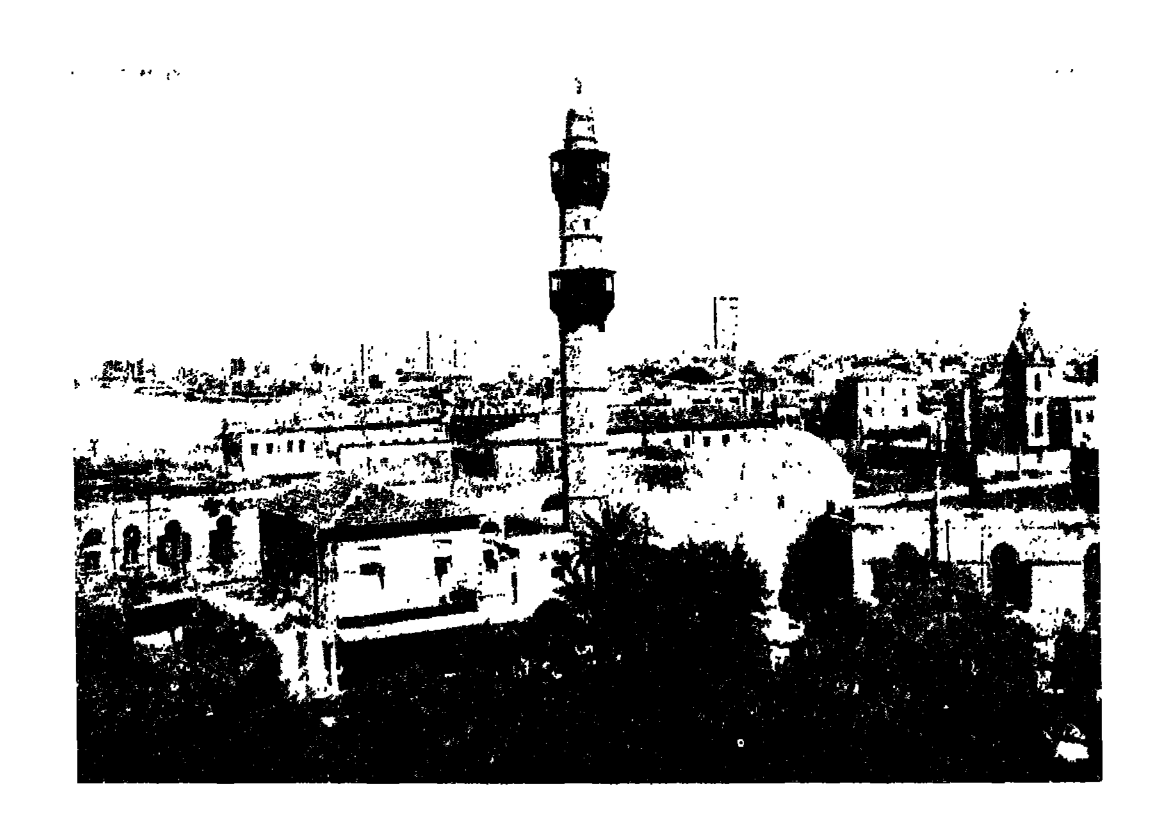
(١) الموسوعة الفلسطينية - مرجع سابق.

حمدي التاجي الفاروقي (١٩١١ ـ ١٩٧٨) المناضل توفيق بيك الغصين (١٩٣٨) المحامي حكمت التاجي الفاروقي (١٩٠٨ ـ) المناضل محمد يعقوب الغصين (١٩٠٠ ـ) المليونير صليبا رزق (١٩٢٠ ـ ١٩٨٦) المناضل يعقوب توفيق الغصين (١٩٠٠ ـ ١٩٤٦)، موسى الكيالي (١٨٩٥: ١٩٦٦). الحاج مصطفى الخيري، سعيد علاء الدين، محمود علاء الدين، داود فانوس وغيرها.

* * *

وتذكرت في نهاية المطاف قول أبي الطيب المتنبي في مدح الرملة:

ماذا الوداعُ وداعُ الرامق الكمد	هذا الوداع وداع الروح للجسد
إذا السُّحاب زفته الريح مرتفعاً	فلا عدا الرملة البيضاء من بلد



يافا... حديقة النجوم

كانت يافا واحدة من المدائن الفلسطينية التي اشرأبت امنياتي لرؤيتها، فطالما سمعت بها، وقرأت عنها، وعاشرت كثيراً من أهلها سواء في مسقط رأسي، أو في مهابط أقدامي بديار الغربة.

ولعلني ما برحت اذكر أول مرة سمعت فيها باسم يافا.

كنت وأسرتي نقيم في مدينة خان يونس، وفي عام ١٩٤٨ أتت إلى بيتنا أسرة يافية صديقة يحمل أفرادها حاجيات بأيديهم وعلى رءوسهم، فاستقبلهم أبي، ورحبت بهم أمي، وكان من بينهم شاب جريح يدعى يوسف، لم يلبث بعض ساعات حتى أدركته الوفاة، وفي حديقة البيت قام بعض الرجال بغسله، بينما انتزعت أمي غطاء أبيض عن بعض الأسِرَّةِ سرعان ما صار كفناً ليوسف!

لقد كان محزناً أن يموت يوسف، لكن الأكثر حزناً أن لا يُستطاع نقله إلى مقره الأخير وسط أجواء الحرب والموت والدمار. وكان منتظراً أن يمكث دون تورية مدة ما، لكن سرعان ما أدركته العناية الإلهية، فقيض الله له شاباً يمنياً شجاعاً تكفل بنقله إلى المقبرة على عربة يد بمساعدة والد يوسف الهرم، هذا الشاب اليمني ما زال اسمه منقوشاً في ذاكرتي نظراً لمواقف مماثلة وقفها بإيمان وشهامة ورجولة، وما فتئت أحيي في البطل «صالح سرحان المقدشي» كل الأخوة اليمنيين الشرفاء.

وخلال تلك الفترة البعيدة تداخلت في مخيلتي كل المعاني، كل الخطوط والصور والألوان، ولم يستطع العقل ذو السنوات الست أن يميز الأشياء عن اللاأشياء، غير أنه اختزن في بؤرة ذاكرته اللدنة خمسة أمور: اليهود، يافا، المندوب السامي،

يوسف، الموت. ولما بلغ العقل أشده أدرك أبعاد العلاقة بين هذه المسميات أيما إدراك!!

محبون للتين الشوكي

كنت متشوقاً لأن أرطب خاطري برؤية يافا، وحضر سائق السيارة فجراً ليقلني مع اثنين من أصدقائي، وغادرت البيت وأنا أترنم بأصداء دعوات أمي وهي تضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يصرف عني شر اليهود وأشباه اليهود!

كانت السيارات تجوب المدينة، وكنت أرى مئات من الشباب والرجال راكبين وراجلين، واقفين وجالسين. وكأنّ الوقت قد أصبح ضحى لا فجراً، قال صديقي: أظن هذا المنظر غير مألوف لديك، قلت: بالفعل إنه غير مألوف. قال: هؤلاء هم العمال العرب الذين يعملون في عمق وطننا مع الشركات والمؤسسات اليهودية المختلفة، حيث تنقلهم السيارات إلى مقار أعمالهم في تل أبيب وهرتسيليا وناتانيا والمجدل... الخ، ولا يغرب عن بالك أن هذا اليوم هو يوم الأحد، وهو يعني بالنسبة للأنظمة اليهودية بداية الأسبوع. بعض هؤلاء العمال يمكثون في عملهم ستة أيام حيث يعودون إلى أسرهم مساء الجمعة، وبعضهم الآخر يذهب صباحاً ويأتي عشاء.

وعندما وصلت ضاحية «السطر» الفاتنة قلت لأحد الأصدقاء: أين أشجار الصبر «التين الشوكي» التي كانت ممتدة حول هذه المنطقة؟ قال: لقد أزالتها الجرافات الصهيونية بحجة أنها كانت تشكل مخابىء طبيعية للفدائيين. فقال السائق: لقد أزالوها وهم يتلذذون على ثمارها. إنهم يحبون «الصبر» كثيراً، لذلك أحضرت معي صندوقاً لتوزيعه على «الخواجات» إذا صادفتنا مشاكلهم في الطريق!

وواصلنا المسير، مررنا بالقرارة وأبي هولي ودير البلح والنصيرات والمغازي والبريج وغزة وجباليا ثم قرية بيت حانون وهي التي كان يمر منها خط الهدنة قبيل عام ١٩٦٧ فيفصل بين قطاع غزة وفلسطين المحتلة.

أمنية بلا رائحة

وحين مررنا بمنطقة المجدل تذكرت المعارك الشجاعة التي خاضها الجيش المصري عام ١٩٤٨ في هذه المنطقة برغم ظروفه القاسية التي كان يمر بها. وقفز

أمامي اسم الشهيد علي مكي طه باعتباره أول شهيد عربي مصري في تلك الحرب.. وكذلك الشهيد البطل أحمد عبد العزيز باعتباره أعظم قائد عربي مصري امتزج دمه بتراب فلسطين في ذات الحرب.

قال حامد: نحن اللحظة على مشارف يافا وكاد القلب يهوي بين الضلوع، إذن لقد تحولت الأمنية إلى حقيقة، ولكنها حقيقة مهيضة الجناح، كسيحة القوادم، هأنذا سأرى يافا.. لكنها رؤية بلا لون ولا طعم ولا رائحة!.

نداء خفي يقدح زناد تفكيري الذي أوشك أن يصاب بالشلل: استيقظ يا رجل فهذه يافا.. يافا التي تثلَّمَتْ قرائحكم في مدحها، وامتلأت دواوينكم في وصفها، هذه يافا التي نزع الجلاد خمارها، فنهب طهارتها.. واستباح عروبتها!!

وفي ميدان الساعة بالثغر الحزين شهقت أسى، وزفرت غيظاً، ووجدتني أردد مع الشاعر الشهيد/راشد حسين:

يافا التي رَضَعْتُ من أثدائها حليبَ البرتقالِ
تعطش،.. وهي من سَقَتْ أمواجُها المَطَرْ
يافا التي كَسَّرت الأيامَ فوقَ هذه الرمال
ذراعها تُشَل، حين ظهرها انكسر
يافا التي كانت حديقةً أشجارها الرجال
قد مُسِخَتْ، مَحْشَشَةً تُوزِّعُ الخَدَرْ!

* * *

مداخن الحشيش في يافا تُوَزِّعُ الخَدَرْ
والطُّرقُ العجاف حُبلى بالذبابِ والضَّجَرْ
وقلْبُ يافا صامتٌ، أغْلقه حَجَرْ
وفي شوارع السماء مأتم القمر!!..
يافا إذن بلا قمر..
يافا، دَمٌ على حَجَرْ..

... وبدأنا نجوب الشوارع القديمة بالمدينة، وجلسنا على مقهى عربي عتيق في الهواء الطلق، وتحت سماء يافا الزرقاء أخذنا نلملم بعضاً من تاريخ يافا.

خزانة فلسطين

يافا.. كلمة محرفة عن أصلها الكنعاني (يافي) وهي تعنى «الجميل»، ويافا القديمة تقع على ربوة ترتفع ٣٥ متراً عن سطح البحر.. وقد اشتهرت بمينائها الطبيعي الواقع في منتصف الساحل الفلسطيني، ويعتبر من أقدم موانىء العالم التي أسسها الكنعانيون العرب.

ويافا تبعد عن القدس نحو ٦٠ كم، وهي بوابة فلسطين من ناحية الغرب، ولأنها تطل على البحر الأبيض المتوسط فعن طريقها يتم اتصال فلسطين بأغلب دول العالم، فكانت محطة رئيسة تتلاقى فيها بضائع الشرق والغرب، وكانت جسر عبور للقوافل التجارية بين مصر وبلاد الشام لأنها تقع في منتصف السهل الساحلي الفلسطيني الذي يعتبر من أكثر الطرق التجارية يسراً وأمناً، اضافة إلى ذلك فقد كان هذا السهل معبراً مفضلاً للغزوات والجيوش المتجهة نحو مصر جنوباً، أو نحو بلاد الشام شمالاً وشرقاً.

ونظراً لأهمية يافا الاقتصادية والحربية والدينية، فقد تطلعت إليها دول وأقوام كثيرة وحوصرت ودمرت واحتلت، وتاريخها بشكل عام هو تاريخ فلسطين.

وقد وقعت كغيرها من البلاد الفلسطينية تحت حكم المصريين والآشورين والبابليين، والفرس، واليونان، والرومان والإنجليز... وأخيراً اليهود الذين يدعونها «يافو».

وفي عهد الفتوحات الإسلامية تم فتح يافا سنة ١٥هـ وهي سنة فتح القدس، قال البلاذري في فتوح البلدان «ثم فتح عمرو بن العاص مدينة لد وأرضها، ثم فتح يبنا، وعمواس، وبيت جبرين، وفتح يافا ويقال فتحها معاوية، وفتح عمرو رفح». ووصفها «المقدسي» مؤرخ فلسطين وجغرافيتها بأنها «خزانة فلسطين وفرضة الرملة».

وظلت طيلة مدة الحكم العربي مركزاً تجارياً هاماً، ومرفأ لبيت المقدس، ومرسى للحجاج. وإليها ينتسب عدد كبير من الفقهاء والأولياء ورواة الحديث.

ومن سوء حظ البلاد أنها أصبحت مثار نزاع بين الفاطميين والسلاجقة مما أضعفها وجعلها لقمة سائغة للصليبيين الذين حكموها نحو قرن من الزمان حتى حررها البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي.

وإبان الحملات الصليبية على ديار المسلمين وقعت يافا في قبضتهم عام ١٠٩٩ ميلادية، وقام «جودفرى» بتحصين المدينة واتخذها ميناء رئيساً لدولة «بيت المقدس» ليخدم تجارتهم، وأمنهم وحجاجهم!

بعد انتصاره في موقعة «ارسوف» عام ١١٩١ ميلادية دخل ريتشارد يافا، ونعمت جيوشه بقضاء سنة في ربوعها. . وبعد عام واحد هاجمتها قوات المسلمين يوم ١٥ من رجب عام ٥٨٨ هجرية. وكان في طليعة المهاجمين البطل صلاح الدين الأيوبي ودخل المسلمون يافا، إلا أنهم لم يتمكنوا من احتلال قلعتها الحصينة، مما أدى إلى توقيع صلح الرملة الذي نص في أحد بنوده على بقاء المنطقة الساحلية الممتدة من صور إلى يافا بأيدي الصليبيين. ومكثت يافا في حوزتهم ما يقرب من ثمانين سنة، وبالتحديد حتى عام ١٢٦٨ ميلادية حيث حررها الظاهر بيبرس، ومنذ ذلك الزمن نعمت بالحياة في حديقة الإسلام حتى اليوم الرابع عشر من أيار عام ١٩٤٨ حيث سقطت من التقويم العربي!! وما برحت تنتظر عودتها، ونرجو ألا تيأس من طول الانتظار!

جنون العظمة

بعد أن سقطت غزة في قبضته بدأ نابليون في محاصرة يافا في الثالث من مارس عام ١٧٩٩ ميلادية، وبعد لأي استطاع جنوده أن يدخلوا المدينة، وصبوا جام غضبهم على أهلها، فارتكبوا مجزرة رهيبة شهد بفظاعتها الكثيرون من قادتهم. فقد قال الميجر ديتروا: «. . وراح الفرنسيون يقتلون أعداءهم كالمجانين طوال ذلك المساء كله، إن كل من له وجه إنسان سقط صريع جنونهم».

وقال القائد «ميو»: كنت تسمع في كل مكان صراخ ابنة تغتصب وتستغيث عبثاً بأمها التي تهان، أو بأبيها الذي يذبح».

وقد حدث هذا كله في حومة عيد الفطر المبارك عام ١٢١٣ هجرية. وهذه فقط عيّنة من الحضارة الأوروبية التي زعموا ـ وزعم بعضنا مثلهم ـ بأن الحملة الفرنسية على مصر والشام كانت حملة حضارية، وبداية لنهضة شاملة عمت المنطقة، هذا برغم أن الحملة كلها لم تمكث في مصر إلا نحو ثلاث سنوات وفي الشام نحو ثلاثة أشهر!

وبعد رحيل القوات الفرنسية نهضت يافا من كبوتها، وأخذت تلملم جراحها،

فنمت في عمرانها، واتسعت في مساحتها، وتـأسس حي المنشية، وحي العجمي اضافة إلى الأحياء المعروفة مثل: ارشيد، الجبلية، اهريش. وأشهر شوارع البلدة القديمة يدعى شارع اسكندر عوض الذي كان يكتظ بالمحلات التجارية. أما الأحياء المعروفة «بالسكنات» فتقع بين مزارع «بيـارات» البرتقـال ومنها «سكنـة درويش»، و«سكنة أبو كبير» وسكنة «حماد»، و«السكنة المصرية» التي استمدت اسمها من وجود مئات العائلات المصرية فيها وفي غيرها ممن استقروا في يافا بعد عودة ابراهيم باشا إلى مصر عام ١٨٤٠. ففي تلك الأيام كانت يافا تسمى «أم الغـريب» فهي مركـز تجاري وصناعي وسياحي وزراعي وثقافي وأي «غريب» قادم يجد له عملاً مناسباً يعتاش من مردوده، وقد وفد إليها في تلك الأثناء وبعدها أعداد كثيرة من أبناء الوطن العربي.

كما تمت توسعة الميناء لمواجهة الحركة التجارية، ولكي يستوعب المزيد من زائري القدس بحراً، ولأجل تأمين راحة هؤلاء الزوار فقد تم إنشاء أول خط حديدي في فلسطين عام ١٨٩٢ ميلادية يربط بين يافا والقدس وطوله ٨٧ كم.

البرتقال اليافي

تحيط بالمدينة من جهاتها الثلاث ـ الشمال والشرق والجنوب ـ بساتين البرتقال الواسعة المعروفة لدى أهل فلسطين «بالبيارات»ومفردها «بيّارة». أما البحر المتوسط فيحتضن المدينة من الجهة الغربية.

ويتمتع البرتقال اليافي «الشموطي» بشهرة عالمية وبخاصة في الأسواق العربية والأوربية، وقد استغل العدو الصهيوني هذه الشهرة في تسويق منتجاته في السـوق الدولية.

وقد صور فتنة الطبيعة في يافا تصويراً دقيقاً «دليل الأراضي المقدسة» المطبوع عام ١٨٧٦ وقد ورد فيه:

ليست فتنة هذه الحدائق في شكل أرضها، إذ لا ترى العين بين أشجارها أي شريط من الأرض. لكن الروعة في عظمة وضخامة وكمال وأثمـار تلك الحدائق. الزهور تبدو إلى ما لا نهاية، وقد غطت في شهر شباط أشجار الليمون والبرتقال، وعطرت أنحاء يافا إلى مسافة ساعتين من السير على الأقدام.

ويستنشق البحارة وسط البحر على مـدى تلك المسافـة أريج العـطر الفواح

للأشجار العديدة التي تثمر كميات خيالية من الثمار الشهية.

وهناك شجر الرمان بخضرته الكثة الداكنة وزهيراته الصغيرة التي تعطي الثمار لونها الدموي الذي يميزها في تلك الحدائق الفيحاء. وأشجار الكروم تنقش الأرض بأوراقها الكبيرة وقطوفها المثقلة بالسكر والكحول .

أما قصب السكر فيزدهر بكثافة، ويريح أنظار المتنزهين، وأشجار الموز بأوراقها التي يبلغ طولها أمتاراً عدة وتجذب الانتباه وتثير إعجاب الأوروبيين.

وتبدو أوراق شجر التوت وكأنها تدعو المسافر لأن يستريح في ظلها، ويتوافر البطيخ وغيره من الفواكه المستعذبة، وقد أشرف عليه النخيل الذي يمتد إلى آماد عالية، إن تربة هذه الحدائق رملية طفيلة، وفي كل حديقة بئر تعلوها طاحونة يديرها حمار أو بغل.

كما تغزل في جمال يافا الشاعر الفرنسي المعروف « لامرتين» ووصفها بأنها أفضل مقام لإنسان يحس بالتعب من الحياة باعتبارها أروع بقعة تحت الشمس.

أما «غليوم» امبراطور ألمانيا العظيم فقد أبرق إلى السلطان عبد الحميد عندما زارها وقضى فيها ليلة سنة ١٨٩٨ قائلا: لقد دخلت الجنة قبلك. وتمنى السلطان أن يزورها ليستمتع بجمالها ولكنه لم يزرها.

ومثلما ازدهرت التجارة والزراعة في يافا، فكذلك نهضت الصناعة. وقبيل عام ١٩٤٨ كانت تقوم بها مصانع عديدة للصابون والبلاط والنسيج والورق، والزجاج والسجائر والصابون والقرميد وطحن الغلال.

كما ازدهرت صناعة صيد الأسماك على شواطىء المدينة، وكانت تعد من أهم مراكز صيد الأسماك في فلسطين.

النشاط الثقافي في يافا

اشتهرت يافا باعتبارها مركزاً حيوياً للأنشطة الثقافية والأدبية في فلسطين، ومنها أيضاً كانت تصدر أهم الصحف والكتب الفلسطينية.

وتعتبر جريدة «القدس الشريف» أول جريدة ظهرت في فلسطين في اليوم الأول من سبتمبر عام ١٩٠٣ ميلادية. وهي الجريدة الرسمية لمتصرفية القدس. وبعدها بست سنوات صدرت جريدة «الأخبار» لصاحبها «بندلى غرابى». وبعدها بعام ظهرت

جريدة «الترقى» لصاحبها عادل جبر، وبعدها بعام أيضاً صدرت جريدة «فلسطين» لمنشئيها عيسى العيسى، ويوسف العيسى وتحديداً في أول يناير (كانون الثاني) عام ١٩١١، وقد أوقفت عند إعلان الحرب العالمية الأولى وحتى سنة ١٩٢١، حيث باشرت صدورهااليومي حتى النكبة الأولى. ثم عادت للصدور عام ١٩٤٩ في القدس، وتولى رئاسة تحريرها يومئذ رجا العيسى نجل مؤسسها، ولكنها توقفت نهائياً عن الصدور يوم ٢١ من آذار (مارس) عام ١٩٦٧ وتعتبر هذه الجريدة بحق المدرسة الصحفية الأولى في فلسطين، وقد تتلمذ عليها مئات الصحفيين والفنيين. وإضافة إلى ما ذكرناه آنفاً، فهناك أيضاً ثلاث جرائد أخرى، وبذلك بلغ عدد الجرائد الفلسطينية خلال العهد العثماني سبع جرائد.

أما في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين (١٩١٧ ـ ١٩٤٨) فقد صدرت خلاله عدة صحف في يافا. ففي العشرينات صدرت جرائد: «السلام» لنسيم ملول و«الجزيرة» لحسن الدجاني ومحمد الدجاني، «الصراط المستقيم» للشيخ عبد الله القلقيلي، «صوت الحق» لفهمي الحسيني.

وفي الثلاثينات صدرت «الجامعة الإسلامية» للشيخ سليمان التاجي الفاروقي، و«الدفاع» لصاحبها إبراهيم الشنطي، وكانت «الدفاع» من أقوى الصحف الفلسطينية وأوسعها انتشاراً. و«الجهاد» لمحمد المسلمي، ومجلة «الفجر» لعارف العزوني، والدكتور إسكندر حلبي، ومحمود سيف الدين الايراني.

وفي الأربعينات صدرت جريدة «الشعب» لحلمي حنون وأدمون روك. وكانت آخر ما صدر من جرائد قبيل النكبة.

ومن المظاهر الثقافية المهمة كذلك وجود كثير من الأندية والجمعيات التي كانت تشهد العديد من المؤتمرات والندوات والمحاضرات، وقد لعبت «إذاعة الشرق الأدنى للإذاعة العربية» دوراً مرموقاً في اثراء الحياة الثقافية في فلسطين بشكل عام، واستقطبت خلال وجودها في يافا أعداداً وفيرة من كبار الأدباء والفنانين والمثقفين العرب مثل عمر أبو ريشة وعباس العقاد، وطه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمد كرد علي وإبراهيم المازني. ومن ضمن الفنانين الذين زاروا يافا بدعوة من الإذاعة أم كلثوم وفريد الأطرش وليلى مراد، ومن الممثلين يوسف وهبي وزكي طليمات، ومن قراء القرآن الكريم أبو العينين شعيشع ومنصور الشامي الدمنهوري.

الجدير بالذكر أن محطة الإذاعة بدأت بثها عام ١٩٤١ في مدينة جنين وبعد عام ونصف العام انتقلت إلى يافا، واستمرت هناك حتى عام ١٩٤٦ وبقيت مدة عامين في القدس، وبعد نهاية الانتداب البريطاني انتقلت إلى قبرص.

السقوط . . السقوط

كان قضاء يافا قبيل النكبة الأولى يضم ٢٣ قرية عربية من أهمها: السافرية، سَلَمة، العباسية، الشيخ مُوَنِّس.

في مقابل هذه القرى كانت توجد ٣٣ مستعمرة يهودية تحيط بالمدينة. أربع فقط منها أنشئت في العهد العثماني، والباقي في عهد الانتداب البريطاني.

وعلى أثر صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود بتاريخ ٢٩ من نوفمبر ١٩٤٧، أخذ اليهود يسلطون على يافا مدافعهم الثقيلة، فصبوا عليها أربع آلاف قذيفة خلال ثلاثة أيام مما أدى إلى تدمير المدينة، وقد استبسل المجاهدون في الدفاع عنها، برغم التساؤلات العديدة التي ما زالت تطرح حول تصرفات قادة «جيش الانقاذ» التابع للجامعة العربية في منطقة يافا.

ولم يكن في المدينة يومئذ سلاح أو مقاتلون مدربون تدريباً صحيحاً، فقد كانت سلطات الإنتداب البريطاني تحول بالقهر والقوة بين عرب فلسطين، واقتناء السلاح أو التدرب عليه.

كان تنظيم الدفاع عن المدينة أمراً صعباً في تلك الأثناء بسبب موقعها. ففي الشمال تقع مدينة تل أبيب وهي أكبر تجمع سكاني يهودي، وفي الجنوب أيضاً مستعمرات صهيونية، وفي الشرق مستعمرة ألمانية اسمها «نيتر»، وفي الغرب البحر المتوسط. وأحس السكان بالخطر المحدق بهم فهبّوا يبحثون عن السلاح، فقررت الهيئة العربية العليا أن تشرف بنفسها على شؤون الدفاع والاعداد للمواجهة، وتم إرسال مائة بندقية فرنسية إلى يافا عن طريق اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية بدمشق.

والحق أن تدابير الدفاع عن المدينة كانت بدائية، وكان نقص السلاح ظاهرة بارزة في الجانب العربي، فكان الأهالي يضطرون إلى نقل السلاح من حي إلى آخر الأمر الذي أوهم الإسرائيليين أن في المدينة أسلحة وذخائر كثيرة.

واشتبك المجاهدون مع الصهيونيين في معارك متلاحقة استمرت ما يقرب من شهرين ونصف الشهر، دافع المجاهدون اثناءها عن مدينتهم دفاعاً بطولياً عنيداً اعترف به الصهاينة أنفسهم. فهذا السفاحميناحيم بيجن يقول في كتابه «الثورة»: «. . . . لقد تعلمنا من استحكامات «المنشية» ما تعلمته جميع الجيوش في الحرب العالمية الثانية في قتال الشوارع، وهو أنك لا تجد استحكاماً أفضل من أطلال البيوت الخربة المهدمة حول خطوط الجبهة وفي قلبها، لقد كان العرب يتخذون من أطلال هذه المدينة وخرائبها خطوط دفاع عن يافا.

لقد هاجمنا يافا بأفضل قواتنا وأحسنها تدريباً ومراناً، وفي المرات الخمس رُدِدْنا على أعقابنا وحملنا في ميادين المعركة أبطالاً أعزاء علينا، حملناهم مضرجين بدمائهم، وبلغ من صلابة حماتها أن فكرنا بالعدول عن اقتحامها، وأصدرنا الأوامر إلى وحداتنا الأمامية بالانسحاب، ولكنها ولأول مرة في تاريخ منظمة «الأرجون» خالفت الأوامر وبقيت تحارب».

وفي أوائل شهر أيار (مايو) ١٩٤٨ أخذ الموقف يزداد سوءًا خصوصاً بعد سقوط عدة قرى فلسطينية مجاورة ليافا، فعم الخوف والاضطراب، وظهرت بعض حوادث الفوضى، وأخذ الناس يغادرون المدينة إلى غزة عن طريق البحر.

وشدد الأعداء هجماتهم على يافا، وأخذت صيحات الاستغاثة تتوالى، وعز المنجدون، وكثر عدد القتلى والجرحى، وأخذت المقاومة تنهار والناس ينزحون.

بقي الانجليز في يافا حتى الأيام الأخيرة من الانتداب، وما كادوا ينسحبون منها يوم ١٤ من أيار حتى اقتحمها اليهود ورفعوا الاعلام الصهيونية على مبانيها، وسقطت المدينة الباسلة بعد أن صمدت في وجوه الغزاة خمسة شهور ونصف الشهر، وتطلع أهل يافا إلى مدينتهم الجميلة وهي تغيب عن أبصارهم ولم يبق من سكانها سوى نحو ثلاثة آلاف وستمائة نسمة من جملة عددهم الذي وصل في عام ١٩٤٥ إلى ٦٦٣١٠[1]، وإلى أكثر من ذلك في بداية عام ١٩٤٨م.

تل أبيب (تل الربيع)

هذه المدينة اليهودية المنشأ، العربية الفلسطينية الموقع، طالما سمعنا بها،

(١) قصة مدينة يافا د. عز الدين غربية ـ سلسلة المدن الفلسطينية.

ورددنا اسمها، ونقمنا عليها، وارتبطت في أذهاننا بالغدر والعدوان والارهاب، ماذا نعرف عنها أكثر من اسمها؟

بجوار حي المنشية أسس بعض أفراد اليهود حياً خاصاً بهم في عام ١٨٨٦. وفي عام ١٩٠٩ تمكنت بعض العائلات اليهودية من بناء حوالي ستين بيتاً ومدرسة ثانوية على قطعة أرض حصلوا عليها بمباركة بريطانية، وقد أعطوها اسم تل (أبيب) وتعني بالعربية تل الربيع.

أخذت تل أبيب تنمو وتتسع شيئاً فشيئاً حتى بلغ عدد بيوتها ٨٠٠ بيت في عام ١٩٢١. وحينذاك أصدرت الحكومة البريطانية قراراً بفصل تل أبيب عن يافا بقصد استقلاليتها عن المدينة العربية التي كانت تشكل ضاحية من ضواحيها. وجعلت لها بلدية مستقلة تحت رئاسة «ديزنكوف» الذي أطلق اسمه فيما بعد على أضخم شوارع تل أبيب. وطفحت المدينة بعد ذلك باليهود الذين بلغ عددهم عام ١٩٣١ نحو ٤٦,٠٠٠ نسمة، بينما وصلوا في عام ١٩٤٥ نحو ١٩٤,٧٠٠ نسمة. أما في عام ١٩٨٤ فقد زادوا عن النصف مليون نسمة!

وعلى أثر ثورة عام ١٩٣٦ في فلسطين قررت الحكومة البريطانية إنشاء ميناء خاص لتل أبيب كان له أعظم دور في تفريغ المهاجرين اليهود والسلاح اليهودي.

وبعد النكبة الأولى انصهرت يافا وتل أبيب معاً، فأصبحت يافا تمثل الحي القديم من تل أبيب، وقد اتخذها فنانو اليهود مركزاً لابداعاتهم والهاماتهم المختلفة!.

وتتركز اليوم في هذه المدينة أكثر الصناعات اليهودية الحقيقية، كما إنها أكثر مدن الوطن المحتل كثافة بالسكان. وهي عقدة مواصلات مهمة للطرق البرية والسكك الحديدية تتفرع منها طرق معبدة وخطوط سكك حديدية، ولها مطار صغير يستقبل الطائرات العاملة داخلياً، ويعد ميناؤها خامس موانىء فلسطين بعد حيفا وأشدود وإيلات وعسقلان.

واللافت للنظر فيها حقاً هو مبانيها الشاهقة، وشوارعها الفسيحة، وميادينها العامة، وحدائقها المنسقة، وبشكل عام فأنت تشعر حين تراها بأنك ترى مدينة أوربية على أحدث الطرز الحديثة!

وتوجد في تل أبيب كثير من الدوائر الحكومية والمؤسسات والشركات، ففيها

وزارة الدفاع، وإدارة المخابرات، وإدارة الشرطة، ووزارة الإسكان ووزارة الداخلية، وفيها قاعدة تموين بحرية، وقاعدة زوارق، وورشة تصليح، وملاجىء ضخمة مزودة بمكيفات الهواء والتدفئة المركزية، ومحطة لمراقبة الاشعاعات العالمية، وإلى الشمال من تل أبيب تقع مستعمرة «رامات جان» «١٩٢١»، ويوجد بها أضخم استاد رياضي في وطننا المحتل يتسع لـ ٨٥,٠٠٠ شخص. وإلى شمال يافا تقع مستعمرة «هرتسليا» «١٩٢٤» وهي منسوبة إلى «هرتسل» مؤسس الحركة الصهيونية العالمية. وتعتبر من المراكز الصناعية والزراعية المهمة، وهي ذات موقع ممتاز لذلك تطلق عليها الدعاية الصهيونية «ريفيرا اسرائيل».

كما تعد تل أبيب حالياً محور الاقتصاد في الكيان الصهيوني، تتجمع فيها المصارف والمتاجر وتوجد فيها مصانع المنسوجات الحريرية ومعامل الجوارب والحلويات والمرطبات والسجائر والألبسة الجاهزة والأحذية، وقطع الماس وصقله[1].

أما عن نشاطاتها العلمية فقد تأسست بها (جامعة تل أبيب) في عام ١٩٥٣، وهي تضم عشر كليات، إضافة إلى أربعة معاهد عليا، وقد زاد عدد طلابها عن عشرين ألف طالب أكثر من نصفهم طالبات. ومن ضمن معاهد تل أبيب العلمية العالية: معهد المعادن ومعهد النظائر المشعة، ومعهد العلوم الفضائية، والمعهد الأفرو أسيوي ومكتب المطبوعات، ومركز المعلومات العلمية والتقنية، ودائرة الارتباط العلمي، وجامعة بار إيلان، وعدد من المدارس الدينية العليا، و٤٤٠ مدرسة أخرى، وفي تل أبيب ١٤ مستشفى، و١٥٠ متحفاً، و٤٠ داراً للسينما، ومسرحان، ومحطة إذاعة. وعدد من المراكز السياحية والفنادق الراقية.

العرب في يافا

بعد سقوط يافا قام الصهيونيون بحشر من تبقى من العرب في حي العجمي، وأحاطوه بسياج كثيف من الأسلاك الشائكة، وجعلوا الدخول إليه والخروج منه لا يتم إلا بإذن مسبق من السلطات المحتلة، وبقي هذا الوضع سائداً فترة من الزمن حتى استقر الأمن نسبياً في المدينة.

---

(١) اسرائيل والسياحة ـ الياس سعد ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ـ ١٩٦٨م.
وانظر أيضاً بلدانية فلسطين المحتلة ـ مرجع سابق.

وذلك الحي هو الوحيد تقريباً الذي بقي يميز يافا العربية ويعود بها إلى جزء من سالف أمجادها.

ويبلغ عدد سكان يافا ـ حسب الاحصاءات الرسمية الصهيونية ـ ١٣,٠٠٠ نسمة من الفلسطينيين العرب، ولكن إحصاء أجرته «رابطة يافا لرعاية شؤون العرب» التي تأسست عام ١٩٧٨ أظهر أن عدد السكان العرب يزيد عن ١٥,٠٠٠ نسمة.

ويبلغ عدد عائلات يافا ٦٧٢ عائلة، ويتراوح عدد أفراد العائلة ما بين ٦ ـ ١١ فرداً، ويسكن هؤلاء في ١٧٢٣ غرفة هي مجموع الغرف في يافا، وتبلغ نسبة العائلات التي تسكن غرفة واحدة فقط حوالي ٤٤ بالمائة.

ويبلغ عدد الذين يذهبون إلى المدارس ٢٤٣٧ طالباً وطالبة، أي ما نسبته ٣١ بالمائة من الذين هم في سن الدخول إلى المدارس.

بينما عدد الذين لا يذهبون منهم إلى المدرسة ٤٠٣٠، أي ما نسبته ٥٢ بالمائة من الذين هم في سن الدخول.

وتشير هذه الأرقام إلى المستوى المتدني جداً لوضع التعليم بين العرب في يافا، والناجم عن سياسة التجهيل والتعمية الرسمية التي تتبعها السلطات الإسرائيلية.

وقام بإجراء هذه الاحصاءات لصالح البلدية السيد نخلة شقر أحد أعضاء رابطة يافا لرعاية شؤون العرب كاثبات دامغ على عدم اهتمام البلدية بالأولاد العرب في يافا أو بمستقبلهم. ولإبطال الحجج الواهية التي تدعيها البلدية خلاف ذلك[1].

وتتعرض يافا ـ في الواقع ـ ومنذ فترة طويلة إلى عملية زحف سكاني إستيطاني صهيوني وذلك ضمن المخطط الهادف إلى اقتلاع معالمها شيئاً فشيئاً حتى تصبح في المستقبل مجرد مادة تاريخية هامشية.

إن المخطط الاستيطاني الذي يبتلع الأرض «اليافاوية العربية» يهدف إلى الإجهاز على حي العجمي ومن ثم إقامة مشروع سياحي ضخم يحوي عشرات المساكن التي سيقطنها اليهود والأجانب. وبالطبع فإن ذلك يستدعي إخلاء آلاف المواطنين العرب بطرق مباشرة وغير مباشرة، وهناك حوالي عشرين بالمائة من بيوتات حي العجمي هدمت وأغلقت، ولقد لجأت السلطات الصهيونية الماكرة وبأساليب

---

(١) مجلة فلسطين الثورة ـ تاريخ ٢٦/١٠/١٩٨٥م.

خبيثة لمنع السكان العرب من تطوير منازلهم، ومنعت عنهم رخص البناء أو بناء غرف إضافية أو حتى ترميم منازلهم القائمة بالرغم من ازدياد عدد أفراد العائـلات نتيجة للتكاثر السكاني الطبيعي(١).

كما عمدت هذه السلطات إلى طرد المواطنين العرب بالقوة من منازلهم دون أي إنذار مسبق ودون أي تعويض يدفع.

كما أنها تهمل ـ وعن سوء نية طبعاً ـ نظافة الأحياء العربية، حيث أن أكوام القمامة تتراكم بكثرة في الحـواري والأزقة، كمـا أنها لا تقـدم لهم خدمـات إنارة الشوارع أو توفير مياه الشرب إضافة إلى النقص الخطير في مرافق الصحة العامة.

ومن المحزن أن نعلم بأن ثمانين بالمائة من أحياء مدينة يافا تحول فعلاً إلى مدينة يهودية، والمخطط يسير وفق ما ترسمه السلطات العليا وتنفذه بلدية تل أبيب ـ يافا بحذافيره.

أما النسبة المئوية القليلة الباقية وهي عشرين بالمائة فهي تمثل حي العجمي بصورة رئيسة، وقد تبرع مليونير أمريكي بمبلغ ثمانية ملايين دولار لتنفيذ مخطط لمحو هذا الحي من الوجود. وهذا ما ذكره «ناتان روعي» في أحـد أعداد جـريدة دافـار الصهيونية. وطبقاً لما يقوله المحامي الفلسطيني نسيم شاكر المتحدث باسم رابطة عرب يافا فإن اليافاويين لا يعارضون تطوير يافا، ومن الواضح أن الوضع لا يمكن أن يظل كما هو عليه، لكننا نؤمن أن على البلدية أن تطور يافا بطريقة تأخذ احتياجات سكانها العرب بالحسبان، إننا مواطنون في «دولة اسرائيل»، ولذا يجب أن يكون لنا الحق في الاحترام والامتيازات التي يتمتع بها بقية المواطنين. أما الخطة في وضعها الحالي فانها تحمل في طياتها التمييز والحظر وستكون إيذاناً بنهاية عرب يافا(٢).

وكمحصلة طبيعية لكل ما ذكرناه آنفاً ـ وخلافه ـ فقد تحولت يافا إلى مـركز للفساد الخلقي والاجتماعي، حيث نشطت فيها تجارة المخدرات والسمـوم تحت سمـع وبصر السلطات الإسـرائيليـة. كمـا أن عـدداً كثيـراً من السكـان يتعـاطـون المشروبات الكحولية وباقي أصناف وسائل المتع الكاذبـة مما أوقعهم في مشـاكل اجتماعية عديدة.

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ـ لندن ـ ١٩٨١/١٢/١٠م

(٢) مجلة التضامن ـ لندن ـ ١٩٨٥/٣/٩م.

وأشار إلى أوضاع يافا التعيسة تقرير نشرته إحدى المجلات العربية الواسعة الانتشرا ورد فيه[1]:

مسجد حسن بك.. أحد البنايات الأكثر جمالاً من حيث فنها المعماري في يافا.. يبدو اليوم كقطعة من وعاء تكسر... بالضبط مثل طائفة عرب يافا.. وليس صدفة أني أشدد على هذه الاستعارة يافا التي كانت لؤلؤة في تاج الشرق.. جوهرة في تاج فلسطين العربية تبدو اليوم كعاهرة اسرائيل، وهذه الجملة يستعملها على فكرة رجال الطائفة العربية في يافا أيضاً.. يافا التي قدم إليها في عشرات السنين الماضية الأثرياء العرب من اجل الاسترخاء في هذه الزاوية الحلوة الجميلة.. تبدو اليوم كظلال لنفسها.. ولا حاجة لأية معطيات احصائية معينة من أجل تأكيد هذه الفكرة.

إن براكيات التنك البائسة وأكوام القذارة في كل مكان، الفئران والثعابين «كالحيوانات الأليفة» في جميع صفاتها، لا توجد ممرات معبدة ولا أرصفة ولا نواد رياضية أو ثقافية.

لقد انخرط شعور الغيظ والقهر في قلوب سكان يافا العرب الذين يدفعون الضرائب مثل السكان اليهود وربما أكثر منهم بقليل.. لكنهم لا يحظون بالخدمات المساوية ولا في الحقوق وينظرون إليهم وكأنهم أغراب ويتآمرون على ترحيلهم من المنطقة.. وفوق ذلك ومنذ عشر سنين لا يستطيع أي مواطن عربي في يافا توسيع بيته ولا حتى فتح نافذة في جدار البيت.. وتشدد بلدية تل أبيب التي يرأسها «شلومو لاهط» حتى على أقفال الشبابيك ولا يمكن لأي عربي إضافة شيء من البناء لبيته أو أن يمنح أولاده غرفة!!

وبكل صفاقة ووقاحة وشماتة يصف الصهيوني «أروي أزولاي» يافا بأنها «جرح متقيح في قلب تل أبيب»، ويضيف «لم تعد يافا غير خرائب متداعية، ومجارير متدفقة، ومرتع للمخدرات، ووكر للجريمة، وتفصل عربها عن يهودها سنة ضوئية»!!

قصة مسجد حسن بك

أثار موضوع مسجد حسن بك مشاعر المسلمين داخل الوطن الفلسطيني المحتل وخارجه في النصف الأول من عقد الثمانينات، وذلك حينما أقرت لجنة

---

(١) مجلة النهضة ـ الكويت ـ ١٨ ـ ٢ ـ ١٩٨٤م.

التنظيم ببلدية تل أبيب بتاريخ ٢١/١٠/١٩٨١ مشروعاً يقضي بهدم القسم الأكبر من هذا المسجد الواقع في حي المنشية شمال مدينة يافا وفي المنطقة المحاذية لتل أبيب، وذلك من أجل اقامة مركز سياحي وترفيهي ضخم.

والجدير بالذكر أن هذا المسجد الذي يعتبر قطعة فنية معمارية مهمة هو ملكية خاصة للوقف الإسلامي في يافا، وقد شيده عام ١٩١٦ حاكم يافا العسكري من جانب الدولة العثمانية ويدعى حسن بك البصري الجابي الدمشقي وتولى أمور يافا أثناء الحرب العالمية الأولى.

ولقد مضت أيام جميلة على هذا المسجد قبل نكبة فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ . فكان المسلمون يأتون إليه من كافة أنحاء فلسطين أيام الجمع لأداء الصلاة فيه.

واستخدم المسجد في حرب ١٩٤٨ كنقطة دفاع عن مدينة يافا كما استخدمت المئذنة كمركز للقناصة العرب. وبعد سقوط يافا أهمل المسجد وأصبح مهجوراً مثل كثير من مساكن حي المنشية التي تم هدمها واقامة مبان ومنشآت سياحية جديدة مكانها.

وبعد قيام اسرائيل وضعت دائرة أموال الغائبين يدها على المسجد والأراضي المجاورة له، ثم أسندت إدارته إلى لجنة أمناء الوقف الإسلامي التي يشرف على تعيين أعضائها مستشار رئيس الوزراء للشؤون العربية.

وفي شهر أغسطس عام ١٩٨١ تعرض المسجد لمحاولة إحراق من قبل الصهاينة، حيث تم القاء قنبلتين حارقتين على المسجد مما تسبب في حدوث حريق كبير أتى على محتوياته كما سقطت مئذنته وبعض أجزاء منه.

ولبى مئات المسلمين في يافا وخارجها دعوة القضاة المسلمين الخمسة للأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ الذين كانوا قد دعوا في بيان سابق لهم الجماهير المسلمة إلى الصلاة في المسجد يوم الجمعة احتجاجاً على قرار سلطات الاحتلال وتصرفاتها.

وصلّى في المسجد فعلاً أكثر من ألفي شخص، وأعقبت الصلاة حملة لجمع التبرعات، كما تم تعيين حراس دائمين على المسجد، واضطر رئيس بلدية تل أبيب

في حينه إلى إصدار أمر بوقف تنفيذ المشروع مؤقتاً. وبادرت عدة دول عربية وأبدت استعدادها لترميم المسجد.

وكانت جرت في العام ١٩٧٤ محاولة لبيع مسجد حسن بيك في المدينة إلى شركة اسرائيلية كان يديرها في ذلك الوقت جيجي بيريز شقيق زعيم حزب العمل شمعون بيريز. وكان الهدف من الصفقة التي لم تتم تحويل المسجد إلى موقع سياحي وبناء متاجر في الموقع.

إدارة الأوقاف الإسلامية في يافا

إن السلطات الإسرائيلية تطمع في الاستيلاء على أموال وممتلكات الأوقاف الإسلامية في يافا، وتجلى هذا الهدف الصهيوني بصورة واضحة في مصادقة مجلس الوزراء الاسرائيلي في يوم ١٣ ـ ٥ ـ ١٩٩٠م ـ وللمرة الأولى منذ قيام اسرائيل ـ على تعيين لجنة أمناء جديدة للوقف الإسلامي في يافا تضم في أغلبيتها أعضاء من اليهود، وزعم المجلس في قراره بأن غاية اللجنة الجديدة التي حلت مكان اللجنة العربية السابقة «دراسة أوضاع ممتلكات الوقف بهدف إدارتها بصورة منظمة»[1].

ويرأس اللجنة مستشار رئيس الوزراء الاسرائيلي للشؤون العربية لإدارة أملاك الأوقاف الإسلامية في تل أبيب ـ يافا إضافة إلى ٣ موظفين اسرائيليين من وزارات الشؤون الدينية والمال والداخلية.

وجاء قرار تعيين اللجنة الجديدة في أعقاب اعتبار اللجنة السابقة «العربية» «لجنة مشلولة»، وادعى القرار أن اللجنة السابقة «عانت من وطأة ديون كبيرة بلغت ١,٢ مليون دولار».

وقد رَدَّ المجلس الإسلامي على تعيين اللجنة الجديدة في بيان أصدره بهذه المناسبة وقال أن ذلك يشكل «فضيحة واستهتاراً مطلقاً بمشاعر المسلمين».

وقد عقب الشيخ رائد صلاح رئيس بلدية أم الفحم على القرار بقوله: «لا يعقل أن يدير شؤون المسلمين أناس ليسوا مسلمين، فالوقف الإسلامي له أحكام شرعية لا يمكن تغييرها أو تبديلها لأنها من العبادات، وأن هذا التعيين يتعارض مع المبدأ الديني والقانوني والعرفي بين البشر، وسنبذل ما بوسعنا من أجل استقلالية الأوقاف

---

(١) جريدة الحياة ـ لندن ١٤ ـ ٥ ـ ١٩٩٠م.

الإسلامية واستقلالية الاشراف عليها أسوة بباقي الديانات التي يشرف أتباعها على أوقافها».

أما الناطق الرسمي باسم حركة «أبناء البلد» فأكد أن التعيين «مناف لحقوقنا الأساسية كمسلمين وكفلسطينيين، ويهدف إلى الاستمرار في سياسة نهب وتدمير أموال الوقف ومقدساتنا الإسلامية».

الجدير بالذكر أن لجان أمناء الوقف الإسلامي وليدة قانون اسرائيلي صدر عام ١٩٥٠م، وأن المسؤول الأول عنها هو وزير المالية الاسرائيلي، وكرد على ذلك أنتخبت أول هيئة إسلامية في يافا عام ١٩٨٨م.

إن مدينة يافا تثير شهية السلطات الاسرائيلية، وهي تسعى بشتى الطرق لتهويدها وتصفية الوجود العربي فيها، وإن أخطر ما تتعرض له يافا في هذا الشأن الخطة المشتركة الهادفة إلى «إعادة اليهود إلى يافا» والتي تم التنسيق لها بين أرييل شارون وزير الاسكان والبناء الاسرائيلي وشلومو لاهط رئيس بلدية تل أبيب وذلك في شهر يوليو من عام ١٩٩٠ لاستيعاب أعداد من المهاجرين السوفيت.

وقد فصَّل شارون للاهط قائمة بالأماكن المهيأة للسكن بشكل فوري ويقترح إجراء استطلاع مستعجل تأهباً لتسويق مئات الشقق الخالية، وذكر رئيس بلدية تل أبيب أنه يريد توجيه آلاف اليهود القادمين والأزواج الشابة إلى يافا وإلى الأحياء الجنوبية منها بأسرع وقت ممكن «إن أحد أهدافي في يافا هو تهويدها»(١).

ويذكر أن جزءاً من هذه الوحدات السكنية كانت مخصصة لأبناء يافا الفلسطينيين، إلا أن وزارة الاسكان وبلدية تل أبيب قررتا إسكان اليهود من القادمين الجدد والأزواج الشابة في هذه الشقق.

* * *

شخصيات يافية بارزة

خلال مسيرتها التاريخية الطويلة حفلت يافا بإنجاب شخصيات كثيرة برزت في المناحي الحياتية المختلفة، وسنقتصر هنا على ذكر من توافرت لدينا معلومات عنهم والذين توفاهم الله خلال هذا القرن.

---

(١) المرجع السابق.

حافظ بك السعيد (١٨٤٣ ـ ١٩١٦)، فيليب جلاد (١٨٥٧ ـ ١٩١٤)، الفرد روك (ـ، ١٩٤٦)، المحامي إدوارد بيروني (ـ ١٩٥١)، عاصم السعيد (ـ ١٩٣٩)، الفنان يوسف بتروني (ـ ١٩٥٨)، القاضي بشارة عازر (ـ ١٩٥٣)، الصحفي إبراهيم مصطفى الدباغ (١٨٨٠ ـ ١٩٤٦)، الصحفي إبراهيم الشنطي (١٩١٠ ـ ١٩٧٩)، أديب أبو ضبة (١٨٩٦ ـ ١٩٢١)، المربي جميل الخالدي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٢)، الصحفي جورج حنانيا (١٨٥٧ ـ ١٩٢٠)، راغب أبو السعود الدجاني (١٨٨٢ ـ ١٩٦٤)، السياسي سليمان التاجي الفاروقي (١٨٨٢ ـ ١٩٥٨)، الأديب عادل جبر (١٨٨٥ ـ ١٩٥٣)، علي الدباغ (١٨٩٢ ـ ١٩٥٦)، الوجيه عبد الله شفيق الد جاني (١٨٧١ ـ ١٩٢٧)، الصحافي عيسى العيسى (١٨٧٨ ـ ١٩٥٠)، الأديب محمود سيف الدين الإيراني (١٩١٤ ـ ١٩٧٤)، الشيخ حسن الدجاني (. . . ـ . . . .) الصحفي يوسف العيسى (. . . ـ ١٩٤٨)، الأديب أحمد خليل العقاد (١٩١٦ ـ . . .)، المحامي أفتيم عازر (١٩٠٧ ـ . . . .)، الدكتور نصوح النابلسي (١٩٠٧ ـ . . .)، يوسف مصطفى باميه (١٩١٢ ـ . . . .)، حسن أبو الوفا الدجاني (١٨٩٤ ـ ١٩٥٢)، الشيخ شاكر أبو كشك (١٩٠٠ ـ . . . .)، الدكتور موسى التلاوي (١٨٩٥ ـ . . .)، الوجيه عمر البيطار (١٨٧٨ ـ ١٩٦١)، الداعية الإسلامي البروفيسير الشهيد اسماعيل راجي الفاروقي (١٩٢١ ـ ١٩٨٦)، الشهيد البطل خليل إبراهيم بدوية(١٩٠٣ ـ ١٩٣٦)، الدكتور يوسف هيكل(١٩٠٧ ـ ١٩٨٩)، الشاعر محمود نديم الأفغاني (١٩٢٥ ـ ١٩٧٩)، الأديب محمد العامري (. . . ـ ١٩٧٨) النقابي ميشيل متري قفه (. . . ـ ١٩٣٦) أبو المواهب علي الدجاني (١٨٣٣ ـ ١٩٠٨)، كنعان أبو خضرا (١٩٢٠ ـ ١٩٨٤)، الصحفي الأديب عميد الإمام (١٩٢٥ ـ ١٩٨٣)، العلامة الزراعي علي نصوح الطاهر (١٩٠٦ ـ ١٩٨٢)، المؤرخ مصطفى مراد الدباغ (أبو عمر) (١٨٩٨ ـ ١٩٨٧)، المناضل السياسي الشهيد الدكتور عبد الوهاب الكيالي (١٩٣٩ ـ ١٩٨١)، الشهيد المناضل سعيد حمامي (١٩٤١ ـ ١٩٧٨)، المناضلة الشهيدة دلال المغربي (١٩٥٨ ـ ١٩٧٨)، الشاب الشهيد عمر زكي العسولي (١٨٤٧ ـ ١٩٦٩)، المناضل الشهيد القائد مروان الكيالي (مواليد بيروت ١٩٥٠ ـ ١٩٨٨)، الشهيد الصحفي سهيل أحمد الشنطي (١٩٤٥ ـ ١٩٨٩)، المربي عدنان حلاوة (١٩٣٩ ـ ١٩٩٠) الشهيد فيصل الطاهر (١٩٢٤ ـ ١٩٤٨) الشيخ فوزي الإمام (١٩٠١ ـ ١٩٤٨) الشهيد المقدم مجدي الأنصاري (١٩٤٣ ـ ١٩٨٥)، الشهيد يوسف الداية (١٩٤١ ـ ١٩٨٥).

عائلات يافية عريقة

تنتسب إلى مدينة يافا عائلات عريقة نذكر منها:

السعيد، الدباغ، الشنطي، الخالدي، الدجاني، الفاروقي، الحوت، أبو خضرة، الإمام، العيسى، بامية، أبو كشك، التلاوي، البيطار، بدوية، حلاوة، الكيالي، المغربي، العمري، أبو ضبة، العسولي، الغول، سكر، كشكش، بيدس، هيكل، أبو النصر، أو زناد، حنانيا، أبو غزالة، أبو لبن، الفرخ، أبو الروس الطاهر، الغندور، الطويل، عكيلة، النجار، الشرقاوي، حبيب، بنات، الدسوقي، القطامي، العباسي، الكيالي، الصباغ، هللو، الهسّي، عقل، أبو السعد، عبد المالك، سلمان، آغا، مكرم، الخريبي، حسان، سعد الدين، المختار، أبو سل، دولة، الصاوي، الجخلب وغيرها.

* * *

وأخيراً. . . لقد عُرفت يافا بأنها من أكثر المدن الفلسطينية انفتاحاً على العالم، وأكثرها رقياً وازدهاراً في كافة المجالات، وكان بعض القاطنين بعيداً عنها يتباهون بأنهم قد زاروها أو أقاموا فيها أو ابتاعوا شيئاً منها. وانه لمعروف عن أهلها بأنهم أكثر الفلسطينيين تمدناً والتصاقاً بالحضارة الأوربية!

وإني لأرى يافا قريبة الشبه بالاسكندرية حتى في تكرار أسماء بعض الأحياء السكنية في كلا الثغرين الفاتنين، كالمنشية، والعجمي، والنزهة، اضافة إلى اشتراك السكان في النضال الوطني، وحسن الضيافة ورهافة الحس واللباقة وطلاوة اللهجة.

أشكو إلى الله

في طريق إيابنا إلى خان يونس نظرت إلى يافا فقلت لها مودعاً: يا حديقتنا التي أقفرت من شوارعك خطواتنا، وأَفَلَتْ عن مرابعك نجومنا، لن أجد ترجمة للواعج الأسى أبلغ من كلمات شاعرك محمود الحوت وهو يناجيك متيَّماً بك:

يـافا، لقـد جَفَّ دمعي فـانتحبْتُ دمـا   متى أراكِ؟ وهـل في العمر من أَمَـدِ؟
أُمسي وأُصْبِـحُ والـذكـرى مُجـدّدة   محمـولـةً في طـوايـا النفس لـلأبـد

مــا بـال قلبي إذا مــا سِـرْتُ في بلد يَصيحُ من وَجْـدِه في الصـدر وابلدي
مهمــا استقـامَ لــه من عِيشـــةٍ رَغَـدُ وَجــدْتُـه هــازئاً بــالعيشَـة الـرَّغَـد
تَـعِبْـتُ لكـنني مــا زِلْتُ فـي تعـبـي أشكــو إلى اللّهِ لا أشكــو إلى أحــدِ

. . . . وسلام على يافا يوم قامت، ويوم ضاعت، ويوم تؤوب.

الباب الثالث:

لواء حيفا

ويضم قضاءي
حيفا وعكا




Haifa.

حيفا
قلادة على صدر الوطن

موقفان تراجيديـان واجهتهما في مستهـل الجولـة التي نقلتني إلى المدينتين الحبيبتين الرائعتين: القدس الخالدة. . محارة أديان السماء، وحيفا الفـاتنة قـلادة البهاء التي تزين صدر وطننا العربي الفلسطيني المغتصب!

وقد واجهت الموقفين الغريبين بأسلوب ـ أعترف بداية ـ بأنه سلبي، وقد لا يرتضيه الكثيرون من الناس! ولكن ما حيلتي وأنا لا أملك غير الدمعة السخية الدافئة أسكبها مدرارة على وطني المضيع بعد أن عزَّ على أمتي العربية الإسلامية أن تسكب الدم والمال والعرق فداء للقداسة والطهارة والكبرياء!

حدث الموقف الأول أثناء إحدى أيام الجمع الرمضانية المباركة حيث انطلقت من خان يونس فجراً في طريقي إلى القدس الحبيبة لزيارتها وللصلاة في المسجد الأقصى المبارك.

وبعد جولة قصيرة في منطقة الحرم القدسي الشريف، أردت تجديد وضوئي استعداداً لأداء أول فريضة أصليها في أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

اتجهت إلى ميضأة في الساحة الرئيسة قبالة مسجد الصخرة، فرأيت عشرات المسلمين متحلقين حول صنابير المياه، فانتظمت في دوري، وبعد نحو عشرين دقيقة بدأت في الوضوء وكل كياني منغمس حتى النخاع في بحر لجي نفسي جاوز الحد الأعلى للتعاسة البشرية قاطبة!

وعندما أوشكت على الانتهاء تنبهت إلى أن الوضوء لم يكن منظماً ولا متوالياً،

فبدأت الوضوء من جديد، وأنا أكاد أذوب خجلاً من نفسي ومن الرجال الذين ينتظرون أدوارهم خلفي!

وعندما أوشكت على الانتهاء تنبهت إلى خطئي في ترتيب فرائض الوضوء للمرة الثانية! . . وبدأت من جديد أغسل يَدَيَّ ووجهي وعندئذٍ نفذ صبر الرجل الواقف خلفي مباشرة. فصرخ بلهجة فلاحينا البسطاء: هيه يا رجل. . قم إلى بيتك لتتعلم الوضوء فيه ولا تضيع علينا صلاة الجمعة!!

وأُسْقِطَ في يدي ووجداني وكل ذرة في كياني. . فنظرت إلى الرجل في ذل وانكسار وتمنيت أن يهبه الله حكمة لقمان كي يدرك ما بي من حزن يعقوب، وحسرة يوسف، ومحنة أيوب، وتمنيت لحظتها أن تكون دموعي بلون دمي حتى يدرك صاحبي أنني أتوضأ وضوءاً آخر لا عهد له به، وتذكرت قول الشاعر:

لم يُخلق الدمع لامرىءٍ عَبثاً　　اللَّهُ أدرى بلَوْعةِ الحزن

أما الموقف الثاني فقد حدث على قمة جبل الكرمل. . حينما كنت مستغرقاً متأملاً بصمت وإجلال منظر مدينة حيفا، الآية الرائعة التي أبدعت يد الله صنعها، جبل الكرمل يحتضنها، والأبيض المتوسط يهدهدها، والنجوم تداعبها، والسهل يناغيها، والجمال نفسه يغار منها، وعيون الحساد ترفُّ عليها، إنه بلا شك أمتع منظر تغرق فيه الأبصار بفلسطيننا المغتصبة. . ولكن من الذي يحصد هذا المحصول الجمالي الفريد؟ إن الإجابة الموحشة عن هذا التساؤل كفيلة بتشييد أهرام جديدة من الوجد والألم على صدري المترع بالأحزان. . ولم يكن هذا الواقع وحده هو الموقف التراجيدي الوحيد الذي أعني، فلقد رأيت أغرب منظر لا أخلاقي وقعت عليه عيناي في طول حياتي وعرضها! والذي أتورع حتى عن استحضار صورته البشعة في خيالي خشية أن أخدش عفة هذا الخيال بشيطانية ذلك القبح، وإني لمشفق على كرام القراء من تفصيله. . لكن عز على نفسي أن أراه قائماً في وطني. . وفي أكرم شهر من شهور ربي، وبتلقائية شديدة. . انداحت على وجهي حبات الدموع. . ثم سَحَّتْ عيناي خيراتها المدرارة، وأخذت أردد قول الرصافي:

أأمنع عيني أن تجود بدمعها　　على وطني إني إذن لبخيل

وبعد أن «عَشِيَتْ عيناي من طول البكاء، وبكى بعضي على بعضي معي كما يقول أحد شعراء الأندلس، أخرجت نفسي من محنتها، وقلت إن تدارسنا لحياة حيفا

أنفع وأجدى ألف مرة من بكائنا عليها، ونواحنا على ضياعها!

جنـة اللّه

تتربع مدينة حيفا الفاتنة على قمة سفح جبل الكرمل الشامخ، وهو يكوّن الجزء الشمالي الغربي من جبال نابلس، وينتهي على شاطىء الأبيض المتوسط عند حيفا، ويبلغ طوله ١٥ كم، وعرضه حوالي ثماني كيلومترات، أما أعلى قمة فترتفع ما يقرب من ٥٥٠ متراً عن سطح البحر.

واكتشف العلماء في كهوفه بقايا هياكل بشريـة ترجـع إلى العصر الحجـري القديم، وورد في الأساطير المصرية القديمة أن «إيزيس» خرجت تبحث عن زوجها أوزوريس في أحد كهوف جبل الكرمل، فرأت القمح نامياً في مدخل الكهف، وهي إشارة تدل على أن القمح قد عرف للمرة الأولى في فلسطين وبوجه خاص على هذا الجبل.

وورد في الأدب اليوناني القديم أن الفيلسوف الرياضي الشهير «فيثاغـورس» عاش فترة من الزمن على جبل الكرمل، التقى خلالها مع بعض تلاميذه.

وبعض الناس يدعونه جبل «مار الياس» بحجة انتصار هذا النبي على أعدائه من الوثنيين اليهود فوق الجبل. وفيما بعد حفل الجبل بالنساك والموحدين الذين تناثروا في أرجائه يعبدون الله ويتقربون إليه.

ويقال إن النبيين الياس واليشع علّما تلاميذهمـا الديـانة في منـطقة الخضـر بالمدينة، واشتهر جبل الكرمل أيام النبي اليـاس لانتصاره فـوق قمته على أعـدائه الوثنيين.

ويذكر الإنجيل أن السيد المسيح وطىء أرض حيفا وباركها حين مرَّ بها مع مريم العذراء في طريقه من مصر إلى الناصرة.

أما كلمة «كرمل» ذاتها فهي كنعانية الأصل، وتعني كرم الله، أو جنة الله، وهي تسمية لها من اسمها نصيب، حيث كسا الله هذا الجبل بأشكال مختلفة من الأشجار والفـواكه منـذ قديم الـزمن فتجمعت فيه أشجـار الصنوبـر، والسـريس، والبلوط،

والسنديان، والعبهر، والخروب، والجميز، والتين، والزيتون، إضافة إلى أنواع عديدة من الرياحين والأزهار[1].

وإذا وقف المرء على أماكن محددة على جبل الكرمل يستطيع أن يكحل عينيه برؤية عكا وفنار صور شمالاً، وإلى ما وراء قيسارية جنوباً. وإلى جبال الجليل وجبل الشيخ شرقاً... إضافة إلى منظر الأفق الممتد بعيداً وهو يعانق البحر ويحنو عليه في لهفة ودلال. إنها بلا ريب مشاهد فريدة من أمتع ما تقع عليه العين في وطننا الفلسطيني المستباح!

تاريخ المدينة

حيفا كلمة عربية، و«الحيفة» معناها «الناحية»، وقد ورد ذكرها في القرن الرابع الميلادي باسم «ايفا».

ويرجح أنها أنشئت زمن الكنعانيين العرب، ولكنها عاشت كقرية متواضعة لم تثر إليها انتباه التاريخ القديم، وأحصرت ميزتها الكبرى في موقعها الطبيعي النادر، وكذلك لم يرد لها ذكر في مصادر الفتح العربي الإسلامي، ولعلَّ أقرب ذكر لها كان في عام ١١٠٠ ميلادية، حينما استولى عليها الصليبيون بعد هجومهم على الحامية الصغيرة التي كانت تدافع عن البلدة.

وهنا يأتي ابن شداد صاحب كتاب «الأعلاق الخطيرة» ليروي القصة في كلمات سريعة «نازلها الفرنج في سنة أربع وتسعين وأربعمائة». وحاصروها وضايقوها....

«فبينا هم ليلة إذ سمعوا فيها صيحة عظيمة!! فلما أصبح الصباح فتح من فيها أبوابها وخرجوا بالسلاح».

وقاتلوا من عليها من الفرنج حتى قتلوا عن آخرهم... «ودخل الفرنج المدينة فوجدوهم.. قد قتلوا أولادهم ونساءهم!!». ويعلق الدكتور شاكر مصطفى على المشهد قائلاً:

لم يتوقف ابن شداد. ليتحدث أكثر من ذلك عن الفاجعة البطولية الرائعة. لم يجعل منها «ماسادا» الأسطورية التي تنصبها الصهيونية رمزاً. لم يوجه همه إلى

---

(١) بلادنا فلسطين ج ٧ ق٢ مرجع سابق.

الصيحة العظيمة في البلد. ماذا أخفت وراءها من ابنة تفتح صدرها الطري لأبيها كي يغمد خنجره، ومن صراخ أم تهوي بنفسها على السيف لأن حليلها لم يجرؤ على نحرها. وبكاء طفل تخنقه أمه في لحظة اليأس الأعظم، وعويل ثاكلة يغرقها أخوها في البحر وبسمة الشكر على شفتيها. . ودموع الرجال وما أدراك ما دموع الرجال؟ . . ساقية من نار على الخد وفي القلب لا يحتملها إلا الجبابرة. .

هؤلاء الجبابرة «قاتلوا من عليها من الفرنج حتى قتلوا عن آخرهم»![2].

وفي عام ١١٨٨ عادت حيفا إلى المسلمين، ثم استعادها الصليبيون بعد أن أمر صلاح الدين بإخلائها وهدم أسوارها وحصونها باعتبار أنها كانت ضمن المنطقة الساحلية التي ظلت بيد الفرنجة بموجب صلح الرملة.

وفي عام ١٢٦٥ فتحها الظاهر بيبرس، ثم استولى عليها الفرنجة مرة ثالثة، فقيض الله لها الملك الأشرف خليل بن قلاوون فاسترجعها من فلول الفرنجة عام ١٢٩١ وانتهى بذلك الوجود الصليبي في فلسطين، وعادت حيفا من جديد للحكم العربي الإسلامي.

لكن الأشرف كان قد أوقع بحيفا الخراب كغيرها من المدن الساحلية، حتى لا يستفيد منها العدو إذا وقعت بيده مرة أخرى. وقد وصفها القلقشندي في «صبح الأعشى» بأنها «خراب على الساحل». وغفت حيفا فترة من الزمن.

وفي عام ١٧٤٩ دخلت تحت حكم الشيخ ظاهر العمر، فأخذت تنمو وتتقدم، فبنى حصونها وأبراجها وأسوارها من جديد.

وخلال الغزو الفرنسي لفلسطين عام ١٧٩٩ أمر نابليون بونابرت باحتلال حيفا، وأقام مركز قيادته على جبل الكرمل. «وكانت حيفا محطة لملم فيها بونابرت جراحه وبقايا هيبته بعد انكساره على أبواب عكا وأسوارها».

وفي سنة ١٨٣١ وصلت قوات إبراهيم باشا المصرية إلى حيفا واستولت عليها بدون مقاومة. ومن مينائها انطلقت سفنه لحصار عكا.

وفي تلك الآونة زار الشاعر الفرنسي المعروف «لامرتين» حيفا وتغنى بجمالها وسحرها وروعة منظر جبلها الأشم فقال: «حيفا، تحت أقدام الكرمل، على خليج من

---

(١) مجلة اليوم السابع بتاريخ ١٩٨٧/١٢/١م.

الرمال البيضاء مطل على البحر، وتقع في نهاية سهم، حده الثاني عكا، ويفصلهما خليج عرضه مسافة تستغرق ساعتين، والخليج من أرق شواطىء البحر التي يمكن أن تهدأ إليها عيون الملاحين، وعكا بقلاعها الموشاة بمدافع إبراهيم باشا، ونابليون، وقبتها البازغة من مسجدها الجميل المتهدم، وشراعاتها الغادية الرائحة في مرفئها، تجتذب العيون إلى موقع من أهم وأشهر المواقع التي خلدتها الحرب.

وفي قاع الخليج سهل فسيح مزروع يلقي عليه جبل الكرمل بظله. ثم حيفا، كشقيقة عكا، تحتضن الشاطىء الآخر من الخليج، وتتقدم صوب البحر برصيفها الصخري الصغير حيث تتأرجح بعض قوارب الصيد العربية الصغيرة، وليس هناك أمتع من تلك الرحلات حين تصفو البلاد، وتكون الخيول قد استراحت تماماً، فتسير الهوينا، مع أول الصبح على أرض ناعمة، والمناظر تتابع من غير ربابة، والبحر يرسل إلى وجهنا رذاذ الهواء المنعش، الذي يثيره موج ناعم منتظم، يمتد لونه الأخضر أو الأزرق تحت سنابك الخيل ويرسل إليها أحياناً رذاذًا من زبده.

إنها المتعة التي أحسسناها، ونحن نقطع الخليج اللطيف الذي يفصل حيفا عن عكا، أما المساحة الشاسعة لسهل حيفا، فتخفيها عن يمينها باقات عالية كثة من أشجار الورد، وقمم النخيل التي تفصل الخليج عن الأرض، كنا نسير على سرير من الرمل الأبيض الناعم، لا تفتأ أن ترويه الموجة التي تطوى وتفرد مفارشها البيضاء والمضلعة. . والخليج تغلقه من جهة الشرق ذرة الكرمل المدببة، وقد علاها ديرها، ومن جهة الغرب جدران عكا البيضاء المهشمة. وبينهما يبدو الخليج وكأنه بحيرة واسعة يطمئن الموج فيها وهو يؤرجح أصغر القوارب هوناً دون خوف».

ووفقاً لمعاهدة لندن المبرمة عام ١٨٤٠ عادت حيفا للسلطة العثمانية بعد فشل حملة إبراهيم باشا على بلاد الشام.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت مدينة حيفا تنمو وتزدهر رويداً رويداً، وتحولت إلى مركز لقضاء يحمل اسمها، وتولى «احسان بك التركي» منصب قائم مقام القضاء، وأخذت بناياتها الجديدة تقام باتجاه طريق عكا والناصرة وشواطىء البحر حيث البساتين الجميلة، وقد سمح السلطان العثماني «عبد العزيز» للجالية الألمانية بتأسيس حي لها في الجزء الغربي وهو الذي عرف فيما بعد بحي «الألمانية». الذي يعد من أجمل أحياء المدينة وأنظفها، واتفق سكانه منذ البداية على

أن لا يبيعون شيئاً من أراضيه لغير بني ملتهم، وقد صدقوا في اتفاقهم فلم يعرف بعد أنهم باعوا شبراً من حيهم لغريب عن جنسهم!

ولم يكن عددهم في البداية يزيد من المائة عائلة من فرسان الهيكل (الداوية)، وقد نزلوا حيفا كغيرهم من الأجانب بهدف الاستيطان والعمل والنشاط التبشيري المتخفي في زي الكشف العلمي! وبرغم أنهم ساهموا في تطور المدينة زراعياً وتجارياً إلا أنهم كانوا يمثلون حلقة مهمة في سلسلة الأطماع الاستيطانية الأجنبية بالمدينة، والتي أدت في نهاية المطاف إلى ضياع فلسطين، وإقامة الكيان الصهيوني مكانها!

بداية الاستيطان اليهودي

لقد اهتمت الحركة الصهيونية منذ فترة بعيدة بمدينة حيفا، وكان هدفها أن تصبح حيفا «مدينة المستقبل»، وقد صرح البارون إدموند دي روتشيلد أحد أكبر أقطاب الصهيونية العالمية بقوله: «كما هي القدس بالنسبة للدين اليهودي، وكما هي تل أبيب بالنسبة للحضارة اليهودية والروح القومية، هكذا ستكون حيفا بالنسبة للاقتصاد العبري».

كان اليهود الشرقيون «السفارديم» يسكنون في حيفا منذ زمن قديم، وبرغم أن حالتهم الاجتماعية فيها كانت سيئة إلا أنهم كانوا يرفضون النزوح عنها.

أما اليهود الغربيون «الأشكيناز» فقد كانوا قبيل الحرب العالمية الأولى يقطنون في القسم الغربي من حيفا، ويشتغل أغلبهم في التجارة التي برعوا فيها واغتنوا من ورائها. ومن أجل نماء هذه التجارة حصروا بيعهم وشراءهم فيما بينهم فقط.. وافتتحوا لهم فرعاً لمصرف «أنجلو فلسطين»، والذي لا يتعامل إلا مع اليهود فقط، إضافة إلى أنه يبتاع أراض وأملاكاً وعقارات مختلفة ويعطيها لشباب اليهود، إضافة إلى إقراضهم أموالاً يستطيعون بها تنمية مواردهم، ويستطيعون تسديدها على أقساط مريحة.

اهتم اليهود في حيفا بنشر اللغة العبرية، فقاموا بفتح بعض المدارس التي كان يؤمها التلاميذ يومياً. ورد في كتاب «ولاية بيروت» المطبوع سنة ١٩١٧، تفصيل النشاط اليهودي الثقافي في حيفا كما يلي: أُدْخل أية مكتبة يهودية في حيفا وانظر فيها بإمعان، تجد أولاً أن المكتبة مملوءة من أرضها حتى السقف بكثير من الكتب

العبرانية، ومن بينها التوراة، وتفاسيرها، التلمود، القراءات، والفيزياء، وكل شيء موجود، وكل شيء فيه مطبوع طبعاً أنيقاً.

ثم تجد في المكتبة بطاقات بريدية (كارت بوستال) لا تعد ولا تحصى، ومجموعات البطاقات عبارة عن تاريخ العبران، وعن جغرافية العبران، رسوم أبناء بني صهيون ومشاهيرهم، رسوم الوقائع العبرانية، وترى من جهة أخرى رسوم المظالم والاعتسافات التي لاقاها اليهود في روسيا وألمانيا، ورسوم مشاهير السياسة. وترى فوق ذلك رسوماً ثمينة قد صورت الغاية اليهودية بشكل يكفي لتهييج الروح العبرانية عند النظر إليها، وهذه تفيد في بث روح التمرد لدى النسل الجديد من اليهود.

وقد أوفت بريطانيا ـ قاتلها الله ـ بتعهداتها من أجل إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، فشجعت الهجرة اليهودية، وحرضت اليهود على استملاك الأراضي والاستيطان وقد وصل عدد المستوطنات اليهودية في قضاء حيفا خلال العهد البريطاني نحو ٦٢ مستوطنة[1].

خمسة أيام حاسمة

أثناء دراسة تاريخ حيفا المعاصر وجدنا بأن هناك خمسة أيام حاسمة في هذا التاريخ أثرت كل الأثر في حيفا وسكانها ومستقبلها.

اليوم الأول كان عام ١٩٠٥ ميلادية.. حينما شهدت المدينة ميلاد أول خط حديدي لأول قطار ينطلق من محطتها أو ينتهي إليها. فلقد تحرك في ذلك اليوم قطار سكة حديد الحجاز فربطها بدمشق وحوران وعَمَّان والحجاز. وبعد أن كانت حيفا وثغرها مقراً متواضعاً لصيادي السمك وصغار التجار، أصبحت تنمو وتتوسع في نهضتها وتجارتها ولكن على حساب جارتها عكا!

فصارت حيفا ميناءً هاماً تصدر منه حبوب المنطقة المجاورة، وتصل بواسطته البضائع المختلفة القادمة من شتى بقاع العالم.

واليوم الثاني من أيام حيفا الحاسمة كان في عام ١٩١٨، حيث بدأ عهد جديد خيم بظلاله السوداء فيما بعد على حيفا ففلسطين فالشرق الأوسط، وذلك حينما احتل المدينة الجنرال اللنبي والكولونيل ستانتون وهما يقودان الجيوش البريطانية التي

(١) بلادنا فلسطين ـ مرجع سابق.

اشتبكت في معركة حربية مع فلول الجيش التركي الذي كانت مدفعيته تتمركز في غابات الصنوبر في الكرمل. وكذلك عندما أوصل إليها الجيش البريطاني أول قطار يربطها بمصر عام ١٩١٩ والذي يمر في طريقه باللّد وغزة والقنطرة في الجهة الجنوبية، وبيروت في الجهة الشمالية، وبذلك أصبحت حيفا ترتبط بمصر عن طريق السهل الساحلى الفلسطيني وسيناء، وتتصل بلبنان عبر سهل عكا بطريق معبدة وخط سكة حديد يمران من عكا وبيروت في طريقهما إلى طرابلس الشام.

أما اليوم الثالث في حياة حيفا فهو اليوم الذي وسعت فيه حكومة الانتداب البريطاني عام ١٩٢٩ الميناء، حيث أقامت المنشآت الضخمة، وجهزته بكل الوسائل الحديثة وغيرها من الأعمال الهندسية المتعلقة بالموانىء، وقد كلفت هذه الأعمال نحو مليون وربع المليون من الجنيهات الفلسطينية (الاسترلينية).

وأصبحت المدينة ذاتها محطة يتدفق إليها ألوف العمال العرب طلباً للرزق، كما رحل إليها بعض كبار التجار السوريين والمصريين واللبنانيين.

أما اليوم الرابع في حياة مدينتنا الساحرة فقد كان في عام ١٩٣٣. . . وفيه عدة خطوط عريضة برزت في تاريخ المدينة. .

فلقد افتتح مدير شركة البترول العراقية أول أنابيب البترول الممتدة من كركوك إلى حيفا تحمل إليها نصف ما كانت تصدره العراق من بترولها، ومنها يصدر إلى أوروبا وغيرها.

ومما زاد في ازدهار حيفا وجعلها مقصد الرزق للكثيرين من داخل البلاد وخارجها بناء مصفاة النفط الكبيرة التي زودت جيوش الحلفاء في الشرقين الأدنى والأوسط بما تحتاج إليه من النفط خلال الحرب. أصبحت حيفا مركز العمل والعمال في فلسطين، وأنشأ هؤلاء جمعية منظمة خاصة بهم.

وشهد نفس العام تدشين ميناء حيفا ليكون أعظم موانىء البحر المتوسط بعد ميناءي مرسيليا والاسكندرية، وبلغ عرض مدخله ١٧٣ متراً، فأصبح الشريان الحيوي لفلسطين والأردن وسوريا والعراق وإيران وغيرها من الأقطار الآسيوية.

ومما ساعد على ازدهار المدينة في المجال الاقتصادي توافر أعمال البناء وصناعة الإسمنت والسجائر والنسيج والصابون ومطاحن الدقيق وأخيراً صناعة تكرير البترول.

يقول أستاذنا المرحوم محمود العابدي: لقد كانت حيفا تشكل قوة مغناطيس تجذب إليها العامل العربي من سائر بلاد الشام دون حساب الحدود السياسية المصطنعة، ولذلك كان «جنيه حيفا» يداعب خيال كل طموح ولا سيما التاجر السوري الذي نجح نجاحاً باهراً في مزاحمة اليهود تجارياً، لذلك كانت حيفا مركز العمل والعمال في فلسطين.

ومن الخطوط العريضة التي برزت كذلك في عام ١٩٣٢، استقبال حيفا لجثمان المغفور له الملك فيصل الأول حيث خرجت الجماهير عن بكرة أبيها تحيي الزعيم العربي الراحل، وأقامت له بعد ذلك نصباً تذكارياً أمام جامع الاستقلال، والملك فيصل هو فيصل الأول ابن الحسين الهاشمي الذي يعتبر من أشهر ساسة العرب في العصر الحديث، وقد نودي به ملكاً على العراق عام ١٩٢١ ثم وافته المنية في سويسرا بعدئذٍ.

وخلد شاعر فلسطين الراحل إبراهيم طوقان هذه المناسبة بقصيدة مطولة جاء في مطلعها:

شَيِّعي اللَّيْلَ وقومي استقبلي
طلعة الشمس وراءَ الكرمل
واخْشَعي، يوشك أن يغشى الحمى
يا فلسطين سنى من فيصل

وخامس الأيام المشهورة في حياة حيفا هو يوم الثالث والعشرين من نيسان (أبريل) من عام ١٩٤٨. وفيه انسحب البريطانيون من حيفا، وتركوها لقمة هنية في أفواه الصهاينة. لقد حدث ذلك برغم أن الادارة البريطانية أكدت مراراً في بياناتها الرسمية أنها لن تتخلى عن حيفا قبل انتهاء الانتداب يوم الخامس عشر من مايو (أيار) من نفس العام، وأنها مسؤولة عن الأمن حتى ذلك التاريخ، ولم يقف البريطانيون عند هذا الحد، بل عمدوا إلى شطر المدينة شطرين، ووقفوا على منافذها يمنعون وصول النجدات العربية إليها. بينما ساعدوا أعداءنا على التمركز والتحصن!

الرحيل.. الرحيل

أشرنا في بداية هذا البحث إلى أن دهاقنة الصهيونية العالمية كانوا يعتبرون حيفا «مدينة المستقبل» وسنلاحظ بأنها أضحت كذلك بالنسبة لهم، فهي ـ حتى ذلك

التاريخ ـ كانت حلقة الوصل بين خطي المستعمرات الصهيونية اللذين يمتد الأول منهما من مرج ابن عامر إلى طبرية، ومن ثم إلى المطلّة على الحدود اللبنانية، ويمتد الثاني عبر السهل الساحلي الأوسط إلى يافا، ولأنهم طامعون في استغلال مرفئها لجلب المهاجرين الصهيونيين، وكذلك في استغلال نفط المصفاة.

لهذا كله عمد الصهاينة إلى التنسيق مع البريطانيين ـ أصحاب وعد بلفور ـ لاستلاب حيفا من أهلها. ونسقوا أيضاً فيما بينهم لاحتلال المدينة في وقت مبكر. فنجد مثلاً أن أحد المسؤولين الصهاينة ذكر ـ بعد انتهاء القتال ـ أن جزءاً من القوات الصهيونية المكلفة بأحد أحياء حيفا العربية كانوا قد وُضعوا سابقاً في المنطقة العربية على أساس أنهم عمال زراعة وأخفوا أسلحتهم لاستخدامها عند تنفيذ الخطة.

وقد اختارت القيادة العسكرية الصهيونية لاحتلال حيفا، قوة عسكرية ضخمة من الهاجاناه والأرغون تبلغ حوالي خمسة آلاف مقاتل مدربين ومنظمين ضمن وحدات وتشكيلات نظامية بقيادات كاملة. ومسلحة تسليحاً حديثاً.

إضافة إلى ذلك فقد شكل اليهود من سكان حيفا (وعددهم خمسة وسبعين ألفاً) ظهيراً قوياً للوحدات المقاتلة.

أما العرب فقد انضموا تحت لواء اللجنة القومية وأخذوا كالعادة يبحثون عن السلاح الذي حرموا منه طويلاً، شأنهم في ذلك شأن باقي سكان القرى والمدن الفلسطينية الأخرى، واشتروا بأموالهم بعض قطع السلاح، كما أمدتهم اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية، وكذلك الهيئة العربية العليا ببعض الأسلحة كان أغلبها غير صالح للاستعمال!

ولقد أجمع المؤرخون الذين رصدوا مراحل النكبة الفلسطينية على بطولة المجاهدين الفلسطينيين من أبناء حيفا وقراها المجاورة.. فلقد قاتلوا اليهود خمسة أشهر كاملة سبقت سقوط المدينة فقتلوا خلقاً كثيراً من أعدائهم، ونسفوا معامل التكرير التابعة لشركة بترول العراق البريطانية، ودافعوا عن أرضهم وعرضهم دفاع الصناديد. برغم أن عدد المناضلين الحقيقيين في حيفا لم يتجاوز في أي وقت من أوقات النضال أربعمائة مناضل، لكنهم أظهروا من آيات البطولة والفداء ما يستحق التقدير والإعجاب.

وكانت بطولة من شعبها أن يصمم على القتال، لا سيما حين أدرك أن اللجنة

العسكرية التابعة للجامعة بدمشق ليست في مستوى الأحداث وخطورتها، ولو انسحب منها شعبها لما ناله لوم التاريخ كما يقول المؤرخ العربي الليبي الشهيد صالح مسعود بويصير في كتابه «جهاد شعب فلسطين في نصف قرن».

وقد التجأ اليهود ـ كعادتهم ـ إلى الأعمال الإرهابية التي تستهدف ترويع المواطنين العرب وتخويفهم، فقاموا في إحدى ليالي شهر ديسمبر بدحرجة برميل طافح بالمتفجرات من أعلى حي «هدارا كارمل» الذي يقطنون فيه، إلى حي العباسية العربي الذي يقع أسفل الحي اليهودي مباشرة.. فأحدث انفجار البرميل آثاراً مادية ومعنوية سيئة لدى المواطنين العرب مما دفعهم إلى هجر منازلهم.

وانطلاقاً من هذا الحادث اتخذ واضعو مناهج التاريخ والتربية الوطنية في المدارس الصهيونية جزءاً من تاريخهم لحرب «التحرير والاستقلال» حيث ادعوا بأن «أبطالهم» كانوا يهاجمون سكان حيفا العرب ببراميل فارغة ظنوها طائرات فأُجبر العرب «الجبناء» على الرحيل!!

وفي السابع عشر من آذار عام ١٩٤٨ حدث تطور خطير في القتال الدائر على جبهة حيفا.. فقد كانت بعض السيارات العربية قادمة من لبنان وهي تحمل سلاحاً وذخائر للمجاهدين العرب.. وعندما مرت بالقرب من مستعمرة «موتسكين» اليهودية الواقعة بين عكا وحيفا، تصدى لها غلاة اليهود، واشتبك الطرفان في معركة حامية، وقد ثبت فيما بعد أن الإنجليز تواطأوا مع اليهود في هذه المعركة، وقدموا لهم معلومات ومساعدات مهمة كان لها أكبر الأثر في انتصار اليهود.

ويقول المؤرخ عارف العارف معلقاً على المعركة: لقد ساء الوضع في حيفا على أثر هذه المعركة، فسادت الفوضى، وكثرت أعمال السلب والنهب، واشترك البريطانيون في هذه الأعمال، وارتفعت أسعار المآكل، وأجور النقل إلى درجة لا تطاق، وغادر المدينة معظم أبنائها[1].

واشتدت وطأة القتال في الأيام الثلاثة الأخيرة التي سبقت انسحاب الإنجليز من المدينة، إذ زج اليهود عدداً كبيراً من مقاتليهم وراحوا يقتحمون المنازل ويفتكون بالسكان، ولم يحرك البريطانيون الذين كانوا مرابطين بالمدينة ساكناً تجاه هذه

---

(١) النكبة ـ بيروت ـ ١٩٥٦م.

المنكرات. ليس هذا فحسب بل إنهم راحوا يحصدون المناضلين الذين جاءوا من القرى المجاورة لنجدة إخوانهم في حيفا.

وقام بعض الشباب العرب بتدمير مصنع ذخائر كان اليهود يعدون فيه كل الألغام التي استطاعوا بواسطتها تدمير العديد من البنايات العربية الكبيرة.. وأبدى المجاهدون العرب ضروباً خارقة من الشجاعة والإقدام والثبات برغم قلة ما بأيديهم من سلاح وذخيرة، وعلى الرغم من تفوق خصومهم الحربي.

وبعد أن انسحب البريطانيون من منطقة الميناء، قام اليهود بهجوم صاعق على المنطقة العربية مهدوا له بضربها بالمدافع وقاذفات القنابل، وصد الإنجليز نجدة عربية قادمة من قرية الطيرة ومنعوها من الدخول إلا إذا تخلت عن أسلحتها.

وزُلزل الناس زلزالاً عنيفاً. وغُلبوا على أمرهم.. ونفد الجهد.. ونفذت إرادة الله تعالى، وسقطت حيفا في مستنقع الاحتلال الصليبي الجديد.

واستشهد من مجاهديها زهاء مائة وخمسين رجلاً، وجرح ٣٥٧، أما قتلى اليهود فكانوا ٣٦٣ نفراً، ومن ضمن الشهداء العرب البطل الأردني محمد الحمد الحنيطي قائد حامية حيفا، وأحمد الحاج مدير إدارة الجمعية الإسلامية، والملازم أول محمد فخر الدين أورخان ابن مفتي الأناضول آنذاك.

ويصف الأستاذ قسطنطين خمار المشاهد المأساوية للهزيمة فيقول: لقد هرع الذين بقوا على قيد الحياة إلى الميناء، ومعظمهم حفاة بثياب النوم، فركبوا الزوارق قاصدين عكا أو لبنان، وبلغ الزحام في هذه الزوارق أشده حتى انقلب بعضها وغرق، ومن الأمهات من نسيت صغارها وقد أوصدت باب منزلها دون أن تعي شيئاً لهول الموقف. وكان لكل عائلة قصة من هذا، ولكل فرد رواية، ولعلَّ أفظعها قصة تلك الأم الذاهلة التي نزلت المركب وهي تحمل لفافة حرصت عليها حرصاً شديداً وهي تظنها وليدها، فلما وصلت إلى ميناء عكا وأفاقت من هول الصدمة هالها أن ترى أن ما كانت تحمله لم يكن إلا وسادة فأغمي عليها فوراً.

وهكذا نجحت العصابات الصهيونية في تنفيذ خطة «المقص» التي استهدفت تمزيق الحي العربي ثلاثة أقسام توطئة لاحتلاله، وقام «المقص» الصهيوني بواجبه كاملاً. وسقطت حيفا في أيديهم يوم ١٩٤٨/٤/٢٣، أي قبل ٢٢ يوماً من الموعد الذي حددته بريطانيا عالمياً لانسحابها من فلسطين وهو يوم ١٩٤٨/٥/١٥!.

وعمد الصهيونيون فور سيطرتهم على المدينة إلى تحويل مساجدها لمخازن واسطبلات، ونزعوا شواهد القبور الرخامية ليستخدموها في عمليات البنـاء، وألقوا جثث الشهداء على أرصفة المدينة إشاعة للرعب في نفوس من بقي من العرب في حيفا وسواها من المدن والقرى المجاورة.

. . وهكذا وفي ساعات سوداء من أيام قاتمة في تاريـخ العرب وفلسـطين، فرغت المدينة أو كادت من ستين ألف عربي كانوا يشكلون نصف سكانها، ويمتلكون سبعين بالمائة من عقاراتها وإنشاءاتها.

وبعد سقوط حيفا بست سنوات أضاف تاريخ الجريمة البشرية إضافة جديدة للسجل الصهيوني الأسود رواها مكسيموس الخامس بطريرك الروم الكاثوليك، جاء فيها ما نصه: (ومن مظاهر الإرهاب اليهودي في حيفا أنه في يوم ١٦ من نيسان عام ١٩٥٤ كان الاحتفال بعيد الجمعة الحزينة، فـوجىء العرب بعـدد كبير من اليهـود يهاجمون المقابر في حيفا، لم يرعوا حرمة الموتى، واستهانوا بقدسية المكان، ونبشوا المقابر، وسلبوا ما دفن مع الموتى من «دبل» وتذكارات، وما دفنوا فيه من حـرائر وأكفان. . وحطموا الصلبان على القبور، وسرقوا نفائس التماثيل، والنصب الفضية أو الذهبية، يومها. . لم يملك مسيحيو إسرائيل سوى القيام بمظاهرات صامتة توجهت إلى القبور حيث تليت بصوت عال «مراثي أرميا» من التوراة، والمعروف أن أرميا النبي أنشد مراثيه بعد أن اضـطهده اليهـود المبعوث إليهم، وطلبـوا نفسه للمـوت ككل الأنبياء، وفيها يصب اللعنة عليهم)[1].

البهائيون في حيفا

وما دمنا بصدد الحديث عن القلادة المعلقة على صدر وطنناالفلسطيني سنعرج قليلاً للحديث عن الحركة البهائية التي تعتبر حيفا «القاعدة العالمية» لها حيث يوجد ضريح «مقام أعلى». . عبد البهاء عباس على منحدرات جبل الكرمل.

ففي نهاية القرن التاسع عشر ظهر مؤسس « الفرقة البابية» الإسلامية المتطرفة التي تدين بفكرة «المهدية» على يد الايراني ميرزا علي محمد (١٨١٩ ـ ١٨٥٠م). وقد اعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد اصطفاه لأداء رسالة مهمة، وأطلق على نفسه لقب

---

(١) جريدة الأهرام ـ ١٥/٤/١٩٦٨م.

(الباب) الذي يدخل الناس منه إلى معرفة الله جل جلاله، ثم تطور الوهم عند هذا الدعي فاعتقد أنه هو «المهدي المنتظر» وأن الله قد بعثه ليهدي البشرية إلى الحق المطلق!! ومن ترهات «الباب» قوله: «إن قبساً من الله حل في الأنبياء، كموسى، وعيسى، ومحمد، وأنه حل فيه أيضاً»!!

لقد حارب المسلمون الحقيقيون هذه الحركة الهدامة واعتبروها ارتداداً واضحاً على جوهر الدين الإسلامي الحنيف، وتم إعدام «الباب» في تبريز بايران، وقيل إن أنصاره نقلوا جثته خفية ودفنوها في المقبرة البهائية في حيفا، وبموته انتهى لقب «الباب» لتظهر بعدئذ «البهائية» نسبة للمدعو ميرزا حسين علي الذى ظهر في عام ١٨٦٣ ميلادية وادعى «النبوة» واتخذ لنفسه لقب «بهاء الدين» وعُرِف أتباعه بعدئذ بالبهائيين.

والبهائيون يؤمنون بالوحي الآلهي، ويؤدون صلواتهم في أماكن تشبه المساجد، ويتجهون فيها صوب عكا التي يحجون إليها أيضاً كل سنة حيث قبر ميرزا حسين علي!

إن فلسفة العمل عند البهائيين كمثلها عند الاسرائيليين: طبقة متميزة وغنية، وقد عاشت أجمل سنوات عمرها أيام حكم شاه إيران محمد رضا بهلوي، حيث كانت لها امتيازات خاصة، ومن ضمن أتباعها يومئذ رئيس الوزراء الايراني السابق عباس أمير هويدا، ويقال بأن الشاه نفسه كان أحد أقطابها! ويعتبر علماء العقيدة والمذاهب الدينية «البهائية» أحد صور الاختراق اليهودي داخل الإسلام، وهي مثل جماعة «شهود يهوه» داخل المسيحية، ويضيفون إلى ذلك مذهباً ثالثاً أكثر شيوعاً وانتشاراً وهو الماسونية التي انتشرت محافلها داخل البلدان العربية منذ نهاية القرن الماضي، وكان لها دور سياسي بارز في خدمة أهداف الحركة الصهيونية وإقامة دولة «اسرائيل» في فلسطين العربية المحتلة.

إن العلاقة قوية بين الاستعمار البريطاني والبهائية حتى قبل الانتداب البريطاني على فلسطين، ويذكر في هذا المقام ما قاله «أسلمنت» أحد دعاة البهائية: «لقد كان الابتهاج (لدينا) في حيفا عظيماً عندما استولت القوات البريطانية والهندية عليها بعد قتال دام ٢٤ ساعة في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٨...

وقالت مكاتيب عبد البهاء «اللّهم أيد الامبراطور الأعظم جورج الخامس عاهل

إنجلترا بتوفيقاتك الرحمانية، وأَدِمْ ظلها الظليل على هذا الإقليم».

وإذا كان تاريخ البهائية يؤكد على تبعيتها للاستعمار الإنجليزي كإحدى الفرق الدينية الإسلامية المنحرفة التي عملت على خدمته في السابق، فإن أتباعها ومنذ إنشاء إسرائيل يمثلون الشبكة الخفية التي تنفذ المخططات الصهيونية داخل البلاد العربية، وعملت إسرائيل أيضاً منذ قيامها على احتضانهم ومنحهم كافة الحريات والمساعدات.

والجدير بالذكر أن الزعيم الراحل جمال عبد الناصر كان قد أصدر قراراً بقانون في عام ١٩٦٠ بحظر نشاط المحافل البهائية في مصر، ومصادرة جميع أملاكها ووقف نشاطها.

وفي عام ١٩٦٥ أصدر قرارين بمنع نشاط الماسونية وأندية الليونز، وتجميد نشاط أندية الروتاري. كما أصدر الأزهر الشريف فتوى جاء فيها أن مذهب البهائية باطل وليس من الإسلام في شيء، ومن يعتنقه من المسلمين يكون مرتداً خارجاً عن دين الإسلام.

هذا.. وفي شهر أبريل «نيسان» من عام ١٩٨٦، أصدر مجلس المجمع الفقهي الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي قراراً حول حكم البهائية والانتماء إليها، وقد نص القرار على خروج البهائية والبابية عن شريعة الإسلام واعتبارهما حرباً عليه، وتكفير أتباعهما كفراً بواحاً سافراً لا تأويل فيه.

وقد اعتمد المجلس في قراره على الحقائق الدامغة التالية:

١ـ إن البهائية دين جديد مخترع قام على أساس البابية التي هي أيضاً دين جديد مخترع ابتدعه المسمى باسم (علي محمد) المولود في أول المحرم ١٢٣٥هـ من تشرين الأول أكتوبر ١٨١٩م في مدينة شيراز، وقد اتجه في أول أمره اتجاهاً صوفياً فلسفياً على طريقة الشيخية التي ابتدعها شيخه الضال كاظم الرشتي خليفة المدعو أحمد زين الدين الاحسائي زعيم طريقة الشيخية الذي زعم أن جسمه كجسم الملائكة نوراني، وانتحل سفسطات وخرافات أخرى باطلة.

وقد قال علي محمد بقولة شيخه هذه، ثم انقطع عنه، وبعد فترة ظهر للناس بمظهر جديد أنه هو علي بن أبي طالب الذي يروى فيه عن الرسول ﷺ أنه قال (أنا مدينة العلم وعلي بابها) ومن ثم سمي نفسه «الباب»، ثم ادعى أنه الباب للمهدي

المنتظر، ثم قال إنه (المهدي نفسه) ثم في أخريات أيامه ادعى الألوهية وسمى نفسه الأعلى فلما نشأ ميرزا حسين علي المازندراني (المسمى بالبهاء) المذكور وهو معاصر للباب أتبع الباب في دعوته، وبعد أن حوكم وقتل لكفره وفتنته أعلن ميرزا حسين علي أنه موصى له في الباب برئاسة البابين. وهكذا صار رئيساً عليهم وسمى نفسه (بهاء الدين).

ثم تطورت به الحال حتى أعلن (أن جميع الديانات جاءت مقدمات لظهوره وأنها ناقصة لا يكملها إلا دينه، إنه هو المتصف بصفات الله، وهو مصدر أفعال الله وإن اسم الله الأعظم هو اسم له، وإنه هو المعني برب العالمين، وكما نسخ الإسلام الأديان التي سبقته تنسخ البهائية الإسلام).

وقام الباب وأتباعه بتأويلات لآيات القرآن العظيم غاية في الغرابة والباطنية بتنزيلها على ما يوافق دعوته الخبيثة. وإن له السلطة في تغيير أحكام الشرائع الإلهية وأتى بعبادات مبتدعة يعبده بها أتباعه.

وقد تبين للمجمع الفقهي بشهادة النصوص الثابتة عن عقيدة البهائيين التهديمية للإسلام، ولا سيما قيامها على أساس الوثنية البشرية في دعوى ألوهية البهائية وسلطته في تغيير شريعة الإسلام، يقرر المجمع الفقهي بإجماع الآراء خروج البهائية والبابية عن شريعة الإسلام واعتبارهما حرباً عليه، وكفر أتباعهما كفراً بواحاً سافراً لا تأويل فيه.

هذا. . ويمثل الرقم (١٩) لغزاً في تكوين البهائية، فالسنة عندهم تنقسم إلى ١٩ شهراً، والشهر لديهم ١٩ يوماً، ويخرج البهائي من ماله مبلغ ١٩ بالمائة من صافي ربحه لبيت العدل في حيفا لتوزيعه على المحافل الدولية. وفي يوم ١٩ من يونيه عام ١٩٨٧ أعلن متحدث باسم الحركة البهائية العالمية أن حكومة إسرائيل هي المركز الروحي للعقيدة البهائية، وقال المتحدث أن حكومة تل أبيب اعفت الحركة البهائية من جميع الضرائب على مشروعاتها[1].

وتقول دائرة المعارف الإسلامية عن الحركة البهائية: «إن قبور مؤسسي المذهب» مجتمعة في القاعدة العالمية للمذهب قرب جبل الكرمل، ويقوم قبر بهاء الله في «البهجة»، وتثوي عظام الباب وعبد البهاء في الضريح الكبير المعروف باسم

---

(١) مجلة فلسطين الثورة بتاريخ ١٩٨٥/١٢/٧م.

«مقام أعلى» على منحدرات جبل الكرمل، وتعد البهائية أيضاً من الأماكن المقدسة حديقة «رضوان» قرب بغداد.

حيفا . . رئة الثقافة والأدب

لقد أخذت حيفا مكانها الريادي في الحركة الثقافية في فلسطين. وفي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٠٨ ـ ١٩٤٨ شهدت حيفا ميلاد عدد كبير من الجرائد والمجلات التي كانت تصدر في الديار الفلسطينية قبيل الفاجعة الأولى، وكانت حيفا في مطلع القرن الحالي ـ وحتى سقوطها ـ مركزاً ثقافياً مرموقاً، ومنذ أواخر العهد العثماني والطباعة متقدمة فيها، إذ اشتملت المدينة على المطابع التي كانت تقوم بنشر الصحف والمجلات والكتب، وكان بها عديد من المكتبات العامة والمتاحف والمسارح وقامت فيها الندوات والمحاضرات والمعارض المختلفة.

كذلك بدأ التعليم فيها مبكراً، فقد تأسست أول مدرسة في صيف عام ١٨٧٦، وكان بها عدة مدارس تبشيرية ألمانية، وفرنسية، وإنجليزية، وروسية.

وكل هذا أدى في النهاية إلى وجود جيل مثقف، خصوصاً وإن بعض أعلام الأدب والثقافة الفلسطينية والعربية سكنت فيها ومارست أنشطتها الثقافية من خلال نواديها المختلفة. فالشاعر الكبير عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) كان يتولى رئاسة اللجنة الثقافية في أحد أندية حيفا، وعمل جنباً إلى جنب مع محامي الأرض حنا نقارة. وحط الرحال في حيفا عدد من شعراء الوطن العربي في ذلك الحين أمثال عمر أبو ريشة، وإبراهيم ناجي.

وكانت حيفا في ذلك الحين محطة «على كل شاعر عربي يريد معرفة الناس والوصول إليهم أن يمر فيها!».

كما شهدت حيفا ـ خلال عهد الانتداب البريطاني ـ انعقاد عدة مؤتمرات وطنية فيها مثل: المؤتمر الفلسطيني عام ١٩٢٠ الذى نادى بالوحدة العربية وتوحيد فلسطين مع شقيقاتها، كما أكد على وحدة البلاد الشامية ومنها فلسطين، وضرورة التصدي للتغلغل الصهيوني، وتأسيس حكومة وطنية مسؤولة أمام برلمان ينتخبه أهل فلسطين.

كما شهدت أيضاً انعقاد المؤتمر العربي الأرثوذكسي الأول عام ١٩٣٣، ومؤتمر الشباب العربي الفلسطيني الثاني عام ١٩٣٥. ولا يفوتنا أن نذكر أيضاً بأن البطل

الشيخ عز الدين القسام أقام خلايا حركته النضالية في حيفا، واستند فيها ـ بالدرجة الأولى ـ على أبناء لواء حيفا.

قضاء حيفا

كان قضاء حيفا في نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين يضم ٥٢ قرية عربية، وما يقرب من ستين مستعمرة يهودية، سبع منها فقط أُسِّسَت في العهد العثماني والبقية في عهد الحكم البريطاني.

كما كان في هذا القضاء ما لا يقل عن (١٨) قبيلة من الأعراب منها قبائل: التركمان، الزبيدات، السواعيد، الخوالد، الزوايده، العلاقمة، المنسي، العوادين، وغيرهم.

أما القرى العربية فقد دمر الأعداء أغلبيتها العظمى باستثناء تسع منها هي: شفا عمرو، اعبلِّين، أبطن، عارة، كفر قرع، عرعرة، عسفيا، اجزم، دالية الكرمل.

كان عدد اليهود في هذا القضاء أيام الحكم العثماني لا يزيد عن ٣,٥ بالمائة من مجموع السكان، ثم أضحوا في أواخر العهد البريطاني ٤٦,٥ بالمائة.

وتشير الاحصاءات إلى أن عدد سكان حيفا الاجمالي في نهاية سنة ١٩٤٩ بلغ ١٢٠,٧٠٠ نسمة منهم ١١٥,٠٠٠ يهودي.

وقد دأبت السلطات الإسرائيلية منذ احتلال حيفا وتهجير سكانها العرب على تحويلها إلى المدينة رقم (٣) والميناء رقم (١)، فحولت أعداداً كبيرة من المهاجرين اليهود إلى حيفا، وبناء على ذلك ازداد عدد سكان المدينة بصورة سريعة فوصل في عام ١٩٨٢ إلى ٢٢٦,٠٠٠ نسمة.

وأصبحت حيفا المنطقة الصناعية الأولى كما أراد لها محتلوها.. ومن الصناعات التي أقيمت فيها: الصناعة المعدنية الثقيلة والصناعات البتروكيميائية والكيميائية، وصناعات الأغذية والزجاج والزيوت والأسمنت والسماد، إضافة إلى مصانع تكرير النفط، ومجمعات للصناعات العسكرية، ومجمع للصناعات التكنولوجية المتطورة، هذا إضافة إلى مئات الورش والمصانع الصغيرة.

وتعد مدينة الصلب أهم مرافق المنطقة الصناعية، ففيها مصنع للطائرات ومصنعان للسيارات، ومع تحويل حيفا إلى المركز الصناعي الأول كان لا بد من تطوير الميناء حيث أضيفت إليه أرصفة للمسافرين والشحن والتفريغ، وأقيمت مخازن الحبوب «داغون» ومخازن للمواد الكيماوية، وأنشئت رافعات ضخمة إحداها عائمة وذات قدرة على تحميل ٢٥ طناً، كما يوجد أحواض لبناء وتصليح السفن التجارية.

وحركة العمل في الميناء بشكل عام تعادل نحو ٦٠ بالمائة من مجموع حركة العمل في الموانىء الفلسطينية الحالية الثلاثة: حيفا واشدود وإيلات، ويعتبر ميناء حيفا مركزاً للأسطول الحربي اليهودي وبه ترسانة ضخمة لبناء السفن الحربية.

ومن المعاهد العلمية الشهيرة في حيفا «معهد الهندسة التطبيقية» التخنيون، وقد تم افتتاحه في عام ١٩٢٥، ويشمل على حوالي ٢٥ كلية وقسم بدءاً بالهندسة المعمارية ووصولاً إلى الهندسة النووية مروراً بالهندسة الطبية، وفي المعهد كذلك أقسام للبحث العلمي في كافة المجالات، ويشرف المعهد على كلية للطب. كما يشرف على مدرسة صناعية هندسية تخرج مئات الطلاب المرشحين لدخول كليات وأقسام المعهد.

وفي الفترة الأخيرة ألحقت بالمعهد عدة دوائر مثل دائرة علم الميكروبات والجراثيم العامة، ويقع المعهد على سفح جبل الكرمل، ويزيد عدد طلابه عن ١٤,٠٠٠ طالب وطالبة.

كما يوجد بحيفا المعهد البيلوجي، ومختبر الاشعاع الشمسي، ومختبر المائيات، ومختبر تسوية المناخات.

وفي عام ١٩٦٤ تأسست «جامعة حيفا» وتضم الكثير من الأقسام العلمية والنظرية وبها مكتبة ضخمة تحتوي على ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ مجلد، وقد بلغ عدد طلابها في العام الدراسي ٨٥/٨٦ حوالي ستة آلاف طالب وطالبة بينهم أكثر من (١١٠٠) طالب عربي[١].

وتقوم الجامعة ومنشآتها على قمة جبل الكرمل، ومن أهم المعالم الرئيسة في حيفا: عمارة داجون وهي أعلى عمارة في فلسطين المحتلة، غابة حيفا، مسرح

(١) المرجع السابق.

البلدية، محطة مراقبة الاشعاعات النووية، الكنيس الرئيسي، دائرة الهجرة اليهودية، الاستاد الرياضي، محطة الحافلات الرئيسة.

ولم تنس السلطات الاسرائيلية وهي تخطط لغزو افريقية ثقافياً - أن تنشىء في حيفا عام ١٩٦٢م «مركز جبل الكرمل للتدريب على الخدمات الاجتماعية» وهو مخصص لتدريبات النساء الافريقيات فقط، ومعنيٌّ بتنمية المهارات والحرف وزرع الأفكار في أذهان الطالبات بما يخدم أهداف العدو في تلك البلاد.

وهذا الواقع يذكرنا بالأهداف التي يضطلع بها «المعهد الافريقي الآسيوي للدراسات العمالية والتعاون» في تل أبيب الذي بدأ نشاطه عام ١٩٦٠ ويهدف إلى تقديم برامج تدريب شاملة للقادة النقابيين في افريقية، وتنشئتهم سياسياً وثقافياً حسب المواصفات الإسرائيلية. وقد تخرج من هذا المعهد بضعة وعشرون ألف خريج ينتسبون لبضعة وثلاثين دولة افريقية وما زال جسر العطاء ممتداً!

الحركة السياحية في حيفا

تحاول وزارة السياحة الإسرائيلية أن تجعل من حيفا نقطة إنطلاق للرحلات السياحية إلى مدن وقرى الجليل. وتركز الدعاية السياحية على الجمال الطبيعي للمدينة، ووجود الميناء نفسه في مقدمة الأسباب التي تساهم في زيادة السياحة في المدينة حيث تتوقف معظم ناقلات الركاب في هذا المرفأ الحيوي.

ومن أهم الأماكن التي يُدْعى السياح لزيارتها بالمدينة هي: بناية «داغون» لطحن القمح وترتفع ٦٠ متراً وهي - كما أسلفنا - أعلى بناية في وطننا المغتصب.

ومن أكثر الآثار جذباً للسياح «قبة عباس» وهو معبد الطائفة البهائية وبني عام ١٩٣٥ على سفح جبل الكرمل، وتكلله قبة ذهبية وتحيطه مئات الدونمات من البساتين والحدائق المميزة بتناسقها وكثرة التماثيل النحاسية والرخامية فيها. وقد أضيف إلى هذا المعبد بناء آخر شيد عام ١٩٨٤ وهو آية من حيث الشكل والفن المعماري ومواد البناء المستخدمة، وقد أسهم في تصميمه عدد من كبار المهندسين المعماريين في العالم[١].

---

(١) المرجع السابق.

وفي حيفا أيضاً عدد من الأديرة والكنائس القديمة ومنها كنيسة «مار الياس» التي اقتطعت منها السلطات الاسرائيلية جزءاً وحولته إلى قاعدة عسكرية، ويوجد في حيفا عدد من المتاحف منها: متحف الفنون القديمة، متحف الفن الحديث، المتحف الموسيقي، متحف التراث الشعبي (وبه أركان خاصة بالتراث الشعبي الفلسطيني وتدعي سلطات العدو بأنه تراث الشعب اليهودي!)، والمتحف البحري القومي، ومتحف الفن الياباني، ومتحف الطبيعة وما قبل التاريخ.

ويوجد بالمدينة أكثر من سبعين فندقاً مختلفة الدرجات، وبعض بيوت الشبيبة، وعدد كبير من المطاعم بعضها له صبغة شرقية ويقدم المأكولات العربية مثل اللحم المشوي والفلافل والفول والحمص، والمتبل، وتدعي الكتيبات السياحية الصهيونية أن هذه المأكولات هي أطعمة اسرائيلية خاصة[1]!

العرب الفلسطينيون في حيفا[2]

تشير الإحصاءات إلى أن عدد العرب الفلسطينيين الذين ظلوا في حيفا بعد ٣٠ حزيران (يونيه) ١٩٤٨ بلغ نحو ٣ آلاف، بينما يذكر أناس ممن عاشوا أحداث ذلك اليوم أن عدد الفلسطينيين الذين ظلوا في حيفا بلغ خمسة آلاف.

ومهما يكن من أمر فإن عدد السكان العرب في حيفا (آخر سنة ١٩٨٥) ـ حسب الإحصاءات المتوافرة لدى بلديتها ـ يبلغ نحو ١٧,٢٠٠ نسمة، ويعيش هؤلاء في أربع أحياء هي: وادي النسناس ـ حي عباس ـ حي الحليصة ـ وحي الكبابير على قمة الكرمل (وفي هذا الحي يوجد مقر لطائفة القاديانية).

أما بالنسبة لعلاقات الناس، عرباً ويهوداً فتتسم بالهدوء: إلا أنها ليست كذلك بين الجماهير العربية والبلدية أو الدوائر الرسمية الأخرى، فالعرب يعيشون في أحيائها القديمة، وهذه الأحياء، عادة تبقى خارج اهتمامات البلدية، وخارج إطار خدماتها، خصوصاً بما يتعلق بالبيوت القديمة المتداعية.

ومن المشاكل التي تعيشها جماهير حيفا العربية مشكلة السكن، فالأحياء

---

(١) اسرائيل والسياحة ـ مرجع سابق.

(٢) نظراً لأهمية هذا الجانب، وبسبب عدم توافر مراجع حديثة، فقد تم اقتباس هذا النص من موضوع للسيد مرزوق حلبي نشر بمجلة «فلسطين الثورة» بتاريخ ٧ ـ ١٢ ـ ١٩٨٥م.

العربية مكتظة بالسكان، والشركة البلدية المسؤولة عن قضايا البناء والإسكان لا تسمح لأصحاب البيوت بتوسيعها أو ترميمها، وبالمقابل لا توفر لهم سكناً بديلاً بأسعار شعبية مريحة بينما توفر ذلك لسكان المدينة من اليهود! وكثيراً ما غُرِّم أصحاب البيوت من العرب لأنهم أقاموا غرفة جديدة أو هدمت البلدية ما أضافوه!

وتقول «جوجاكوهين» بعد أن بينت بأن ٤٤ بالمائة من مساكن وادي النسناس غير صالحة، وأن عشرة بالمائة منها خطيرة على ساكنيها ويجب هدمها. تقول عن سكانه: «إن الأزمة تتفاقم عندهم يوماً بعد يوم وتعشعش في نفوسهم المرارة والإحباط».

نواديها الثقافية

للجماهير العربية في حيفا تراثها الثقافي قبل العام ١٩٤٨، فعلى غرار الندوات والأمسيات الشعرية والأدبية التي شهدتها حيفا مع «زيتونة فلسطين» عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وإبراهيم طوقان وفدوى طوقان وحافظ إبراهيم «ومحامي الأرض والشعب» حنا نقارة، شهدت حيفا بعد العام ١٩٤٨ ندوات شعرية وأدبية وثقافية شارك فيها عدد كبير من الشعراء والأدباء ورجال الفكر العرب في فلسطين، أمثال توفيق زياد، ومحمود درويش، وسميح القاسم، وعصام العباسي، والدكتور الراحل اميل توما، والكاتب اميل حبيبي، وسالم جبران وغيرهم من شعراء وكتاب ما يزالون يشغلون العالم العربي بكتاباتهم ونتاجهم: ففي حيفا ثلاث نواد سياسية ثقافية يرتادها سكان حيفا العرب وهي نادي «الأخوة» ونادي «المؤتمر» ونادي «درج الموارنة» وتشهد هذه النوادي نشاطات ثقافية تربوية سياسية أدبية نشطة.

ويشار هنا إلى التعاون الوثيق بين هذه النوادي والمشرفين عليها، وبين العناصر الخيرة والإنسانية من المثقفين اليهود التقدميين والليبراليين.

ويبرز هذه الأيام، التعاون الوثيق بين الفنانين العرب في حيفا وزملائهم من اليهود، وذلك في إطار «رابطة الفنانين» في المدينة. وقد أقيمت بمبادرة الرابطة عدة معارض ونشاطات مشتركة، والأمر ذاته ينسحب على الفن المسرحي في المدينة حيث يعمل في المسرح البلدي مجموعة من الفنانين العرب الذين يعتبرون وبحق من أفضل الممثلين في البلاد.

وللجماهير العربية في حيفا ممثلاً في المجلس البلدي عن «الجبهة الديمقراطية

للسلام والمساواة» وهي جبهة من العرب واليهود التقدميين، ويدأب ممثل هذه الجبهة على إثارة مشاكل الجماهير العربية في المدينة في جلسات البلدية والهيئات المنبثقة عنها ويعمل على إثارة القضايا الملحة في الدوائر الحكومية المسؤولة.

ويمثل العمال العرب في المدينة مندوبون من «الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة» وهؤلاء يثيرون قضايا العمال العرب بمثابرة ويعملون على حل المشاكل النقابية التي تواجههم.

وتشارك جماهير حيفا العربية في الحياة والنشاط السياسيين في المدينة. وتعقد الاجتماعات الشعبية الاحتفالية والاحتجاجية في المناسبات المختلفة، خاصة تلك المتعلقة بقضية الشعب العربي الفلسطيني. كما تنشط جماهير حيفا العربية في النضال ضد العنصرية. وفي صد الفاشية المتجسدة في محاولة العنصري المأفون مئير كهانا في إثارة العداء بين جماهير حيفااليهودية والعربية. وقد شارك عرب حيفا عدة مرات، إلى جانب الإنسانيين من اليهود، في صد هذا العنصري وطرده من حيفا دون أن يستطيع إسماع تحريضه العنصري على العرب لكونهم عرباً.

أوقافها

لم يكن نصيب ممتلكات الأوقاف الإسلامية في حيفا يختلف عنه في باقي المدن والقرى الفسطينية بعد العام ١٩٤٨. وكانت عقارات الوقف وممتلكاته تمتد على مساحات واسعة في حيفا التحتا، امتداداً من «حي الحليصة» في الشرق.. وحتى «حي الألمانية» في الغرب. وقد اعتبرت السلطات الاسرائيلية ممتلكات الوقف، بما فيها المساجد والمقابر والعقارات والأراضي «أموالاً متروكة» يسري عليها «قانون الغائبين» الذي شرعه الكنيست الاسرائيلي في العام ١٩٥٠ وعدلته في العام ١٩٦٥ مضيفة إليه «قانون لجان الأمناء». وهي لجان عينتها السلطات الاسرائيلية لتمرير مؤامرات بيع وشراء ممتلكات الأوقاف. وإصدار فتاوى تعتمدها السلطات «كوشان» لهدم المقابر والمقدسات وإقامة المشاريع التجارية عليها كما حدث في حيفا.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) العام ١٩٧٧ دمرت البلدوزرات الإسرائيلية المسجد الصغير في حيفا وأعلنت، فيما بعد، انه أنهار قضاء وقدراً!

ولم تتوقف مسيرة الهدم عند هذا الحد: ففي أحد أيام السبت من شهر تموز

(يوليو) من العام ١٩٧٨ . جرفت الجرافات الإسرائيلية مقبرة القائد الوطني الشهيد عز الـدين القسام. وادعت أن «عنـاصر مجهـولة الهـوية» قـامت بحرث المقبـرة وأنها (السلطات الإسرائيلية) تحقق في الموضوع لمعرفة هوية «الجناة»!.

وفي يوم السبت ١٩٨١/٦/٦، كانت البلدوزرات الإسرائيلية تنطح شواهـد مقبرة «الاستقلال» في حيفا وتنبش القبور مبعثرة عظام الآباء والأجداد وجماجمهم في كل ناحية، وقد ادعت السلطات الإسرائيلية إنها توصلت إلى اتفاق مع «لجنة الأمناء» (الأمناء على الوقف الإسـلامي الذين تعينهم هي لتمـرير مخـططات السيطرة على ممتلكات الوقف ومحو المعالم العـربية من فلسـطين) لنقل القبـور إلى موقـع آخر واستخدام أرض المقبرة لإقامة مشروع سكني من شأنه أن يحل ضائقة المـواطنين المسلمين السكنية: إلا أن جرافاتها نبشت القبور غير معترفة بما تم في «اتفاق». وفي اليوم التالي ـ الأحد ١٩٨١/٦/٧ ـ واصلت البلدوزرات الإسرائيلية مهمتها وواصل مسلمو حيفا وعربها اتصالاتهم لمنع استكمال المخطط الدنس.

وفي يوم الاثنين ١٩٨١/٦/٨، كانت البلدوزرات قد أنجزت مهمتها فنبشت ٣ آلاف قبر خلال ثلاثة أيام وأزاحت السلطات يافطة كان علقها عرب حيفا من مسيحيين ومسلمين على سور المقبرة التي قاموا بتنظيفها وترتيب ما تهدم من شواهد القبور فيها وعلقت بدلها يافطة تقول:

«أملاك وزارة الإسكان».
دولة «اسرائيل».
كل من يدخل يُعاقب بموجب القانون.

وبعد سبع سنوات ونيف على هدم المقبرة وإزالتها، والسلطات الإسرائيلية لم تبن شقة سكنية واحدة «لحل أزمة مسلمي حيفا السكنية» بل وذكرت احدى الصحف المحلية، مؤخراً، إن المسؤولين يفكرون بإقـامة مـركز تجـاري على أرض المقبرة المهدمة، ولا نعرف أين تتوقف المؤامرة!

وثيقة شفا عمرو

تعتبر قرية شفا عمرو أهم القرى العربية التسع التابعة لقضاء حيفا.

وشهدت هذه البؤرة الوطنية اجتماعاً تاريخياً فيها، يوم السادس من حزيـران

(يونية) عام ١٩٨٠ حيث اجتمع ١٥٠ ممثلاً عن الأقلية العربية التي تقيم في الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨.

وأسفر ذلك الاجتماع عن توقيع الشخصيات الفلسطينية التي حضرته وشاركت فيه على «وثيقة شفا عمرو» التاريخية.

وجاءت هذه الوثيقة لتظهر إنبعاث الشخصية الفلسطينية ولتؤكد صدق انتمائها القومي، ورفضها المطلق لنظرية «الذوبان» في المجتمع الصهيوني.

ودعت الوثيقة في جملة ما دعت إليه إلى تشديد النضال ضد السلطات الصهيونية التي تحاول اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه ووطنه. ونددت الوثيقة بالممارسات والإجراءات العنصرية والفاشية المعادية للديمقراطية، الأمر الذي يهدد مستقبل أكثر من نصف مليون فلسطيني عربي جماعات وأفراداً بأخطار جديدة وقالت الوثيقة: «... اننا نشجب العودة إلى إجراءات الطوارىء الانتدابية (الإقامة الجبرية والمنزلية وتحديد حرية التنقل) وطرد عشرات الطلاب الجامعيين العرب من الجامعات، وفرض الإقامة الجبرية على قادتهم إضافة إلى العمل بقوانين عنصرية معادية للديمقراطية بصورة مكشوفة».

ونصت الوثيقة أيضاً على أن العرب هم أصحاب فلسطين وليس لهم وطن آخر، كما أن فكرة الحكم الذاتي أو المكائد الأخرى التي تنظم من أجل محو الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني لن تحل مشكلة هذا الشعب، وإنما يجب إقامة دولة فلسطينية حرة ومستقلة.

وانتقد المجتمعون الإستيطان اليهودي في الأراضي المحتلة، كما انتقدوا وصف بيجن لمنظمة التحرير بأنها «منظمة إرهابية» واعتبروها حركة تحرر وطنية حصلت على اعتراف عالمي، وطالبوا باشراكها في محادثات السلام. ونصت هذه الوثيقة على أن عرب اسرائيل هم جزء من الشعب الفلسطيني وممثلهم الوحيد هو منظمة التحرير الفلسطينية، هذا وكان بين الحاضرين ثلاثة أعضاء في الكنيست هم السيدان توفيق طوبي وحنا نويص عن «الحركة الديمقراطية من أجل السلام» كذلك السيد حماد أبو ربيع الذي انتقد تصرفات السلطات الإسرائيلية في النقب والتي تهدف إلى طرد البدو والاستيلاء على أراضيهم، وكذلك إقامة مطارات عسكرية اسرائيلية بدل المطارات التي فقدتها في سيناء.

وبمناسبة الحديث عن قضاء حيفا لفت انتباهي خبر نشر في صدر كتاب «أشقاء الدم» الذي صدر في فلسطين المحتلة لأحد أبناء قرية عبلين وهو القس الكاثوليكي الفلسطيني إلياس شاركور الذي تخرج من الجامعة العبرية بالقدس ويتحدث إحدى عشرة لغة ومسؤول عن قرية عبلين التي يقطنها ٦,٠٠٠ نسمة وتقع بين حيفا والناصرة.

قال في كتابه متحدياً أعداء أمته: نريد أن نثبت للجميع بأنه لو أتيحت الامكانيات لنا نحن الفلسطينيين لصنعنا المعجزات ولظهرنا بمستوى ذكاء يضاهي اليهود». وأردف قائلاً: «إن أحد أهدافنا هو أن نعتبر مواطنين نتمتع بحق المواطنة كاملاً وليس مواطنين من الدرجة الثانية على نحو ما هو وارد في جوازات سفرنا».

وقال في شجاعة وتمرد: «إنني أحمل نفس جواز السفر الذي يحمله شيمون بيريز والفارق أن رقم هويته يبدأ برقم واحد، بينما يبدأ رقم الفلسطينيين برقم (٢)» وأوضح في جزء آخر من الكتاب بأن عدد المسيحيين الذين يقيمون في «اسرائيل» يبلغ ١٢,٠٠٠ مسيحي من بين فلسطينيي عام ١٩٤٨ البالغ عددهم ٧٠٠,٠٠٠ نسمة.

غير أنني اطلعت على تقرير لمؤسسة الضمان الاجتماعي في جنيف ونشرته إحدى الصحف الصهيونية جاء فيه أن عدد فلسطينيي عام ١٩٤٨ بلغ ٦٠٨ آلاف نسمة، وذكر التقرير أيضاً بأنه يعيش في الضفة الغربية اليوم ٨٩٤ ألف فلسطيني، وفي قطاع غزة حوالي ٥٣٦ ألفاً، وقال التقرير إن عدد الفلسطينيين داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ازداد بنسبة ثلاثة أضعاف منذ عام ١٩٤٨. وبلغ معدل التزايد الطبيعي السنوي بينهم ٣,٦ بالمائة، في حين أن معدل التزايد الطبيعي السنوي في قطاع غزة ١,٧ بالمائة، وفي الضفة الغربية لا يزيد عن ٦ بالمائة.

أما بالنسبة للعدد الإجمالي للفلسطينيين في أنحاء العالم فقد بلغ في نهاية عام ١٩٨٥ ٤,٩٠٠,٠٠٠ نسمة وإن ٤٠ بالمئة منهم (٢ مليون) يعيشون الآن تحت نير الاحتلال الصهيوني.

شخصيات بارزة من قضاء حيفا

زخرت حيفا وقضاها بالعديد من الشخصيات الفلسطينية البارزة التي ساهمت بطريقة أو بأخرى في النهضة والتقدم والانطلاق.

وأكرر هنا ـ ما سبق أن قلته ـ في مواقع مختلفة من هذا الكتاب بأن الشخصيات التي سأوردها ليست هي بالقطع كل الشخصيات التي نبتت في هذا القضاء الكريم، ولكن هذا ما استطعت الوصول إليه وهو جهد المقل، وأرحب بكل إضافة جديدة لسجل الخالدين.

الشيخ يوسف إسماعيل النبهاني (١٨٤٩ ـ ١٩٣٢)، الدكتور وديع نصر (١٨٩٣ ـ . . .)، المحامي ديمتري حبايب (١٩٠٧ ؛ . . .) الدكتور شفيق نصر حداد (١٩١٠ ـ . . .)، يوسف إبراهيم صهيون (١٩٠٦ ـ . . .)، الشيخ الشهيد عطية أحمد عوض (. . . ـ ١٩٣٨)، الأديب نقولا الدر (١٩٠٩ ـ ١٩٦٧)، المناضل رشيد الحاج إبراهيم (١٨٩٩ ـ ١٩٥٣)، الأديب سعيد الصباغ (١٩٠٠ ـ ١٩٦٧)، القاضي الشيخ محمد هاشم الخطيب (ـ ١٩٥٨)، المجاهد المؤرخ صبحي ياسين (١٩٢٠ ـ ١٩٦٨)، المناضل معين الماضي (. . . ـ ١٩٥٧) الدكتور الأديب أميل توما (١٩١٩ ـ ١٩٨٥)، المناضل العقيد رشيد جربوع (١٩٢٥ ـ ١٩٧٨)، الشهيد الدكتور صالح عبد الله سرية (١٩٣٦ ـ ١٩٧٦)، الشهيد المقدم رفيق سليم درباني (١٩٣٤ ـ ١٩٨٥)، الشهيد محمد محمود الأسود (١٩٤٣ ـ ١٩٧٣)، الشهيد محمد محمود صالح (١٩٤٦ ـ ١٩٧٠)، القائد طلعت يعقوب أمين عام جبهة التحرير الفلسطينية (١٩٤٥ ـ ١٩٨٨). المحامي يوسف ابراهيم صهيون (١٩٠٦ ـ)، الشهيد عز الدين القلق (١٩٣٦ ـ ١٩٧٨)، السياسي خالد نعيم الجراح (١٩٣٧ ـ ١٩٨٨). المقدم الشهيد علي سعيد أبو طوق (١٩٥٠ ـ ١٩٨٧)

الشاعر الشعبي الشهيد نوح إبراهيم (١٩١٠ ـ ١٩٣٨)، الشهيد أحمد محمد الأطرش (١٩٣٨ ـ ١٩٦٧)، المناضل منصور قرطام (١٩٢٢ ـ ١٩٧٣)، الشيخ محمد مراد (١٨٧٥ ـ ١٩٢٩)، الشيخ تقي الدين النبهاني مؤسس حزب التحرير الإسلامي (١٩٠٩ ـ ١٩٧٩).

* * *

أثناء عودتنا إلى خان يونس أخذت أردد بلوعة وأسى مع حسن البحيري شاعر حيفا وابنها المتيّم قوله:

حيفا . . وأنتِ مزاجُ الروح في رَمَقي ... وعُمْقُ جُرح الهوى في مَوْجعي الخفقِ

والضحك تمسحه الأيام عن شفتي ... والليل تطرحه الآلام في طرقي

عينـــايَ أنتِ. . وأنتِ العمـر أجمعُــه   وأنت عــرس المنى في مـأملي الألق
وأنتِ طلعـــةُ فجـري نَــوّرْتِ سبـلي   وأنت غيبــة شمسي ألْـهبـت غسـقي
يشـــدني لـك شـــوقٌ لـو غمستُ لــه   يـراعَ شعري في صـوب الحَيَا الغَـدقِ
ورحت بـــالحب والـذكـرى أصـــوِّره   دمعاً على الخدِّ. . . أو حرفاً على الورق
لجفّ حـبــري ولم أبـلغ قــراءة مــا   ضمّت جوانح صدري من لظى حرقي



عكا... مدينة تغازل الزمن

عندما هممت بزيارة عكا، نقلت رغبتي إلى أحد أبناء عمومتي من المقيمين في فلسطيننا المحتلة والذي يحمل الهوية الإسرائيلية. فقال معلقاً: كنت على يقين بأنك ستبدي هذه الرغبة بعد أن قمنا معاً بزيارة القدس ويافا إن معظم إخواننا المغتربين الذين يحضرون لزيارة ذويهم في فصل الصيف يتلهفون على زيارة المناطق الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٤٨، وهم ينقسمون إلى قسمين: قسم رأى تلك المناطق قبيل ضياعها ويريد تجديد ذكرياته عنها، وقسم قرأ عنها وسمع بها ويرغب في رؤيتها، وعلى كل حال لن تنالوا إلا المزيد من الألم!

أجبته متأثراً: وهل تستكثر علينا أن نحقق هذه اللهفة يا عصام بعد أن حرمنا رؤيتها طيلة العقود الماضية، في بداية نكسة حزيران (أو نكبة سمها كما تشاء) بعثت أمي في طلبي فاعتذرت لها. وفي العام الثاني والعام الثالث بعثت أيضا في طلبي لكنني أصررت على عدم الذهاب، أتدري لماذا؟ لأنني كنت أنتظر «يوم التحرير» كي أنطلق إليها على صهوة «حصان النصر». وعندما طال بزوغ فجر ذلك اليوم المجهول أتيت إليكم بقلب دام أثقلته أرزاء الغربة، وأدمته قروح الواقع، أتيت لأكحل عينيَّ برؤية أعز ما عندي: أهلي الذين حرمت من رؤياهم، ووطني الذي حرمت من حنانه.

قال عصام وقد بدا عليه التأثر: هون عليك يا ابن العم، فأنا لا أتقن فن الإجابة على وجدانياتك.. لكنني واثق بأنك ستنسى هذا الحوار «العابس» بمجرد رؤيتك لأسوار عكا وصلاتك في جامع أحمد باشا الجزار!

انطلقت بنا السيارة شمالاً صوب عكا عن طريق الساحل الفلسطيني الساحر.

بمجرد دخولنا الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٤٨ أثارت انتباهنا عدة أمور تتمثل في التنظيم الزراعي الدقيق لكافة المناطق الساحلية التي مررنا بها تقريباً، واتساع الشوارع وكثرتها، ونظافتها، وتنظيم حركة المرور واحترام الجميع لقوانين السير، وانتشار محطات انتظار الركاب في كافة أرجاء وطننا المحتل وبخاصة في الطرق الرئيسة بين المدن. . وملاحظة وجود العسكريين من شباب وشابات تحت سقوف هذه المظلات.

وقد حدث أثناء مرورنا بأحد هذه المواقف أن رفع أحد العسكريين يده إلينا يريد الركوب، فلم يعره «حامد» اهتماماً. فقلت له: هاته معنا عسى أن نقرأ أفكاره!

قال حامد: لقد أخطأ «الخواجة»، فلقد أشار إلينا ولم ينظر إلى لوحة السيارة، وظن أننا من بني جلدته، ولو فطن للأمر ما فعل، لأن قيادة «جيش الدفاع الإسرائيلي» حظرت على أفراد قواتها الركوب في السيارات العربية، عشرات الجنود الإسرائيليين ماتوا أو اختفوا على أيدي الفدائيين العرب الذين كانوا يقتنصونهم بهذه الطريقة، ويغيبونهم عن الوجود.

وحتى تحصر الحكومة الإسرائيلية تحرك المواطنين العرب وتحصي عليهم خطواتهم أمرت بأن تكون ألوان لوحات السيارات في قطاع غزة مخالفة لألوان مثيلاتها في الضفة الغربية، والجليل، والقدس، والجولان، وبهذه الطريقة يمكنها متابعة أية سيارة عربية ومراقبتها.

مررنا بالمجدل، وأسدود، ويافا، وتل أبيب، وناثانيا، وعتليت، وحيفا، وفي كل مرة كان حامد يزيدنا شرحاً وإيضاحاً عن التاريخ القريب لهذه المدن وصراعاتها مع المحتلين.

أما بالنسبة لعكا فقد اعترف حامد بأنه لا يعرف الكثير عن تاريخها، اللّهم إلا قهرها لطموحات نابليون، وطلب منا أن نحدثه عن النقاط البارزة في تاريخها قبيل أن نصل إليها.

أحدوثة الزمان

تعتبر عكا في مقدمة المدن العريقة التي تركت دوياً في التاريخ على امتداد

عمرها الطويل. فقد أنشأها أجدادنا الفينيقيون ودعوها «عكـو». وهي كلمة عـربية كنعانية معناها «الرمل الحار»، ويقال بأن الفينيقيين كانوا يأخذون هذا «الرمل الحار» من شواطىء نهر النعامين القريب منها ثم يستخدمونه في صناعة أدق أنواع الزجاج.

وكان مفترضاً أن عمر المدينة بدأ بألفي سنة قبل الميلاد، ولكن الحفريات التي أشرفت عليها جامعة حيفا وجامعة ماربورج الألمانية أثبتت مؤخراً أن عمر المدينة أقدم مما كان مفترضاً حتى الآن بألف سنة.

وقالت وكالة الأنباء الألمانية إن الكنعانيين أجداد العرب الأوائل كانوا يقطنون مدينة عكا الساحلية في فلسطين قبل ولادة المسيح عليه السلام بثلاثة آلاف عام(١).

وقد استُنْتِجَ ذلك من بقايا مدينة كنعانية قديمة اكتشفت إلى الجنوب من عكا عثر فيها على هيكل عظمي لحصان وقبور يعود عهدها إلى العصر البرونزي، وأدوات مختلفة من تلك الحقبة من الزمن، كما اكتشف تمثالان برونزيان لصنم كنعاني.

ودعيت «عكا» بأسماء مختلفة عبر مراحل تاريخها الطويل، فدعاها المصريون القدماء «عكا»، وذكرت في العهد القديم «عكو»، وفي العهد الجديد «عكة»، وفي العصور الوسطى ذكرها الافرنج بأسماء مختلفة مثل: «أكون» و «أكر» و «أكري» و «أكرو» واليهود يطلقون اليوم عليها اسم «عكو».

وتقع مدينة عكا في شمال فلسطين على ساحل البحر الأبيض المتوسط على الطرف الشمالي من الخليج الذي يحمل اسمها، والـذي يعتبر من أهم الخلجـان البحرية في ساحل البحر المتوسط الشرقي، ويدل موقعها بين رأس الناقورة شمالاً وجبل الكرمل جنوباً على أهمية عامل الحماية في اختيار الموقع، وتبعد عكا عن حيفا مسافة ١٥ كم، وعن الحدود الفلسطينية اللبنانية مسافة ١٧ كم.

وذُكرت عكا ضمن المدن التي افتتحها فرعون مصر تحتمس الثالث على أثر انتصاره في معركة «مجدو» الشهيرة عام ١٤٧٩ ق.م. وَوُجِدَ اسم عكا منقوشاً على الكثير من الحفريات التي اكتشفت في «تل العمارنة».

---

(١) جريدة «الراية» القطرية (١٩٨٣/٨/٢٧م.

وفي عام ٥٢٥ ق.م كانت عكا منطلقاً للقوات الفارسية التي اتجهت إلى مصر بقيادة قمبيز، وبعدئذ خضعت للإسكندر الأكبر، ثم للقائد الروماني «بومبي» كغيرها من مدن الشام[1].

وكانت طوال عهود الآشوريين والفرس، والسلوقيين ميناءً بحرياً مهماً، كما كانت مقراً للعمليات الحربية التي تقوم بها الجيوش.

في أحضان الإسلام

لقد تشرفت عكا بانضوائها تحت راية الإسلام زمن الفتوحات الإسلامية على يد القائدين الداهيتين عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان عام ٦٣٦م (١٥ هجرية). وقد استفاد معاوية من مهارة أهل عكا في الأعمال البحرية المختلفة، حيث أسس داراً لصناعة السفن أمدته بألف وسبعمائة سفينة كانت نواة للأسطول العربي الذي فتح جزر البحر الأبيض المتوسط التي كان أولها جزيرة قبرص عام ٢٨هـ.

وهكذا كانت عكا أول ميناء عربي تغزو منه قوات المسلمين أولى غزواتها في البحر المتوسط.

ويقول البلاذري صاحب «فتوح البلدان» إن معاوية بن أبي سفيان أمر في سنة ٤٩ هجرية بتوسيع «دار صناعة السفن الحربية في عكا» ليرد على غزوات الروم للسواحل الشامية واحتلت صناعة السفن فيها المرتبة الثانية بعد الاسكندرية.

في قبضة الصليبيين

واستمرت عكا طوال العهد الإسلامي تمثل مركز النشاط العسكري والتجاري على شواطىء البحر المتوسط، حتى جاءها من وراء البحار من يغزوها من أولئك الطامعين المتسترين خلف الصليب، والصليب منهم براء وعنهم بمعزل.

فانطلقت جحافل الصليبيين من الساحل اللبناني باتجاه عكا، وخلافاً لما تذكره بعض المصادر فإن الصليبيين لم يضربوا الحصار حول عكا، لأن قواتهم التي اتجهت نحو القدس لم يكن عددها يسمح بالتوقف عند كل حصن من حصون الساحل، لأن احتلالهم للقدس سوف يوفر لهم أعداداً هائلة من المؤمنين الأوربيين الذين لن يلبثوا

---

(١) بلادنا فلسطين ـ مرجع سابق.

أن يتدفقوا بهذا الاتجاه، ولهذا فإن الصليبيين الذين توقفوا أمام بعض المدن الساحلية كانوا يكتفون بالأموال والمؤن وعقد التحالفات معها تحييداً لها على الأقل كما حصل مع سكان طرابلس وبيروت وصور[1].

وبعد أن استولى الصليبيون على القدس أخذوا يتطلعون إلى فتح عكا، خصوصاً، وإن ميناء يافا ـ الذي احتلوه قبل ذلك ـ كان مكشوفاً ولا يُؤَمِّن لسفنهم الكبيرة أن ترسو على الشاطىء مباشرة. «كما أن الاستيلاء على عكا يُؤَمِّن ظهيراً عسكرياً لمدينة بيت المقدس ويقطع الاتصال بالقوات الإسلامية عبر هذا الميناء».

وبدأ بلدوين الأول في محاصرة عكا سنة ١١٠٣م، وأخذ بالتضييق عليها، واستعان في ذلك بسبعين سفينة حربية تتبع جنوا والبندقية، واستمر الحصار البري والبحري مدة عشرين يوماً، وأخيراً استسلمت البلدة المجاهدة على عدة شروط منها أن يسمح لمن شاء من أهاليها بمغادرتها حاملاً متاعه، وأن يتمتع الباقون فيها بالرعوية الصليبية!

وربما لم تكن عكا لتستسلم لولا تخاذل الفاطميين عن نجدتها. ولكنهم بعد ذلك حاولوا استعادتها فلم يفلحوا حتى كانت معركة حطين الخالدة التي وضعت حداً فاصلاً للتوسع الصليبي في بلاد الشرق، فقد توجه البطل صلاح الدين الأيوبي إلى عكا مباشرة بعد انتصاره في حطين، كي يحرم الصليبيين من تلقي أية مساعدة خارجية. وكان حاكمها الصليبي آنذاك ويدعى «جوسلين الثالث» وهو ممن نجوا من القتل بحطين قد يئس من النصر، فلم يجد بداً من عرض تسليم المدينة لصلاح الدين، فدخلها البطل الخالد يوم العاشر من يوليو (تموز) عام ١١٨٧، وأطلق سراح أربعة آلاف أسير مسلم كانوا في أقبية السجون الصليبية. وأحال كنيستها مسجداً وصلَّى فيه الجمعة لأول مرة بعد أن انقطعت بالاحتلال الصليبي أربعاً وثمانين سنة[2]. غير أن الصليبيين أعادوا ترتيب صفوفهم في مدينة صور التي استعصت على بطل حطين، واستطاع الصليبيون بعد أربع سنوات أن يعيدوا احتلال عكا عام ١١٩١، وتهيأت لهم بذلك قاعدة مهمة بدل بيت المقدس. وارتكبوا مجزرة رهيبة في العياضة «فأحضروا زهاء ثلاثة آلاف مسلم من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية

---

(١) د. محمد مخزوم ـ جريدة القبس الكويتية ـ ٢٨/٦/١٩٨٠م.

(٢) مجلة القدس ـ ١/١٠/١٩٨٠م.

عكا، وأوثقوهم في الحبال، وحملوا عليهم وعلى زوجاتهم وأطفالهم فقتلوهم طعناً وضرباً بالسيف»[1]!

وبعد أن بقيت عكا أسيرة مدة قرن كامل أفاء الله على المسلمين بالمجاهد القائد الأشرف خليل (ابن السلطان قلاوون)، فحشد جيوشه المصرية والسورية وضرب حصاراً صارماً حول عكا استخدم فيه اثنين وتسعين منجنيقاً، ولم تفد المحاصرين نجدات وصلتهم من قبرص، فأخذت معاقلهم تتهاوى أمام وحدة القلوب والأكف والأهداف. وبلغت مدة الحصار أربعة وأربعين يوماً.

«والعجب أن الله سبحانه وتعالى قد فتح عكا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج فيه، ومثل الساعة التي أخذوها فيها، فإن الفرنج كانوا قد استولوا على عكا في سابع عشر جمادي الآخرة في الساعة الثالثة من النهار، وأمنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدراً، وقدر الله تعالى أن المسلمين استرجعوها منهم في هذه المرة يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار، ووافق السابع عشر من جمادي الأولى وأمنهم السلطان ثم قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين فانتقم الله تعالى من عاقبتهم».

ولم تكد عكا تصير في قبضة السلطان حتى شرع في تدميرها وخرابها حتى لا تستعمل مرة أخرى كرأس رمح للصليبيين.

وكان سقوط عكا أعظم كارثة حلت بالمخططات الصليبية الإجرامية، وانتهى معها أعظم فصل من فصول تاريخ أوربا الوسيط.

إن تكرار فشل الحملات الصليبية على بلادنا يجب أن يكون حافزاً لنا على تطهير فلسطيننا المغتصبة من «صليبية» القرن العشرين المتمثلة في الكيان الصهيوني البغيض.

وبعد خراب عكا انتقلت قاعدة فلسطين الشمالية إلى صفد. ولما مرّ بخرائبها الرحالة العربي ابن بطوطة (المتوفى عام ١٣٧٧م) وصفها بقوله «... ثم سافرت إلى الساحل فوصلت إلى مدينة عكة وهي خراب، وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى...».

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٦٥م.

عكا في العهد العثماني

من المعلوم أن الأتراك العثمانيين استولوا على بلادنا إثر انتصار السلطان سليم الأول في معركة «مرج دابق» عام ١٥١٧ ميلادية. وتم خضوع عكا لنفوذهم تلقائياً، لكنها شهدت فترة ازدهار في كافة مناحي حياتها. . وعندما استولى عليها الثائر الفلسطيني ظاهر العمر الزيداني جعل منها أهم ميناء على البحر الأبيض المتوسط. ويعتبر تاريخه جزءاً من تاريخ نهضة فلسطين وتقدمها، وفي ذلك يقول أحد المؤرخين: «إن شخصية ظاهر ألمع شخصية ظهرت في الشرق في أواخر القرن الثامن عشر، وأنه رغم تجاوزه الثمانين فقد احتفظت قواه العقلية وقدرته الجسمية بنشاط خارق للعادة».

وقد نقش هذا الداهية الفلسطيني فوق أحد أسوار المدينة هذه الأبيات.

بأمر اللّه هذا السور قاما	بعكا من فتى بالخير قاما
أبى الفرسان ظاهرٍ المفدّى	أعزَّ اللّه دولتَه دواما
فباطنُ آيةُ الرحمات فيه	وظاهره العذابُ لمن تعامى

وسيطر الشيخ ظاهر على شمال ووسط فلسطين، وجنوب لبنان، وثار على الدولة العثمانية، وتحالف مع الزعيم المصري علي بك الكبير، واستعان بالدولة الروسية ـ عدوة تركيا التقليدية ـ ولم يتمكن السلطان العثماني من كسر شوكة هذا الزعيم إلا بعد أن قضى على زعيم المماليك، وتصالح مع روسيا وتفرغ لمقارعة هذا الثائر، وحدثت أمور تاريخية أدت في نهاية المطاف إلى استشهاد الشيخ ظاهر برصاصة قاتلة أطلقها عليه أحد جنوده الموالين للقائد التركي.

وبعد مقتله تولى أحمد باشا الجزار ولاية عكا. فأخذ في تحصينها وبناء أسوار جديدة له وجعلها أقوى حصن في المنطقة كلها، ويعتبر جامعه الفخم أبدع صورة للفن المعماري العثماني.

ومعروف أن أحمد باشا الجزار. اتخذ الأسلوب العنيف منهجاً في حكمه ـ وهو أساساً من يوغسلافيا ـ، وكان مملوكاً لعلي بك الكبير بمصر، فاستخدمه في اغتيال خصومه السياسيين بصورة بشعة أكسبته لقب «الجزار»، وقد سجل أول موقف إنساني له حينما كلفه سيده علي بك الكبير باغتيال صديق له فرفض، ولجأ عند آل شهاب

بلبنان فظهرت كفاءته في ملاحقة المجرمين، فولاه السلطان عدة مناصب حكومية كان آخرها منصب والي عكا.

إن الصورة الراسخة في أذهان الناس حول شخصيته لا تتعدى صورة «الجزار» و «السفاح»، والحق أن له مواقف رائعة ضد تدخل الدول الأجنبية في شؤون ولايته وازدياد عدد أصحاب الامتيازات التجارية، إلى جانب محافظته على بقاء مذهب السنة إزاء تحول عدد كبير من الزعامات المحلية في ولاية الشام عن السنة، هذا إلى جانب منجزاته العمرانية الواضحة في مدينة عكا وبخاصة بناءه للمسجد الفخم الذي ما زال يحمل اسمه. لكن أروع مواقف الجزار البطولية هو تصديه لحملة نابليون بونابرت الذي فتح مصر وزحف على بلاد الشام.

عكا . . وقبعة نابليون

من المعلوم أن نابليون خطط لإنشاء امبراطوية في الشرق، يتوج نفسه امبراطوراً عليها، وكان أول ما اجتذبه فكرة استعمار فلسطين على يد الصهيونيين. ويتساءل أحد الدارسين العرب قائلاً[1]: ـ لماذا اجتذبت نابليون فكرة استعمار فلسطين على يد اليهود؟ يعتقد أن نابليون تأثر بما كتبه بعض الكتاب الفرنسيين بشأن اليهود. ومن هذه الكتابات، تلك المذكرة التي قدمها «البرنس دي لينيه»، إلى إمبراطور النمسا، جوزف الثاني، عن اليهود في السنة ١٧٩٧. ولعل أبرز ما أشار فيها إلى وجوب إصلاح شأن اليهود وإعادتهم إلى مملكة يهوذا. وأضاف قائلا: ـ «وهم يحجمون عن أن يجعلوها بلاداً عامرة مزهرة، كما كانت في عهدها الماضي. وحتى عادت بلاد اليهود إلى يدهم، فإنهم لا يتوانون لحظة في إدخال الزراعة والصناعة والفنون والتجارة إليها على الأساليب الغربية. ثم إنهم يجدون هيكل سليمان ويستخدمون مياه الأمطار والمجاري لري حقولهم ومزارعهم، وينشؤون القنوات والترع للملاحة . .»

كانت هذه بعض النماذج من الآراء التي كانت تروجها فئة من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في أوروبا في ذلك الوقت. ولا ريب في ان كان لها صدى في تخطيط نابليون لامبراطورية في الشرق.

---

(١) د. الياس زين. ملحق جريدة الأنباء الكويتية بتاريخ ١٩٨٢/٣/٣١م.

وبعد أن شرع في غزو فلسطين، في العام ١٧٩٩، وجه نداء إلى جميع اليهود في العالم، يستحثهم فيه على الانضمام إليه تحت لوائه والانضواء تحت رايته، لإعادة بناء «مجد إسرائيل الضائع في القدس»، على حد تعبيره. ويصفهم بأنهم الورثة الشرعيون لفلسطين، ويبدو أن نابليون، أصدر النداء هذا لكسب جانب اليهود، فيستغل نفوذهم في بلدان الامبراطورية العثمانية ومعاونتهم له في تحقيق غاياته ومراميه التوسعية.

وعندما علم الجزار بوصول الحملة الفرنسية إلى مصر ضاعف جهوده في تحصين المدينة، وزودها بمختلف أنواع البنادق والمدافع وكافة أدوات الحرب المتوافرة آنذاك. وعبأ المدافعين بالمشاعر الدينية والوطنية الصادقة وحفزهم لملاقاة عدوهم.

وزحفت الحملة الفرنسية إلى فلسطين، فاحتلت غزة ويافا وحيفا، وأقام نابليون مقر إقامته على جبل الكرمل.. ينظر إلى عكا التي تبعد عنه عشرين كيلو متراً وفي نفسه شهوة عارمة لتتويج عبقريته العسكرية باحتلالها والهيمنة على بر الشام وإكمال الطوق على الإنجليز.

وفي العشرين من آذار عام ١٧٩٩ أخذ الجيش الفرنسي مواقعه أمام عكا، وبعد أسبوع أصدر نابليون أوامره بالهجوم، لكنه فوجىء منذ الوهلة الأولى برد عكا العنيف على قنابله ومدفعيته بصورة كثيفة لم تكن بحسبانه، فأمر الجنرال كليبر بتعزيز القوات الفرنسية التي استطاعت أن تحدث ثغرة في سور المدينة، وأراد نابليون أن يكون أول متسلقيها! «وقد قوبل المهاجمون المندفعون كالمجانين عند الثغرة بأفتك نيران مضادة صبت على الفرنسيين في حصار عكا، ولعل نصف قوة الجيش المحاصِر «بكسر الصاد» قُتِل أو جرح في هذا الهجوم».

ودافع الفلسطينيون دفاعاً بطولياً عن مدينتهم.

وأخيراً.. وبعد كر وفر، وإقبال وإدبار دام ثلاثة وستين يوماً يئس عبقري العسكرية الفرنسية من احتلال عكا، ووقف على ظهر سفينته الحربية جوار الثغرة يندب حظه العاثر ويقول: لقد تحطمت آمالي على أسوارك يا عكا، وخلع قبعته عن رأسه وقذفها على السور قائلاً: يكفي أن قبعتي دخلتك يا عكا.. وداعاً لا لقاء بعده!!

ويُروى أنه قال بعد هزيمته في عكا وهو يتألم من الكمد والحزن: «لو استطعت

الإستيلاء على عكا للبست عمامة، ولجعلت جنودي يرتدون السراويل الفضفاضة، ولجعلتهم فيلقاً مقدساً، ولنصّبت نفسي إمبراطوراً على الشرق، ولعدت إلى باريس بطريق القسطنطينية، ولكن هذه الأحلام قد دفنت تحت أسوار عكا».

هذا.. ولم يذكر التاريخ انسحاباً مقروناً بالفشل والخسائر والمشاق، مثل انسحاب نابليون من عكا وانسحابه بعد ثلاثة عشر عاماً من موسكو عام ١٨١٢، فقد أصابه وجنوده في انسحابهم من موسكو الأعياء والبرد والثلج والزمهرير.

الجدير بالذكر أن الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران عندما زار فلسطين المحتلة في شهر مارس عام ١٩٨٢ قام بزيارة عكا وقلعتها، وقدم له رئيس بلديتها مفتاح المدينة، وزار كذلك قلعة عكا التي كان ريكاردوس قلب الأسد، وفيليب أوجست يعقدان فيها بعض اجتماعاتهم أثناء الحروب الصليبية.

وبعد هذا النصر استتب الأمن، وزاد الرخاء، وامتد حكم الجزار لمدة ثلاثين سنة استطاع خلالها أن يعمر المدينة إعماراً حديثاً حيث شيد الحمامات والأسواق، وغرس الحدائق والبساتين بالفواكه الغريبة والأزهار النادرة، وجر المياه إليها من ينابيع مجاورة حتى أصبحت عكا مدينة «النعيم المقيم»!...

.. في قبضة الإنجليز

استولى البريطانيون على عكا إثر انتصارهم على الجيش العثماني في ٢٤ـ ٩ـ ١٩١٨م وامتد هذا الاحتلال حتى عام ١٩٤٨ حين قاموا بتسليمها لليهود.

وحسب آخر تنظيم إداري بريطاني في فلسطين كانت عكا مركزاً لقضاء كبير يعرف باسم «قضاء عكا».

وكان يتألف من مدينة عكا ذاتها، إضافة إلى إثنتين وخمسين قرية من أهمها: البصة، ترشيحا، سخنين، الكابري، طربيخة، مجدلكروم، عرابة، اقرت، تمرة، مطيا، الرامه، البروه، الزيب، عمقا.

كان «العكيون» سباقين في منازلة البريطانيين ومقارعتهم، ولعل أقدم صدام بينهما وقع في عام ١٩١٩ عندما حاول الجنود الإنجليز السكارى الاعتداء على إحدى السيدات، فلقنهم العكيون درساً لن ينسوه، وعلموهم كيف يكون الدفاع عن العِرض.. وقد كلفت هذه الانتفاضة سكان عكا العشرات من السجناء والعديد من

الجرحى ومبالغ من المال فرضها المستعمرون على الأهلين[1].

وشارك العكيون في ثورة عام ١٩٢٩، وشهد سجن عكا المركزي ـ على أثر هذه الثورة ـ شنق ثلاثة من أبطال الكفاح الفلسطيني وهم: فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير، وتقرر صلبهم يوم الثلاثاء في ١٧ يونيو (حزيران) عام ١٩٣٠ في ذات السجن، ويقول أستاذنا العلامة أكرم زعيتر عميد الأدب العربي القومي مسجلاً الموقف الشعبي لهذا الحدث[2]:

فبادر الأستاذ الشاعر المرحوم ناصر عيسى ـ وكان مدرساً للعربية في ثانوية عكا الرسمية إلى نظم نشيد على وزن نشيد السجن ونغمته (الذي نظمه الأستاذ نجيب الريس صاحب جريدة «القبس» الدمشقية) فحفظه الطلاب والشبان وطافوا بالسجن ينشدونه، وتسرب النشيد في السجن، فأنشده الثلاثة قبل صلبهم، ثم كان نشيد التشييع إلى المقبرة بين كل تكبيرة وأخرى، وهذا هو النشيد:

يا ظلام القبر خيم ... إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الموت إلا ... فجر مجد يتسامى
لم أكن يوماً أثيماً ... لم أخن يوماً نظاما
إنما حب بلادي ... في فؤادي قد أقاما
حسبوا الاخلاص ذنباً ... والوفا أمراً حراما
ما رعوْا فينا عهوداً ... خفروا فينا الذماما
حسبوا الإعدام يفني ... ذلك العزم الهماما
ويحهم، بالحق لسنا ... نرهب الموت الزؤاما
تربة الأوطان تُسْقى ... بدم فاح خُزامى
وجذور العطف ينمو ... نبتها عاماً فعاما
يا بني قومي وداعاً ... واحفظوا ذاك الذِّماما
عَلِّموا الأجيال أنَّا ... فتية مُتْنا كِراما

وشارك العكيون أيضاً في المظاهرات الضخمة التي عمت فلسطين برمتها عام ١٩٣٦ تأييداً للإجماع الوطني بالامتناع عن دفع الضرائب.

---

(١) مجلة فلسطين ـ ١٩٦٢/٨/١م.

(٢) يوميات أكرم زعيتر ـ أكرم زعيتر ـ الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩ ـ الطبعة الأولى.

وقامت في عكا جنازة صامتة ضمت جميع أهالي المدينة ووفود أقضيتها، وعانق الصليبُ الهلال، وسارت الجماهير وراء نعش يرمز للعدل البريطاني يتقدمها المؤذنون والمكبرون وحملة الصلبان والرايات العربية وحملة الأكاليل، وكان النعش موضوعاً على سيارة ملفوفاً بالعلم العربي، وهناك في مقبرة الشهداء ووري النعش في مقره الأخير[1].

وقد تصدى شباب عكا للقوافل الصهيونية ومنعوها من الوصول إلى المستعمرات في الشمال.

وشارك العكيون كذلك في جميع الثورات والانتفاضات الشعبية التي قام بها إخوانهم في المدن الفلسطينية الأخرى.

أما المدينة ذاتها فقد استمرت في حياتها الاعتيادية بشكل عام، ونشطت بلديتها في تنظيمها وتنظيفها والعناية بها. وقد زارها في تلك الفترة المرحوم محمود العابدي فقال: «بعد أن زرنا مساجد المدينة الستة، زرنا بستان «البهجة» الذي له من اسمه نصيب كبير وهو ملك آل بيضون، وقد سبقت عكا غيرها من مدن فلسطين في الاهتمام بإحياء ذكرى المولد النبوي الشريف، وقد كانت تغص بالوافدين إليها بهذه المناسبة».

عكا.. والصليبية الجديدة

لقد احتفظ العكيون وأهالي القرى التابعة للقضاء ببلادهم منذ صدور قرار التقسيم وحتى آخر يوم من أيام الانتداب البريطاني على فلسطين.

وكان اليهود قد تأهبوا مقدماً لاحتلال عكا، حيث طوقوها بمستعمرات جديدة وحصينة وشحنوها بالمقاتلين على جانبي طريق عكا ـ بيروت وعلى الطريق المؤدية إلى شفا عمرو.

اضطر اليهود أمام بسالة أهل عكا إلى تموين مستعمراتهم عن طريق البحر فقط، وبمساعدة السلطات البريطانية، وذلك بعد أن تصدى العكيون لقوافل تموينهم ومنعوها من تحقيق أغراضها.

---

(١) فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ـ عيسى السفري ـ الطبعة الأولى عام ١٩٣٧م. يافا.

ورغم بطولة أهلها، وتمرسهم على قتال الغزاة، ورغم حصانة أسوارها، وشجاعة المدافعين عنها فقد سقطت عكا في مستنقع الاحتلال الصهيوني الصليبي. ويصف المؤرخ عارف العارف مأساة السقوط بقوله: في ليل يوم التاسع من أيار عام ١٩٤٨ ميلادية وصلت الهجمات الصهيونية إلى ذروة حدتها، فقد هوجمت المدينة بألوف من المسلحين الصهيونيين الذين كانوا يملكون أحدث آلات الحرب.. وصمد مجاهدو عكا عشرة أيام، وقاوموا ببطولة بالرغم من قلة عددهم، وضآلة عتادهم حتى نفدت ذخيرتهم، وفقد الغذاء من مدينتهم، وتحولت عكا إلى ستالينجراد، ودار القتال في كل شارع وبيت، واستطاعت مصفحات وزواحف ومدفعية وزوارق العدو البحرية من السيطرة على زمام الموقف، وتمكنوا من احتلال المدينة في ١٨ ـ ٥ ـ ١٩٤٨. وهو ذات التاريخ الذي دخلها فيه الأشرف خليل منتصراً على الغزاة الصليبيين قبل ستمائة وسبع وخمسين عاماً، فيا لمفارقات القدر العجيبة! (١)

معالمها الأثرية

تعتبر عكا في طليعة المدن الفلسطينية التي يؤمها السياح لزيارة معالمها الأثرية والسياحية ومن أهمها:

● جامع الجزار:

تم بناؤه عام ١٧٨١م، وهو من أبدع مظاهر الفن الإسلامي في العهد العثماني، ويقال بأن به عدة شعرات من شعرات رسولنا الحبيب عليه الصلاة والسلام محفوظة في صندوق خاص والله أعلم.

بناه أحمد باشا الجزار على غرار مساجد القسطنطينية، تحيط به الحدائق والأشجار، وهو مربع ومسقوف بقبة ضخمة، تنتصب مئذنته الرائعة وسط باحته المستطيلة المحاطة بأروقة مقببة قائمة على أعمدة من الجرانيت والرخام، ويقيم بالأقبية موظفو الجامع وطلاب المدرسة الأحمدية. وتوجد بالمدرسة مكتبة ثرية تحتوي على نفائس الكتب والمخطوطات، وما زالت بالمكتبة بعض الموجودات حتى اليوم، ومن ضمنها حوالي ثمانين مخطوطة، ويرجع تاريخ نسخ أقدم مخطوطة منها إلى عام ١٣٣٢م.

---

(١) النكبة ـ مرجع سابق.

وفي الزاوية الشمالية من فناء الجامع توجد غرفة تضم قبرين من الرخام أحدهما للجزار والثاني لخليفته سليمان باشا، ومن جوامع عكا المعروفة: جامع البحر، جامع المجادلة، الجامع المعلق، وجامع اللبابيدي.

● القلعة:

وتقع شمالي المدينة القديمة وقد بناها الأتراك في القرن الثامن عشر تتألف من ثلاثة أقسام مختلفة الشكل:

١ ـ برج الخزنة وفيه كان الجزار يخبىء ثروته ويقيم فيه.

٢ ـ الجبخانة وكانت تخزن فيها الأسلحة والذخائر.

٣ ـ الثكنة العثمانية وهي تمثل «السجن المركزي الفلسطيني»، وكانت دولة الانتداب الظالمة تغيب في ردهاته معظم المعتقلين السياسيين، وكان مبعث شؤم لدى المواطنين وسموه «الباستيل». وكانت تتم بين جدرانه السوداء عمليات الشنق والاعدام لمئات من أبطالنا وثوارنا، وبعد النكبة حول الأعداء قسماً منه إلى مصحة نفسانية وحولوا قسماً آخر إلى متحف للأدوات الحربية.

● خان العمدان:

بناه الجزار كمضافة للتجار قرب الميناء، حوله الصهاينة إلى ملهى ليلي. كما أن هناك خانات أخرى في المدينة مثل: خان الشونة، خان الفرنج، خان الشواردة. وهناك أماكن أثرية مهمة مثل: السوق الأبيض، حمَّام الباشا، أسوار عكا البرية والبحرية، قبر بهاء الله ومنزله، تل الفخار أو تل نابليون. كما أن بالمدينة حمامات، وأديرة، وكنائس، وقصوراً، وزوايا، وقبر النبي صالح عليه السلام (والله أعلم)، وقبور بعض أولياء الله الصالحين، وحدائق ومنتزهات.

وإلى جانب هذه الأماكن يوجد في عكا متحف للفولكلور وصالة عرض لبعض الرسامين اليهود ممن سكنوا المدينة بعد سقوطها.

وبالرغم من وجود بعض الآثار الصليبية وعدد من الكنائس إلا أن معظم الآثار في المدينة عربية وتعود إلى عهد الأتراك، وسحر المدينة يعود إلى طابعها الشرقي الجميل الذي تتصف به.

وجهاً لوجـه

وأخيراً. . وبعد أن قطعنا ما يقرب من مائتي كيلو متر في طريقنا من خان يونس إلى عكا وصلناها عصراً. . وكنا خلال هذه الفترة الزمنية قد فرغنا من «سياحتنا التاريخية» لتبدأ «سياحتنا الميدانية» لهذه المدينة العريقة التي عرفها الزمن، فأخذ يغازلها فصاغها جوهرة ثمينة علقها على صدره الرحيب في زهو وخيلاء.

وكان دخولنا أولاً إلى عكا الجديدة، والجديدة تعني أنها بنيت بعد الاحتلال الصهيوني الأول، ولقد برعت فيها يد الهندسة الحديثة، فخططت شوارعها على هيئة مستطيلات بها أبنية ذات طوابق أربعة، جاءت بطريقة فنية تمنع إقامة بنايتين متجاورتين، بل لا بد أن تفصل بينهما حدائق عامة.

ويلاحظ أن جميع المحلات التجارية القائمة خارج أسوار عكا يمتلكها الصهيونيون، في حين يشترك العرب في امتلاك المحلات داخل السور. ومنذ الاحتلال الصهيوني للمدينة تجري سلطات الاحتلال تغييرات في معالم المدينة لإلغاء طابعها العربي وصبغها بالصبغة اليهودية.

والحقيقة أننا لم نتفاعل مع عكا الجديدة تفاعلاً وجدانياً، لأننا شعرنا بغربتها علينا، كنا في شوق عارم إلى «عكا القديمة». . عكا فلسطين، والأجداد، والتراث، والأمجاد الغابرة! مساكنها من الطراز القديم، لم تمتد إليها يد الحداثة، شوارعها مبلطة بقطع ضخمة من الاسمنت. أهم شوارعها ما زال يحمل اسم صلاح الدين الأيوبي، وهناك شارعان يحمل أحدهما اسم «الهاجاناه» والآخر «وايزمان»!

لكن حالة عكا القديمة محزنة، محزنة، فقد هربت البهجة والسعادة مع وجوه أغلبية أهلها الذين غادروا المدينة شمالاً في اتجاه لبنان بالمقام الأول، وفي شتى مواقع الاغتراب في المقام الثاني.

البيوت قديمة، قديمة، والسلطة تمنع الترميم والتحديث لأنها باختصار لا تريد عرباً داخل عكا، فاختارت لهم قرية «المكر» على بعد ٦ كم من المدينة ليقيموا فيها، لكن العرب واعون لهذا «المكر»الصهيوني، إنهم يخاطرون بحياتهم ببقائهم داخل مساكنهم الآيلة للسقوط، ولقد اعترفت لجنة لتقصي الحقائق تابعة للكنيست بوجود ٢٠٠ بيت آيل للسقوط في عكا القديمة، وأوصى التقرير بضرورة بناء مائتي وحدة سكن للمواطنين العرب في عكا على مدى أربعة أعوام. ولكن شيئاً من هذا لم ينفذ،

وبقي المواطنون العرب يعانون من الضائقة السكنية التي تتفاقم باستمرار لأن الزيادة الطبيعية في عدد السكان لم تقابلها زيادة في بناء المساكن، بل قابلتها زيادة في عدد الهموم المتمثلة في التمييز العنصري الذي يتعرض له الفلسطيني في كافة مجالات معيشته.

ورغم كل ذلك فالمواطنون العرب ازدادوا عدداً وازدادوا ثقة في الله تعالى، وصاروا يشكلون ثلث سكان المدينة الذي بلغ عام ١٩٧٥ حوالي الأربعين ألفاً، من بينهم ١٣,٠٠٠ عربي[١] .

وعمد الإسرائيليون إلى سرقة الأوقاف الإسلامية بالمدينة فأنشأوا «شركة تطوير عكا القديمة» فسماها العرب وبحق شركة «تطيير عرب عكا القديمة» ذلك أن الشركة استولت على أملاك الأوقاف الإسلامية في المدينة. وأكسبت هذا الاستيلاء والنهب صفة قانونية، وذلك باستئجارها هذه الأملاك لمدة (٩٩) سنة بأجرة مضحكة، من لجنة الأوقاف الإسلامية. وهذه اللجنة معينة أصلاً من قِبل السلطة التي تختار أعضاءها من أعوانها وأجرائها.

وهكذا، استولت هذه الشركة على خان «شاه ورده» وخان «العمدان» و «السوق الأبيض» و «السوق الأسود». وعلى جميع خنادق السور والأبنية التاريخية والأثرية، وعلى الأسوار نفسها، وهمّ الشركة هو تحويل كل عكا القديمة، بأسوارها وخاناتها وميناثها ومعالمها التاريخية إلى منطقة سياحية كبيرة «جذابة» على غرار ما فعلوا بيافا القديمة، فتصبح منطقة ملاهي ونوادي ليلية، ومطاعم ومقاهي على الطريقة الأمريكية الخليعة[٢].

اللقـــاء

لاحظت وجود بعض المكتبات العربية داخل الأسوار القديمة ولم أجد صعوبة في التعرف على صاحبها الشاب ظاهر ياسين.. فأخذ يحدثني عن بعض جوانب حياتهم فقال: يوجد لدينا آلاف الكتب العربية والإنجليزية.. والعبرية.. انظر إلى أرفف الكتب، إننا نتعامل مع كبار الأدباء والكتاب العرب في شتى مناحي المعرفة، السلطات الإسرائيلية تسمح لنا باستيراد أغلبية الكتب، ولا تمنع إلا ما ترى أنه خطر

---

(١) مجلة فلسطين الثورة ١/٦/١٩٨٥م.

(٢) المرجع السابق بتاريخ ٨/٦/١٩٨٥م.

عليها.. عندي كتب سياسية حتى لرجال المقاومة الفلسطينية.. المطابع العربية هنا تعيد طباعة الكتب الرائجة وتحقق أرباحاً كبيرة لأنها «تبلع» حقوق الناشر والمؤلف.

لا أزعم أنني تقي.. الجامع بجواري وأسمع نداء المؤذن لكنني لا آبيه، جرفتنا الحياة في مادياتها. عدد المصلين قليل جداً.. حتى في صلاة الجمعة وأغلبيتهم من كبار السن، سمعت والدي يتحدث عن الكثرة الهائلة في عدد المصلين بجامع الجزار قبل الاحتلال، حيث كانوا يملأون القاعة الكبيرة إضافة إلى الساحات الخارجية الفسيحة.

إن اليهود يحاربون الإسلام بشتى الطرق، وأعتبر أن عدم صلاتي نجاح لسياستهم، الكثيرون من الشباب لا يصلون مثلي، هذه إدانة لنا ولكنها الحقيقة أخشى العذاب لكنني طامع في مغفرة ربي عز وجل.. اليهود يخططون أكثر من العرب.. لقد أنشأوا في شرقي البلد منطقة صناعية ضخمة «مدينة الصلب» وفيها مصانع للمعلبات والسردين. والبورسلين. كما أنشأوا محطة مراقبة الاشعاعات النووية في البلدة، وهذه طريقتهم في كافة المدن. ومحظور علينا الاقتراب منها، فهل يوجد عندكم مثلها؟

إضافة لذلك فهناك مصانع للفخّار والمرايا والخزف والنسيج والدهان، ومصنع ضخم للصناعات الكهربائية الكيماوية بالإضافة إلى عشرات المحلات الصغيرة لإنتاج النحاس.

وعلى كل حال فأنا لا أثق في الحاضر أبداً، ولكن عندي ثقة في المستقبل يوم يتحد العرب وحدة قلبية حقيقية!

شكرت «ظاهراً» وودعته بلهفة على أمل اللقاء ذات يوم.. أي يوم تشرق فيه شمس النصر والتحرير.

* * *

ثم توجهنا إلى الشاطىء.. شاطىء عكا برماله الناعمة الدافئة، حيث ينتشر آلاف السابحين والسابحات الذين يفدون من ذات المدينة ومن المناطق المجاورة لها، كان مفترضاً أن يثير منظر البحر في نفسي مشاعر الهدأة والغبطة والنشوة، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل العكس تماماً.. اضطربت نفسي، وتأجج بركان الحقد في أعماقي، ولجأت إلى رحاب الله تعالى شاكياً باكياً مستجيراً، ولم أمكث طويلاً

على الشاطىء.. عرجت على منطقة الميناء القديم حيث أهلي وعشيرتي يسكنون، ويصارعون في البحر من أجل لقمة العيش.. تعرفت على أحدهم وهو ينظف شباك الصيد ويرتقها.، وأخذ يشكو من جور الـزمان والسلطان، وأخبـرني بأن السلطات الصهيونية تحدد منطقة وجودهم في الميناء نفسه، وتحدد لهم المنطقة المخصصة التي يصطادون فيها وأثقلت كواهلهم بالضرائب الباهظة، فهم يحتاجون إلى رخصة للقارب، وإلى رخصة صيد شخصية، وإلى رخصة لقيادة دفة القارب، وإلى رخصة لعجلات النجاة، وإلى رخصة لحيازة صواريخ النجدة، ورخصة لانتشال القارب إذا تعطل داخل البحر. ورخصة للتأمين الإجباري، وثمن أحزمة الأمان التي يلزمنا تبديلها كل سنتين، ورسوم وقوف في الميناء، فإذا أضفنا إلى هذه الأمور كلها ضريبة الدخل تكون المصيبة قد تضاعفت وأفرخت مائة مصيبة ومصيبة.

ولما رأى الرجل علامات التعجب والتأثر بادية على وجهي قال مازحاً: هل تريد أن أزيدك من «الحب» صاعاً أو رطلاً؟ إن سلطة ضريبة الدخل تطلب منا تسجيل كمية الأسماك التي نصطادها في كل يوم، مع تسجيل أوزانها، ولمن بيعت، وبأي سعر، وتاريخ وساعة البيع.. أي والله.. وإذا لم نفعل ذلك فليجيرنا الله من «الغرامة» أو فلنبلط البحر!

وهنا وجدت الفرصة مناسبة فسألت العم عبد الهادي عن قصة تبليط البحر التي ارتبطت ببحر عكا. فقال: يقال هذا المثل لمن لا يستطيع فعل شيء ما، ويعود تاريخ هذا المثل إلى أيام أحمد باشا الجزار والي عكا الذي تمكن من أن يغتصب جزءاً من البحر وذلك بردم مساحة من هذا الشاطىء حيث غرس في التراب المردوم كميات كبيرة من جذوع النخيل والقصب حتى تشابكت وكونت طبقة قوية عجزت الأمواج عن تفتيتها، ثم رصف الجزار الجزء المردوم بالبلاط فقيل: الجزار بلّط البحر وذهبت مثلاً ولكن من أجل التعجيز واللامبالاة.

* * *

ثم توجهنا إلى الأسوار البحرية ووقفنا على أول سور تجاه البحر، مددت بصري صوب الأفق الممتد بعيداً، اشتممت رائحة أسرتي الفلسطينية العربية ذات الأمجاد الغابرة، حبي الأكبر الذي فلعجته السياسة الحمقاء، والحقد الدفين، كدت ساعتها أن أرفع عقيرتي وأصرخ من أعماقي يا ألف ألف وامعتصماه، يا ألف ألف وإسلاماه، أين أنت يا صلاح الدين.. يا أشرف خليل، يا جزار، يا ظاهر العمر، تعالوا أيها

الأموات فانقذوا عكا بعد أن فشل الأحياء في إنقاذها!! وأفقت من شرودي وأحلامي على رنة غضب من أحد الرجال العرب أطلقها على مجموعة من الصبية الذين يلاحقونه بتهكماتهم وتعليقاتهم. فحاولت أن أكفهم عنه فقالوا إنه مجنون! فأومأت برأسي، وأنا أغالب دموعي مبتهلاً إلى الله أن يرحم كهولة ذلك الرجل «العاقل» الذي يعيش في زمن «مجنون»!

* * *

ركبت السيارة وأنا أواري نفسي من نفسي.. خجلاً، وأسفاً، وألماً، مترنماً بترداد قوله تعالى ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين﴾.

عائلات وشخصيات من قضاء عكا

سكنت عكا بعض عائلات فلسطينية تعود بجذورها الأولى إلى أصول صليبية وتركية ومصرية وسورية ومغربية. وذلك بسبب الوضع التاريخي الخاص للمدينة، وقد انصهرت جميعها في بوتقة وطنية واحدة، ومن عائلات قضاء عكا المعروفة:

اليشرطي، العكي، العفيفي، عرابي، الحزوبي، حنانيا، فرح، الطوبي، الجزار، السرطاوي، محسن، شبل، السعدي، الشقيري، فضه، كتمتو، خمار، البوري، الخياط، بيضون، جرار، غزال، الجشي، أغا، المعتصم، الحداد، الشاعر، كنفاني، شريح، نقاره، الخوري، مصطفى، الأمين، خير، سرحان، وغيرها.

هذا.. وتنسب إلى قضاء عكا شخصيات بارزة سنذكر منها من توفاها الله في هذا القرن:

الشيخ عبد الله الجزار مفتي عكا في العهدين العثماني والانجليزي (١٨٨٥ - ١٩٣٩). توفيق العبد الله رئيس بلدية عكا (ـ، ١٩٣٥)، الشيخ صالح المحمد (ـ ١٩٣٢)، الدكتور محمد علي الشقيري (ـ ١٩٥٧)، الشيخ المفتي أسعد الشقيري (١٨٦٠ - ١٩٤٠) الشيخ علي اليشرطي الحسيني، متصوف الطريقة الشاذلية (١٢٠٨هـ - ١٣٤٢هـ)، المحامي المناضل أحمد الشقيري أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية (١٩٠٨ - ١٩٨٠) المناضل خالد محمد اليشرطي (١٩٣٥ - ١٩٧٠) الأديبة سميرة قيصر عزام (١٩٢٧ - ١٩٦٧) أحمد زكي باشا (١٨٦٧ -

١٩٣٤) الأديب المناضل الشهيد غسان فايز كنفاني (١٩٣٦ - ١٩٧٢)، أديب نمر الخازن (١٨٩٤ ــ) المحامي حنا عصفور (١٩٠٢ ــ)، الشيخ صالح المحمد (ــ ١٩٣٣)، ميشيل قطران (١٩٠٥، ــ)، حنا ديب نقارة (١٩١٢ - ١٩٨٤)، فؤاد صالح سابا (١٩٠٢ - . . .) الشهيد قاسم أبو خضرة (١٩١٠ - ١٩٦٩)، الشهيد توفيق أحمد منصور (١٩٢٥ - ١٩٤٨)، توفيق أبو الهدى، السياسي ورئيس وزراء أردني سابق (١٨٩٢ - ١٩٥٦)، الأديب حبيب الخوري (١٨٧٩ - ١٩٦٨)، الشاعر فهد شريح، الشهيدة هدى محمد مصطفى شعلان (١٩٦٣ - ١٩٨٥)، الشهيد الدكتور عصام السرطاوي (١٩٣٤ - ١٩٨٣)، السياسي توفيق العبد الله (ــ ١٩٣٥).

* * *

يقول الشاعر الأردني المعروف حيدر محمود في قصيدة بعنوان «في ظلال السيوف»:

حين ركبنا صهوات الريح
وصرخنا: هبي يا رياح الجنّة
والخيل على مَدِّ الساحات تصيح . .
كنا أول رواد الموت . .
حفرنا كل مسالكه بأظافرنا
لم نعرف . .
حتى جربنا . .
أنَّ أظافرنا تملك هذا السحر
وإنَّا نملك، نحن المقهورين المذبوحين
بسكين الخيبة
أنْ نرفع أيدينا في وجه الريح!

الباب الرابع:

لواء الجليل

ويضم أقضية:

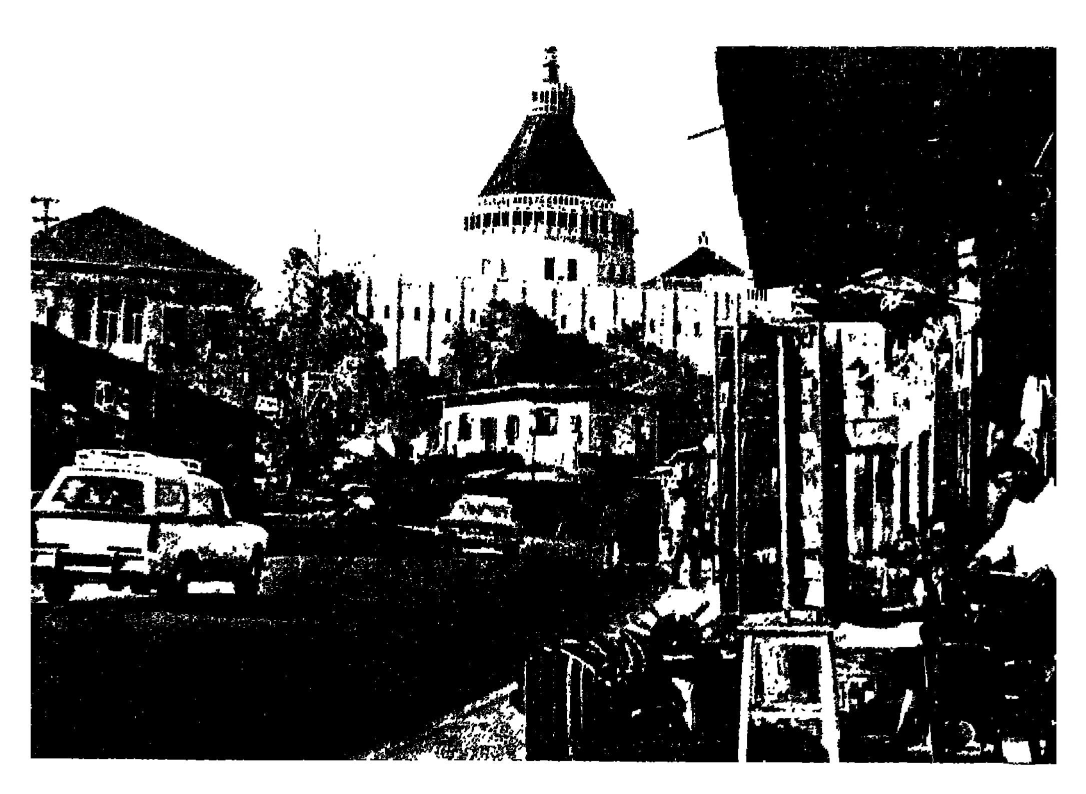
الناصرة، طبرية،

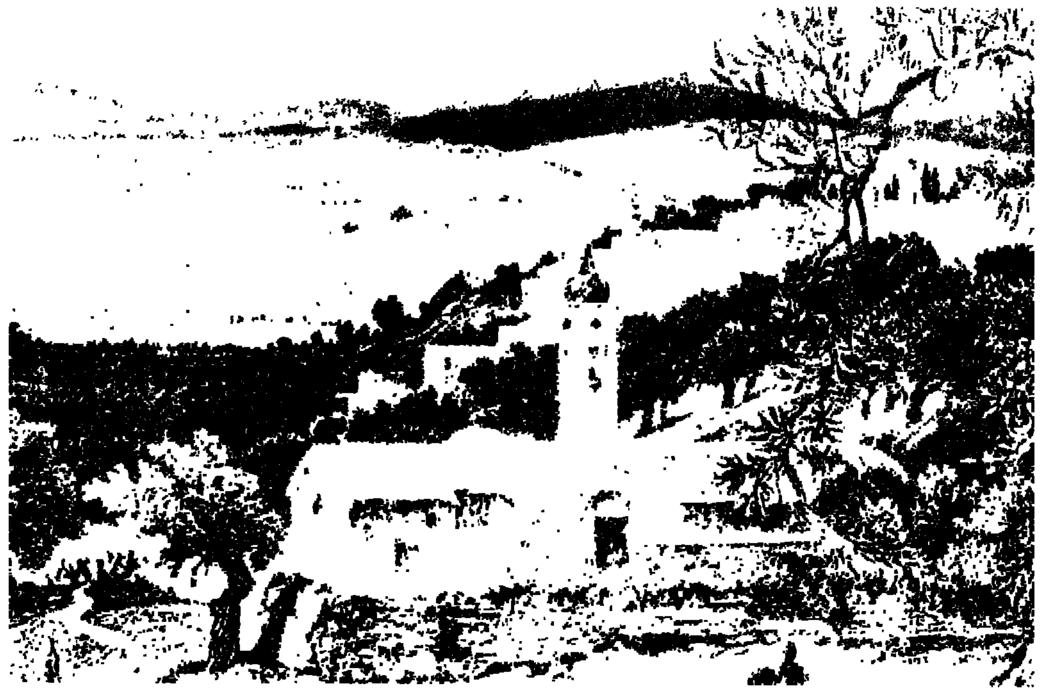
صفد - بيسان

يا تراب الجليل

يا ترابَ الجليل، يا مِسْكَ أجْدادي، عزيزٌ ما أوْرَثَتْنَا الجُدودُ
نحن في عمقك المقدس جذر ليس تنسيه نكبة أو عهود
لن نملَّ البقاءَ حتى ولو في القيد نبقى وسوف تَفْنىٰ القيودُ!
كل طفل يجيء عهد بقاء وصمود، فهلهلي يا عهود
كل بيت نبنيه يهدمُ ليلاً كاملاً، فاعمروا الجليلَ وشيدوا
كل زيتونة يمين وفاء يا جليلاً ترابه معبود
عربياً كالميجنا والعتابا سوف تبقى، ويُدْحَرُ التَّهويد!

سالم جبران





الناصرة

أقحوانة الجليل

ثلاث صور فاتنة تم وشمها في ذاكرتي أثناء زيارتي لوطني الفلسطيني المحتل: صورة القدس الحبيبة وهي غافية بين أحضان جبل الزيتون، وصورة حيفا وهي تناغي جبل الكرمل وأمواج المتوسط، وصورة الناصرة وهي متربعة بـدلال وخيلاء. وسط الروابي المحيطة بها.

إن الواقف على أية رابية في الناصرة لا يملك إلا أن يؤخذ بروعة المنظر وندرته وحيث يسهل عليه أن يبصر جبل الشيخ وبيسان وطبرية ونهر الأردن شرقاً، والأبيض المتوسط وحيفا وعكا غرباً، وصفد وجبال نابلس شمالاً وجنوباً.

* * *

من حيفا انطلقت سيارتنا عبر طريق جبلي إلى الناصرة، السائق يسرع، وأنا أحثه على التمهل في تسياره، أريد أن أروي ظمئي برؤية كل شبير من وطني، أريد أن أطبع في الذهن كل صورة ممكنة لبلادي، فـإذا كانت مشيئة الرحمن قـد قضت بحرماني من رؤيتها والعيش فيها فلا أقل من مشاهدتها والتمعن بها ما دامت الفرصة متاحة وقد لا تعوض!!

مناجاة زيتونة

في الطريق مررنا بشجرة زيتون شامخة بهامتهـا في أحد مـزارع البقوليـات، صحت بسائقنا حامد: ناشدتك الله يا أخي أن تقف بنا إلى جوارها. . لقد أثارتني وحدتها. . وانتصابها في عالم يكاد لا يحس بوجودها، ولما اقتربت منها طرحت عليها

أرفع التحايا، ناجيتها. . لثمت أوراقها! غازلت أغصانها، تحسست حباتها الناعمة المباركة، وفجأة بدأ مرجل الغضب يغلي في عروقي ويفور، أوشكت أن أحطم الغصن في يدي نكاية في عدونا، ورغبة في تكبيده بعض الخسائر ولكن بطريقة ساذجة!! وكدت أفعلها لولا هاتف هز وجداني: لا تفعلها يا رجل فهذه الزيتونة جزء لا ينفصم من تاريخ أمتك. . .وتاالله أنها أكثر أصالة من كل أفواج المهاجرين الصهاينة الذين قذفتهم إلى ديارنا كل لعنات التاريخ. . فتقهقرت. . وأخذت أناجيها من جديد، فأكبرت في أوراقها ديمومة الاخضرار، وفي جذورها عمق التحدي، وفي جذوعها روعة الصمود، وأية الكبرياء.

لقد أشفقت على الفلاح الفلسطيني ورثيت لحاله، فقد غرسها ولم يظفر بثمارها، وربما استشهد دونها. ووجدتني أردد بعضاً من قصيدة الشاعر الناصري توفيق زياد: «على جذع زيتونة»:

سأحفر قصتي وفصولَ مأساتي
على بيَّارتي، وقبورَ أمواتي
سأحفر رقْمَ كل قسيمةٍ من أرضنا سُلِبَت
وموقعَ قريتي، وحدودِها
وبيوتَ أهليها التي نُسِفَت
وأشجاري التي اقتُلِعت
وكل زهيرةٍ برية سُحِقت

* * *

سأبقى قائماً أحفر
جميعَ فصول مأساتي
وكل مراحل النكبة:
من الحبَّة. . إلى القُبَّةِ
على زيتونة. . في ساحة الدار. .

* * *

وواصلنا المسير. . وكان «الجمال الأخّاذ» أول عنوان قرأناه على جبين الناصرة، البيوت «والفيلات» مترامية بهندسة بديعة على الجبال والسفوح، وكلها

تقريباً ذات علامة «جمالية» مميزة، حيث الجدران المشيدة بالحجر «القدسي» والمسقوفة بالآجر الأحمر «الكرميد»، وانتشار أشجار الصنوبر والتين والعنب والزيتون والرمان. وبساتين المشمش الناصري الذي يتمتع بمذاق خاص يعرفه أهل فلسطين بالمشمش اللوزي. وبمجرد دخولك أحد أطراف المدينة تشعر بطابعها العربي الأصيل الذي تلمحه للوهلة الأولى في قسمات الوجوه المختلفة، والأسواق المعهودة، والأزِقَّةِ التي تشتَمُّ أثناء تجوالك فيها نسمات التاريخ العربي...

وعندما بلغنا قلب المدينة فتحت لنا بعض صفحات من تاريخها.

وطن المسيح

ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان «أن الناصرة: فاعلة من النصر، ومنها اشتق اسم النصارى». وفي التاريخ القديم لم يرد ذكرها في مختلف مصادر تلك الفترة. أما أقدم ذكر لها فقد ورد في الإنجيل، ففيها ولدت السيدة مريم عليها السلام التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين.. وفيها بُشِّرت بأنها ستكون أم المسيح.

وفي الناصرة استنشق السيد المسيح عبير النبوَّة الكريمة.. وقضى ما يقرب من ثلاثين عاماً في ربوعها.. وإليها نُسب ودُعي بالناصري، ودُعي اتباعه بالنصارى... ولذلك تكثر فيها الكنائس والأديرة، ويؤمها الحجاج المسيحيون من كافة بقاع الأرض، ولقد كان موقعها الاستراتيجي العظيم اضافة إلى مكانتها الدينية السامقة سبباً في تعرضها لكثير من الأحداث والتطورات سلباً وايجاباً.

وتقوم الناصرة في قلب الجليل الأدنى وتطل على سهل مرج ابن عامر من الشمال، فهي لذلك نقطة انتقالية بين السهل والجبل. وقد كان الفاتحون يخططون للسيطرة على الناصرة للتحكم في سهل مرج ابن عامر منفذ الجيوش الطبيعي. ولا يزال لموقع الناصرة أهميته التجارية والسياحية والعسكرية.

ويضاعف من أهمية موقع الناصرة أنها عقدة مواصلات تتفرع منها طرق برية إلى المدن والقرى المجاورة، وتتصل الناصرة بمدن المرتفعات الجبلية الفلسطينية وقراها، وبالسهول الساحلية والداخلية وبغور الأردن، وبطرق الأقطار العربية المجاورة في لبنان وسورية والأردن ومصر، ولقد ازدهرت عاصمة الجليل وحفلت بالأحداث في عهد الميلاد المجيد، ويذكر الرواة أنه عندما هدم الامبراطور الروماني «تيطس» مدينة

القدس عام ٧٠م وحرم على اليهود دخولها، اتجهوا إلى الجليل وبقوا في الناصرة حتى عهد قسطنطين الذي طردهم فور تنصيره عام ٣٠٦م. وبنى فيها الكنائس والأديرة وتبعد الناصرة مسافة ٤٧ كم عن عكا، و ٦٦ كم عن رأس الناقورة شمالاً. و ٦٨ كم عن القدس. واشتهرت الناصرة منذ القدم بكثرة ينابيعها وآبارها، والتي جفت خلال الحكم الإسرائيلي، وأصبحت الناصرة اليوم تبتاع كل مائها من شركة مياه إسرائيلية! وتغزل في مدينة الناصرة وجمالها عدد من الأدباء والرحالة، وقال فيها القس الياس مرمورة قصيدة طويلة نقتطف منها هذه الأبيات:

تَـراءَتْ لنـا من (زَرْعـينَ) مـديـنـةٌ ... تُـزاحِمُ سُحْبَ الجَوِّ في طَلب المَجْـد
تـلوحُ كَـوَشْـيٍ فـي مـطارفِ غـادةٍ ... أو الـوشم في زند أو الشـام في الخد
وقـد رَكِبَتْ مَتْنَ الجبـال وأشْـرَفَـتْ ... على مـرجهـا واليم والغـور والنجـد
مليكـةُ حُسْن فـوق عَـرْشٍ تَـرَبّعَتْ ... محـاسِنُهـا تبـدو على القُـرب والبُعـد
لقـد شَـرُفَتْ ذِكـراً بـأشْـرفِ سَيِّـدٍ ... بمن ذِكْره يـربـو على الـطِّيب والنِّـدِّ
هـو السيـد الأعلى يسـوع بن مـريم ... مـآثـره جَلّت عن الحَصْـر والـعَـدِّ
فَكُنْ حـافـظاً مَـوْلاي بَلْدتَـك التي ... نَشَـأْتَ بها صبيّـاً صادق الـوُدِّ والعهـد
مجيـراً لهـا في كـل خَـطْبٍ ونـاصـراً ... على عـاديـات الـدهـر والشـر والضـد

من الناحية الإدارية كانت الناصرة تابعة «لجند الأردن» يوم كانت طبريا قاعدة له. وفي سنة ١٣ هجرية (٦٣٤م) دخلت الناصرة في حوزة المسلمين حيث فتحها البطل العربي شرحبيل بن حسنة فاتح شمال فلسطين. ذكر المسعودي في «مروج الذهب» أن «المسيح عليه السلام كان بقرية يقال لها ناصـرة من بلاد اللجـون من أعمـال الأردن وبذلـك سميت النصرانيـة، ورأيت في هذه القـرية كنيسـة تعظمهـا النصارى، وفيها توابيت من حجارة فيها عظام الموتى يسيل منها زيت ثخين كالرُّب تثيرك به النصارى».

واستمرت مسيرة التاريخ وعاش في الناصرة المسيحيون والمسلمـون متآخين متحابين عملاً بأوامر الرسالتين العظيمتين..

وعاشوا بتآخ يضرب به المثل حتى يومنا هذا، فهي مدينة مسيحية ـ إسلامية متحابة، وموحدة، وقد علق أحد السائحين على مدى عمق الإخاء بين أتباع الديانتين بقوله: «إن سكانها مسيحيون لكنهم أشبه بالمسلمين»! هذا وقد تحدث برنارد الحكيم عن جو الحرية الدينية في الناصرة عند زيارته لها عام ٨٦٩ أثناء العصر العباسي فقال:

«يوجد سلام تام بين المسيحيين والمسلمين، ولو كنت مسافراً ومات جملي أو حماري الذي يحمل أمتعتي أترك كل شيء في مكانه بلا حارس وأذهب إلى أقرب مدينة فأستأجر دابة وأعود فأجد عند رجوعي كل شيء كما تركته».

فضيلة التسامح

جاءت الحملة الصليبية المسعورة. . واستولى أدعياء «الصليب» على الجليل بعد سقوط القدس. ولم تسلم الناصرة من كوارث الغزو ومآسيه. وفي عام ١١٠٠ ميلادية «كانت الناصرة خراباً من جراء معارك صليبية أخرى».

ولم تطل محنة الناصرة. . فسرعان ما انتصر البطل صلاح الدين الأيوبي على جحافل الصليبيين في موقعة حطين المشهورة عام ٥٨٣ هجرية، وفتح البطل (مظفر الدين كوكبوري) عاصمة الجليل.

وهنا. . سجل تاريخ التسامح الديني مفخرة جديدة لبطل حطين ذو القلب الكبير، فمع سقوط الحملات الصليبية سقطت مخاوف ودعاوى بعض رجال الدين المسيحي من بطش المسلمين. . وسلك صلاح الدين سلوك الخلفاء الراشدين والحكّام الصالحين. . فأظهر عطفه على الناصرة وسكانها بما يتلاءم مع نفسه المسلمة الكريمة، فلم يتعرض بأذى لغير الأعداء والمحاربين. . . بل إنه أكد مروءته وتسامحه فعين بعض رجال الدين في كنائس القدس وبيت لحم والناصرة، إلى جانب ما كان في تلك الكنائس من رجال الدين الأرثوذكس والسريان واليعاقبة.

بقيت الناصرة بأيدي المسلمين بعد صلح الرملة، لكنها عادت إلى الفرنج، وتبودلت عدة مرات بين الطرفين حتى عام ١٢٦٣ ميلادية حيث هاجمها الظاهر بيبرس، وبرغم انتصاره وقدرته على تحريرها من المغتصبين إلا أن التاريخ قد سجل عليه نقطة رمادية. تمثلت في اساءته لسكان المدينة. . وقتله للكثيرين منهم، بل وهدمه لعدة كنائس وأديرة. . . وهكذا أهينت الناصرة على يد الظاهر بيبرس من حيث عزز صلاح الدين تسامحه!!

معيشة طيبة

كسائر المدن الفلسطينية والأكثرية من المدائن العربية دخلت الناصرة في حوزة العثمانيين في عام ١٥١٧ ميلادية، وحتى عام ١٩١٨، وخلال تلك القرون الأربعة

مرت بالناصرة أحداث تاريخية عدة. ويذكر المؤرخون بأن المدينة المقدسة قد أخذت تلملم جراحها بعد نكبة عام ١٢٩١ ميلادية. فدبت فيها الحياة شيئاً فشيئاً... وسكنتها قبائل شتى من الأعراب مسلمين ومسيحيين.

وجميع النصارى على اختلاف مذاهبهم يقدسون الناصرة، ويجلونها، ولا غرو أن ينشئوا فيها العديد من الأماكن المقدسة التي تقدر بخمسة وعشرين كنيسة وديراً تخص أغلب الطوائف المسيحية: أورثوذكس - كاثوليك - لاتين - روم - موارنة - بروتستانت[1]. هذا.. وقد ذكرت الناصرة ٢٩ مرة في العهد الجديد، ويقول مؤلفا «جغرافية فلسطين» الصادر عام ١٩٢٣ عن الناصرة ما يلي: «المعيشة فيها طيبة، وفيها مستشفيات وأديرة كثيرة تذكاراً للسيد المسيح الذي نشأ وقضى معظم حياته فيها، والناصرة عزيزة عند ٦٦٥ مليوناً من المسيحيين مثل أختها بيت لحم، وقد دعوا بالنصارى نسبة إليها، ودُعي مخلصهم بالناصري نسبة إلى هذه البلدة التي كانت من أحط قرى الجليل في تلك الأيام، والذي أكسب الناصرة أهمية كبلدة مسيحية قسطنطين الملك عند تنصره، ومن ذلك الوقت بنيت فيها الكنائس والأديرة، وأمَّها الزوار، واهتم بها الصليبيون وجعلوها قاعدة دينية مهمة لهم[2].

وأهم الشخصيات القيادية التي زارت الناصرة: نابليون بونابرت - الملك أدوارد السابع - الملك جورج الخامس، الملك همبرت الأول ملك ايطاليا وغيرهم.

* * *

في نهاية القرن التاسع عشر زار الرحالة «بيير لوتي» الناصرة، فأُعجب بجمالها، وسجل مشاهداته في ذلك الحين ومما ورد فيها قوله: قرب نافورة السيدة العذراء التي صعدنا إليها على صهوات الخيل، كان الصباح صحواً ونساء الناصرة يتجمعن ليملأن جرارهن من مياه «النهار».

ولما كانت تلك النافورة بالذات هي التي غذت المدينة منذ أقدم العصور، فإن مما لا ريب فيه أن المسيح كان يأتي إليها مراراً مع أمه، وكانت المشاهد تكاد تشبه ما نراه اليوم.

---

(١) بلادنا فلسطين - مرجع سابق.

(٢) جغرافية فلسطين - خليل طوطح - مرجع سابق.

كانت النسوة يتمايلن بمرونة رشيقة وسط شعاع الشمس على حافة النافورة العتيقة المغطاة بالحجر، وينحنين حتى يضعن جرارهن المملوءة بالماء، وهي تماثل الفخار الذي نجده محفوظاً منذ ألفي أو ثلاثة آلاف عام.

وعلى طول الشارع الصغير المترب الذي نتابع فيه السير بعد التوقف عند الكنائس تطل محلات (السروجية) حيث تباع سروج الخيل المزركشة بطلاء مشرقي جميل، وتبدو وراء الحيطان القصيرة للحدائق أشجار التين والرمان والنخيل الذي تطوقه أشجار الكروم.

قضاء الناصرة

إبّان العهد البريطاني على فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ كان قضاء الناصرة يضم ٢٦ قرية عربية. إضافة إلى ٢٢ مستعمرة يهودية اثنتان منها فقط أنشئتا في العهد العثماني، والبقية أنشئت بمباركة بريطانيا، وكان يقطن هذا القضاء حوالى عشر قبائل عربية صميمة منها: الصبيح. المزاريب، الحجيرات، الغزالين، المجيدات، الخليفات، السبارجه وغيرها.

كان عدد سكان القضاء يقدر بسبعين ألف نسمة، تقطن أغلبيتهم في الناصرة. أما قاطنو القرى فهم يعتزون بأن النبي يونس عليه السلام ظهر في ديارهم، وبأن السيد المسيح قام فيها ببعض معجزاته، ومن أشهر قرى القضاء: معلول ـ كوكب ـ طرعان ـ تمرة ـ المجيدل ـ كفر منده ـ كفركنة، العفولة، سولم، الدحي، الناعورة، صفورية، عين ماهل.

وبجوار الناصرة توجد غابة صنوبر واسعة أطلق عليها أعداء ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا «غابة بلفور» قدمت هدية من يهود بريطانيا تخليداً لذكرى اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا وصاحب «وعد بلفور» المشهور. وتبلغ مساحة هذه الغابة ٤٠٠ فدان وفيها أكثر من نصف مليون شجرة مغروسة حسب طرق زراعية متقدمة.

وكانت الناصرة في بدء الانتداب البريطاني ضمن أكبر مدن فلسطين وأعظمها، وكانت طوال فترة الانتداب في طليعة المدن التي ناضلت ضد البريطانيين واليهود على السواء، وسجل «الناصريون» مواقف وطنية عديدة تشهد لهم بالبطولة والأثرة والتضحية.

وتذكر موسوعات النضال الفلسطيني بأنه عندما أعلنت الحكومة البريطانية موافقتها على نتائج «اللجنة الملكية» بتقسيم فلسطين، شملت البلاد موجات استنكار شديدة أدت إلى حدوث تمرد واسع ضد الحكم البريطاني، وبلغت ذروة الغضب الجماهيري يوم ٢٦ من سبتمبر عام ١٩٣٧ حينما اغتيل الجنرال د.و. أندروز وكيل حاكم لواء الجليل في الناصرة.

فكانت حادثة الاغتيال الشرارة التي أشعلت نار الثورة الفلسطينية ١٩٣٧ - ١٩٣٩. وعلى إثر ذلك اتخذ البريطانيون اجراءات صارمة، فأمرت بحل اللجنة العربية العليا واعتقلت بعض أعضائها ونفتهم إلى جزيرة سيشل في المحيط الهندي، وعندما صدر قرار التقسيم عام ١٩٤٧، أقيم في الناصرة فرع للجنة العربية العليا بزعامة إبراهيم الفاهوم، وكانت هذه اللجنة عبارة عن بلدية جديدة شعبية إلى جانب البلدية الرسمية، وعملت هذه اللجنة مع الهيئات الوطنية في المدينة على توحيد الأهالي ورعاية شؤونهم.

ومن المواقف المؤثرة في هذا المجال، ما أورده عميد الأدب الوطني العربي أستاذنا الأكرم أكرم زعيتر في مذكراته عن تلقيه رسالة من أحد أصدقائه بتاريخ ١٩٣٨/٨/١ تضمنت وصية الشهيد الفتى محمد محمود أحمد حسين من قرية (كفر مندا) - الناصرة قبل تنفيذ حكم الاعدام يوم الاثنين ٢٥ - ٧ - ٣٨ وهو في الثانية والعشرين من عمره، وقد جاءت الوصية في صورة كتاب موجه إلى أبيه ومؤرخ في ٢٠ تموز ومختوم بختم سجن عكا المركزي. يقول زعيتر: هذا كتاب عظيم قرأته فبكيت اعتزازاً ببطولة كاتبه الشهيد اعتزازا بأمتي، هذه الرسالة يجب أن تطبع وتوزع على كل بيت فلسطيني وتوضع في إطار لتعلق وسام فخار بكل دار. إنها آية إيمان ودعوة إلى النصر أما الوصية فهذا هو نصها:

سبحان الحي الذي لا يموت سبحان من له الدوام ولا دايم غير الله.

لحضرة والدنا العزيز محمود أحمد حسين المحترم بعد تقبيل أياديكم والسؤال عن شريف خاطركم مع كثرة الأشواق إليكم أُعرفكم يا والدنا أن سألتم عنا فإننا سننتقل إلى رحمة الله يوم الاثنين الواقع في ١٩٣٨/٧/٢٥ الساعة ٨ صباحاً لأن القائد العام وافق على إعدامي بالتاريخ المذكور ولأن مدير سجن عكا بلغنا ذلك فالرجاء يا والدنا أن تحضروا وجميع المحبين من أهل بلدنا لأجل رؤياكم لأننا مشتاقون لكم عند وصول تحريرنا هذا قبل تنفيذ الحكم ويا والدنا أرجوكم أن تقول

للشيخ حسن الإمام أن يقول إلى أهل البلد رجالاً ونساء وأولاداً أن يسامحونا بما عملنا في دار الدنيا.

وتمضي الوصية وتقول: ويا والدنا أرجوكم أنه عندما تتسلموا جثتي أن لا تبكوا أبداً بل يجب أن تهللوا وتكبروا وتصبروا إن الله مع الصابرين لقوله تعالى ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ .

سقوط الناصرة

في اليوم السادس عشر من يوليو (تموز) عام ١٩٤٨ هوى وطن المسيح، وسقطت المدينة المقدسة في مستنقع الاحتلال الصهيوني، وانتصبت رايات الحداد على الناصرة، وكان حدادها مضاعفاً.. كونها سقطت.. والسقوط وحده يستحق الحداد.. ولكونها لم تأخذ نصيبها في الجهاد هذه المرة.. وهي أخطر المرات طرا، فمنذ دخوله إلى منطقة الجليل أذاع فوزي القاوقجي القائد العام «لجيش الإنقاذ» بياناً يحث المواطنين الفلسطينيين على تسليم أسلحتهم لقيادة الجيش في أقرب فرصة، لأن الجيش سيتولى مسئولية الدفاع عن الأهالي بل وسحق القوات الصهيونية!!

ولأن الناصريين ما تعودوا غير الصدق، وما ألفوا إلا إياه، فقد استجاب الأهالي لأوامر «جيش الإنقاذ» وسلموا أسلحتهم وانتظروا النصر الموعود.. فجاء بدون معاناة ولكن الذي قطف ثماره هم الأعداء... لقد كان أسهل سقوط عربي.. وأسهل نصر صهيوني إذا استثنينا حرب حزيران الأسود.

يقول المجاهد المرحوم عبد الله التل في مذكراته «حينما انتهت الهدنة الأولى ونشب القتال ثانية بين العرب واليهود، أخذ الأعداء يهاجمون جيش الإنقاذ بقوات كبيرة تساندها المدفعية الثقيلة والدبابات. وفي يوم ١٩٤٨/٧/٢٦م هوجمت مدينة الناصرة من ثلاث جهات ولم يكن في المدينة سوى فوج ضعيف تنقصه الأسلحة الثقيلة والدبابات، وما كادت طلائع اليهود تحتل المشارف المحيطة بالمدينة حتى بدأت قوات الإنقاذ تشق طريقها للانسحاب بعد أن وجدت أن المقاومة لا تجدي نفعاً. وحينما رأى السكان الخطر المحدق بالمدينة رفعوا الأعلام البيضاء، وتقدم وفد منهم برياسة رئيس البلدية وطلبوا الاستسلام، فقدمت لهم الشروط وقبلوها فوراً،

وانسحب جيش الإنقاذ إلى ترشيحا وتم لليهود الاستيلاء بدون قتال على جميع القرى المحيطة بالناصرة.

ويقول الأستاذ أنيس صايغ «وبضياع الجليل (وقاعدته الناصرة) فَقَدَ العرب أهم قاعدة لحرب تحريرية شعبية، كان من الممكن لو بقيت بأيدينا أن تغير مجرى تاريخ القضية الفلسطينية من أساسه»!!

هذا وقد كشفت إحدى الصحف العبرية[1] بعد أكثر من ثلاثين عاماً على سقوط الناصرة بأنه كان من المقرر (حسب الخطة الإسرائيلية) تشريد أهالي الناصرة، ولكن القائد الصهيوني الذي احتلها ويدعى «ابن دونكمان» رفض تنفيذ هذا الأمر إلا إذا سُلِّم له خطياً (لا شفوياً) مما أدى إلى إصدار أمر خطي باقالته، ولكن في هذه الأثناء أصبح من الصعب تشريد أهالي المدينة[2].

وعلى العكس من ذلك فقد تحولت الناصرة. إلى ملجأ يأوي آلاف المشردين الفلسطينيين من القرى المهدومة التابعة للقضاء.

الناصرة شعلة نضال

وبعد وقوعها في مستنقع الاحتلال الصهيوني الأبغض عاشت الناصرة ـ مثل سائر المدن والقرى الفلسطينية ـ تحت الحكم العسكري الجائر، فحدد تحركات الناس وتنقلاتهم إلا باذن مسبق. وفرض حصاراً قاسياً على الشركات والمؤسسات الإنتاجية، الأمر الذي أدى إلى إفلاس كثير منها، وتسريح مئات العمال العرب الذين أصبحوا بلا عمل. فتظاهرت الناصرة وأضربت عدة مرات، ومازال أبناؤها يذكرون يوم أول (مايو) أيار عام ١٩٥٨ حيث انطلقت مظاهرة عارمة ضد سياسة «الخنق» التي مارستها السلطة المحتلة ضدهم. فتحولت الناصرة في ذلك اليوم إلى ساحة حرب فجرح العشرات واعتقل نحو ٣٥٠ شخصاً ونفي ١٧ آخرين نفياً إدارياً. وتكررت المظاهرات بعدئذ وخاصة بعد إزالة الحكم العسكري عام ١٩٦٥، ولعل أبرز هذه المظاهرات قاطبة تلك التي حدثت في يوم الأرض بتاريخ ١٩٧٦/٦/٣٠. وبعد خمس سنوات من ذلك التاريخ شهدت المدينة مظاهرة مخيم العمل التطوعي، والذي

---

(١) جريدة «هعولام هزيه» بتاريخ ١٩٨٠/٧/٩م.

حضره مواطنون فلسطينيون من كافة المدن الفلسطينية إضافة إلى مواطنين عرب من الجولان، وعدد من الوفود الأجنبية، ولقد تم إنجاز ٩٥ مشروعاً في هذا المخيم لصالح المواطنين، علماً بأن كافة التكاليف تبرع بها عرب الأرض المحتلة عام ١٩٤٨. ودعماً لنضالات جامعة بير زيت الوطنية فقد تقرر في ذلك اليوم إطلاق اسم بلدة بير زيت على أحد شوارع مدينة الناصرة العربية.

وقامت السلطات الإسرائيلية باعتقال ٧٧ متطوعاً من عرب الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ بسبب مشاركتهم في ذلك المخيم.

ويهمنا أن نسجل فقط بعض المناسبات التي احتفلت أو تظاهرت وأضربت فيها مدينة الناصرة، وإضافة لما ذكرنا فهناك مناسبة الذكرى الخامسة ليوم الأرض، ثم مناسبة انعقاد المؤتمر القُطري للسلطات المحلية العربية لمواجهة الأزمة المالية التي تعاني منها السلطات المحلية العربية في قرى ومدن فلسطين المحتلة لعرب عام ١٩٤٨. وجدير بالذكر أن إسرائيل تقدم للمجالس البلدية العربية ٢٥ بالمائة فقط مما تقدمه للسلطات المحلية اليهودية[١].

● مظاهرات تنديد بالحفريات التي تقوم بها إسرائيل في المسجد الأقصى.

● الاحتفال السنوي يوم ٢٤ من أكتوبر في كل عام بمناسبة وفاة الشاعر الوطني الفلسطيني المعروف، عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى).

● قيام موظفي بلدية الناصرة باضراب مفتوح رداً على سياسة الحصار المالي التي تمارسها إسرائيل.

● اتخاذ بلدية الناصرة قراراً بتاريخ ٢/٩/١٩٨٠ بفتح جامعة في مدينة الناصرة كرد على سياسة التجهيل التي تمارسها إسرائيل ضد عرب فلسطين المحتلة.

● قيام مهرجان وطني نظمته حركة النساء الديمقراطيات في الناصرة تحت شعار «ليسقط الاحتلال، والحرية للنساء ولكل الشعب الفلسطيني البطل».

● انعقاد مهرجان بمناسبة اعادة انتخاب الشاعر الفلسطيني المعروف توفيق زياد رئيساً للبلدية.

---

(١) مجلة صوت فلسطين - فبراير (شباط) ١٩٨٢م.

● احتفال تضامني مع مدينة بورسعيد المجاهدة، واستنكار العدوان الثلاثي على مصر العروبة عام ١٩٥٦.

● الاحتفال بمناسبة تأميم مصر لقناة السويس،

● إقامة حفل تأبين بمناسبة وفاة الزعيم العربي جمال عبد الناصر.

● استنكار زيارة الرئيس المصري محمد أنور السادات للقدس، وتوقيع اتفاقيتي كامب ديفيد.

● الاحتجاج الصارخ على الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، حيث هتفت الناصرة بصوت واحد: «من الناصرة لبيروت ـ شعب حي ما بيموت».

* * *

كانت الناصرة في طليعة المدن الفلسطينية الأكثر تحضراً وانفتاحاً على العالم، وشهدت في فجر هذا القرن نهضة علمية وثقافية نشطة، وورد في «جغرافية فلسطين» أن «الحياة العلمية في الناصرة راقية، ففيها عدة مدارس، اثنتان للحكومة، ومدرسة للكاثوليك، وعدة مدارس للأجانب، وكانت فيها دار المعلمين الروسية وهي من أهم المدارس الفنية، وقد أخرجت عدداً لا يستهان به من المعلمين الذين تربوا على الأصول البيداغوجية الصحيحة» ومن ضمن الذين تخرجوا من هذه الدار بعض الأدباء العرب في المهاجر الأمريكية أمثال ميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة وغيرهما .

كما تَشَكل في الناصرة أول مجلس بلدي لها عام ١٨٧٥ ميلادية، وكان طنوس قعوار أول رئيس لبلدية الناصرة، أما رئيس بلديتها الحالي فهو الشاعر المعروف توفيق زياد.

والحق أن المجلس البلدي للناصرة يقوم بمهام كبيرة لخدمة المدينة ومواطنيها، برغم أن السلطات الصهيونية تضيق عليه كافة السبل لعرقلة مسيرته الخيرة، ولقد عبر رئيس المجلس وعضو الكنيست الإسرائيلي توفيق زياد عن ألمه العميق لوضع المجالس البلدية في فلسطين المحتلة وأكد أن البلديات العربية في إسرائيل تعيش في ظل تمييز عنصري واضح، ميزانيتها السنوية لا تتعدى ٣٠ إلى ٣٥ بالمئة بالنسبة للفرد الواحد بالمقارنة مع البلديات اليهودية. أما ميزانيات التطوير الاقتصادي فيها فهي

تقريباً صفر. وفي حين تصرف مئات الملايين من الليرات الإسرائيلية على مدينة يهودية مثل الناصرة العليا المجاورة للناصرة العربية. لا يصرف شيء تقريباً في الناصرة، حتى أنه لا يوجد عندنا في المدينة مصنع واحد، ومصادر الرزق محدودة، إذ أن ٨٠ بالمئة من الأيدي العاملة من العرب تغادر يومياً مدنها وقراها إلى المدن والقرى اليهودية للعمل، ويرجعون للنوم مساء في مدنهم العربية حتى أنهم يقولون إن المدن العربية أصبحت فنادق ضخمة للنوم فقط[1].

ومدينة الناصرة العليا التي يسميها اليهود «نتسيريت علييت» وُضِعَ حجر أساسها عام ١٩٥٦ على أنقاض أربع قرى عربية، وذلك تنفيذاً لسياسة «تهويد الجليل» التي تتبعها سلطات العدو. والمدينة حالياً هي مدينة عصرية غنية بعشرات المصانع، ويزيد عدد ساكنيها عن عشرين ألف نسمة. وتم نقل كافة الدوائر الحكومية إليها.

أما الناصرة فهي من أكبر المدن العربية داخل «إسرائيل».

وكما تمتاز الناصرة بالشوارع والمنازل ذات الطابع الشرقي المعهود، فهي تزخر كذلك بالمتاجر المختلفة التي تبيع الهدايا التذكارية التي يصنعها الناصريون كالسجاد والأوعية النحاسية والصدفية والخشبية التي يمثل بعضها الأماكن المقدسة في المدينة. وقد شاهدت كتيباً صهيونياً يدعو السياح لمشاهدة كنائس الناصرة «والتمتع برنين الأجراس التي تدعو إلى الصلاة» كما يزعمون.

لقاء مع حسام الدين

وفي أحد أحياء المدينة دخلت إلى إحدى المكتبات، وفي الحقيقة أنني دهشت عندما وجدت أرففها مكدسة بمئات الكتب العربية في شتى دروب المعرفة، ولم أجد مشقة في التعرف على «حسام الدين» أحد شريكين يمتلكان المكتبة العامرة.

وأخذ يحدثني بكل اهتمام عن أوضاعهم المعيشية كعرب داخل الكيان الصهيوني منذ تأسيسه عام ١٩٤٨، وتطرق إلى القول بأن بقاء الدولة اليهودية في شكلها الحاضر يواجه خطراً من قنبلة ديموغرافية (سكانية) موقوتة من صنع إسرائيل ذاتها أكبر من خطر العبوات الناسفة التي يزرعها الفدائيون العرب.

وقال «حسام الدين» إن عددنا نصف مليون فلسطيني نقيم في منطقة الجليل

---

(١) مجلة الحوادث ـ ١٥/٤/١٩٨٣م.

وهناك مليون وربع المليون آخرين يقيمون في الضفة الغربية وقطاع غزة، أي أن عدد الفلسطينيين في «إسرائيل» يقدر بحوالى ١,٧٥٠,٠٠٠ نسمة.

إن معدل الولادة بيننا يكاد يكون ضعف المعدل بين الإسرائيليين، وخذ الآلة الحاسبة لتريك كم من الوقت سيتطلب الحال الذي يصبح اليهود فيه الأقلية.

وهذا ما تخشاه «إسرائيل» على المدى البعيد نسبياً، وصدقني لقد اكتشفنا محاولات إسرائيلية «لعقم» الرجال العرب كي يضعوا حداً لازدياد معدل الإنجاب بيننا، ألم تطلع على تصريح الجنرال افيغدور ابن غال حاكم الجليل للإذاعة اليهودية؟ لقد قال: «. . . إن النصف مليون عربي من الجليل ينتظرون فرصة للاطباق علينا وخنقنا. إنهم يزدادون تشبعاً بروح النضال والقومية التي يستمدونها من مواطني الضفة والقطاع. إنهم كلهم يشكلون سرطاناً في جسم إسرائيل».

قلت له هامساً: أخفض صوتك يا حسام، ألا تخشى بطشهم؟

هز رأسه بلا مبالاة وقال: لقد سئل القرد مثل هذا السؤال فأجاب: لقد غضبت السماء على القرد فمسخته قرداً، فماذا تتوقعون أن يُمسخ بعد ذلك؟!! ولا نامت أعين الجبناء!

أماكن تاريخية

أقامت وزارة السياحة الصهيونية مكتباً للاستعلامات السياحية في الناصرة، يقوم بارشاد السائحين، وبتوزيع كميات هائلة من الكتيبات الإعلامية عن المدينة ومعالمها التاريخية. ومن أهم هذه المعالم:

● **عين العذراء (بئر مريم):**

هو النبع الرئيسي للمدينة، ونسب إلى مريم العذراء لأنها كانت تجلب منه الماء. وتعتقد إحدى الطوائف المسيحية بأن الملاك قد بشر العذراء على النبع حينما كانت تملأ جرتها، ثم أتم البشارة في البيت.

● **كنيسة البشارة:**

تعود تسميتها إلى مقولة شبه مؤكدة على أنها المكان الذي بَشَّرت فيه الملائكة

السيدة مريم عليها السلام بأنها ستلد إبناً وتسميه المسيح. قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾.

وهي الكنيسة الأولى التي تجذب أنظار السائحين، وتأتي في الطليعة مغارة البشارة التي كانت تؤلف جزءاً من مسكن مريم على غرار ما كانت عليه مساكن الناصرة التي كشفت الحفريات عن كثير من بقاياها.

وخص المسيحيون هذه المغارة بأعظم إكرام منذ القدم لأنها تعتبر أقدس الأماكن المسيحية، وكنيسة البشارة الحالية بنيت حديثاً بين عامي ١٩٦٠ ـ ١٩٦٩. وقد أفرغ الجهد في أن تحافظ الكنيسة السفلى على كل ما تبقى من الكنائس السابقة، وأن تكون مغارة البشارة محور كل هذه التحفة الفنية. ففي سقف الكنيسة السفلى فتحة كبيرة تمكن من رؤية المغارة من الكنيسة العليا، والقبة التي تعلو السقف تخيم على المغارة .

وشُيِّدَ البناء الأول لهذه الكنيسة في منتصف القرن الرابع للميلاد، وكانت إحدى أعظم الكنائس في العالم، وبقربها يوجد الموضع الذي انتوى اليهود أن يطرحوا منه السيد المسيح إلى الأسفل، لكنه «جاز في وسطهم ومضى» كما نص انجيل لوقا.

● **كنيسة القديس يوسف:**

أُقيمت هذه الكنيسة في فترة متأخرة حيث يعتقد بأن مكانها كان حانوتاً ليوسف النجار، وبيتاً «للعائلة المقدسة» حيث قضى المسيح عليه السلام صباه.

● **كنيسة البلاظة (مائدة المسيح):**

أسستها طائفة اللاتين النصرانية في القرن السادس الميلادي، وجدد بناؤها عام ١٨٦٠ ميلادية، يبلغ طولها ١٢ قدماً وعلوها ثلاثة أقدام، ويعتقد أنصار هذه الطائفة بأن المسيح تناول طعام الغداء عليها مع تلاميذه.

● **كنيسة سيدة الرعشة (دير البنات):**

بنيت على جبل الرعشة أو القفزة عام ١٨٨٢ ميلادية، ويعود سبب تسميتها إلى

تقليد نصراني منذ القرن التاسع يرى أن مريم العذراء عندما علمت بأن اليهود مضوا بابنها إلى جبل القفزة ليطرحوه من علٍ، هرولت لتلحق به، ولما بلغت المكان وجدت أرتال اليهود عائدة، فدب الذعر في قلبها وارتعشت أطرافها، ولم يهدأ روعها حتى اطمئنت عليه فسكنت خواطرها وهدأت سَوْرتها.

● **دير سيدات الناصرة:**

يضم عدداً من الكهوف التي يعتقد بأنها قريبة الشبه ببيت مريم العذراء والقديس يوسف النجار.

هذا وتوجد بالناصرة حوالي ٢٥ كنيسة وديراً، يؤمهما أفراد الطوائف المسيحية التسع الموجودة بالمدينة. وهذه الطوائف هي: اللاتين، والروم الكاثوليك، والموارنة، والروم الأرثوذكس، والبروتستانت، والأرمن، والأقباط، والسريان.

عائلات من قضاء الناصرة

تنسب إلى قضاء الناصرة عائلات فلسطينية كثيرة، من بينها:

الزعبي، الفاهوم، الصفدي، البيطار، قبطان، يزبك، أبو جوهر، الأشقر، أبو العسل المالظي، توما، جبور، جحشان، جرجورة، الصباغ، الحايك، دانيال، الديراوي، سركيس، السكران، شمشوم، الصايغ، طبراني، عازر، عاقلة، عويد، الفار، القبطي، قبعين، قعوار، اللبابيدي، السحتوت، نخلة، يامينية، عون الله، الهوارة، بيدس، فران وغيرها.

شخصيات بارزة من قضاء الناصرة

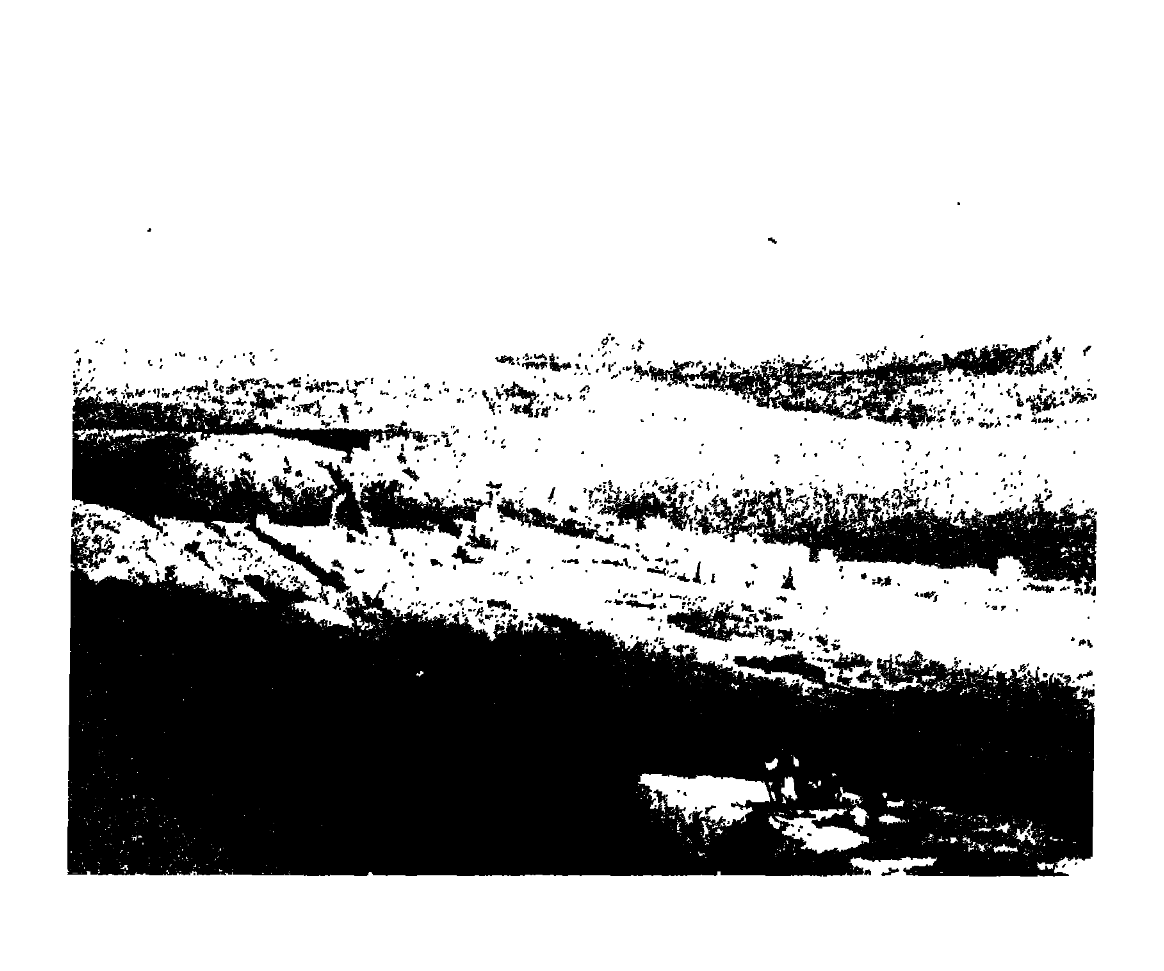
الأديب خليل إبراهيم بيدس (١٨٧٥ ـ ١٩٤٩) المناضل فؤاد نصار (١٩١٤ ـ ١٩٧٧) الصحفي نجيب الخوري نصار (١٨٦٥ ـ ١٩٤٨) الأديبة مي زيادة (١٨٨٦ ـ ١٩٤١) الأديب نعمة الصباغ (١٨٨٦ ـ ١٩٧١) الأديبة اسمى طوبي (١٩٠٥ ـ ١٩٨٣) الصحفي سليم قبعين (١٨٧٠ ـ ١٩٥١) الدكتور المؤرخ نبيه أمين فارس (١٩٠٦ ـ ١٩٦٨) القس أسعد منصور، أديب ومؤرخ (١٨٦٢ ـ ١٩٤١) الشاعر الشهيد مطلق عبد الخالق (١٩٠٧ ـ ١٩٣٧). الكاتب توفيق معمر (١٩١٧ ـ ١٩٨٨) الدكتور يوسف عبد الله حداد (١٩٠٠ ـ . . . .) ابراهيم الفاهوم، الشاعر الشهيد راشد حسين (١٩٣٦ ـ ١٩٧٧) الشهيد محمد محمود أحمد حسين (١٩١٧ ـ ١٩٣٨)

الشيخ الشهيد أمين العـوري (... ـ ١٩٣٦)، الشيخ المجـاهد نـاصر الـزعبي، المجاهد الشيخ علي النمر، المجاهد عبد اللطيف الفاهـوم، الأستاذة كلثـوم نصر عوده، خليل خليف، المجاهد القائد توفيق ابراهيم، المجاهد الشيخ مفلح السالم، المجاهد علي خربوش، الدكتور أمين عوده، شفيق عبد الله منصـور، محمد نمـر الهواري، المجاهد نمر أبو النعاج، الشهيد الفنان ناجي العلي (١٩٣٩ ـ ١٩٨٧)، الياس يوسف ابراهيم صهيون، توفيق الفاهـوم رئيس بلدية النـاصرة، اليـاس رزق صهيون وغيرهم.

* * *

في طريق عودتنا إلى خان يونس أخذت أقرأ قصيدة «توفيق زياد»: عشـرون مستحيل:

هنا على صدوركم، باقون كالجدار
نجوع.. نعْرى.. نتحدَّى..
ننشد الأشعار
ونملأُ الشوارعَ الغضابَ بالمظاهرات
ونملأُ السجونَ كبرياء
ونصنع الأطفال.. جيلاً ثائراً.. وراء جيل
كأننا عشرونَ مستحيلْ
في اللد والرملة والجليلْ
إنّا هنا باقون
فلتشربوا من البحر
نحرس ظل التين والزيتون
ونزرعُ الأفكار كالخميرة في العجينْ
برودة الجليد في أعصابنا
وفي قلوبنا جهنم حمرا
إذا عطشنا نعصر الصخرا
ونأكل التراب إن جعنا، ولا نرحلْ..
وبالدم الزكي لا نبخل، لا نبخل، لا نبخل
هنا.. لنا ماض، وحاضر، ومستقبل.



طبـريـة

قيثـارة الوطـن

طبرية.. اسم خالد في دنيا الجمال والجاذبية، لا يستطيع أحد إدراك عمق جمالها إلا حين يراها بعينيه، ويتحسسها بيديه ورئتيه ووجدانه.

واسم «طبرية» منقوش في ذاكرة الجمال نقشتين: أولاهما: طبرية البحيـرة، وثانيتهما طبرية المدينة.

أما البحيرة فتسمى ببحر الجليل، وهي في شكلها الذي أوجدها الله عليه تشبه القيثارة، ويبلغ طول سواحلها حوالي ٥٣ كم، وأبعد عمق لها يصل إلى ٤٥ متراً، أما طولها فيبلغ ٢٢ كم وعرضها ١٢ كم تقريباً، أما متوسط انخفاض البحيرة فيبلغ ٢١٠ أمتار.

من حيث تاريخ البحيرة فهو قديم جداً، ولعل أول ذكر لها هو الذي ورد في انجيل «يوحنا»، ويقال أن السيد المسيح عليه السلام دخلها مع بعض حوارييه ذات صباح، فهبت رياح شديدة أحدثت الهياج في مياه البحيرة الهادئة، فـانتهرهـا عليه السلام «فصار هدوء عظيم». ويقـال أنه اختـار أربعة صيـادين من أتباعـه العاملين بالبحيرة وأرسلهم لنشر رسالة المحبة والسلام.

كانت البحيرة ـ وما برحت ـ فتنة للمشاهدين، ومنبعاً لأخيلة الأدباء والشعراء والفنانين، وقد كان الخلفاء الأمويون أكثر من أخذوا ببهاء مناظرها، وروعة مشاهدها، فأقاموا على ضفافها قصوراً شتوية فخمة، ويحدثنا التاريخ بأن موكب القائد العربي المظفر موسى بن نصير مرَّ بسواحـل البحيرة وهـو في طريقـه إلى الشام قـادماً من الأندلس تنفيذاً لتعليمات الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك.

البحيرة: إلهام الشعراء

وفي طبرية أمضى شاعر العرب الفحل أبو الطيب المتنبي ثلاثة أعوام في ضيافة واليها بدر بن عمار الطبرستاني، فأوحى إليه جمال البحيرة الأخاذ بقصيدة جاء فيها:

لولاكَ لم أترك البحيرة والـ   غور دفيء، وماؤها شَبِمُ
والموج مثل الفحول مزبدة   تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها   فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضربها   جيشا وغى هازم ومنهزم
كأنَّها في نهارها قَمَرٌ   حف بها من جنانها ظلم
ناعمة الجسم لا عظام لها   لها بنات وما لها رحم
يبقر عنهن بطنها ابناً   وما تشكى ولا يسيل دم
تغنَّت الطيرُ في جوانبها   وجادت الروض حولها الديم
فهي كماوية مطوقة   جرد عنها غشاؤها الأدم

وفي إحدى قصائده تغنى أمير البيان العربي شكيب ارسلان ببحيرة طبرية في قصيدة رائعة قال فيها:

بحيرةٌ كل شأنها عَجَب   وهي من الحسن كلها غُرَرُ
مرآة نور من السفوح لها   إطارُ نورٍ لم تحْكه الأُطُرُ
كأنها في صفائها فلك   وفلكها فيها انْجُمُ زُهُرُ

ولابن طبرية وقاضيها الشاعر طاهر الطبري قصيدة ورد فيها:

الماس إن سألوكَ عنه فقل لهم   هذي البحيرةُ سطحهاالماسُ
واللؤلؤ الوضّاح في صفحاتها   متناثرٌ هو كلّه ايناس
والشمس إنْ عكست أشعتها بها   هَدَلَ الحَمامُ وأنْصَتَ الجُلاّسُ

ومياه البحيرة ذات نفع عظيم للسكان فمنها يشربون، ويروون أراضيهم ومزروعاتهم، ومنها يرتزقون حيث يصطادون السمك، الذي تتوافر منه أصناف كثيرة تزيد عن العشرين صنفاً.

وقد لاحظ بعض الدارسين وجود تشابه كامل بين كثير من الأسماك التي تعيش في البحيرة وبين التي تعيش في نهر النيل. وكان معظم صيادي الأسماك قبل نكبة

فلسطين من الفلسطينيين أنفسهم، أما بعد النكبة فقد تغير الحال وأصبح الصهيونيون هم المستغلون وحدهم.

وإلى جانب الثروة السمكية فهناك الثروة الجمالية التي تتمتع بهاالبحيرة وتدر دخلاً جيداً على سكان المنطقة. إذ تحيط بسطح البحيرة المائي السهول والأودية والمنحدرات الجبلية.

أما الجانب الشرقي للبحيرة فأصبح بعد النكبة منطقة مجردة من السلاح بين سورية و«اسرائيل»، وقد برزت الأهمية السياسية للبحيرة خلال عام ١٩٢٢ عند تعيين الحدود السورية ـ الفلسطينية بين فرنسا وبريطانيا، فقد تم الحاق البحيرة ضمن الحدود الفلسطينية من أجل إرضاء الصهيونية العالمية التي كانت تمارس ضغطاً قوياً على كل من فرنسا وبريطانيا أثناء تخطيط الحدود، وذلك من أجل حملهم على ضم معظم المصادر المائية إلى فلسطين «تمهيداً لسيطرة (اسرائيل) عليها، وعندما صمم جونسون في الخمسينيات مشروعه الأمريكي لاستثمار مياه نهر الأردن وروافده، كان تصميمه مبنياً على أساس أن تكون بحيرة طبرية التي وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي بعد عام ١٩٤٨ خزاناً طبيعياً للمياه. تصبح معه الدول العربية المجاورة والمنتفعة من هذا المشروع تحت رحمة «اسرائيل» ويكون المشروع تمهيداً للصلح بين العرب واسرائيل»[١].

مدينة طبرية

تقع في الشمال الشرقي من فلسطين، وتقوم على شاطىء بحيرة طبرية الغربي، وهي تبعد مسافة ١٦٠ كم عن القدس، و٨٦ كم عن عكا، وقد بنيت عام ٢٢م. وسميت باسم طبياريوس الامبراطوار الروماني المشهور، وكانت حينئذ ذات أهمية لأنها تطل مباشرة على البحيرة، وبسبب قربها من الحمامات المعدنية التي كان الرومان يهتمون بها في ذلك الوقت.

في سنة ١٣ هـ (٦٣٤م) فتح العرب مدينة طبرية بقيادة البطل شرحبيل بن حسنة، وقيل إنه صالح أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم. ثم أصبحت فيما بعد عاصمة «لجند الأردن» ووصفها المؤرخون بأنها قصبة الأردن ومدينته الكبرى. وقد

---

(١) بلادنا فلسطين ـ مرجع سابق.

احتلت هذه المكانة السامقة بالنظر لوقوعها على طريق القوافل التجارية ما بين دمشق ومصر مارة بالكسوة وغزة وسيناء ثم مصر. وحباها الله جمالاً وروعة، فقد تجمعت فيها كل مفاتن الطبيعة ومباهجها، وتمتاز هذه المنطقة بدفء في فصل الشتاء وبجفاف الهواء طيلة أيام السنة، وبصيف حار لكنه مقبول وله جماله وسحره.

ومن ناحية أخرى كانت للدراهم الطبرانية العتيقة التي ضربت في طبرية أهمية كبيرة حيث كانت هي العملة النقدية التي تعامل بها عرب الجاهلية في تجارتهم مع الرومان.

وظلت كذلك حتى ضرب خالد بن الوليد الدراهم الإسلامية، وحلت محل الدراهم الطبرانية كما أرسل الخليفة عثمان بن عفان إلى طبرية سنة ثلاثين للهجرة مصحفاً لكي يقرأ المسلمون فيه القرآن الكريم واندثرت أهمية طبرية حقبة من الزمن، وقد وصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري بأنها «ضيقة، كربة في الصيف، مؤذية، بها ثماني حمامات بلا وقود، ويقال أن أهل طبرية شهرين يرقصون، وشهرين يقمقمون، وشهرين يثاقفون، وشهرين عراة، وشهرين يزمرون، وشهرين يرقصون من كثرة البراغيث»!!

وفي القرن الحادي عشر زارها الرحالة الفارسي ناصر خسرو، ومما قاله عنها: «ولطبرية سور عظيم حصين يبدأ من شاطئ البحر، ويمتد حول المدينة، وفي بحر طبرية سمك كثير، ومسجد الجمعة في وسط المدينة، وفي الجانب الغربي مسجد اسمه «الياسمين» وهو مسجد جميل في وسطه ساحة كبيرة بها محاريب، وتحت هذه الساحة قبور سبعين نبياً قتلهم بنو اسرائيل!!»

وفي عام ١١٨٧ استرجع صلاح الدين طبرية من أيدي الصليبيين قبل أن يهزمهم في معركة حطين في نفس العام، لكن الصالح اسماعيل الأيوبي صاحب دمشق سلم طبرية إلى الصليبيين عام ١٢٤٠ مع بيت المقدس وعسقلان، ولكن بعد سبع سنوات استطاع الصالح أيوب صاحب مصر استرداد طبرية وضمها إلى المسلمين.

طبرية في العهد العثماني

بعد استيلائهم على طبرية عام ١٥١٧م أصدر الأتراك قراراً بتعيين الشيخ ظاهر العمر حاكماً عليها. فأخذ ظاهر يوسعها ويزينها ويحصنها. . فبنى قلعتهاالكبرى، وبنى الجامع الزيداني.

وفي عام ١٥٦٢ سمح السلطان سليمان القانوني لليهود بالإقامة في طبرية وأصابت طبرية في القرن الثامن سِنَةٌ من النوم، وفي القرن التاسع عشر أصبحت طبرية جزءاً من ولاية عكا.

وفي عام ١٨١٢ نزلها الرحالة بيركهارت. ومن ضمن انطباعاته عنها قوله «لا يوجد في طبرية خان للمسافرين، فذهبت إلى خوري الكاثوليك، وأبديت له رغبتي في الحصول على مفاتيح الكنيسة لأوي إليها، وقد أعطاني إياها فعلاً. إلا أنني وجدت المكان يعج بالهوام فانتقلت إلى فناء الكنيسة المكشوف فبت فيه».

أما الدكتور طومسون الذي زارها سنة ١٨٣٦ فيقول عنها: وكأنه يصف أبنية ظاهر العمر، تقوم مدينة طبرية على الساحل الشمالي الغربي من البحيرة، ويحيط بها سور طوله مائة خطوة من الشمال إلى الجنوب، ويتجاوز عرضه من الشرق إلى الغرب أربعين خطوة من الشرق. . خيمنا قرب الحمامات وارتفع ميزان الحرارة في منتصف الليل إلى ١٠٠ درجة فهرنهيت، وكان البخار يتصاعد من البحيرة كما يتصاعد اللهيب من بركان ثائر، وكان المكان مليئاً بالحشرات والهوام. . في البحيرة صيادون قلائل من العرب الفقراء حملنا أحدهم في قاربه، وان أنسى لا أنسى ما حييت هذه السفرة السحرية الممتعة خصوصاً بعد أن توارت الشمس في الحجاب وظهرت النجوم على القبة الزرقاء ورسمت أشعتها على صفحة الماء فغدت وكأنها صفيحة من الفضة، وبقيت في هذه الأحلام حتى اقتربنا من الشاطىء الشمالي قرب المجدل، وأدار البحار شراعه عائداً بنا إلى المكان الذي بدأنا منه رحلتنا[1].

ويذكر السائح بدكر الذي زارها سنة ١٩١٢ في دليله المشهور:

في طريقي من الناصرة إلى طبرية ظهرت لي البحيرة فجأة من خلال تلك المرتفعات الغربية وكأنها مرآة مجلوة ـ وقد أوصلها جبل الشيخ بالقبة الزرقاء، كما

---

(١) فلسطين. . أرضاً وشعباً وقضية ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

عملت لها الجبال المحيطة بها إطاراً تعجز البشرية عن صنع شبيه له. . وفي حماماتها استحم أحد مشاهير الفرنسيين وقال عنها ان مياهها شبيه بمياه «اكس لا شابل» بفرنسا ويشتم منه رائحة الكبريت وفيها ملح ومغنيسيوم، وقفنا على الرابية الشمالية من المدينة واجتلينا منظر البحيرة الذي يأخذ بالألباب، كما شاهدنا بقايا القلعة والجامع. وفي الساحة بعض أشجار النخيل، ولما تقدمنا نحو المدينة كانت السرايا بقبابها العديدة على يسارنا، أما الجامع بمئذنته العالية وقد جدد مؤخراً فكان على يميننا، وتحت السرايا في باب المدينة الشمالي بنت إرسالية الكنيسة الأسكتلندية مستشفى لخدمة سكان هذه المنطقة، وكان دير الروم قد بنى سنة ١٨٦٩ على أنقاض كنيسة صليبية وفيها كنيسة صغيرة للروم الكاثوليك ودير الفرنسسكان.

ويضيف قائلاً: وطبرية اليوم مركز قضاء من لواء عكا يسكنها ثمانية آلاف وستمائة نسمة ومنهم سبعة آلاف يهودي و ١٤٠٠ مسلم، و ٢٠٠ مسيحي.

يهود طبرية

تعتبر طبرية إحدى المدن الأربع المقدسة عند اليهود إضافة إلى القدس والخليل وصفد. وينبئنا التاريخ بأنه عندما أحرق القائد الروماني «تيطس» مدينة القدس عام ٧٠م استقر عدد من علماء اليهود وأحبارهم في طبرية، وأصبحت مركزاً للتعليم اليهودي، حيث جمع فيها «المشنة» وقسم كبير من «الجمارة» وهما قسما التلمود، وتضاعفت أهميتها في القرن الثاني الميلادي بوجود المجلس اليهودي الأعلى فيها وهو المعروف بـ«السانهدريم»، وحتى القرن الماضي كان يهود طبرية يعيشون في حي خاص بهم يفصلهم عن بقية البلدة سور عال له بوابة ضخمة تغلق بعد غروب الشمس، ولا تفتح مصاريعها إلا عند شروق الشمس في اليوم التالي.

ويحدثنا الرحالة الذين زاروا طبرية أوائل القرن العشرين بأن اليهود كانوا يتمتعون بحرية دينية مطلقة، وكانوا يتزوجون في سن مبكرة جداً «ولا يستغرب أن ترى أمهات عمر الواحدة منهن أحد عشر عاماً، أو آباء عمر الواحد منهم ثلاثة عشر عاماً، وحاخام طبرية يتبع الحاخام الأكبر في صفد الذي يصدر الأحكام النهائية بالنسبة لجميع المشاكل المختلفة في الشريعة والدين».

ولعمري هل هناك تفسير لذلك الزواج المبكر جداً سوى زيادة النسل اليهودي تنفيذاً لخطة اغتيال الحق العربي وتهويد فلسطين!

وقد جاء في دليل بدكر الصادر عام ١٩١٢ «يسكن طبرية ثمانية آلاف وستمائة نفس منهم حوالي سبعة آلاف يهودي لهم سبعة معابد، وأكثرهم من مهاجري بولونيا ويتكلمون الألمانية ويعيشون على الصدقات التي تصلهم من أوروبا، وهم يلبسون برانيط «قبعات» كبيرة وسوداء وجببا عليها فراء حتى في أشد أيام الصيف حرارة.

والأماكن المهمة التي يتبرك بها اليهود بالمدينة حتى اليوم هي:

١ـ قبر «ميمونيدس» وهو عالم لاهوت يهودي، توفي عام ١٢٠٤م.
٢ـ قبر «ماير» وهو أهم مكان مقدس عندهم لاعتقادهم أنه كان يقوم بالعجائب!

٣ـ نصب «أكيفا» وهو الذي كتب «المشنة» قبل أن يعتقله الرومان. وكذلك قبور بعض مشاهير علماء التلمود.

مع بداية الانتداب البريطاني على فلسطين، وجه الصهيونيون أنظارهم صوب مدينة طبرية، ثم تتابعت موجات متلاحقة من المهاجرين اليهود إلى المدينة للاقامة فيها. وبعد الاحتلال الصهيوني لفلسطين عام ١٩٤٨ أصبحت مدينة طبرية إحدى مدن التطور الرئيسة في فلسطين المحتلة.

السكان

يلاحظ أن سكان طبرية في الماضي كانوا أكثر عدداً من سكان بعض المدن المجاورة، فقد وصل عدد سكانها في العهد الإسلامي حوالي ٣٥,٠٠٠ نسمة، ولذلك بطبيعة الحال أسباب عديدة من أهمها مناخها الملائم لزراعة بعض المحاصيل المعينة، ووجود الينابيع الحارة إلى جوارها حيث كانت تلك الينابيع سبباً مهماً في جذب الراغبين في العلاج من فلسطين وبلاد الشام الأخرى. كما أن المدينة تعتبر من أهم المشاتي الفلسطينية ـ بعد أريحا ـ حيث كان يؤمها الأثرياء بشكل خاص من أجل الدفء والاستشفاء. إضافة إلى توافر الأسماك المتنوعة، وتوافر الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة.

وبرغم استمرار الهجرة اليهودية إلى المدينة، فإن ذلك لم يقلل من نسبة السكان العرب فيها. فقد قدر عدد سكانها عام ١٩٤٥ بنحو ١١,٠٠٠ نسمة من العرب واليهود معاً. في الوقت الذي قدر فيه عدد سكانها بعد النكبة الأولى في عام ١٩٤٨ وإجبار السكان العرب على تركها بنحو ٥,٥٦٦ نسمة كلهم من اليهود.

وقد مارس عدد من السكان اليهود مهنة التجارة في حين اعتمد الكثيرون منهم

على المعونات التي كانت تنهال عليهم من الصندوق القومي اليهودي في أوروبا لقاء بقائهم في طبرية.

أما بعد النكبة فقد أصبحت السياحة هي الوظيفة الرئيسة في المدينة حيث توجد عدة أماكن أثرية تجذب السياح إليها ومن أهمها الحمامات.

حمامات طبرية

تقع على بعد كيلومترين إلى الجنوب من مدينة طبرية، وهي مشهورة وذات مياه معدنية غنية بالمعادن والمواد الكيميائية المختلفة. والحمامات عبارة عن ينابيع حارة تنبجس من الأرض، التجأ إليها الانسان منذ قديم الزمان ـ وما زال ـ فاستخدم مياهها المعدنية للتخلص من أمراض الروماتيزم والأمراض الجلدية والاضطرابات العصبية والنقرس وغيرها.

ومن المعروف أن درجة حرارة هذه الينابيع تصل إلى ٦٢ درجة مئوية مما يستوجب تبريدها.

وتاريخ حمامات طبرية قديم، وقد جمعت تحت قباب ثلاث قام إبراهيم باشا بتشييد آخرها عام ١٢٥١ هـ والحمام عبارة عن حوض كبير بجواره حمامات صغيرة يجري الماء الساخن من خلالها حيث يستخدمه الأفراد للاستحمام. وطوال مدة بقائها كانت هذه الحمامات على امتداد تاريخها وقفاً إسلامياً صرفاً، ولكن بمجرد أن ابتلانا الله بالاستعمار البريطاني أخذ جلادوه يكتمون أنفاس شعبنا ويضيقون عليه رزقه فادعت حكومة الانتداب ملكيتها لهذا الوقف، وقام خلاف طويل كانت خاتمته حصول هيئة الأوقاف الإسلامية على ثلث الحصة فقط!

وقبيل الانتداب البريطاني على فلسطين أُعْطِيَ لبنانيان امتياز تعمير الحمامات واستثمارها لمدة ٣٥ عاماً ابتداء من عام ١٩١٠، لكن الحكومة البريطانية عمدت فيما بعد إلى تعطيل هذا الامتياز، وأسندت مهمة التعمير إلى شركة يهودية بإيجار رمزي!

هذا، وقد زار طبرية الرحالة العربي الأشهر ابن بطوطة، فأعجبته حماماتها.. ومما ذكره في وصفها:

سافرت من صيدا إلى طبرية.. وفيها الحمامات العجيبة ـ أحدها للرجال والثاني للنساء. وبها حمامات بلا وقيد ـ وماؤها ملحي كبريتي نافع من ترهل البدن

ومن الجرب، ومن غلبة البلغام وإفراط العبالة، وأعجب حماماتها ما هو في قرية الحسينية في واد هو عمارة قديمة ـ هيكل يخرج الماء من صدره ومن إثنى عشر موضعاً كل عين مخصصة لمرض من الأمراض، وإذا اغتسل بها صاحب المرض يبرأ بإذن الله تعالى. والماء أشد حرارة وأعذب وأطيب. يقصد هذه الحمامات أصحاب الأمراض المزمنة وأصحاب العاهات، فيغتسلون فيها ومنفعتها ظاهرة. ومسجد الجمعة في وسط المدينة. وعند مدخله عين حارة، بني عند رأسها حمام ماؤه ساخن، فلا يستطيع أحد أن يصبه على جسده من غير أن يمزجه بماء بارد، وفي الجانب الغربي من المدينة مسجد الياسمين، وفي وسطه ساحة كبيرة ومحاريب حولها الياسمين الذي سمى المسجد باسمه.

قضاء طبرية

كان قضاء طبرية ـ قبيل عام ١٩٤٨ ـ يضم ٢٦ قرية عربية، إضافة إلى ٢٤ مستعمرة يهودية، أما في الوقت الراهن فقد زالت عن الوجود جميع القرى العربية في القضاء باستثناء ثلاث منها فقط!

وكانت مدينة طبرية هي مركز القضاء ولها أهميتها التجارية والدينية والزراعية فهي المدينة الرئيسة في منطقة الغور الشمالي، وتمتاز أراضيها بزراعة الحبوب والخضراوات إضافة إلى وفرة الأسماك، وهذه المزايا إضافة إلى وجود الحمامات المعدنية والمناظر الخلابة والأجواء الصحية، جعلت أهالي طبرية يستشعرون السعادة والعافية، وهناك مثل يضرب في هذا المقام يقول: «من يعش في طبرية، يسعد بالعيشة الهنية».

ومن ناحية أخرى فقد اكتشف علماء الآثار في عام ١٩٣٧ في خان المنية واحداً من أقدم المساجد المعروفة حتى الآن، يبلغ طوله ٢٠ متراً، وعرضه ١٣ متراً، ويتصل بقصر للخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

ومن أهم قرى القضاء:

● سمخ: تبعد عشرة كم عن طبرية وترتبط بها عن طريق البحيرة التي تسير عليها مراكب تجارية تنتقل بين المدينة وسمخ، وبعد نكسة حزيران كانت سمخ هدفاً لصواريخ الثورة الفلسطينية.

● **الحِمَّة**: تقع على نهر اليرموك وبعد مسافة ٢٢ كم جنوبي طبرية و ٦٥ كم جنوبي مدينة القنيطرة السورية. ويرتبط اسم الحمة بحماماتها المعدنية الفريدة التي تعد من أهم الينابيع في العالم.

ومن جانب آخر فقد طبق الفدائيون الفلسطينيون عام ١٩٦٩ في الحمة مرحلة متقدمة في صراعهم العنيف مع الكيان الصهيوني وهي مرحلة «الاحتلال المؤقت» حيث استطاعوا احتلال الحمة ورفع العلم الفلسطيني عليها لعدة ساعات.

● **ناصر الدين**: قرية فلسطينية متواضعة، ولكنها برزت في دائرة الضوء ليلة ١٤ نيسان عام ١٩٤٨، بسبب المجزرة الرهيبة التي ارتكبها الصهاينة حيث أبادوها وأبادوا سكانها من الوجود ولم ينجُ منهم إلا من رحم ربي.

● **الشجرة**: ذكرها ياقوت الحموي في «معجم البلدان» بقوله: «اسم قرية بفلسطين بها قبر صديق بن صالح النبي عليه السلام، وقبر دحية الكلبي». وقد اقترن اسم «الشجرة» يوم ١٣ تموز عام ١٩٤٨ باسم الشاعر الفلسطيني الشهيد عبد الرحيم محمود «أبو الطيب» حيث نفذ إرادته وألقى بروحه في مهاوي الردى في معركة «الشجرة» وهو القائل لهذين البيتين اللذين يحفظهما كل فلسطيني تقريباً:

سأحمل روحي على راحتي
وأُلقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تَسُرُ الصديقَ
وإما مماتٌ يغيظُ العدىٰ

● **حطين**: تبعد نحو ٩ كم إلى الغرب من طبرية، ولم يبق من هذه القرية التاريخية سوى أطلالها التي تحيط بها مزارع البرتقال والليمون وقنوات الماء والآبار.

وفي سهل حطين وقعت معركتنا الخالدة مع الصليبيين في ٣ ـ ٤ تموز عام ١١٨٧م حيث أحرز قائدنا البطل صلاح الدين الأيوبي نصراً مبيناً. وقد قتل من الفرنج في هذه المعركة ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم وأُسرت آلاف أخرى حتى قيل أن من شاهد الأسرى ظن أن ليس هناك قتلى، ومن شاهد القتلى ظن أن ليس هناك أسرى، وذلك دليل الكثرة الهائلة في الفئتين.

وقد روى ثقاة المؤرخين بأن قيادة جيش المسلمين وضعت جندياً مسلماً واحداً ليقوم على حراسة مائتي جندي صليبي!!

ورُؤيَ بعض الفلاحين وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً قد ربطهم في طنب خيمته وباع منهم واحداً بنعل لبسه في رجله، فقيل له في ذلك، فقال: أحببت أن يقال باع أسيراً بمداس!

وخلد العماد الأصفهاني تلك المعركة بقصيدة جاء فيها:

يا يوم حطين والأبطالُ عابسة
وبالعجاجة وجْهُ الشمس قد عَبَسا
رأيت فيه عظيمَ الكُفر مُحْتَقَراً
مُعَفَّراً خَدّه والأنْفُ قد تَعِسا

هذا وقد طرد الصليبيون الجدد سكان حطين من قريتهم بعد أن مسحوها من الوجود وكأنهم يهدفون إلى مسح تاريخنا وأمجادنا، وما برح أهل حطين ـ وكل أمة الإسلام ـ في انتظار حطين جديدة، وصلاح الدين جديداً، لمقارعة الصليبية الجديدة!!

● خربة النبي شعيب: تقع على بعد ستة كيلومترات غربي مدينة طبرية، يقع بها مقام نبي الله شعيب عليه السلام، والمقام موجود في شِعب من شعاب المنطقة، وهو مكون من عمارة ذات خمسة طوابق حيث تبرز من فوقها قبة بيضاء تظلل القبر الذي يعتقد العرب الدروز انه قبر النبي شعيب عليه السلام. لذلك فالكثيرون منهم يأتون لزيارته خلال النصف الثاني من شهر نيسان (ابريل) من كل عام، ويتم تتويج الموسم في اليوم الخامس والعشرين منه، وليس لهذا التاريخ حدث معين يرتبط بالنبي شعيب بصورة مباشرة، ولكن تم اختياره لأنه الوقت الأكثر راحة بالنسبة للفلاحين، وقد كان فرصة للقاء الأقارب والأصدقاء رجالاً ونساء، وكان رجال الدين يشرحون القضايا الدينية المتعلقة بالدروز، وكانت تقام في الأيام الأخيرة لموسم الزيارة حلقات الحداء والغناء والدبكات، فتعرض كل مجموعة من المشايخ الدبكات والرقصات والأغاني الشعبية الخاصة بأهالي المناطق التي قدمت منها[1].

هذا ويعتبر النبي شعيب عليه السلام هو أكثر الأنبياء قدسية لدى العرب الدروز وهو أحد الأنبياء (الرسل ـ الأركان ـ الحدود) الخمسة الذين يؤمن بهم الدروز، وقد عاصر النبي موسى عليه السلام في الفترة التالية لخروجه من مصر، وقد ورد ذكره عدة

---

(١) مجلة فلسطين الثورة بتاريخ ١٩٨٥/٥/٤م.

مرات في القرآن الكريم ومنها ما ورد في سورة «الشعراء» من الآية ١٧٨ إلى الآية ١٨٣، وتحكى قصته مع أهل «مدين» الذين عصوه ولم يسمعوا نصائحه لهم.

ويقول الدروز أن النبي شعيب عليه السلام كان النبي غير الظاهر (الباطن) الذي [وَجَّد] النبي موسى عليه السلام، وإنه (أي النبي موسى) تزوج من فتاة كانت ترعى الماشية للنبي شعيب عليه السلام والذي كان قد تبناها، وقد أشاع اليهود فيما بعد أن النبي شعيب عليه السلام زوَّج ابنته المتبناة للنبي موسى، في الوقت الذي تنفي الديانة الدرزية نفياً قاطعاً هذه الرواية لأن الأنبياء الخمسة لدى الدروز لا يتزوجون!

هذا وتوجد في حائط الضريح صخرة محفور عليها شكل يشبه القدم الآدمية وبجوارها شق، وحسب الرواية الدرزية فالصخرة تحكي قصة موت النبي شعيب، فالشق يعني الأفعى التي لدغته في كف قدمه (الحفره). وقد ظل شعيب بعد لدغة الأفعى واقفاً على عكازه خمسة عشر عاماً (أي ظل هيكله العظمي على الصخرة طيلة هذه المدة) إلى أن عاد النبي شعيب في جسد فتى عمره خمسة عشر عاماً إلى الموقع برفقة ذويه، وأشار إلى العظام يحكى ما حدث له[1].

هذا ومعلوم أن العرب الدروز يؤمنون بتقمص الروح، أي انتقال الروح من جسد إنسان فانٍ إلى جسد إنسان حي، ويعتبر التقمص عنصراً أساسياً في الديانة الدرزية تفسر بموجبه كافة القضايا والمسائل المستعصية كما يقول الأستاذ مرزوق حلبي، وإثباتاً لهذا الأمر تزعم الرواية الدرزية أن النبي شعيب عليه السلام ظهر على القائد العربي صلاح الدين الأيوبي (وهو من أصل كردي) وعاش من (١١٣٨ - ١١٩٣) ليلة معركة حطين الفاصلة وأخبره أنه سينتصر على الصليبيين وقد تم ذلك فعلاً، ولكن بعد أن ساعده وحارب إلى جانب جيشه!

وحين يسأل أحد كيف ظهر النبي شعيب بعد آلاف السنين على موته، فهذا ما يفسره مبدأ التقمص لدى الدروز!

* * *

---

(١) المرجع السابق.

كان سكان طبرية يعيشون حياة مفعمة بالتآلف والإخاء فيما بينهم، لا فرق بين مسلم ومسيحي ويهودي، برغم كثرة عدد اليهود وتوسط عدد المسيحيين، وقلة عدد المسلمين، ولكن عندما أصدرت بريطانيا وعدها الغادر بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين تغيرت النفوس، وشحنت القلوب بالموجدة والكراهية، وكانت ليلة ١٩ من شهر نيسان ليلة لا تنسى في طبرية، فقد فاجأ اليهود المواطنين العرب من مسلمين ومسيحيين بهجوم كاسح نتج عنه احتلالهم وسيطرتهم الكاملة على الأحياء والمساكن العربية. وقد حدث ذلك كله برغم وجود الجيش البريطاني في فلسطين، بل ان قيادة هذا الجيش ذاتها ـ وبناء على خطة مسبقة مع اليهود ـ أرسلت نحو ٢٠ شاحنة تم حشر جميع العرب فيها وأرسلوهم إلى الناصرة ووضعوهم في الأديرة والجوامع، وكان اليهود مصطفين على الطريق يضحكون ويؤشرون بأصابعهم إشارات قذرة، ثم اندفع اليهود إلى بيوت العرب ونهبوا كل ما فيها من أثاث ومؤن ثم احتلوا البيوت وسكنوها كما يقول السيد طلعت السيفي أحد أبناء طبرية ممن شهدوا ذلك المشهد المأساوي[1].

وهكذا قام البريطانيون بتسليم طبرية لليهود يداً بيد في ١٩ نيسان (ابريل) عام ١٩٤٨، فكانت بذلك أول مدينة فلسطينية يسلمها البريطانيون إلى اليهود!

هذا. . وقد شارك أبناء مدينة طبرية والقضاء في النضال الوطني الفلسطيني في مختلف مراحله، ولعل أبرز الشهداء فيها البطل أحمد موسى الدلكي الذي اشتهر «بأحمد موسى» باعتباره أول شهداء الثورة الفلسطينية المعاصرة، حيث تطوع للقيام بأول عملية من عملياتها التي استهدفت نسف نفق عيلبون لافشال مشاريع العدو في تحويل مجرى نهر الأردن. والشهيد من مواليد عام ١٩١٩ في قرية ناصر الدين ومن قضاء طبرية، واستشهد في الفاتح من يناير عام ١٩٦٥ عن ٤٦ عاماً. ومن أبناء طبريا الصحفي الفلسطيني المعروف نجيب نصار (١٨٦٥ ـ ١٩٤٨) الذي أصدر جريدة «الكرمل» في حيفا والتي تميزت بدورها الطليعي في محاربة الصهيونية، ولأنه لم يكن من مؤيدي التحالف التركي ـ الألماني قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى، فقد اتهمته السلطات العثمانية بالخيانة العظمى وأصبح عرضة للملاحقة. وبعد الاحتلال البريطاني الفلسطيني أسس «الحزب العربي» في حيفا، ولاحقته القوات البريطانية

---

(١) المرجع السابق.

بعد أن أغلقت «الكرمل» نهائياً، وفي مطلع عام ١٩٤٨ توفي في الناصرة عن ٨٣ عاماً. وترك عدداً من المؤلفات الأدبية والتاريخية.

أما الشخصية الأبرز فهو المفكر فايز صايغ (١٩٢٢ ـ ١٩٨٠) الذي حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة جورج تاون في أمريكا عام ١٩٤٩ وكان من دعاة الحزب القومي السوري، واختير عضواً في المجلس الوطني واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأسندت إليه مهمة تأسيس ورئاسة مركز الابحاث الفلسطيني في بيروت، ثم عمل مراقباً للجامعة العربية بالأمم المتحدة، ثم مستشاراً لبعثة الكويت فيها وحتى وفاته في نيويورك بالسكتة القلبية. وكانت حياته زاخرة بالعطاء الفكري، وكان وراء قرار الأمم المتحدة باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، وهو الذي صاغه ووضع كلماته[1]. وترك عدداً من المؤلفات بالعربية والإنجليزية.

حاضر طبرية

لقد طمس أعداؤنا وجه طبرية العربي الصبوح، ولم يعد المتنبي ولا أحفاده يصفون أو يتغزلون بجمالها الفاتن، فلقد أضحت طبرية مصدراً لخيالات الشعراء الصهاينة، وقبلة لمتدينيهم وزوارهم. إن عدد سكانها اليوم يزيد عن ثلاثين ألف نسمة! وهي تعتبر من المراكز السياحية المهمة في الجليل، بعد أن أنشأ اليهود عدة ضواح جديدة فيها، وحدائق عامة وفنادق فخمة تزيد عن الثلاثين، ومبان حديثة، ومسابح كبيرة. وعدداً من الاستراحات ومضافات الشبيبة. وفيها أيضاً محطة للزوارق البحرية. ومحطة لمراقبة الاشعاعات النووية. وتقوم المراكب الصغيرة بنقل الركاب في البحيرة لزيارة المستعمرات المنتشرة حولها، وتناول وجبات السمك الطازجة التي تقدمها مطاعم المدينة لعشرات المئات من الزوار الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع فيها.

إن طبرية وكل المدائن والقرى الفلسطينية الأسيرة.. وأكثر من مليون أسير عربي يستصرخون ضمير العالم لانقاذهم من وطأة الاحتلال الصهيوني البغيض.

* * *

(١) تم إلغاء هذا القرار رسمياً بتاريخ ١٧ من ديسمبر عام ١٩٩١ م.

أخذت أردد مقطعاً من قصيدة للشاعر أحمد مطر:

كم على السَّيف مَشَيّتُ
كم بجمر الظلم والجوْر اكتويتُ
كم تحملْتُ من القرِّ
وكم من ثقل البلوى حَويْتُ
غير اني . . ما انحنيتُ



صفـــد..
زنبقة الجليل

غريبٌ أنا يا صفد. .
وأنتِ غريبة
تقول البيوت: هلا
ويأمرني ساكنوها ابتعد!
علامَ تجوبُ الشوارعَ،
يا عربي. . علاما؟
إذا ما طَرحْتَ السلاما
فلا من يرد السلاما
لقد كان أهلك يوماً هنا
وراحوا. . فلم يبق منهم أحد!!
على شفتي جنازة صبح
وفي مقلتي مرارة ذل الأسد
وداعاً. . وداعاً إلى ذات يوم
وداعاً وداعاً صفد!!

. . بهذه الكلمات الدامعة أوجز الشاعر الفلسطيني المبدع سالم جبران حال مدينة صفد الفلسطينية بعد سقوطها في حمأة الاحتلال الصليبي الجديد يوم الحادي عشر من مايو عام ١٩٤٨م.

إن مما يضاعف تقريح الاكباد أن تعيش صفد على امتداد تاريخها عربية أبية وفجأة يمسخ الظالم وجهها الصبوح، ويغير هويتها، ويصبغها بالصبغة الصهيونيـة!

وربما تكون صفد هي المدينة الفلسطينية الوحيدة في الجليل التي لا يوجد فيها عربي واحد سواء كان مسلماً أو مسيحياً!!

لقد حرص الصهاينة على تهويد صفد، وصهينتها تماماً، فما كادت دولة العدو تثبت أقدامها في فلسطيننا الحبيبة، حتى بادرت باقتلاع جذور مواطني صفد الشرفاء، وقذفتهم بعيداً عبر دروب التيه والضياع.

لقد استأصل أعداء أمتنا قلب مدينة صفد العربي، وزرعوا مكانه قلباً يهودياً رمادياً، استبدلوا شرايينها الصلبة النقية، وحطموا عمودها الفقري، وأزالوا كل وشم عربي حفره التاريخ على وجهها وذراعيها وحدقات عيونها، ولم يعد الزائر العربي لصفد يرطب فؤاده بصوت المؤذن مترنماً بعزة الإله.

إن من واجب صفد علينا أن نقرأ تاريخها، ونتبصر أمورها، فربما يظهر من بيننا رجل تدركه شهامة صلاح الدين، فيطهرها من صليبيي اليوم كما طهرها فارس حطين من صليبيي الأمس.

قلعة الجليل

تقع مدينة صفد في الجليل على سفح جبل كنعان الذي يقال بأنه سُمِّي بهذا الاسم نسبة إلى كنعان بن نوح الذي دعاه أبوه كي يركب معه في الفلك المشحون كي لا يغرقه طوفان الغضب الإلهي، فرفض دعوة أبيه متذرعاً بعصمة الجبل له فقال: سآوي إلى جبل يعصمني!

وصفد مدينة مهمة من الناحية الإستراتيجية بحكم موقعها الجبلي حيث جبل الجرمق أعلى جبال فلسطين ارتفاعاً يعلو بمقدار ١١٩٨ متراً عن سطح البحر الأبيض المتوسط، وتقع بين سوريا شرقاً ولبنان شمالاً، وقضاءي طبريا وعكا جنوباً وغرباً، وهي تطل على مصادر المياه في شمال فلسطين وهما بحيرة طبريا ونهر الأردن، كما أنها عاصمة الجليل الأعلى، وقلعته، وأهم موقع فيه، وقد حرص الغزاة السابقون على احتلال صفد تمهيداً للسيطرة على الجليل.

وإضافة إلى كل ذلك فصفد تمتاز بمناظرها الطبيعية الخلابة فاستحقت عن جدارة أن تكون زنبقة الجليل، وإحدى أجمل مصيفين جبليين في فلسطين إذا أضيفت إلى رام الله.. ريحانة فلسطين.

وترتفع عن سطح البحر المتوسط بما يقرب من ٩٠٠ متر، وعن سطح بحيرة طبريا بـ ١٠٥٠ متراً، مما أكسبها طقساً صيفياً رائعاً، ومما يزيد في جمالها إحاطتها بأشجار الصنوبر والتين والزيتون وكروم العنب واللوز حيث تزيدها بهاء وجمالاً، وتساعد على تلطيف جوها ونقائه.

ومما يزيد جمالها جمالاً توافر المياه في المنطقة المحيطة بها وبخاصة الينابيع التي تستخدم لأغراض الشرب والري، ومن ينابيعها المشهورة نبع العافية، نبع الزرقاء، نبع الجن، نبع التينة، نبع الرمانة وغيرها.

وتبعد صفد عن آخر نقطة حدودية في الشمال الفلسطيني مسافة ٣٠ كلم، وتبعد عن حيفا مسافة ٧٤ كلم، وعن يافا ١٧٥ كلم، وعن القدس ٢٠٦ كلم، وعن بئر السبع ٢٦٤ كلم.

ولا يقل موقعها التجاري المهم عن موقعها الاستراتيجي، فقد كانت لها أهمية تجارية حيث كانت محطة من محطات البريد على طريق القوافل التجارية بين الشام ومصر منذ العهد الروماني.

كان قضاء صفد أيام الانتداب البريطاني على فلسطين (١٩١٧ ـ ١٩٤٨) يضم نحو ستين قرية عربية و (٢٥) مستعمرة يهودية، ست منها تأسست في العهد العثماني والبقية في عهد الانتداب البريطاني.

وبعد نكبة فلسطين الأولى أزال الصهاينة أغلبية القرى العربية، ولم تبق من قرى القضاء إلا ست قرى فقط هي: طوبي، عكبرة، حرفيش، الجش، الريحانية، الصالحية.

كما كانت تقيم بالمنطقة عدة عشائر عربية هي: عرب الغوارنة الهيب، الشمالنة، كعوش، المحمدات، السيادة، الحمام.

أما بالنسبة لاسم صفد نفسه فقد ذكر بعض المؤرخين بأن هذا الاسم مشتق من «صفاة» الكنعانية، بمعنى الصخرة الصلدة، ثم حرفت فيما بعد واستقرت على وضعها الحالي، وهناك قول آخر بأنها اشتقت اسمها من «الصفد» بمعنى الوثاق أو العطاء.

صفد . . والصليبيين

بقيت صفد معزولة على قارعة التاريخ فترة طويلة من الزمن، حتى انها لم تذكر في أحداث التاريخ الإسلامي ولا في الفتوحات العربية المبكـرة، كما لم تـرد في مؤلفات العرب ورحالتهم، وبقيت مغمورة على هذا الحال حتى القرن الحادي عشر حينما احتل الصليبيون بلاد الشام. فلفتت صفد انتباههم بسبب موقعها الجبلي المهم فشيدوا على ربوتها قلعة حصينة في عام ١١٤٠م بناها القائد الفرنسي «فولك أنجو» وهي واحدة من سلسلة القلاع الحصينة التي شيدها الصليبيون لحماية الطرق الداخلية في السهول الوسطى مِّن بلاد الشام، إضافة إلى قلعة الشقيف بجنوب لبنان، وبانياس في الجولان، وكوكب الهوى بجوار بيسان.

وكانت قلعة صفد من آخر المعاقل الصليبية التي استطاع المسلمون الاستيلاء عليها في القرن الثالث عشر.

وبعد انتصار البطل صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في معـركة حـطين الشهيرة عام ١١٨٧م، قام بحصار صفد في شهر رمضان عام ٥٨٤ هـ، وقال ابن شداد في سيرته: ثم لم يزل القتال على صفد متواصلاً بالنوب مـع الصوم، حتى سلمت بالامان في رابع عشر شوال من السنة المذكورة، وخرج الصليبيون من صفد بأمان واتجهوا إلى مدينة صور الساحلية.

محنـــة

بعد وفاة القائد صلاح الدين الأيوبي أوائل مارس عام ١١٩٣م دب الخلاف في البيت الأيوبي حول اقتسـام الدولـة الأيوبيـة، وبلغ الهوان مبلغـه بالملك الصـالح إسماعيل حاكم دمشق الذي أعطى جزءاً من أملاكه ـ ومن بينها صفد ـ إلى الصليبيين طمعاً في مساعدتهم لقهر ابن عمه الملك نجم الدين، وحتى يثبت لهم «الصالح» «صفاء نيته!» منحهم علاوة على «صفد وبلادها قلعة الشقيف وبلادها ومناصفة صيدا وطبريا وأعمالها، وجبل عامل وسائر بلاد الساحل[1].

وتسلمت صفد جماعة «فرسان المعبد» أو الداوية وهي فرقة صليبية اتصفت بالتعصب الديني والتصلب العسكري ولندع ابن شداد يكمل رواية المحنة فيقول:

---

(١) قصة مدينة صفد ـ يسار العسكري ـ سلسلة المدن الفلسطينية.

«. . . فلما ملكوها استدعوا أسرى المسلمين الذين كانوا في بلاد الفـرنج. وكانوا ألف نفس والفرنج دون المائتين.

«فاجتمع الأسرى وعزموا على الوثوب بالفرنج.

«ثم فكروا أن لا بد لهم من ملجأ يلجؤون إليه ويعتمدون في الذب عنهم عليه.

«فكتبوا إلى الأمير سيف الدين علي بن قليج النوري، وهو إذ ذاك على قلعة عجلون من قبل الملك الناصر داوود الأيوبي»، ليبعث إليهم من يتسلم الحصن (فور الوثوب).

«فلما وقف عليه سيّره إلى الملك الصالح عماد الـدين اسماعيـل بن الملك العادل. . فأرسله إلى الداوية!».

«فلما اطلعوا عليه أخذوا الأسرى ودخلوا بهم عكا فذبحوهم عن آخرهم!».

ولا يملك ابن شداد إلا أن يضيف بعد ذلك: لا جزاه الله خيراً ولا أعظم لهم أجراً. .

بلى ذبحوهم عن آخرهم بمسعى الملك «الصالح» عماد الدين «ابن الملك» العادل وابن عمه الملك «الناصر» بن الملك «المعظم» وبمسعاهم لدى الفرنج!![1]

ولا نامت أعين الجبناء!!

وعلى أثر تحرير بيت المقدس استغاث قادة الصليبيين في الشرق بأسيادهم في أوروبا لنجدتهم، فتجمعت قواتهم وأقواتهم وأسلحتهم في صور، وانطلقوا منها إلى أهدافهم التي رسموها، فاحتلوا عكا بعد حصار دام نحو ثلاث سنوات، واستطاعوا الاستيلاء على صفد، وبقوا فيها حتى قيض الله لها البطل الظاهر بيبرس فحررها من مغتصبيها عام ١٢٦٧م، وما تزال قلعة صفد تحمل نقوشاً تصفه بأن «اسكندر زمانه وعمود دينه»، وجعل السلطان صفد مركز ولاية تابعة للمملكة الصفـدية وبنى فيهـا مسجداً وعيّن لها قاضياً وإماماً.

---

(١) مجلة اليوم السابع ـ ١/١٢/١٩٨٧م.

بيت الأحزان

أثناء زيارة الرحالة التركي المعروف (أوليا شلبي) إلى بلاد الشام عام ١٦٧١م مر على صفد. . فوصف انطباعاته قائلاً: «وأخيراً لاحت لنا صفد كأنها حمامة بيضاء تتحفز للطيران، وحالما وصلت إليها هرولت مسرعاً إلى مغارة«بيت الأحزان» حيث حزن يعقوب علي يوسف، وابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم، ثم ارتد إليه بصره حينما جاءه البشير بقميص يوسف، وهذا المقام الشريف يتوسط مقبرة تضم عشرات من الأبرار الصالحين الأخيار رضوان الله عليهم.

ويقال بأن الدموع التي سَحَّها يعقوب على امتداد أربعين سنة قد فتت الصخور، ثم تساقطت على الأرض، وفي هذا المكان نزل جبريل الأمين على يعقوب بواسطة شق أراده الله، «ولا يزال هذا الشق لامعاً كأن النحات تركه في التو والساعة».

كما يدعى اليهود بأنه توجد في هذا المزار قبور يعقوب وأولاده الاثنى عشر، ويذهب الكثيرون من اليهود إلى الاعتقاد بضرورة زيارته ولو مرة واحدة في الحياة، أما في حالة رفض اليهودي لتأدية هذه الزيارة فهو آثم قلبه. أما إذا انتوى ولم يستطع فأمامه ثلاثة خيارات: أن يعفّر وجهه بترابها، أو يشرب من مائها أو يستنشق دخان أشجارها!

وعلى عتبة الغار نقشت الآية الكريمة ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً﴾[1].

صفد. . ونابليون

في مطلع عام ١٧٩٩، انطلقت القوات الفرنسية من مصر إلى فلسطين بقيادة نابليون بونابرت، فاستولت على السواحل الفلسطينية، إلا أنها عجزت على اقتحام عكا برغم طول مدة الحصار المضروب عليها والذي استمر سبعين يوماً، فأخذ نابليون يرسل جنوده في اتجاه المناطق الجبلية بقصد الاستكشاف والتغلغل في البلاد.

وبعث بمفرزة من جنوده لاستطلاع طبيعة الديار الصفدية، واكتشف الصفديون تحركاتها فانقضوا على أفراد المجموعة المكونة من سبعة أفراد فأبادوها عدا قائدها

---

(١) يوسف: الآية ٩٦.

حيث ساقوه إلى عكا وقدموه هدية لواليها أحمد باشا الجزار.

فبعث نابليون بالجنرال (مورا) للزحف على قلعة صفد فاحتلها في ربيع عام ١٧٩٩م. وانتقم من أهلها انتقاماً رهيباً.

ثم خضعت صفد للحكم المصري مدة تسع سنوات (١٨٣٢ - ١٨٤١) حيث بعث محمد علي باشا بابنه إبراهيم باشا لفتح بلاد الشام بهدف التوسع والاستقلال عن حكم العثمانيين.

ويبدو أن إبراهيم باشا كان متعطشاً لشهوة السلطة، فبمجرد أن أحكم قبضته على المدينة أصدر أوامره بجمع السلاح، وزيادة الضرائب، واحتكار الحرير والتجارة بشكل عام، وفرض التجنيد الاجباري على المواطنين ليساهموا في تجسيد أطماعه.

واستاء الناس لهذه التصرفات، فعمت النقمة كافة الديار الفلسطينية بما فيها الديار الصفدية. ولما بلغت الثورة أسماع محمد علي باشا عهد إلى الأمير بشير الشهابي بجبل لبنان مهمة إخماد ثورة الصفديين بالذات، فاستجاب الأمير وعسكر مع قواته في إحدى قرى الجنوب اللبناني، وحينما علم الصفديون بالأمر اختاروا من بينهم وفداً رفيع المستوى، فقدم للأمير الولاء والطاعة فقبلهما منه، ثم توجه الأمير بنفسه إلى صفد فقابله وفد يهودي، فاشتكى إليه بأن مسلمي صفد استغلوا فرصة انسحاب الفرنسيين من عكا، فاعتدوا على اليهود ونهبوا أموالهم وممتلكاتهم، وزعموا أنهم فقدوا ما يزيد عن أربع وتسعين خزنة من الذهب!!

فطلب الأمير الشهابي من أعيان صفد أن يعيدوا ما أخذوه فوراً «فأقسموا له بأغلظ الأيْمان أن كل ما يملكه يهود صفد لا يوازي عشر معشار ما ادعوه» فلم يأبه لاجابتهم، فشدد ضغطه عليهم وعلى أرزاقهم وألقى القبض على ثمانية عشر شخصاً من وجهاء المدينة وأودعهم سجن عكا. وقد استغل اليهود تعاطف قناصل بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا معهم وتأكيدهم على صدق الرواية، فبالغوا في حجم شكواهم، إضافة إلى أنهم سمعوا بأن قناصل هذه الدول في القاهرة صاروا يضغطون من جانبهم على حاكم مصر لدفع التعويض اللازم.

واضطر محمد علي باشا أمام ذلك إلى إيفاد مندوب عنه إلى صفد لمعاينة الموقف على الطبيعة، وبرغم أن ذلك الموفد أكد في تقريره فيما بعد مبالغة اليهود في تقدير خسائرهم، إلا أن والي مصر اتخذ قراراً جائراً بحق أهل صفد قال فيه ضمن

وثيقة محفوظة في السجلات الملكية بالقاهرة ما يلي: «لكن ما دام أصدقاؤنا القناصل قد أصرّوا وصمموا وتخلّصا من هذه القائلة، فقد صدرت الأوامر خطياً إلى سليمان باشا ببيع أملاك وعقارات هؤلاء الفقراء (من أهل صفد) لتقسيم أثمانها على المدعين كذباً».

وبرغم هذا التهالك الذي أظهره الوالي المصري تجاه أسياده، إلا أنهم لم يرضوا عنه، وقاموا بتحريض العثمانيين ضده، مما اضطره إلى سحب جيشه من الشام، ومن ثم عادت البلاد إلى حكم الأتراك من جديد، وصارت صفد مركزاً إدارياً حمل اسم «قضاء صفد» وعين سعيد بك شهاب أول قائمقام لها، ثم خلفه الزعيم الفلسطيني المعروف موسى كاظم باشا الحسيني.

ومن الأحداث المؤثرة في صفد خلال القرن التاسع عشر وقوع الزلزال الشهير بها في الفاتح من يناير عام ١٨٣٧ والذي أودى بحياة (٢١٥٨) شخصاً من سكان المدينة والقرى المجاورة لها كما هو مدون في إدارة المحفوظات الملكية المصرية، وصف الدكتور طمسون الذي شاهد بنفسه الدمار الذي حل بصفد فقال: «أول نظرة ألقيتها على أكمة صفد العالية أوحت إليَّ عبرة لن أنساها، الا وهي مقدرة الرب على إنزال أعظم نقمة في لحظة واحدة على بلد مهما كانت جبارة. . لقد وقفنا مشدوهين أمام هذا الغضب الآلهي حينما أسفرت لنا الحقيقة المؤلمة بأبشع صورها، كنا في بيروت شككنا في صحة الأخبار التي وصلتنا، ولكننا الآن تيقنا أن الناقل لم يستطع لسانه أن يصف نصف الواقع». [١]

اليهود في صفد

تعتبر صفد واحدة من المدن الأربع المقدسة لدى اليهود، إضافة إلى القدس والخليل وطبريا.

ويعتقد يهود أوروبا الشرقية اعتقاداً تلمودياً بأن السيد المسيح سيضع سرير ملكه في صفد حين ظهوره في آخر الايام، ولهذا فإن قسماً كبيراً من اليهود «الأشكناز» يتخذون صفد مقراً لاقامتهم، بينما يعتقد ألوف من يهود أوروبا «السفارديم» بأن السيد المسيح سيظهر ثانية في طبرية، لذلك نراهم يقيمون فيها، كما أن يهوداً آخرين

---

(١) قصة مدينة صفد ـ مرجع سابق.

يعتقدون بظهوره عليه السلام في القدس.

وقد ذكر مؤلفا «ولاية بيروت» بأن الإحصاء الذي أجري عام ١٨٤٠ أظهر بأن مائة ألف من يهود روسيا اعتقدوا بقرب الموت العام فأخذوا يهاجرون إلى فلسطين، ولهجرتهم هذه أسباب وعوامل دينية، فإنهم يعتقدون أن الذي يدفن في الارض المقدسة لا يلاقي صعوبة بالبعث والنشور في يوم الدينونة والحساب، وإن الذين دفنوا بعيداً عن الارض المقدسة فإنهم يضطرون لحفر طرق طويلة تحت الارض حتى يقدروا على إجابة نداء الحق تعالى والوصول إلى الارض المقدسة!

وهذا الموقف يفسر لنا واحداً من أسباب الهجرة اليهودية المكثفة من الاتحاد السوفييتي سابقاً، وأوروبا الشرقية بشكل عام إلى الكيان الإسرائيلي وخاصة بعد عام ١٩٨٩.

وقد ورد في الموسوعة البريطانية بأن «مدينة صفد كانت مركزاً لمذهب يهودي يؤمن بالتصوف أو «الاتحاد بالرب»(Kobbalists) وأصبح لها أتباع في أنحاء العالم».

وذكرت الموسوعتان البريطانية واليهودية بأن الرحالة اليهودي «بنيامين توديلا» زار صفد عام ١١٧٠ ـ ١١٧١م فلم يعثر على أي وجود يهودي فيها، ولكن بعد نحو نصف قرن من ذلك التاريخ ازدهرت مستوطنة يهودية تحت حماية المماليك، وبلغ عدد العائلات اليهودية في بداية القرن الرابع عشر نحو ٣٠٠ عائلة في صفد وقراها، وقد ازداد هذا العدد في نهاية حكم المماليك بعد وصول المهاجرين اليهود إلى اسبانيا عام ١٤٩٢م. ثم ازداد وجود السفارديم «أهل الكتاب» بعد الفتح العثماني للمنطقة عام ١٥٦١م.

وعندما وقعت صفد تحت الانتداب البريطاني بتاريخ ١٩١٨/٩/٢٨ كان عدد اليهود فيها (١٩٨٦) نسمة. وقد قل هذا العدد حتى وصل إلى (٢٠٠) نسمة عام ١٩٤٠ مقابل (١٢,٨٨٨) عربي كانوا يسكنون صفد، وبعد استيلاء اليهود على صفد عام ١٩٤٨ أصبحت مدينة يهودية بالكامل».

والجدير بالذكر أن المليونير اليهودي البارون روتشيلد قد أسس مستعمرة «المطلة» القريبة من صفد في عام ١٨٩٦ وتكلفت نصف مليون فرنك إضافة إلى عدة مستعمرات أخرى أقل تكلفة، وقد عهد بإداراتها إلى إحدى الجمعيات اليهوية الخاصة للإشراف على شؤون المهاجرين اليهود، وقد صرح سكرتير تلك الجمعية في

إحدى المقابلات الصحفية «. . . إن غايتنا الوحيدة من بناء المستعمرات في الوقت الراهن هي إيجاد أمة يهودية زراعية وجميع أتباع الدين اليهودي والمتكلمين بلسانه والمتبعين لمرورثاته التاريخية في محل واحد من الارض الموعودة (فلسطين). وإن أقدس أمل لنا هو إنماء وتهذيب العبرانية، وإن أقدس سعي يجب على الصهيونية القيام به هو إحياء الماديات اليهودية وتجديد الامة اليهودية، وأدبياتها وعنعناتها» ومن الغريب أن يصدر هذا القول من مسؤول يهودي قبيل نحو خمسين عاماً من اعلان قيام «دولة اسرائيل» ويتحقق ما يقوله كاملاً بعدئذ!

هذا، وقد تركزت إقامة اليهود في الجزء الغربي من صفد، بينما تركز السكان العرب في الجزءين الشرقي والغربي.

وقد كانت لهم عاداتهم الخاصة بهم، وذكر مؤلف كتاب «ولاية بيروت» أن ألوفاً من شيوخ الرجال والنساء من الطائفة اليهودية يؤمون هذه الديار ليموتوا فيها لا ليعيشوا في محيطها. فتراهم يشكلون أقذر الطبقات وأحطها. شعورهم طويلة، وجوههم لا تعرف النظافة والماء، ثيابهم قذرة، وقباتهم قد أسودت من الدهن، يحملون في أيديهم توراة أو تلموداً ولا ينفكون عن تلاوته في الأزقة، لا يعبأون بالأقذار والعفونات، وإن الانسان ليحتاج إلى قوة فوق طاقة البشر حتى يقدر على احتمال شم الروائح حين مروره في محلة اليهود، ولا ريب أنهم يعتقدون بأن هذا الانحطاط هو علامة الزهد والتقوى!![1]

هذا من ناحية كهنة اليهود والمتدينون منهم.

أما من ناحية شبابهم ورجالهم فإنهم يقبلون على الحياة في نهم شديد، ويصارعون من أجل تحقيق وتوطيد أقدامهم وتحقيق حلمهم الذي يمتد من النيل إلى الفرات.

وقد رأينا ـ فيما بعد ـ أحفاد هؤلاء اليهود يلجأون إلى الوهم لحل إحدى المشاكل المستعصية في حياتهم.

وبسبب شدة وطأة الانتفاضة الفلسطينية المباركة على حياة ومقدرات الصهاينة في فلسطين، وعجزهم عن إخماد جذوتها المستعرة فقد لجأ المتدينون اليهود في

---

(١) ولاية بيروت ـ التميمي والكاتب ـ بيروت ـ ١٣٣٥هـ.

صفد إلى «إلههم» كي يوقف الانتفاضة في الضفة الغربية وقطاع غزة، فقد نشرت جريدة الاهرام[1] نقلاً عن صحيفة «يديعوت أحرونوت» العبرية أن مئة حاخام وتلميذ تلمودي قد أدوا صلوات خاصة في مدينة صفد بالجليل الفلسطينية ابتهلوا فيها إلى الله لكي يوقف الانتفاضة، وأقيمت الصلوات على ضريح الحاخام اليهودي (إسحق لوريا) المسمى بالحاخام الأبدي، وهو أحد كبار المدرسة الكلامية في التاريخ اليهودي، المشهود بقدرته «الاعجازية» الفائقة!

وفي الوقت ذاته أصدر الحاخام اليهودي الرئيس في مدينة حيفا فتوى توراتية ذكر فيها إن الأوامر والتعليمات التي تصدرها قيادة الجيش اليهودي للجنود العاملين في الضفة والقطاع بفتح النار على كل من يلقي قنبلة أو حجراً محاولاً قتل الجنود، إنما تعتبر تعليمات متسقة مع التوراة نصاً وروحاً. . وأشار إلى أن سياسة «القبضة الحديدية» المتبعة تجاه العرب هي أمر واجب، وليست أمراً مشيناً بأي حال، ومن يتردد في أتباعها يعد سفاك دماء، وخائناً للتوراة!!

وعودة إلى صفد قبل عام ١٩٤٨. . نود أن نشير إلى إنه وبرغم وجود بعض الصدامات بين العرب واليهود في صفد وبخاصة إثر ثورة البراق عام ١٩٢٩ وثورة عام ١٩٣٦م فإن الوئام كان ظاهراً بينهم بشكل عام. ويذكر ابن صفد الأستاذ يسار العسكري[2]. إن أهل صفد يعرفون عن اليهود اجتماعياً كما يعرفون عن أنفسهم بسبب صغر المدينة وشيوع كثير من العادت والتقاليد، فالألبسة كانت متشابهة حتى أن منهم من يعمل بالقرى كان يعتمر (الحطة والعقال) لباس الرأس الفلسطيني التقليدي، وكان لباس الناس «محتشماً» واللغبة الشائعة هي «العربية» في التداول مع بعضهم، وكنا نطلق عليه اسم (اليهود العرب)، وكانت النظرة إليهم نظرة الفئة المسالمة القليلة المتضعفة الخبيرة بالتجار والتعامل المالي».

ويذكر السيد العسكري صوراً عن المظهر الاجتماعي المعبر عن التآلف بين العرب واليهود الشرقيين داخل صفد، ومن تلك الصور ما يحدث أيام عيد الأضحى المبارك حيث يمتنع اليهود عن العمل وحتى الطبخ، فكان المرء يشاهد التنافس بين الأسر العربية في حمل الصواني المصنوعة من القش أو «الصدور» المصنوعة من

---

(١) جريدة الأهرام بتاريخ ٢٥/١٠/١٩٨٨م.
(٢) قصة مدينة صفد ـ مرجع سابق.

النحـاس وهي تحفل بمختلف أنـواع الاطعمة والحلويـات لتقديمهـا إلى المعارف والأصدقاء من الأسر اليهودية لتعود محملة بصناديق الخبز الصباحي، وكذلك كانت حفلات الأعراص العـربية تستعين بضـارب العود والمغني اليهـودي، وكان اليهـود يقومون بزيارة الأسر في أعياد المسلمين.

وإكمالا لصورة الوئام الذي كان سائداً بين أبناء الديانات السماوية الثلاث على أرض فلسطين ـ ومنها صفد ـ نذكر بأن المسيحيين أيضاً كانوا يتمتعون بكافة الحقوق والواجبات التي يتمتع بها المسلمون من أبناء فلسطين، فقد كانت فلسطين العربية وعاء لكل هذه الديانات.

وقد وصف «الأب فريدناند كوتل» اليسوعي أثناء رحلته الرسولية في بلاد الجليل الأعلى، وحين زار صفد أثناء إحدى المناسبات لاحتجاجية ضد السياسة البريطانية فقال: «وشاهدت في صفد نهار الأحد ٢٥ شباط ١٩٢٤ مظاهرة سياسية التقى فيها المسيحيـون حول كـاهنهم والمسلمون حـول فيههم، واحتشد جمهـورهم مرة في الجامع ومرة في الكنيسة، وألقيت الخطب الحماسيـة لحث الوطنيين على تـوحيد كلمتهم والمثابرة على رفض الانتخـابات ومقـاومة الصهيـونية بصـوب واحد وإرادة واحدة»[1].

الحياة الاجتماعية

استطعنا أن نتعرف على بعض العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في صفد أيام الانتداب البريطاني على فلسطين. ومن هذه العادات أن أبناء صفد المسلمين كانوا يتزوجون في سن مبكرة، ويدفعون جميع ما يملكونه إلى الزوجة على سبيل المهر، وهذا سبب من أسباب الحاجـة والعوز لـدى الكثيرين منهم. كمـا انهم لا يهتمون بالمهر المؤجل، وأعلى مهر مؤجل في الأسر الكبيرة لا يتجاوز ٥٠٠ قرش، أما المهر المعجل فيبلغ أحياناً خمسة آلاف قرش! وإذا رغب الصفدي في الزواج فإنه لا يرى وجه الفتاة التي يرغب في الارتباط بها، أما إذا تم الزواج فليس من عادة الزوج أن يترك بيت أبيه، بل يعيش هو وزوجته مع أسرته وذلك بقصد التقليل في تكاليف بناء بيت جديد للزوجين. أما عند يهود صفد وبخاصة طائفة «السفارديم» فيجب على الزوجين أن يسكنا عاماً واحداً في بيت والد الزوج، وعاماً آخر في بيت والد الزوجة

---

(١) مجلة الشرق ـ مجلد ٢١.

ويدفع العروسان مهراً متساوياً، ثم يجمعا في صندوق واحد حيث يوضعا في حوزة الزوج ليشتغل به في بداية حياته الزوجية[1].

ولما عرفت عن هذه العادة لدى أعدائنا قلت في نفسي : ما أحرانا أن نتبع هذه الطريقة مع تبديل بسيط، حتى نضع حلاً لمشكلة غلاء المهور المستعصية في كثير من أقطار وطننا العربي!

● عثرت على قائمة طريفة تبين أسعار بعض الحاجيات في مدينة صفد لعام ١٩٢٤ مبينة بالقرش الفلسطيني المساوي للقرش الأردني أو الاسترليني تقريباً: كيلو لحم ضأن بسبعة قروش، كيلو لحم بقري بخمسة قروش، كيلو سمن بلدي بتسعة قروش، كيلو عدس بنصف قرش، عشر بيضات بقرش واحد، كيلو سكر بثلاثة قروش!

● في إحدى واجهات قاعة الاستقبال بقصر الوالي العثماني سنان باشا تم نقش هذين البيتين:

الا يا دارُ لا يَدْخُلْكِ حُزْنٌ ولا يَغْدُرَ بصاحبكِ الزمانُ
فَنِعْمَ الدارُ تؤوي كل ضَيْفٍ إذا ماالضَّيفُ ضاق به المكان

● ترتدي أغلبية النساء والفتيات في صفد «الملاءة الصفدية» وهي خاصة بمنطقة صفد وتمتاز بميلها إلى اللون الذهبي الأصفر تتوسطه خطوط سوداء، وكانت هذه الملاءات تستورد بشكل خاص من مدينة حمص بالقطر السوري.

● برغم «تحرر» أبناء صفد، وارتباطهم بالمدنية في عصر مبكر بالنسبة لبعض مناطق فلسطين، إلا أن كثرة الجوامع والزوايا تعتبر أحد المعالم الثقافية الواضحة الدالة على الهوية الإسلامية لصفد، ومن أهم الجوامع فيها، جامع الظاهر بيبرس، جامع الجوكنداري، الجامع اليونسي (حوله اليهود إلى صالة عرض فنية)، جامع الصواوين، جامع الشيخ نعمه، جامع الأمير فيروز، جامع سيدنا يعقوب.

● من أحياء صفد المعروفة الصواوين، الجوره، السوق، الوطأة، الأكراد، الديابنة، اليهود، البرج، القلعة، وفي أحد أطراف المدينة يوجد ضريح الكاتب الصفدي المشهور صلاح الدين الصفدي أحد أشهر كتاب العربية في عهد المماليك.

---

(١) صفد في التاريخ ـ محمود العابدي ـ عمان ـ ١٩٧٧م.

سقوط صفـد

كان مثلها مثل باقي المدن والقرى الفلسطينية فقد جاهدت صفد جهاداً مشهوداً ضد البريطانيين واليهود، وشارك الصفديون في جميع الثورات الفلسطينية التي اشتعل أوارها على امتداد ثلاثين عاماً مدة الحكم البريطاني على فلسطين.

وقد خاضوا عدة معارك مع العصابات الصهيونية في منطقة صفد مثل معركة الطواحين، ومعركة جب يوسف، ومعركة الحقاب، ومعركة جرن الحلاوة، ومعركة القديرية وموقعة الخشن وغيرها. .

وكان لصفد دور مهم في ثورة البراق عام ١٩٢٩، التي استشهد واعتقل فيها عدد من أبناء صفد من أشهرهم على المستوى الوطني والقومي الشهيد فؤاد حجازي الذى تسابق إلى حبل المشنقة مع رفيقيه عطا الزير ومحمد جمجوم من أبناء الخليل وقد نفذ حكم الاعدام فيهم يوم الثلاثاء بتاريخ ١٩٣٠/٦/١٧م. . وكانت المحاكم البريطانية قد أصدرت أحكامها الجائزة بإعدام (٢٦) شخصاً عربياً من المشاركين في انتفاضة البراق كان منهم ١٤ من صفد و ١١ من الخليل والأخير من يافا، وبعدئد استقر رأي الجلادين على استبدال أحكام الأعدام إلى أحكام المؤبد بحق ٢٣ شخصاً وإعدام الأبطال الثلاثة الذين كان الشهيد فؤاد أصغرهم سناً وأعلاهم مرتبة علمية حيث كان طالباً بالجامعة الأمريكية ببيروت.

ومنـذ مطلع عـام ١٩٤٨ استعد الصفـديون بـامكانـاتهم الماديـة والتنظيميـة المتواضعة لأحداث المصير المجهول، وتألفت (اللجنـة القوميـة) لجمع التبـرعات وتأمين المواد التموينية والعسكرية، وتألفت اللجنة من السادة زكي قدورة رئيس بلدية صفد، عارف حجازي، عبد الغني النحوي، عبد الهادي كاملة، سعيد مراد، أحمد الكبـره، مصطفى النقيب، الشيـخ سليمان سعـد الدين، عبـد القـادر حسين عبـد الرحيم، ومن الشباب المتعاونين عبدالله الشاعر ومحمود عثمان الكردي، كما انضم إلى صفوف المقاتلين المدافعين عن عروبة صفد الضابط السوري الشهم (إحسان كم الماز) مع نفر من رفاقه أمثال أنور الملاح وناظم الحريري وبشير الداغستاني وشفيق السباعي.

وذكر مؤلف «نكبة بيت القدس» أن مجموع سلاح العرب في صفد منذ بدء القتال، وبما أرسلته اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربيـة مضافـاً إلى ما

تمكن أهل صفد من شرائه لا يزيد عن أربعمائة بندقية، وكان أديب الشيشكلي هو قائد القطاع الذي يضم صفد، وعندما انسحب الإنجليز من صفد في السادس عشر من ابريل «نيسان» عام ١٩٤٨ كان عدد سكان المدينة يبلغ نحو ١٢ ألف وخمسمائة عربي، وكان عدد المجاهدين العرب الذين دخلوها حوالي ستمائة مجاهد منهم ٤٧٠ من الفلسطينيين و ١٣٠ من جيش الإنقاذ[١].

واستمر القتال بين الفريقين، وتلقى اليهود خلال اليومين الخامس والسادس من مايو نجدات عسكرية حملتها ١٧٢ سيارة عسكرية، فارتاع الشيشكلي وأخذ يستنجد بقيادته وبقائده فوزي القاوقجي، وكان الجواب معروفاً: نأسف، ليست لدينا امكانات إضافية» «وانهارت معنويات الشعب، وأخذ جنود جيش الإنقاذ يتسللون هاربين فلم يبق إلا القليل».

وأما النجدات العربية لصفد فقد بلغت ألفي طلقة رصاص، وحمولة ثلاث سيارات من الذخيرة شبه الفاسدة تم جلبها من الصحراء الليبية!

ورغم ذلك لم ييأس الصفديون، وسافر وفد من أعيانهم ووجهائهم إلى دمشق يستغثيون باللواء إسماعيل صفوت رئيس اللجنة العسكرية العربية «ولكن اللقاء كان سيئاً والعون كان عراكاً، وتمسك الصفديون بمواقعهم يدافعون ويستشهدون في سبيلها، وأخذ الشيشكلي يدك بمدافعه مواقع اليهود، وتجددت الروح المعنوية واشترك عدد من العراقيين بمدافعهم فأسهموا بقدر كبير في تحطيم الحي اليهودي».

وفي عشية اليوم التاسع من مايو قام اليهود بهجومهم الأخير على صفد، فاستولوا عليها بعد انسحاب جيش العرب بلا قتال يذكر، واضطر السكان المدنيون إلى النزوح خوفاً من تكرار مذبحة دير ياسين في صفد، وقد استشهد من حامية صفد يوم سقوطها ٩٩ رجلاً كانوا أثناء القتال في داخل عمارة البوليس، ورفضوا الإستسلام عندما تغلب اليهود عليهم فقتلهم هؤلاء عن بكرة أبيهم وقتلوا قائدهم الشهيد ممدوح البديري[٢].

وذكر أحد الدارسين العرب مستنداً في بعض معلوماته على تصريحات لبعض القادة الصهاينة فقال[٣]:

---

(١) نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ـ مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) تهويد فلسطين د. إبراهيم ابو لغد ـ ترجمة أسعد رزوق ـ بيروت ـ ١٩٧٢م.

إن النزوح من الجليل الشرقي قد بدأ مع الاستيلاء على طبريا وتفريغها من السكان، وهنا أيضاً عن طريق استخدام (قنابل البراميل) ومكبرات الصوت و (أصوات الرعب)، ففي ٢٨ نيسان عام ١٩٤٨ عندما سحبت القوات البريطانية من صفد، انطلقت وحدات البالماخ في مسيرتها من طبريا لتستولي على كل القرى الواقعة في طريقها وتقوم بتخريبها وتهديمها، حيث أن اسم الشيفرة لهذه العملية دُعِيَ (المكنسة)! ثم هوجمت (صفد) بقنابل البراميل ومدافع الهاون (دافيدكا) ونسفت المنازل واحداً تلو الآخر، ومكبرات الصوت التي بثت رسالة القنبلة الذرية، وانطلاقاً من هذه البدايات كتب قائد البالماخ في وقت لاحق يقول : رأينا الحاجة إلى تطهير الجليل الأوسط» اقتصادياً بقدر الإمكان «لحمل عشرات الآلاف من العرب المتجهين الذين بقوا في الجليل على الهرب. . وقد جمعت كل المخاتير (العُمد) اليهود من الذين كانوا على اتصال مع العرب في القرى المختلفة، وطلبت إليهم أن يهمسوا في آذان بعض العرب، أن تعزيزات يهودية كبيرة وصلت إلى الجليل، وسوف تقوم هذه بإحراق جميع القرى العربية في سهل الحولة، وعليهم الإيحاء إلى هؤلاء العرب ـ بصفتهم أصدقاء ـ أن يهرعوا قبل فوات الأوان، فانتشرت الشائعة في كل مناطق الحولة بأنه قد حان وقت الهرب، وبلغ عدد الهاربين عشرات الآلاف» [بيغال آلون «كتاب البالماخ»].

ونجحت الخطة اليهودية الماكرة، فسقطت صفد وهاجر الصفديون ـ إلا أقلهم ـ إلى سورية الشقيقة، فاحتضنهم أبناؤها البررة ووقفوا معا يساهمون في عمليات البناء والتشييد، وهم يتمتعون بكافة الحقوق الممنوحة لاخوانهم السوريين، ولا غرابة في ذلك فصفد تعتبر ابنة الشام في كثير من المظاهر الحياتية كطلاوة اللهجة وصلة النسب، ومفاخر الأطعمة والأشربة، وصدق الوداد، وطلاقة المحيا، وقد حفر ضياع صفد في قلوب الصفديين بشكل خاص أخاديد عميقة من الأسى والحسرة والألم، فهذا ابن صفد الشاعر محيي الدين الحاج عيسى يقول في مدينته الأثيرة بعد سقوطها:

صفد وقد عانَيْتُ هولَ مُصابها ... صُرِعَتْ وفارقَها الحُمَاةُ الصِّيدُ
ثارَ الرصاصُ وجن مُقتحم الوغى ... وصدَى المدافعِ صيْحةٌ ووعيدُ
فالأرضُ يُعْفَر وَجْهُها بقذائف ... والجَوُّ فيه لهولِها تَرديدُ
والجوُّ داجٍ والرِّياح عواصف ... وبلاء ربك بعد ذَاكَ شديد
يتلفتون مُوَدِّعيَن فثاكلٌ ... تبكي، وشيخٌ ذاهل ووليدُ

كم مُرضِع ناءت بحمل وليدها تسعىٰ لتنجو والنجاءُ بعيد
جثمانه للطير أصْبحَ مَطْعَماً أو للسباع ولا يُعاب شهيد

حاضر صفد

قامت الحكومة الإسرائيلية منذ استيلائها على المدينة بتحويلها إلى مدينة صناعية لتثبت أقدام الجيل الجديد من اليهود فيها من ناحية وإلى دعم الاقتصاد الصهيوني من ناحية أخرى.

وتأتي السياحة على رأس صناعات المدينة ولا سيما في جبل كنعان وهو مصيف مزدهر ويحظى بارتياح الكثيرين من السياح.

وتليها صناعات كثيرة من أهمها الصناعات الغذائية كالحلويات والشيكولاته والقهوة، وصناعات الدخان وآلات الخياطة والمواقد والدراجات، وتقطيع وصقل الماس والمنسوجات والألبسة والطباعة ومواد البناء.

ومن أهم معالم صفد المتحف ومستشفى هداسا، ومحطة مراقبة الاشعاعات النووية، ومركز الدراسات التلمودية. وحوَّل أعداؤنا أحد أحياء صفد إلى مركز عالمي للفنون الجميلة، تتوافر فيه مدارس للفن والنحت والرسم والتصوير[1].

أما أهم آثار صفد التاريخية فهي:

ـ قلعة صفد وقد بنيت أيام الصليبيين، وعندما دخل الظاهر بيبرس المدينة عام ٦٦٦هـ تهدمت أجزاء منها لكنه عمل على ترميمها بعدئذ، وجعل لها أبواباً سرية متصلة بخندق يحيط بالمدينة.

ـ جسر بنات يعقوب، وقد بناه الصليبيون في مكان يسميه العرب «جسر بنات يعقوب» والجسر الحالي الممتد بين الجولان وشمال فلسطين فقد بني في القرن السادس عشر.

ـ بنات حامد وهو بناء ضخم يضم ضريح أحد حكام صفد.

ـ هونين وبها قلعة صليبية ومسجد عثماني. ومئذنة.

وأخيراً.. لن نقول لصفد ما قاله لها الشاعر سالم جبران: وداعاً صفد، بل

(١) اسرائيل والسياحة ـ مرجع سابق، وانظر أيضاً فلسطين المحتلة ـ مرجع سابق.

نقول لها ما قاله سيدنا يعقوب عليه السلام عندما افتقد قرة عينه «يوسف» عليه السلام «فصبر جميل والله المستعان».

عائلات صفد

برغم تشرذم الصفديين وتشريدهم، إلا إنهم ما زالوا ـ كبقية أبناء فلسطين ـ محافظين على جوهر تقاليدهم وعاداتهم التي ورثوها عن أجدادهم، هذا، وقد برزت في دائرة التقدير عشرات من العائلات الصفدية الوجيهة نذكر منها:

قدورة، النحوي، الخضرا، السعدي، الصباغ، رستم، العبادي، الأسدي، صُبُح، النقيب، منوَّر، البغدادي، البيطار، مراد، الرفاعي، فانوس، عباسي، البرغوتي، دله، سعد الدين، الحاج عيسى، حجازي، القلاَّ، الأموي، الهندي، الكبرا، فرهود، المفتي، صباغ، السعدي، خليفة، الدنان، خلف، فلاحه، مرعشلي، خرطبيل، الخوري، العسكري، حبيب، غنوم، غنيم، دبور، سعيدان، داروخ، حوا، سعد، عطايا، خليفة، سويد، الحاج سعيد وغيرها.

شخصيات صفدية بارزة

لقد أنجبت صفد وقراها مئات من الشخصيات المرموقة على امتداد تاريخها، وبالنظر للواقع السياسي والاجتماعي فيصعب علينا حصر هذه الشخصيات. ولكن لا بأس من ذكر الاسماء المتوافرة لدينا ممن عاشت وقضت خلال القرن العشرين:

الشيخ أحمد حامد النحوي (١٨٨٥ ـ . . .)، أحمد الخليفة (١٩٠٢ ـ ١٩٦٤) مرب ومحاضر، وعضو المجلس الوطني الفلسطيني في القدس. صلاح الدين قدورة (١٩٨٢ ـ ١٩٣٤) مؤسس النادي العربي بصفد، وممثلها في عدة مؤتمرات وطنية، وعمل رئيسا لبلديتها، على رضا النحوي (١٨٩٠ ـ . . .) قاضي صفد وأحد رؤساء بلديتها، وكان آخر مدير لدائرة الأوقاف بفلسطين. الشيخ أسعد قدورة (١٨٨٠ ـ ١٩٥٩) أنهى دراسته في الأزهر الشريف، ثم عين مفتياً وقاضياً شرعياً للناصرة وعكا وصفد، وعضواً في مؤتمر علماء فلسطين الأول عام ١٩٣٥. جميل محمود علي (١٩٠٧ ـ ١٩٧٥) عمل مفتشاً أعلى للرياضيات والعلوم في وزارة المعارف بفلسطين، ثم محاضراً في الجامعة السورية، ثم أستاذاً مساعداً بالجامعة الأمريكية ببيروت. سمير الرفاعي (١٩٠١ ـ ١٩٦٥) رئيس وزراء سابق في الأردن، درس

الحقوق في فلسطين ثم انتقل عام ١٩٢٤ إلى إمارة شرقي الأردن، وتنقل في عدة مراكز إدارية ومناصب وزارية، صبحي الخضرا (١٨٩٥ ـ ١٩٥٤) محام من رجالات الرعيل الأول بفلسطين، شارك في الحرب العالمية الأولى ضمن القوات التركية، كان عضواً في عدة مؤتمرات عربية، وتعرض لملاحقة القوات البريطانية، توفي في دمشق عن ٥٩ عاماً. محمد برادعي العباسي (١٨٩٦ ـ ١٩٨١) خريج الجامعة الأمريكية ببيروت، عين عام ١٩٢٧ حاكماً للصلح في حكومة فلسطين ثم أسس لجنة اليتيم العربي، قلده الملك حسين بن طلال وسام الاستقلال الأردني من الدرجة الأولى. محمد يوسف الخضراء (أبو طلال) مناضل وسياسي كان عضواً في مجلس إدارة الصندوق القومي الفلسطيني عام ١٩٦٤، عمل رئيساً لجمعية أسر شهداء ومجاهدي الثورة الفلسطينية. ودفن في دمشق، وديع حداد (١٩٢٧ ـ ١٩٧٨)، أحد قادة القوميين العرب والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، تخرج طبيبا من الجامعة الأمريكية ببيروت بعد حرب حزيران كرس وقته لمهاجمة المصالح الإسرائيلية والأمريكية بالمنطقة، وفي عام ١٩٦٩ وقف حداد إلى جانب الدكتور جورج حبش في نزاعه مع نايف حواتمه الذي كان ينادي بالنظريات اللينينية ـ الماركسية. وهناك شخصيات لا تتوافر لدينا حالياً معلومات موسعة عنها منهم: أحمد محمد الخالدي، أحمد الأسدي، أبو الفرج المفتي، سعيد أفندي مراد، عبد الرحمن النحوي، زكي قدورة، أمين محمد الخضراء، محيي الدين الحاج عيسى، محمد صالح صبح، محيي الدين الخضراء، محمد أسعد صبح، نصوح منور، شهاب الدين الصفدي، محمد سليمان شما، القائد عبد الله الشاعر، سليمان الخاطر، الحاج إبراهيم قدورة، سعيد عزيز عيسى، نور الدين عيسى، عثمان توفيق الصفدي، نايف نمر خرما، فهمي شما، الشهيد رشيد الشاعر، الشهيد محمد سعيد منور، الشهيد إبراهيم الشاعر، الشهيد أحمد الحاج ياسين، الشهيد يوسف الكبرا، الشهيد حسن فياض زينب، الشهيد إبراهيم حسونه، الشهيد مرعي الشبعاني، الشهيد نايف أسعد مراد، الشهيد عارف غنيم، الشهيد أحمد جابر عبد سليم اللحام، كمال سعد الدين، المحامي صلاح الدين العباسي، الفنان محمد أبو صلاح، الشهيد خليل صالح معتوق، المربي زهير صبح، الشيخ أحمد نديم النحوي (١٨٨٧ ـ ١٩٣٧)، الشهيد عبد اللّه الأصبح الشهيد القائد هايل عبد الحميد «أبو الهول» (١٩٣١ ـ ١٩٩١) وغيرهم.

* * *

من رائية محمد بن طاهر صرت أنشد:

إلى كم أمنّي النفسَ بالقرب واللقا   بيوم إلى يومٍ وشهرٍ إلى شهْرِ
وحتى م لا أحظى بوصل أحبَّتي   وأشكو إليهم ما لقيتُ من الهَجْرِ
فلو كانَ قلبي من حَديد أذابَه   فراقُكم أو كانَ من سالبِ الصَّخْرِ
ولما رأيتُ البَيْنَ يزدادُ والنوى   تمثّلْتُ بيتاقيل في سالفِ الدَّهْرِ:
متى يستريحُ القلبُ والقلب متعبٌ   بِبَيْنٍ على بَيْنٍ وهجْر على هَجْر؟

بيسـان.. مدينة الينابيع

بيسان . . مدينة عربية من أقدم مدن فلسطين، تتربع بخيلاء ودلال على الحافة الغربية للغور، وفي سهل بيسان الخصيب.

يرجع تاريخ ميلادها إلى عصور ما قبل التاريخ، أي إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد حملت في العهود الكنعانية الأولى اسم (بيت شان) وقد يعني هذا الأسم بيت الاله (شان) أو بيت السكون والهدوء. وقد أخذ اليهود هذا الاسم الكنعاني ويطلقونه على المدينة في الوقت الراهن، بينما حرفته الألسنة العربية ودعته باسم «بَيْسان» بفتح الباء وتسكين الياء.

وكان لهذه المدينة القديمة أهمية تجارية وعسكرية وزراعية لوقوعها على الطريق العام الذي يصلها بشرقي الأردن وحوران ودمشق ، ولوجودها في غور خصيب تتوافر فيه المياه وتزرع به أنواع مختلفة من الزروع والأشجار.

ويحدثنا التاريخ بأنه عندما دخل الإسرائيليون أرض كنعان كانت بيسان واحدة من أرقى مدن المنطقة. وعندما اختار اليهود (شاوول) ملكاً عليهم، التقى بالفلسطينيين على جبل جلبوع غرب بيسان، وهناك قتل الفلسطينيون الملك اليهودي وولده وعلقوا جثتيهما على أعمدة هيكل داجو ببيسان نفسها.

ونظراً لأهمية موقع بيسان الممتاز فقد جعلها الرومان قاعدة رئيسة لمدنهم العشر(الديكابولس) التي كانت تسع منها تقع جنوب سورية وشرقي الأردن وسموها «سكيتو بوليس» أي مدينة السكتيين. وأصبحت مركزاً تجارياً مهماً. «ومن بقايا هذه المدينة الرومانية مرسح يقع في جنوبي تل الحصن، هو أعظم أثر روماني أبقت عليه

الأيام في غربي الأردن سليما ويبلغ قطره ١٧٥ قدماً[1]».

هذا وقد أثبت الباحثون الأمريكيون من جامعة بنسلفانيا أن «قرية بيسان» كانت قلعة مصرية خلال الفترة من القرن الرابع عشر إلى الثاني عشر قبل الميلاد، واكتشفوا فيها لوحة الملك سيتي الأول الشهيرة المكونة من اثنين وعشرين سطراً هيروغليفيا ويرجع تاريخها إلى سنة ١٣١٨ قبل الميلاد. وهذا يدلل ـ ضمن أمور أخرى ـ على وقوع أجزاء من بلاد الشام تحت سلطان المصريين في ذلك الوقت المبكر من التاريخ الإنساني.

وورد ذكر بيسان في «قاموس الكتاب المقدس» وجاء فيه: بيت شان؛ بيت السكون: اسم مدينة بعد خمسة أميال إلى الجهة الغربية من نهر الأردن.. كانت رئيسة المدن العشر، ودعيت باسم سكيتوبوليس.

أما في عهد الأمبراطورية الرومانية الشرقية فقد كانت بيسان عاصمة ثانية لفلسطين، وعندما انهزم الروم في معركة اليرموك أمام الجحافل الإسلامية تراجعوا إلى غربي النهر فطاردهم العرب، فلجأ البيزنطيون إلى خديعة ساذجة لم تجنبهم الهزيمة في نهاية المطاف، ذلك أنهم فتحوا مياه العيون المحبوسة في المدينة بقصد إغراق العرب الذين لا عهد لهم بالمياه المغرقة وهم أهل صحراء وبداوة، لكن العرب تخطوا هذه العقبة وواصلوا هجومهم على فلول البيزنطيين حتى هزموهم شر هزيمة، وقد سجل العرب هذا الانتصار وسموه «يوم بيسان».

بيسان في رحاب الإسلام

لقد حاصر القائد المسلم البطل شرحبيل بن حسنة مدينة بيسان عام ٦٣٦ لعدة أيام، وقد حاول بعض من فيها قتال المسلمين فقاتلهم وهزمهم، وفتح المدينة باسم الله، فخرج إليه وفد من أهلها مطالبين بالصلح والأمان، فتم توقيعهما بين الطرفين، وتابع شرحبيل زحفه صوب أجنادين.

هذا.. وتردد ذكر بيسان كثيراً على ألسنة وأقلام كثير من الجغرافيين والمؤرخين العرب ومنهم ابن خرداذبة، والمقدسي، والأندلسي، وأبي الفداء، والادريسي،

---

(١) قصة مدينة بيسان ـ سلسلة المدن الفلسطينية.

والهروي وغيرهم. وأجمعوا على أنها كثيرة النخيل والعيون، وذكر بعضهم بأن بها خمرة (طيبة!) قال الأخطل:

وجاءوا ببيسانية هي بعدما يَعُلُّ بها الساقي ألَذُّ وأسهل

هذا وقد تعرضت بيسان للاحتلال الصليبي على يد الأمير (تنكرد) في المرة الأولى، ثم على يد «جودفري» مرة ثانية، وحصنها الصليبيون في وجه البطل الخالد صلاح الدين االأيوبي، إلا أن تحصينهم لم يُجْدِهم نفعاً حيث تم تحريرها كغيرها من مدن وقرى الشام. وفي عام ١٨١٢ مر ببيسان الرحالة الشهير «بيركهارت» وتعرض لوصفها فقال: «إن بيسان تقع على أرض مرتفعة من الجانب الغربي من الغور، حيث تنحدر سلسلة الجبال المتآخمة للوادي إلى حد كبير، وتكوِّن أرضاً مرتفعة مكشوفة تماماً. كانت المدينة القديمة تُروى من نهر يدعى الآن ماء بيسان، وهو يجري في فروع مختلفة باتجاه السهل، وتمتد خرائب بيسان إلى مدى واسع، والبلدة على طول ضفاف الجدول وفي الأودية التي تشكلها فروعه المتعددة. وتضم قرية بيسان الحالية سبعين بيتاً أو ثمانين، وسكانها في حالة بؤس شديد، وذلك بسبب تعرضهم لأعمال السَّلب التي يقوم بها عرب الغور، رغم أن السكان يدفعون لهم إتاوة فاحشة»[1].

هذا ويشكل الموقع الحالي لبيسان موضعاً قديماً يتمثل في الخرائب المتناثرة على بعض التلال المحيطة بالمدينة مثل تل الحصن، وتل المصطبة، وتل الزهرة، وهي تشتمل على بقايا المباني السكنية والمقابر والمعابد والمسارح والأسوار.

والموضع الحديث يقوم على هضبة صغيرة نسبياً، وتكثر حولها العيون المائية ومن أشهرها: عين أم الفلوس، عين تل الحصن، عين الصفا، عين السودا، عين العاصي، عين المرّة، عين الزاوية، عين الطيبية، عين الوداد وغيرها.

كما تتناثر في قضاء بيسان أنهار وأودية عديدة من أهمها: نهر جالود، نهر الجوسق، نهر الأشرفية، وادي العشة، ووادي الحرش، ووادي البيرة وغيرها.

وإبان الانتداب البريطاني كان قضاء بيسان يضم أكثر من ٣٣ قرية عربية، إضافة إلى ٢٢ مستعمرة يهودية تم انشاؤها جميعاً في عهد الانتداب.

وكانت تقطن في القضاء قبائل وعشائر معروفة منها: الصقور، الزناتية، أبو

---

(١) المرجع السابق.

زبيد، البشاتوة، الغزاوية، أبو علي، الظاظا، أبو جويد، أبو سرايا، التهتموني، الحلبوني، الصاحب وغيرها.

مشكلة الأراضي في بيسان

خلال حكمها لفلسطين، وفي عام ١٨٧٠ عينت الحكومة التركية لجنة خاصة لتقصي الحقائق حول عدم دفع أهالي منطقة بيسان الضرائب المستحقة على أراضيهم، وبعد أن درست اللجنة أبعاد الموضوع، تبين لها أن المشكلة تكمن في عدم تحديد ملكية الأرض للفلاحين أنفسهم.

وأوصت في نهاية تقريرها على الحكومة أن تبيع المنطقة برمتها إلى الأهالي بالمزاد العلني، وبسعر رمزي.

وسارع الفطنون إلى تسجيل الأراضي التي يملكونها في دائرة «الطابو»، ولم يكترث البعض الآخر بالموضوع، بينما بقيت مساحات شاسعة بدون أن تسجل لأحد، فسجلتها الدائرة باسم السلطان عبد الحميد، وصارت تعرف بأراضي «الجفتلك» وهي كلمة تركية تعني أرض السلطان، أو أرض الدولة.

وظل أمر أراضي بيسان على هذا الوضع حتى عام ١٩٢١، حيث شكلت حكومة الانتداب البريطاني لجنة رسمية للنظر في كيفية استغلال أراضي «الجفتلك» التي اعتبرت ملكاً ميراثياً لدولة الانتداب. فاقترحت تأجيرها للفلاحين، ولكن الفلاحين رفضوا مبدأ التأجير من أساسه، لأنهم لم يعترفوا أصلاً بملكية السلطان عبد الحميد لأراضيهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم .

ويذكر في هذا الصدد بأنه نتيجة لهذا الرفض عقدت اتفاقية بين الأهالي وبين حكومة فلسطين تعطي الأرض لكل من يثبت أنه فلحها عشر سنوات أو أكثر، على أن يخصص لكل فرد (٣٠) دونماً مقابل أن تتقاضى الحكومة (١٥٠) قرشاً بدل تطويب (تسجيل) عن كل دونم، مقسطة على (١٥ عاماً)، ولم يسمح الاتفاق بإجراء أي تصرف في الأرض قبل دفع قيمة «التطويب» بكامله.

ولما عجز الفلاحون عن دفع قيمة الضريبة هذه أجازت الحكومة لصاحب الأرض أن يبيع قسماً من أرضه لأشخاص غايتهم استعمال طرق الزراعة الكثيفة[1].

---

(١) بلادنا فلسطين ـ مرجع سابق.

كما اعترفت الحكومة بحق المالكين الذين يعيشون خارج فلسطين في امتلاك أراضيهم، وبعد مدة ثبت أن نصف هذه الأراضي قد بيعت بعد أن دفع المشتري ما تأخر عليها من رسوم، ومع الأسف الشديد كان المشتري هي الجمعيات الصهيونية، التي لم تدفع أكثر من أربعة جنيهات للدونم الواحد في هذه الأراضي المروية رياً طبيعياً من ينابيع المنطقة، وكان أكثر الباعة ممن يقيمون خارج فلسطين.

ولم يكن وعي السكان كافياً ليمنعهم من هذا التدهور الذي أدى إلى فقدانهم أراضيهم تحت سمع الحكومة وبصرها. وفي غفلة من الزمن بدأت المستعمرات اليهودية تقام في أراضي بيسان حتى حرم على أصحابها الشرعيين أن يكونوا أجراء فيها.

بيسان الحديثة

بدأت المدينة تخطو على عتبات التطور الحديث في عام ١٩٠٥ تقريباً، حيث مرَّ عن شمالها خط سكة حديد حيفا ـ درعا، وسار النمو السكاني بجانب النمو العمراني وزاد عدد السكان نتيجة لاستقرار أعداد من البدو والتجار، إضافة إلى الزيادة الطبيعية في عدد السكان.

ومما ساعد في ازدهار المدينة أنها أصبحت خلال الانتداب البريطاني مركزاً إدارياً لقضاء بيسان، كما كان لانشاء المجلس البلدي أهمية كبيرة في نهضة المدينة، ويذكر السيد محمد أبو زبيد أحد أبنائها بأن البلدية في بيسان تأسست عام ١٩٠٠، وهي إحدى ثلاث وعشرين بلدية من بين بلديات فلسطين التي أُسست ضمن قانون البلديات في الولايات العثمانية سنة ١٨٧٧، ولم يكن سابقاً في الزمن لتلك البلديات سوى بلدية القدس التي تأسست سنة ١٨٦٧.

أما أول رئيس بلدية لمدينة بيسان فهو السيد أحمد أبو علي، وأما أطول فترة في رئاسة البلدية فقد قضاها السيد محمد سعيد الحلبوني. كما تناوب على رئاسة البلدية كل من رشيد الفحل والدكتور رشاد الخطيب حيث كانت البلدية تمارس أعمالها كالمعتاد[1].

---

(١) فلسطين أرضاً وشعباً وقضية ـ مرجع سابق.
وانظر أيضاً جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ـ مرجع سابق.

وقام المجلس البلدي المتعاقب بتعبيد الشوارع، وغرس فيها أشجاراً مثمرة وظليلة، وجفف الكثير من مستنقعاتها ليدرأ أخطار الملاريا عن السكان.

ونشطت الحركة التجارية بالمدينة، وكان سكان القرى المجاورة يجدون فيها ما يحتاجون ويبيعون منتجاتهم الزراعية والحيوانية، وساعدت على نمو هذه الحركة سهولة المواصلات وارتباط المدينة بالمناطق المجاورة في الجليل، وسهل مرج بن عامر وجنين.

وكانت أهم المحاصيل الزراعية في قضاء بيسان قبل النكبة: الحنطة، والشعير، والعدس، والفول، والحمص، والذرة، والسمسم، والزيتون، والبطيخ، والعنب، إضافة إلى الموز والحمضيات.

هذا وقدر عدد سكان القضاء في عام ١٩٤٥ بنحو ٢٣,٥٩٠ نسمة. أما عدد سكان المدينة ذاتها فقدر في نفس العام بنحو ٥١٨٠ نسمة (منهم ٢٠ يهوديا فقط) ويمكن القول بشكل عام أن قضاء بيسان كان أقل أقضية فلسطين سكاناً، وباستثناء قرية سيرين فإن جميع قرى القضاء سكانها دون الألف نسمة.

سقوط بيسان

في فجر اليوم الأول من شهر مايو (أيار) عام ١٩٤٨ تسللت قوة صهيونية من ٣٠٠ مقاتل من رجال الهاجاناه، وانقضت على تل الحصن القريب من بيسان فاحتلته، وأخذت تقصف المدينة بالقنابل تمهيداً للهجوم الكبير الذي بدأ يوم ١٢ من مايو من نفس العام.

ويصف المؤرخ الكبير عارف العارف الوضع القتالي في تلك الفترة قائلاً:
كانت حامية بيسان العربية مؤلفة من خمسة وسبعين أردنياً وحوالي مائة فلسطيني بقيادة توفيق التهتموني، ولم يكن بين أيديهم من السلاح سوى البنادق العادية وعدد غير كثير من الذخيرة، وما أن بدأ القصف على البلدة حتى هب المناضلون للدفاع عنها، وتمكنوا من التصدي للموجة الأولى من الهجوم بنجاح، ولكن الصهيونيين كرروا الهجوم على اتجاهات مختلفة وبكثافة كبيرة بالاضافة إلى كونهم مسلحين بالبنادق الآلية والرشاشات، تدعمهم نيران مدافع الهاون، واستمرت المعركة ثلاث ساعات كاملة نفدت بعدها ذخيرة المناضلين، فدخل الصهيونيون البلدة، وسقطت بيسان بأيديهم فقاموا فوراً يجمعون أسلحة المناضلين ويُحكمون سيطرتهم على البلدة.

وأبلغ قائد الهجوم سكان بيسان أن بإمكانهم البقاء في منازلهم وبلدتهم على ألا يبدوا أي مقاومة، فبقي سكانها جميعاً متمسكين بأرضهم. وبعد شهر واحد طلب من الجميع مغادرة البلدة خلال فترة قصيرة من الزمن، فنزح بعض السكان عنها فوراً، في حين أصر عدد كبير منهم على البقاء، فوضعتهم السلطات الصهيونية في عربات نقل حملتهم بقوة السلاح إلى الحدود السورية.

وظلت بيسان مهجورة نحو عام كامل قامت سلطات الاحتلال خلاله بتدميرها وهدم بيوتها، ثم أعادت بناء المدينة من جديد، وأسكنت فيها مئات العائلات الصهيونية، وزاد عدد السكان الصهاينة بعدئذ من ١,٢٠٠ صهيوني عام ١٩٥٠ إلى نحو ١٣,٥٠٠ عام ١٩٦٨. غير أن عددهم بدأ يتناقص (على غير العادة) منذ بداية السبعينات. فقد أخذ كثير من السكان يتركونها نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية، ونصف سكان بيسان حالياً هم صهيونيون مهاجرون من شمال افريقية، معظمهم من مصر والمغرب، ونحو ٣٠ بالمائة من السكان صهيونيون قدموا من أقطار عربية وإسلامية كإيران والعراق وتركيا، أما باقي الصهيونيين فقد قدموا من أوربا أو ولدوا في فلسطين[١].

وبيسان اليوم مدينة يهودية صرفة ليس فيها أي ساكن عربي، وبلغ عدد سكانها عام ١٩٩٠ (٢٢,٠٠٠) نسمة. وتحيط بها عشرات المستوطنات اليهودية.

هذا وقد أنشئت في بيسان عام ١٩٦٣ مشاريع مختلفة لجذب السائحين حيث أُقيم متحف للآثار، وأُنشئت برك لتربية الأسماك تستمد مياهها من أحد فروع نهر جالود، وأعيد بناء المدرج الروماني، كما أنشئت بالمدينة بعض الصناعات كصقل الماس والنسيج واللدائن والمعادن. ويقع بالقرب من المدينة مطار محلي صغير.

عملية بيسان

بتاريخ ١٩٧٤/١١/١٩ قامت مجموعة الشهيد صقر عبد العزيز من قوات الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين بتنفيذ عملية الشهيدة منتهى الحوراني التي استشهدت في مدينة جنين الفلسطينية المحتلة برصاص القوات الإسرائيلية.

فقد اقتحمت المجموعة مبنى يقطنه ضباط من الاستخبارات الإسرائيلية مع

---

(١) الموسوعة الفلسطينية ـ مرجع سابق.

عائلاتهم في مدينة بيسان، واحتجزت فيه عدداً من الرهائن، وطالبت المجموعة بإطلاق سراح عدد من رفاقهم المناضلين من السجون الإسرائيلية مقابل تأمين حياة الرهائن.

فرفضت السلطات الصهيونية الاستجابة لمطلب المجموعة الفدائية الانتحارية، وشنت هجوماً على المبنى، ودارت معركة عنيفة حيث فجر الفدائيون في النّهاية أنفسهم مع رهائنهم بعد أن نفدت ذخيرتهم.

واعترفت السلطات الصهيونية بمقتل ثلاثة رهائن وجرح ١٩ آخرين. واستشهد الأبطال الثلاثة، وعمدت هذه السلطات إلى رمي جثثهم في شارع بيسان الرئيسي حيث تم تقطيعها بالسكاكين قبل إحراقها تماماً.

وجدير بالذكر أن سجن «شطة» الصهيوني الرهيب يقع في غور بيسان حيث الحرارة مرتفعة، والرطوبة عالية، ويحيط به جدار عال من الأسمنت المسلح يزيد ارتفاعه عن أربعة أمتار ويعلوه سياج شائك وستة أبراج للمراقبة، ويصل عدد السجناء فيه إلى ٤٠٠ سجين[1].

وإمعاناً منه في التنكيل بأهلنا فقد اتخذ الجيش الإسرائيلي إجراءات انتقامية جماعية بحق أكثر من ألف قروي في الجفتلك بوادي الأردن وذلك بتهديم ١١٤ منزلاً خلال الاسبوع الثاني من شهر نوفمبر عام ١٩٨٨م. وجاء ذلك العقاب الجماعي الظالم بعد مقتل جندي اسرائيلي في اليوم السابع من الشهر نفسه على يد قروي فلسطيني من قرية طمون الواقعة شمال الضفة الغربية على مسافة ثلاثين كلم شمال الجفتلك. وذكرت وكالة أ.ف.ب في حينه أن أغلبية هؤلاء القرويين وهم حوالي ٥٠٠ شخص توزعوا بعد نسف منازلهم على الطرقات وفوق التلال المجاورة للجفتلك من غير أن يبقى عندهم مأوى في قرية طمون الجبلية (ستة آلاف شخص) حيث تنتشر البطالة بين السكان[2].

* * *

---

(١) المرجع السابق.

(٢) جريدة القبس الكويتية بتاريخ ١٤/١١/١٩٨٨م.

في غمرة الأحزان التي تسكن قلبي على ضياع وطني الأروع والأطهر والأقدس وجدتني أردد مقاطع من قصيدة الشاعر محمود مفلح «.. وفي قلبي تسكن بيسان» التي يقول فيها:

الدمع في عيني.. وفي قلبي تسكن بيسان
تتعرّى في ذاكرتي نخلاً
ترقص مثل جواد يرسم أحداق العشاق
ويصل في لهف المسجون إلى مفتاحك.. يا سجّان
تتهادى مثل شراع.. يبحث مجهوداً في نزق الموج..
.. عن الربّان

* * *

أشْهدُ من مات ومن يصنع آفاق الموت..
ومن ماتوا من قبل الموت!!
لا أجهلها...
لكني أوثر أن ألْحق بالركب.. أقيم صلاة الفجر بحضنك
يا بيسان
أوثر أن أحياك عناقاً
وتصب بعينيك العينان
أوثر أن أزرع في رحم الأرض رصاصي
وأفضّ على الأرض خلاصي
وعلى الأرض أفجّر تاريخ.. الانسان.

الباب الخامس:

لواء السامرة (نابلس)

ويتبعه أقضية

نابلس، طولكرم، جنين، وأضيفت «أم الفحم»

عرف لواء السامرة «أو لواء نابلس» بمثلث «الرعب» أو المثلث «الحديدي»، فالمثلث نسبة إلى الشكل الهندسي لخطوط المواصلات القائمة بين مدنه الثلاث .

أما الصفة فقد أطلقت عليه بالنظر لما أظهره ـ ويظهره ـ أهله من الآيات البيّنات في ميادين البطولة والبسالة والفداء.

أما مدينة نابلس نفسها فهي التي عرفت وتعرف بجبل النار. ويقول أستاذنا الأكرم أكرم زعيتر في هذا الصدد: «نابلس. . بلدي الذي ولدت وترعرعت فيه، واعتززت بإطلاق «جبل النار» نعتاً له، لفرط حميته، وعظامة شجاعته، وصراحة عروبته»[1].

---

(1) جريدة الدستور ١٤ ـ ٥ ـ ١٩٨٣م.

Nablus.



نابلس.. شامة على خد الوطن

أعترف بداية أنني أستشعر الضعف البشرى يعتورني حيث أقف على عتبات بعض مدننا العربية الفلسطينية المحتلة في محاولة الولوج إليها قصد الكتابة عنها.

وتبرز مدينة نابلس وسط دائرة هذه المدن. ولا غرابة في ذلك، فهي رئة الجهاد والاستشهاد، ونبض الثورات الفلسطينية المتلاحقة، والعنوان الباهر في موسوعة النضال الفلسطيني.

وهي أرض جبل النار الملتهب دوماً، والتي حرّمت ترابها وفضاءها وهواءها على الصهيونيين طوال فترة الإنتداب البريطاني على فلسطين، وحتى السادس من حزيران عام ١٩٦٧.

وهي التي جادت ـ وما برحت تجود ـ بمئات الشخصيات والقيادات في مختلف أقنية الحياة.

وهي المتميزة بأسرها وعائلاتها العريقة بحسبها ونسبها وأصالة محتدها. وهي التي لا جود للأمية بين أجيالها الشابة، مهما كان نوع الطبقة الاجتماعية فيها.

* * *

ها نحن على عتبات نابلس نردد مع الشاعر العناياتي:

أيُّها الغادي على نابُلُسَ
جئْتَ خيرَ الأرض والناسِ الكراما
الفناءُ الرحب والعيشُ الرَّضِيُّ

والـهـواءُ الـعـذبُ والـمـاءُ الـجـمـامـا
بـوركَـتْ أرضـا ولا زال بـهـا
يـتـوالى الـسـحـب وَجْـداً وغـرامـا
بـلدةٌ طـيـبـةٌ قـد حَـسُـنَـتْ
لـوفـود مـسـتـقـرا ومـقـامـا

* * *

يضم قضاء نابلس أكثر من ١٣٠ قرية من أشهرها: بلاطة، حجة، حوارة، كفر قدوم، سبسطية، سلفيت، طلوزة، طوباس.

وتقع مدينة نابلس في منطقة جبلية تمتد من جنوب مرج ابن عامر لتنتهي في جبال القدس جنوبا، وأعلى قمم هذه الجبال هي قمة جبال (عيبال) التي يبلغ ارتفاعها نحو ألف متر. وفي الناحية المواجهة يقع جبل «جرزيم» ويرتفع نحو ٨٧٠ متراً، وفي الوادي المنحصر بين هذه الجبلين وفي السفوح تقع مدينة نابلس العربية الفلسطينية المحتلة، ويستطيع المرء بسهولة أن يلمس الفرق الكبير بين ارتفاع الجبال وانخفاض السهول عندما يلاحظ الهبوط الحاد من قمة عيبال إلى مستوى يقرب من ٤٠٠ متر خلال مسافة لا تزيد عن ٥ كم.

وتشكل نابلس عقدة مواصلات برية تتفرع منها طرق معبدة إلى جميع الجهات، وهي تبعد عن القدس مسافة ٧٠ كم، وعن عمان ١١٤ كم، وعن البحر الأبيض المتوسط ٤٢ كم.

ومناخ نابلس يتميز بحرارته وجفافه صيفاً ودفئه وأمطاره شتاء، ويتراوح ومتوسط الحرارة بين تسع درجات شتاء و ٢٤ درجة صيفاً.

وتنتشر الينابيع في أماكن متعددة من المدينة، ونلاحظ وجود نحو ٢٢ ينبوعاً تتفجر من منحدرات جبل جرزيم الشمالية.

أما أشهر هذه الينابيع أو العيون فهي رأس العين، عين الصبيان، عين بيت الماء، عين القريون، عين العسل، عين الدفنة.

ومن حيث نشأتها فهي مدينة كنعانية قديمة استمر فيها السكن منذ أكثر من تسعة آلاف سنة وحتى الوقت الحاضر(١).

---

(١) الموسوعة الفلسطينية ـ مرجع سابق.

وقد سماها الكنعانيون «شكيم» أي الأرض المرتفعة، وهو الاسم الذي يطلقه الإسرائيليون اليوم على المدينة.

ويحدثنا التاريخ بأن أشهر المعارك التي حدثت في منطقة نابلس هي معركة «مجدّو» في العصور القديمة، ومعركة «عين جالوت» في العصور الوسطى، ومعركة «صانور» في العصور الحديثة، وكذلك حروبها مع البريطانيين واليهود في السنين المعاصرة.

نابلس.. والفتح الإسلامي

فتح المسلمون نابلس وما جاورها في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بقيادة عمرو بن العاص الذي تعهد للسكان بحماية من بقي منهم على الديانة المسيحية شريطة أن يدفعوا الجزية عن رقابهم والخراج عن أراضيهم.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت نابلس مدينة من مدن «اللواء» الذي كان يعرف في ذلك الوقت بـ «جند الأردن». والذي كانت مدينة الرملة عاصمة له.

وقد اشتهرت نابلس منذ القدم بمياهها وخيراتها الكثيرة حتى لقبها المؤرخ المقدسي «بدمشق الصغرى».

أما المؤرخ العُمري فقد وصفها بأنها «مدينة يُحتاج إليها ولا تَحتاج إلى غيرها» وذلك نظراً لوفرة خيراتها.

وجاء في «الأنس الجليل» روى المشرف بسنده عن كعب قال: أحب البلاد إلى الله الشام، وأحب الشام إلى الله تعالى القدس، وأحب القدس إلى الله تعالى جبل نابلس، ليأتين على الناس زمان يتماسحونه بالحبال بينهم.

وقال عنها «ابن حوقل»: ليس بفلسطين بلدة فيها ماء جار سواها، وباقي ذلك شرب أهله من المطر، وزرعهم عليه، وبها البئر التي حفرها يعقوب، وهي مدينة السامرة».

كما ذكرها يعقوب الحموي في معجم البلدان فقال عنها: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين، مستطيلة لا عرض لها، كثيرة المياه لأنها لصيقة في جبل، وبظاهر نابلس جبل ذكروا أن آدم عليه السلام سجد له.

وعندما زارها الفقيه «أبو بكر ابن العربي» خلال القرن الرابع الهجري أدرجها

في عداد القرى ولم يدرجها في عداد المدن، وقد أثنى على نسائها ثناء جميلاً فقال: «. . . . ولقد دخلت نيّفاً على ألف قرية فما رأيت نساء أصْوَنُ عيالاً ولا أعف نساء. . . . فإني أقمت فيها أشهراً فما رأيت امرأة في طريق نهاراً إلا يوم الجمعة، فإنهن يخرجن حتى يمتلىء المسجد منهن، فإذا قُضيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى. . .»[1]

* * *

في أواخر شهر تموز «يوليو» عام ١٠٩٩ استولى الصليبيون على نابلس، فتعرضت لأذاهم عند احتلالهم لها، لأنها لم تكن محصنة، وقد عاملوا سكانها بقسوة بالغة نظراً للغارات الليلية التي كان يشنها الأهالي على معسكرات الصليبيين. . وأمام هذه النقمة اضطر البعض للهجرة إلى مصر والشام.

ولم يقف الأذى بالنابلسيين عند هذا الحد، ففي عام ٥٩٧ هـ تعرضت المدينة لزلزال عنيف هز جميع أركانها، وقد توفي على أثر هذا الزلزال حوالي ثلاثين ألف نسمة كما ورد في «النجوم الزاهرة».

وفي عام ١٣٢٦م زارها شيخ الربوة أبو عبد الله الأنصاري فذكرها في كتابه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر»: ومدينة نابلس ذات أمياه جارية وحمامات طيبة وجامع حسن تقام فيه الصلوات، وتكثر قراءة القرآن به ليلاً ونهاراً، والاشتغال به كثير، وهي كأنها قصر في بستان قد خصهاالله تبارك وتعالى بالشجرة المباركة وهي الزيتون، ويحمل زيتها إلى الديار المصرية والشامية وإلى الحجاز والبراري مع الرعيان، ويحمل إلى جامع بني أمية منه في كل سنة ألف قنطار بالدمشقي، ويعمل فيه الصابون الذي يحمل إلى سائر البلاد الذي ذكرنا، وإلى جزائر البحر الرومي، ولها البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض».

كما ذكرها صاحب الأنس الجليل حوالي عام ١٥١٢ بقوله: «. . . نابلس مدينة بالأرض المقدسة مقابل بيت المقدس من جهة الشمال، خرج منها كثير من العلماء والأعيان. وهي كثيرة الأعين والأشجار، والفواكه، ومعظم الأشجار بضواحيها الزيتون وبها كثير من السامرة. . . وبمدينة نابلس وبضواحيها مشاهد كثيرة تنسب إلى جماعة من الأنبياء عليه السلام».

---

(١) جريدة «القبس» الكويتية ٢١/٦/١٩٨٠م.

نابلس تحت الحكم العثماني

بعد موقعة «مرج دابق» عام ١٥١٧ تمكن العثمانيون من السيطرة على سورية وفلسطين، ونتيجة لذلك أصبحت نابلس ضمن أملاك الدولة العثمانية. وصارت فيما بعد مركز لواء تابعة لولاية دمشق، ثم بيروت..

في عام ١٦٩٠ جاء إلى نابلس إبنها الرحالة المعروف الشيخ عبد الغني النابلسي، وقد أشاد في إحدى قصائده بجمال نابلس، وبكرم أهلها، وحسن ضيافتهم ومعشرهم. ومن شعره بهذا الخصوص قوله:

إنَّ لي قوماً بنابُلُسَ … يألفونَ الحِفْظَ للذِّمَمِ
قُلْ لمن قد جاءَ ساحتَهم … جئتَ أهلَ الجودِ والكرَمِ
سادةٌ ما مِثْلُهم أحدٌ … في معالي العزمِ والهِمَمِ
ضيفُهم ثاوٍ ببحرِ النَّدى … أو بِغَيْثٍ منه مُنسَجِمِ
وبهم يسلو الغريبُ فلا … يرتَضي أوطانَ غيرهمِ
لا أزالَ اللهُ رونقَ ما … في وجوهِ القومِ من نِعَمِ

وفي عام ١٨٣٢ دخلت نابلس كغيرها من مدن فلسطين تحت الحكم المصري بقيادة إبراهيم باشا، واستمر حكمه ثماني سنوات، وأهم الأحداث الداخلية التي وقعت في تلك الفترة إخفاق أهل نابلس في الثورة على الحكم المصري، وكذلك اشتعال شرارة المنافسة في الحصول على السيادة في منطقة نابلس بين آل طوقان وآل عبد الهادي، والتي استمرت أيضاً بعد خروج المصريين من نابلس[١].

وبقيت نابلس كغيرها من المدن الفلسطينية تحت الحكم العثماني الذي امتد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨.

ويلاحظ في تلك الفترة استمرار تقدير النابلسيين للعلم وحرصهم على طلبه والمكابدة من أجله، حيث أثْرت منطقة نابلس التراث العربي والإسلامي ـ وما برحت ـ بكمٍّ هائل من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء والإداريين.

ويحدثنا المؤرخ المرحوم إحسان النمر[٢] عن مدى ولع النابلسيين بالعلم خلال

---

(١) بلادنا فلسطين ـ مرجع سابق.
(٢) تاريخ جبل نابلس والبلقاء ـ احسان النمر ـ الجزء الثالث.

الفترة الأخيرة من الحكم العثماني، فذكر بأن بعض الأهالي كانوا يرسلون أبناءهم إلى مدرسة الولاية في بيروت حيث يكملون الدراسة الثانوية، ومن تساعده ظروفه يدخل كليات جامعة استانبول السلطانية، وقد تنافست عائلات نابلس في إرسال أبنائها لهذه المدارس تنافساً تناسب مع ثرائها، حتى بلغت أعلى نسبة بين ألوية الدولة العثمانية جميعها. إذ بلغ طلاب نابلس في كليات استانبول ١٥٠ طالباً، وكانت العائلة الواحدة تتعاون على إرسال طالب أو طالبين أو أكثر.

وكانت الدولة تساعد في تخفيض الأقساط أو الاعفاء منها كلية. كما أنشأ السلطان عبد الحميد مدرسة العشائر وهي خاصة بأبناء شيوخ العشائر. وقد استفادت بعض عائلات نابلس المعروفة من هذه الفرصة فأدخلت فيها عدداً من أبنائها.

وضمن المعلومات الاقتصادية والاجتماعية الطريفة التي ذكرها النمر في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى أن الخبراء قدروا ثروة أثرياء نابلس الثلاثة الكبار وهم أبناء الشيخ محمد عاشور، وأبناء الحاج حسن النابلسي، وأبناء الحاج إبراهيم عبده (الغزاوي) بنصف مليون ليرة فرنسية ذهباً، وقدروا أملاكهم بمثل ذلك. فكان عند هؤلاء الثلاثة ثروة نقدية ومجمدة بمليون ليرة فرنسية ذهباً. وفي نفس الوقت قدر الخبراء ثروة باقي أثرياء وتجار نابلس بمثل ذلك.

ومن الجدير بالذكر أن الليرة الفرنسية كانت أساس التعامل في البلاد بسبب كثرة التعامل مع فرنسا، وقد دامت حتى بداية الحرب العالمية الأولى.

أما أثرياء ما بعد تلك الحرب فكانوا العالول والمصري وأبو الروس وفريتخ!

نابلس تحت الحكم البريطاني

تمكن الجيش البريطاني من هزيمة القوات التركية ودخول مدينة نابلس يوم ٢١ من سبتمبر عام ١٩١٨. وبذلك دخلت هذه المدينة المناضلة مرحلة جديدة من نضالها الدؤوب.

وفي الوقت الذي أسف فيه النابلسيون أسفاً عميقاً على هزيمة الأتراك وزوال دولة الخلافة العثمانية، فإنهم لم يتقبلوا أبداً وجود الإنجليز، ولم يتفاعلوا معهم، بل تشاءموا بمجيئهم، وخاصة عندما لمسوا ما نسجه الدهاء البريطاني ضد فلسطين والعمل على تنفيذ روح وعد بلفور، وكذلك ما رأوه من تصرفات لا أخلاقية من قبل

الجنود البريطانيين، وما أشاعوه في المدينة من انحلال خلقي، وبسبب هذه المظاهر التي لم تألفها المدينة من قبل وبسبب «تخوفهم على الدين أن ينقرض علماؤه» اجتمع وجهاء وأعيان المدينة في بيت الشيخ المرحوم أحمد البسطامي وتذاكروا في الوضع فاتفقوا على إرسال بعثة من الطلاب الأذكياء يتحمل المجتمعون نفقتها طوال مدة الدراسة الإسلامية.

وقد وقع اختيارهم على السادة: عبد الحميد السائح، رامز مسمار، شكيب الخماش، رشيد زيد الكيلاني، حسن الحبش، إضافة إلى باقي المبعوثين محمود الحبش، وصبري كتانة، وزكي العفوري.

أما السيدين محمد البسطامي وراضي الحنبلي فقد تم إيفادهما على نفقة أهليهما.

«بلدية نابلس»

أما فيما يختص ببلدية نابلس التي تعتبر من أوائل البلديات التي أنشئت بفلسطين، فقد كانت تجري فيها الانتخابات لشغل منصب الرئيس والمجلس البلدي منذ زمن الأتراك، ولكن عندما انتهت مدة المجلس في الحرب العالمية الأولى المسؤولون الأتراك يعينون الرئيس بصورة مؤقتة، وقد تولى رئاسة البلدية في تلك الفترة تسعة رؤساء في أربع سنوات، وهم السادة: الحاج يوسف التميمي وكمال الدين عرفات، والحاج طاهر الحجاوي، والحاج حسن حماد، وبشير الشرابي، وأحمد القباني، ومصطفى البشناق، وحيدر طوقان فالشيخ عمر زعيتر الذي حدث الاحتلال البريطاني في عهده (فأثبت أنه رجل الساعة، وقد كان ذكياً فاضلاً قاوم الإنجليز في كثير من المواقف. . . وكان يدافع عن المواطنين. . . . وكان لمرونته أثر طيب في جمع الكلمة في جبل نابلس)[1].

وبعد وفاة الشيخ عمر زعيتر عام ١٩٢٤ خلفه في رئاسة البلدية السيد عمر الجوهري وكان أكبر الأعضاء سناً. وبعد ذلك تمت الانتخابات ففاز فيها السادة: سليمان طوقان، والحاج عبد الرحيم النابلسي، وأحمد الشكعة، وعفيف عاشور، وعبد الرحيم التميمي، والحاج طاهر المصري.

* * *

(١) تاريخ جبل نابلس والبلقاء ـ مرجع سابق.

ومن أبرز المظاهر الوطنية في تلك الآونة انعقاد «المؤتمر الفلسطيني الخامس» بتاريخ ٢٢ من أغسطس (آب) عام ١٩٢٢ في نابلس، وتم عقد هذا المؤتمر بعد عودة الوفد الفلسطيني الذي سافر إلى بريطانيا لشرح القضية الفلسطينية أمام الرأي العام البريطاني، وقد استمع المؤتمرون في نابلس إلى انطباعات الوفد، وأيدوا الخطة التي سار عليها، ثم وضعوا الميثاق الوطني التالي الذي ما برح عنواناً للشعب الفلسطيني برغم مرور عشرات السنين على إصداره:

«نحن ممثلي فلسطين، أعضاء المؤتمر الوطني الخامس، نقسم أمام الله والأمة والتاريخ بأن نواصل المساعي المشروعة لتحقيق الاستقلال والاتحاد العربي ورفض الوطن اليهودي والهجرة الصهيونية».

وإبان أحداث البراق عام ١٩٢٩ تجاوبت نابلس مع باقي المدن الفلسطينية التي شهدت اضطرابات بين اليهود والعرب، كالخليل وصفد وحيفا والقدس. كما بعثت نابلس بمعونات ونجدات وإمدادات إلى العاصمة الفلسطينية.

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام ان المواطنين في شرقي الأردن تجاوبوا أيضاً مع أحداث البراق، وقد توجهت مجموعات منهم إلى القدس فاستشهد بعضهم كما حدث مع رجالات من عشيرة العبيدات المعروفة في منطقة إربد حيث ذهبوا للنجدة فهاجمتهم الطائرات البريطانية فقتلت عميدهم الشيخ المرحوم كايد المصلح وأخاه وذلك في منطقة تقع بين سمخ والحمة.

كما ساهم أيضاً بعض أثرياء نابلس في إنقاذ بعض الأراضي الفلسطينية التي كانت مهددة بالبيع في بيسان وبني صعب.

وكان يقال: إثنان بيدهما تهويد فلسطين: قاسم آغا النمر في جبل نابلس، والحاج سعيد الشوا في قضاءي غزة وبئر السبع لأنهما يملكان أكبر مساحة أراضي في البلاد، مع أن الاثنين كانا يضطران إلى التداين من صناديق الأيتام[١]!

ومن أشهر المدارس الوطنية في فلسطين كلها مدرسة النجاح الوطنية التي تأسست عام ١٩١٨، كأرقى مدرسة وطنية في نابلس، ثم تطورت فأصبحت كلية، إلى أن أضحت كبرى جامعات الأرض المحتلة.

---

(١) المرجع السابق.

ونـظراً لأهمية هـذه المدرسـة ـ الكلية ـ الجـامعة، على المستـوى الـوطني الفلسطيني سنتحدث عنها بشيء من التفصيل.

جامعة النجاح الوطنية

اجتمع نفر من أهل العلم والمهتمين بشؤون الثقافة في نابلس ببيت المرحوم الحاج حسن حماد نائب رئيس لجنة المعارف في العهد العثماني، فقرروا تأسيس مدرسة وطنية تحمل اسم مدرسة النجاح الوطنية.

وكانت تضم روضة أطفال وفصول ابتدائية وثانوية، كما كان فيها قسم داخلي. ونظراً لمستواها العلمي الرفيع فقد كانت الجامعة الأمريكية ببيروت تقبـل خريجي مدرسة النجاح بالسنة الأولى بالجامعة دون الحاجة إلى عقد امتحان قبول لهـم.

ومنذ أن باشرت هذه المؤسسة التربوية الراقية نشاطها العلمي وهي تحظى في شتى مناطق فلسطين، وكذلك شتى أقطار الوطن العربي باحترام وتقدير كبيرين.

واستـطاعت هذه المؤسسـة الرائـدة أن تنشىء أجيالاً متعـاقبة من الـرجالات الوطنيين والزعماء السياسيين والقادة المبرزين، ومنذ أن تأسست وهي تمثل قلعة من قلاع القضية الفلسطينية، وقد أدت دورها كما «روضة المعارف» في القدس.

ومن بين الأساتذة الذين قاموا بالتدريس فيها محمد عزة دروزة، أكرم زعيتر، واصف كمـال، ممدوح السخن، إبـراهيم طوقـان، قدري طـوقان، وعبـد الحميد السائح.

وقد عمل هؤلاء الأسـاتذة وغيـرهم من زملائهم على تعبئـة مشاعـر الطلاب بالوطنية الصادقة ومعاداة الصهيونية والاستعمار. كما كان لهم دور مهم في ثورة عام ١٩٣٦.

وفي عام ١٩٤١ تغير اسمها إلى (كلية النجاح الوطنية) والتحقت بها أعـداد وفيرة من الطلبة، وواكبت النهضة التعليمية بفلسطين، ومكنت طلابها من الالتحاق بالجامعات العربية والعالمية.

وفي عام ١٩٦٥ افتتح فيها معهد لإعداد المعلمين للمرحلة الإلزامية، وفي عام ١٩٧٧ تم تطويرها إلى «جامعة النجاح الوطنية» ويشرف عليها مجلس أمناء مؤلف من ١٢ عضواً.

ويعتبر مجلس الأمناء أعلى جهاز تشريعي في الجامعة، تقسم أعماله إلى مجموعة من اللجان المختصة بكافة الأمور المتعلقة بتطوير الجامعة، كما ويشرف مجلس الأمناء على جمع التبرعات للجامعة.

وتضم الجامعة عدة كليات منها: كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية، وكلية الآداب، وكلية العلوم، وكلية التربية، وكلية الهندسة المدنية. ويزيد عدد الطلبة عن أربعة آلاف طالب وطالبة، بينما يزيد عدد أعضاء الهيئة التدريسية عن ثلاثمائة منهم أكثر من مائة وخمسين من حملة الدكتوراه وذلك حسب احصاءات العام الدراسي ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧م وأما مكتبة الجامعة فتشتمل على نحو مائة ألف كتاب، كما تشترك الجامعة في نحو ٣٢٠ دورية والجامعة عضو في اتحاد الجامعات العربية الذي يضم نحو سبعين جامعة، وهي أيضاً عضو في الاتحاد الدولي للجامعات (مقره باريس) والذي يضم في عداد عضويته أكثر من ١٢٢٥ جامعة من جميع أنحاء العالم.

أهداف الجامعة

يمكن تلخيص أهداف الجامعة فيما يلي:

أولاً: توفير البيئة الجامعية الحيوية للأكفاء من أبناء الشعب الفلسطيني الراغبين في الإفادة من برامجها الأكاديمية وخدماتها الثقافية والاجتماعية والفنية.

ثانيا: تنمية الشخصية الفلسطينية القادرة على التفكير الموضوعي الهادف والتقييم السليم والتجاوب بإحساس ذهني وإنساني مع المجتمع.

ثالثا: إحياء التراث العربي والإسلامي وتوثيق روابط التعاون مع الشعوب المحبة للسلام وذلك عن طريق توجيه أفراد أسرة الجامعة ومساعدتهم.

رابعاً: الاستمرار في تطوير الجامعة لتحافظ على حداثتها والتجاوب مع حاجات المجتمع وتحديات المستقبل.

الطائفة السامرية

توجد في مدينة نابلس أصغر طائفة دينية في العالم هي طائفة السامريين، وقد عاشت هذه الطائفة في صراع مستمر مع اليهود من جانب ومع الرومان من جانب آخر.

ولم تشعر هذه الطائفة بالدعة والأمان إلا بعد الفتح الإسلامي لنابلس، حيث أصبح أفرادها يمارسون شعائرهم الدينية بحرية مطلقة.

ومن الطريف ما يروى بأن عدد أفراد هذه الطائفة قد ظل يتناقص باستمرار حتى وصل عددهم في بداية القرن السادس عشر إلى خمسة رجال وخمس نساء!!

أما اليوم فيقدر عددهم بألف نسمة تقريباً.

ويرى السامريون بأنهم ورثة بني اسرائيل، وحماة التوراة الحافظون لوصاياها العشر، وهم بقية الأسباط العشر. أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام. وقد اطلعت على تحقيق صحفي أجراه محرر جريدة «القدس» مع سكرتير الطائفة السامرية، وجاء فيه بأن أحد كهنتهم ويدعى «صدقة» قام قبل ٣٠٠ عام بجمع شمل العائلات السامرية للإقامة في نابلس حيث كانت موزعة في صرفند وغزة والشام.

وتتكون الطائفة من عائلات خمس هي: الكهنة - اللطيف - صدقة - صداوي - مفرجي.

الجبل قبلتهم!!

وترتكز الديانة السامرية على خمسة أركان:

١- الاعتقاد بوحدانية الله.
٢- الايمان بأن موسى عليه السلام أعظم الرسل وخاتمهم.
٣- التوراة هي كتاب الله المنزل على موسى.
٤- إن جبل جرزيم هو القبلة ومركز الحج.
٥- الإيمان باليوم الآخر.

وعندما سأله محرر الصحيفة عن الفرق بين ديانتهم وديانة اليهود أجاب: إن أهم خلاف هو أنه ليس للسامريين أي إيمان في القدس، وإيماننا ينحصر في جبل جرزيم فقط، والخلاف الآخر هو أننا لا نؤمن إلا بالعهد القديم من التوراة التي نزلت على سيدنا موسى، والتي كتبت من قبل الكاهن ناجي بن خضر بن هارون أخي سيدنا موسى، وإن هذه التوراة مكتوبة على جلد ماعز ومحفوظة لدينا، وقد كتبت بعد موت سيدنا موسى بثلاثة عشر عاماً.

أما اليهود فيؤمنون بأسفار أخرى غير الأسفار الخمسة التي نؤمن نحن بها.

والسامريون جميعاً يتكلمون العربية باللهجة النابلسية، أما لغتهم السامرية فيستعملونها في طقوسهم الدينية. والسامريون لا يتزوجون إلا من بعضهم البعض، والسامريات يسفرن على السامريين إلا أنهن يتحجبن عن غيرهم من الرجال. وهم لا يأكلون من طعام غيرهم، ولا يجمعون بين أكل اللحم واللبن في وجبة واحدة، ومن ضمن عاداتهم التي تصل إلى مستوى القانون أنهم يُحَتِّمون ختان (طهور) الطفل في اليوم الثامن لولادته، ولا يمكن قبول أي عذر للتأخير!!

وتدعي هذه الطائفة أنها تملك أقدم نسخة خطية من التوراة على الإطلاق. وهي تعود إلى (٣٦٤٠) سنة، وقد دونت بعد (١٣) عاماً عن وفاة النبي موسى!

ويرى السامريون أنهم يلتقون مع المسلمين في عدة مسائل كالطهارة، وتحديد النجاسات، والوضوء والسجود، والركوع، وغسل الميت ودفنه، أكثر من ذلك ينظر السامريون إلى أنفسهم كفلسطينيين، وكنابلسيين تحديداً، وهذا ما يراه الكاهن عبد المعين أحد كبار رجال الطائفة حيث يقول: إن عدد أفراد طائفتنا قليل، إلا أننا نشعر بأن حجمنا كبير، بحجم كرم وحسن معاملة أهالي نابلس، الذين نحن جزء لا يتجزأ منهم»[1].

وأبناء الطائفة السامرية يحملون جوازات السفر الأردنية حتى هذا اليوم، وقد نعموا بحرية العبادة وحرية التنقل وجميع الحريات التي كفلها لهم الدستور العربي الأردني قبيل الاحتلال الصهيوني لنابلس عام ١٩٦٧.

أما اليوم فقطعاً لا ينعمون بتلك الحريات، لأنهم يشعرون في ظل الاحتلال بأنهم في مركز ضعيف من قبل خصمهم الديني والقومي على السواء.

نضال المرأة النابلسية

لقد ساعدت النهضة التعليمية التي شهدتها نابلس في وقت مبكر من هذا القرن في تقدم الوعي النضالي لدى المرأة النابلسية التي عاشت في كنف الأسرة المتعلمة المجاهدة من أب أو أخ أو جد أو أي قريب أو صديق مكتسب للعلم والمعرفة.

ففي عام ١٩٣٦ شكلت بصورة رسمية «جمعية الاتحاد النسائي العربي»،

---

(١) مجلة فلسطين الثورة بتاريخ ١٩٨٥/١١/٩م.

وأنتخبت أول هيئة لإدارة هذه الجمعية وكانت مكونة من الفاضلات: مريم هاشم رئيسة، عندليب العمد نائبة الرئيسة، لائقة المصري أمينة للسر، صبحية النابلسي أمينة للصندوق، فردوس كنعان كاتبة للوقائع.

أما العضوات فهن: ازدهار سروري، أميرة الطاهر، تمام النابلسي، حورية النابلسي، عريفة التميمي، ذوقية فخر الدين، فهمية كمال، فاطمة عرفات، فتنة كنعان، كريمة الخماش، مزين الحمد، ندى ملحس، نوال عبد الهادي، يسرى عبد اللطيف، بهيجة النابلسي، فاطمة البشناق، بهيجة آغا[1].

وقد قامت هذه الجمعية بنشاطات واسعة حيث أنشأت أول مستشفى للأطفال، ثم نادي اتحاد الفتيات، وملجأ لليتيمات، ومستشفى وقد ساعدت هذه الجمعية أيضاً في نشر الوعي الوطني والقومي عند النابلسيات بشكل عام فظهرت نهضة نسائية مرموقة ساهمت في الأعمال الوطنية المختلفة.

وامتدت آثار تلك النهضة حتى شملت الكثير من القرى والمدن القريبة من نابلس والبعيدة عنها.

وما برحت المرأة النابلسية شعلة متوهجة من العطاء والفداء وبخاصة بعد الاحتلال الصهيوني لنابلس مع المحافظة على مبادىء دينها العظيم.

مساجد نابلس

توجد في مدينة نابلس كثير من المساجد والمزارات، وقد ذكر بعض المؤرخين أن مجموع المقامات والمزارات في لواء السامرة يزيد عن الثلاثين.

أما المساجد فمن أشهرها:

● الجامع الصلاحي: وهو أكبر مساجد نابلس وأشهرها. أصله كنيسة بناها الأمبراطور جستنيان في القرن السادس الميلادي. وقد حوله السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى جامع.

● جامع الخضراء: ويقع في حي الياسمينة، ويقال إنه تأسس في نفس المكان الذي حزن فيه يعقوب عليه السلام على ابنه يوسف، ويعود تاريخ بنائه إلى عام ١٢٩٠م.

---

(١) تاريخ جبل نابلس والبلقاء ـ مرجع سابق.

● جامع النصر: ويقع وسط البلدة القديمة، وكان في الأصل كنيسة بيزنطية. ثم حوله المسلمون إلى مسجد بعد انتصارهم على الصليبيين، وأعيد بناؤه عام ١٩٣٥م؛ ويعتبر من أجمل مساجد نابلس.

● جامع الأنبياء: ويقال أن أولاد يعقوب عليه السلام دفنوا فيه، ومنهم أخذ اسمه الحالي. وضريح الأنبياء في إحدى غرفه.

● جامع الحنابلة: وهو جامع قديم يرجع بناؤه إلى القرن السابع الهجري.

● جامع البيك: أصله كنيسة حولت إلى جامع زمن العثمانيين.

● جامع التينه: وهو قديم، وجدد بناؤه عام ١٨٩٢.

● جامع الحاج نمر النابلسي: أوصت ببنائه السيدة الفاضلة محفوظة النابلسي من مالها الخاص، وقد نفذ الوصية وساهم في البناء أخوها الحاج نمر النابلسي، وتم تشييده على غرار مساجد استانبول وذلك في عام ١٣٥٧هـ.

● جامع الخضر: وقد بناه المحسن بدوي عاشور عام ١٨٩٠.

وبمناسبة الحديث عن المساجد فمن المهم أن نذكر أسماء بعض أشهر خطباء المساجد بنابلس ومن بينهم السادة: الشيخ محمد البسطامي، الشيخ محمد أبو فرحة، الأستاذ نعيم طوقان، الشيخ راضي الطاهر، الشيخ راضي الحنبلي، الشيخ نمر الداري.

أما أشهر خطباء الحركة الوطنية الذين أنجبتهم نابلس فكثيرون، ونذكر منهم: أكرم زعيتر، فائق عنبتاوي، محمد العمد، إحسان النمر، نعيم طوقان، وجيه البشتاوي.

النشاط السكاني

قدر عدد سكان نابلس عام ١٩٣١ بنحو ١٩,٥٠٠ نسمة، وفي عام ١٩٤٥ قدر عددهم بنحو ٢٣,٠٠٠ نسمة. أما في عام ١٩٦١ فقد قدر عددهم بنحو ٥٣,٠٠٠ نسمة. وفي عام ١٩٨٠ قدر عددهم بنحو ٦٠,٠٠٠ نسمة[١]. وتعتبر نابلس كبرى مدن الضفة الغربية المحتلة.

---

(١) الموسوعة الفلسطينية ـ مرجع سابق

ويمتاز النابلسيون بمهارتهم في الصناعة والتجارة، وتعد نابلس من أهم المراكز الصناعية في فلسطين، وتعتمد أكثر منتجاتها الصناعية على المواد الخام المحلية. وأهم صناعاتها الزيوت النباتية والصابون والجلود والسيرج والحلاوة والكبريت والمنسوجات والحلويات والمرطبات وسكب الحديد وأعمال البناء.

ولمدينة نابلس شهرة فائقة في صناعة «الصابون النابلسي» الذي يمتاز بجودته العالمية وباعتماده كلية على زيت الزيتون النقي في تركيبه، وتطلبه جميع الأسواق في الشرق الأوسط. ويوجد حالياً بنابلس ما يزيد عن ٦٥ مصنعاً له. ويرجع عهد أكثرها إلى القرن التاسع عشر.

وقد عمدت سلطات الكيان الصهيوني إلى سرقة هذه العلامة التجارية المشهورة وأصبحت تسوق الصابون النابلسي في كثير من دول العالم، وتزهو بأن هذه نماذج من مهاراتها الفنية. تماماً كما سرقت التراث الشعبي الفلسطيني برمته ونسبته إلى ما تسميه تراثها الشعبي.

إن شهرة نابلس بالزيت والزيتون والصابون قديمة العهد، وقد كتب الأنصاري الدمشقي في القرن الرابع عشر الميلادي «لقد خص الله تعالى نابلس بالشجرة المباركة وهي الزيتون، ويحمل زيتها إلى الديار المصرية والشامية وإلى الحجاز والبراري مع العربان، ويحمل إلى جامع بني أمية منه في كل سنة ألف قنطار بالدمشقي، ويعمل منه الصابون الراقي، ثم يحمل إلى سائر البلاد التي ذكرنا، وإلى جزائر البحر الرومي».

وبسبب جودة المراعي في منطقة نابلس جادت بها صناعة الجبن والسمن البلدي الممتاز، وبسبب مهارة وذوق أهلها تفوقوا وتفردوا في صناعة الكنافة النابلسية ذات الشهرة الواسعة.

وهكذا.. أصبح الصابون النابلسي، والزيت النابلسي، والكنافة النابلسية، والأجبان النابلسية أسماء تجارية معروفة في كافة أرجاء الوطن العربي. كما أصبح «جبل النار» علامة مميزة لصلابة النابلسيين في الحق، ورمزاً لنضالهم الدؤوب ضد الغاصبين والغزاة.

ويطول بنا الحديث لو أردنا تفصيل هذه المقولة الثابتة، وحسبنا أن نشير بأن نابلس قد شهدت عقد عدة مؤتمرات وطنية مهمة في عامي: ١٩٢٤، ١٩٣١، أما في

عام ١٩٤٨ فقد تم عقد مؤتمرين متتاليين أولهما قبل النكبة وثانيهما بعدها.

وقد أثارني نص البرقية المؤثرة الناضحة بالأسى والمرارة التي أرسلتها اللجنة القومية بنابلس في بداية عام الضياع الأول إلى ملوك ورؤساء وزارات ورؤساء مجالس الشيوخ والنواب العرب وإلى الجامعة العربية، ونصها: إن ما تسمعونه كل يوم من الجرائم اليهودية الغادرة التي يحترق بنيرانها مئات الأبرياء من العرب والتي يترفع عن اقترافها الجنود الشرفاء البواسل تجعل عرب فلسطين العزل من السلاح المؤمنين بحقهم والمجاهدين ذَوْداً عنه يسألونكم بمرارة وألم يا أصحاب الجلالة والفخامة والدولة! إلى متى؟! إنه لشرف عظيم لعرب فلسطين يتسابقون إليه أن يموتوا دفاعاً عن بلادهم وصوناً لشرف العروبة والإسلام. ولكنه يؤلمهم أن يموت أبناؤهم موت الخراف في الشوارع وأيديهم يكبلها الاستعمار بقيوده وحديده وجنوده، يؤلمهم تتابع هذه المآسي وعيون الأهل ناظرة والسيوف مغمدة، يؤلمهم أن يفاجئهم الموت الغادر وما تزال في نفوسهم حسرة، وفي قلوبهم ألم من الأهل والعشيرة فإلى متى؟

إلى متى يرى العالم قوافل النجدة والعتاد من اليهودية العالمية ويسمع مقررات الدول العربية؟ فإلى متى؟ إلى متى؟[1] ولعمري بأن محتوى هذه البرقية ما يزال معبراً أصدق تعبير عن الفترة التي صيغ فيها وعن مجمل الفترات التي تلتها وحتى يأذن الله بتغيير الحال لما هو أسعد وأحسن.

نابلس.. والإستيطان الصهيوني

منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى حرب حزيران عام ١٩٦٧ لم تطأ أرض نابلس قدم أجنبية قصد الإقامة أو الإستيطان، وهذا مبعث فخر للنابلسيين يتباهون به، فلم يكن أحد من الصهيونيين يجرؤ على توفير «مربط عنزة» له في جبل النار.

ولكن بعد حرب الأيام الستة سقطت نابلس ـ ضمن ما سقط من أراضي العرب ـ في حمأة الاحتلال الصهويني المعبأ حقداً وكراهية على كل ما هو فلسطيني وعربي وإسلامي. وأخذت نابلس جزءاً من نصيبها الإستيطاني الذي فرضته سلطات الاحتلال على كافة مدننا الفلسطينية، غير أن النصيب الأوفر كان من حظ القدس ونابلس والخليل.

---

(١) قضية فلسطين في سيرة بطل الشهيد الحي عبد القادر الحسيني ـ نبيل خالد الآغا ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨٠.

وقد صادرت هذه السلطات ألافاً من الدونمات (الدونم يساوي ألف متر) في لواء السامرة الذي يشمل نابلس وجنين وطولكرم، وأقامت عليها عشرات المستوطنات، وتطلق العنان لجرافاتها العسكرية لشق عدة طرق لربط هذه المستعمرات بعضها ببعض، وبخاصة مستعمرة «إيلون موريه»، مع باقي المستعمرات الأخرى.

وتجدر الأشارة إلى أن عدد المستوطنات الصهيونية المقامة في الضفة الغربية زاد عن نحو مائتي مستوطنة. ويستدل من المعلومات المتوافرة المتعلقة بتكاثر هذه السمتوطنات أن الحكومة الإسرائيلية تهدف لإقامة «مدن وقرى يهودية» في الضفة الفلسطينية المحتلة لتكون حاجزاً بشرياً يفصلها عن باقي مدن فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨.

وكذلك فإنْ وَصْل هذه المدن بالطرق الحديثة من شأنه أن يضيق الخناق على الكثافة السكانية في المدن والقرى الفلسطينية.

ومن الأهداف الصهيونية كذلك ربط مدن الضفة والمستوطنات المقامة فيها بشبكة الكهرباء الإسرائيلية. كما أن إقامة الأحزمة الإستيطانية المكثفة حول القدس والخليل ونابلس يضع حداً لتوسعها، ومن أجل تشجيع الإستيطان في هذه المدن بالذات فقد قررت الحكومة الصهيونية في عام ١٩٨٦ أن تعطي الأفضلية في موازنتها للمستوطنات المقامة في نابلس والقدس ومنح مبلغ ٢٦٠ دولاراً شهرياً لكل مستوطن يهودي يقيم في هاتين المدينتين.

أما المستوطن اليهودي بمنطقة الخليل فمن «حقه» أن يأخذ ٩٧ دولاراً شهرياً!

ويسعى الصهاينة المتدينون في منطقة نابلس إلى إقامة حي خاص بهم داخل مدينة جبل النار.

ويبذل المواطنون العرب جهوداً مضنية لإفشال مخططات العدو، لذلك فهم يتعرضون للاستشهاد والاعتقال والتعذيب، ولم تكتف سلطات الاحتلال بزج المناضلين في سجن نابلس المركزي بل خصصت مبنى جديداً يدعى «الجنيد» ليكون السجن الثاني في نابلس.

سجن نابلس المركزي

بني في عهد الانتداب البريطاني وأضافت إليه سلطات الاحتلال الإسرائيلي عدداً من الزنزانات، وهو يقع في سفح جبل ويحيط به سور حجري عليه كشافات كهربية، وله برجان للمراقبة، وبه أربعون زنزانة، ويعتبر من أكثر سجون الضفة الغربية ازدحاماً، وخاصة بعد زج المئات من أبطال الانتفاضة فيه.

سجن الجنيد

يقع إلى الغرب من نابلس، وافتتح في شهر يوليو عام ١٩٨٤، ويضم مئات المعتقلين الفلسطينيين الذين تدعي سلطات الحكم العسكري أنهم «سجناء أمنيون» يشكلون خطراً على أمن الدولة. ويتكون السجن من عدة أقسام، وعدة طوابق. وكل قسم يعتبر سجناً قائماً بذاته، ولا تسمح إدارة السجن بالتنقل إطلاقاً بين الأقسام.

وتبلغ مساحة الحيز المخصص للمعتقل من ١,٥ إلى ٢ متر مربع. والسجن على شكل زنازين جماعية، إذ يضم ٣٥ غرفة. وقد توزع عليها المعتقلون بكثافة شديدة. ونتيجة لذلك فإن مشكلة الازدحام داخل الزنازين هي المشكلة الأساسية التي يعاني منها المعتقلون العرب.

ومما زاد الوضع سوءاً أن سلطات السجن أغلقت النوافذ الضيقة بالأسبست ونقلت إلى الداخل دورات المياه، إضافة إلى أن أسوأ نوعية طعام في تاريخ السجون الإسرائيلية تقدم في سجن الجنيد. وبرغم كل هذا الظلم الواقع على أبطالنا الصامدين في سجون العدو، والجور الواقع على أهلنا الصابرين في الوطن المحتل فإن إرادتهم الفولاذية لا تلين ولا تضعف.

إن لجبل النار من اسمه النصيب الوافر، فأهله الذين صدوا جحافل نابليون، وهزئوا بجيش الجزار - وسخروا من قوات إبراهيم باشا. . وقارعوا قوات بريطانيا يسطرون اليوم ملاحم نضالية مشرفة في سفر البطولة العربية ضد «جيش الدفاع الإسرائيلي» ويتحدون بصلابتهم كل مشاريع الإستيطان الصهيوني. . وسرقة الأراضي العربية.

إن جبل النار يلتهب، وسيبقى ملتهباً حتى تميد الأرض من تحت أقدام الصهاينة، ويصدح التاريخ بأغنية العودة الظافرة إلى فلسطين إن شاء الله.

عائلات وشخصيات نابلسية

قلنا في بداية هذا الموضوع أن نابلس تمتاز ـ ضمن ما تمتاز به ـ بأسرها وعائلاتها العريقة، وكذلك بالكم الكثير من العلماء والأدباء والشعراء والصحفيين والسياسيين الذين ينتسبون إلى الديار النابلسية. وسنسلط بعض الضوء على هذين الجانبين.

فمن بين العائلات النابلسية المعروفة نذكر:

طوقان، عبد الهادي، زعيتر، الشكعة، النابلسي، المصري، النمر، الطاهر، شاهين، الخالدي، كنعان، العمد، دروزة، حماد، التميمي، الجوهري، تفاحة، الخماش، مهيار، البسطامي، عاشور، الهدهد، العكر، الشحروري، العاصي، ملحس، البشتاوي، هاشم، قناديلو، التكروري، العقاد، سعد الدين، الحنبلي، جاموس، الشخشير، استيتية، السائح، صلاح، الأدهم، عرفات، فخر الدين، العالول، باكير، مقبول، شموط، الحناوي، أباظة، يعيش، أبو زهرة، شويكة، القمحاوي، عنبتاوي، البشناق، الغزاوي، الشاهد، الضامن، عميرة، الخاروف، الزاغة، وغيرها.

ومن بين الشخصيات المرموقة التي تنسب أيضاً إلى نابلس وقضاها نذكر بعضاً ممن توفاهم الله تعالى خلال هذا القرن:

الشيخ محمد عمر عبد الله زعيتر (١٨٣٧ ـ ١٩٠٧)، الشيخ عبد الله صوفان القدومي (١٨٣٠ ـ ١٩١٣)، الدكتور فارس عبد الله السخن (ـ ١٩٢٠)، المربي عبد الفتاح صالح ملحس (١٨٦٠ ـ ١٩٣٠)، الشيخ الزعيم عمر حسن زعيتر (رئيس بلدية سابق)، (١٨٧٢ ـ ١٩٢٤)، الشيخ منيب هاشم الجعفري (١٨٥٤ ـ ١٩٢٥)، المحامي الشهيد محمد صالح الصمادي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٣). السياسي المناضل الحاج توفيق حماد (١٨٦٣ ـ ١٩٣٤)، الشاعر إبراهيم عبد الفتاح طوقان (١٩٠٥ ـ ١٩٤١)، العين نمر بكر حماد (رئيس بلدية سابق)، (١٨٩٠ ـ ١٩٤١)، الوجيه حسن حماد (رئيس بلدية سابق)، (١٨٧٠ ـ ١٩٤٢)، المناضل الوزير أمين التميمي.. اعتقلته السلطات البريطانية في بداية الحرب العالمية الثانية ونفته إلى روديسيا الجنوبية (زيمبابوي حالياً)، وتوفي في مستشفى هراري العام، (١٨٨٢ ـ ١٩٤٤)، السياسي حيدر بيك طوقان (١٨٧١ ـ ١٩٥٢)، السياسي عبد اللطيف بيك صلاح

(١٨٨٢ ـ ١٩٥٣)، المناضل الوزير (أربع حقائب وزارية) روحي باشا عبد الهادي (١٨٨٥ ـ ١٩٥٤)، السياسي رفيق راغب التميمي (١٨٩٠ ـ ١٩٥٦)، العلامة عادل عمر زعيتر (١٨٩٥ ـ ١٩٥٧)، الشيخ حلمي نامق الإدريسي (١٩٠٠ ـ ١٩٥٧)، القانوني الوزير إبراهيم محمد الجعفري (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨)، الأديب رشدي صالح ملحس (١٨٩٩ ـ ١٩٥٩)، الحقوقي ابراهيم هاشم (رئيس وزراء أردني سابق): (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨). المهندس الوزير علي نصوح الطاهر (١٩٠٧ ـ)، المناضل فائق فريد عنبتاوي (١٨٩٦ ـ ١٩٦٠)، السياسي فريد محمد عنبتاوي (١٨٦٥ ـ ١٩٦٠)، الشهيدة شادية أبو غزالة (١٩٤٩ ـ ١٩٦٨)، الشهيد علي محمد السرطاوي (١٩٤٢ ـ ١٩٦٨)، المربي حسن محمد البرقاوي (١٨٩١ ـ ١٩٦٩)، السياسي المستقل عوني عبد الهادي (١٨٨٨ ـ ١٩٧٠)، المحامي الوزير نهاد القاسم (١٩٠٠ ـ ١٩٧٠)، المربي الوزير عبد اللطيف صادق عنبتاوي (١٩٠٥ ـ ١٩٧٢)، الأديب المترجم خيري حماد (١٩١٧ ـ ١٩٧٢)، النقابي حسني صالح الخفش (١٩١٧ ـ ١٩٧٢)، الصحفي المجاهد محمد علي الطاهر (١٨٩٤ ـ ١٩٧٤)، الملكة السابقة علياء بهاء الدين طوقان (ـ ١٩٧٧)، الأديب الشهيد وائل عادل زعيتر (١٩٣٤ ـ ١٩٧٥)، الشهيدة لينا حسن النابلسي (١٩٥٩ ـ ١٩٧٦)، الأديب المؤرخ محمود سليمان العابدي (١٩٠٦ ـ ١٩٧٨)، الشهيد سمير عزت طوقان (١٩٤٧ ـ ١٩٧٩)، الرائدة الاجتماعية عندليب أحمد العمد (١٩٠٢ ـ ١٩٧٩) الرائدة طرب سليم عبد الهادي (١٩١١ ـ ١٩٨٠)، المفكر الإسلامي محمد عزة دروزة (١٨٨٨ ـ ١٩٨٠)، القائد الشهيد سعد صايل (أبو الوليد)، أمين سر المجلس العسكري الأعلى للثورة الفلسطينية (١٩٣٢ ـ ١٩٨٢)، الشهيدة الهام أبو زعرور (١٩٦٢ ـ ١٩٨٣)، الأديب أمين فارس ملحس (ـ ١٩٨٣)، المربي الوزير وصفي صادق عنبتاوي (١٩٠٣ ـ ١٩٨٤)، الشهيد الدكتور عصام سرطاوي (١٩٣٤ ـ ١٩٨٣)، المؤرخ احسان النمر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٥)، الشهيد المهندس ظافر المصري (١٩٤٢ ـ ١٩٨٦)، الشيخ المفتي محمد عبده هاشم (ـ ١٩٨٩)، السياسي الدكتور منذر فائق عنبتاوي (١٩٣٥ ـ ١٩٩٠)، المحامي عبد الهادي نايف استيتية (ـ ١٩٩٠)

* * *

تقول زنبقة فلسطين المبدعة فدوى طوقان ابنة نابلس:

كفاني أموت على أرضها
وأُدفنَ فيها
وتحت قراها أذوب وأفنىٰ
وأُبعثُ عُشْباً على أرضها
وأُبعَثُ زهره
تعيثُ بها كف طفلٍ نَمَتْهُ بلادي
كفاني أظلّ بحضن بلادي
تُراباً
وعُشباً
وزهره



طول كرم..

بسمة على وجه الوطن

أعترف ـ بداية ـ أنني استشعر ضعفي البشري. حين أقف على عتبات إحدى مدننا أو قرانا أو مخيماتنا الفلسطينية الباسلة قصد الولوج إليها والكتابة عنها والتذكير بنضالاتها وبتضحيات ابنائها ومحاولة احياء بعض أمجادها السابقة واللاحقة. .

سبب هذا الضعف يكمن ـ ببساطة متناهية ـ في بُعدي المكاني عنها، وافتقاري الفعلي للمشاركة في صمود شعبي الأبي، لكنني أعزي نفسي بهذا القلم المتواضع، وبما يخطه من حروف وكلمات أكثر تواضعاً.

وتبرز في الطليعة الفلسطينية المناضلة أبداً مدينة طول كرم وأبناء قضاء بني صعب، الذين سطروا في جبين النضال الوطني علامات فارقة تبقى مصدر فخر واعتزاز لكل الوطنيين الشرفاء.

تعالوا بنا نجوب ـ على الورق ـ مساحات هذه الرقعة العربية النابضة نستجلي شؤونها وشجونها.

هذه واحدة من مدن فلسطين المسكونة بالخير والأنفة والإبداع. وواحدة من المدن الفلسطينية المميزة من نواح ثلاث: تجارة وعسكرة وثقافة، وهي أيضاً واحدة من زوايا مثلث البطولة والإقدام الذي يشمل مدن طول كرم، ونابلس، وجنين.

أما ميزتها التجارية فقد كانت في الماضي مركزاً مهماً لمرور القوافل التجارية أيام أمجاد تلك القوافل. . وفي الوقت الحاضر تشكل مركزاً مهماً للمواصلات البرية بين الساحل والداخل «علاوة على أنها سوق لمنتجات إقليمي السهل الساحلي والمرتفعات الغربية».

أما ميزتها العسكرية فتنبع أساساً من موقعها المتوسط بين جبال نابلس شرقاً والسهل الساحلي غرباً، وشكلت الجبال حماية طبيعية لها، وكذلك قربها من البحر (مسافة ١٥ كم) «أضفى عليها خصائص دفاعية مميزة، كما حبتها خصائص الموقع أهمية في المجالات الأخرى الاقتصادية والحضارية».

وأما ميزتها الثالثة فتتمثل في العدد الكبير من كرام المثقفين الذين ينتسبون إلى هذه المدينة ولقضائها الذين أثروْا الحياة الثقافية في فلسطين وغيرها ثراءً واضحاً، ومن هؤلاء من جرَّد القلم والسيف معاً دفاعاً عن قضية الوطن.

وتقوم طول كرم على هضبة تنحدر غرباً باتجاه بداية السهل الساحلي الفلسطيني (سهل شارون سابقاً) وهو أخصب أراضي الساحل الفلسطيني الممتد من حيفا إلى رفح. ونظراً لخصوبة هذا السهل فقد اختير مكاناً لإنشاء أول مدرسة زراعية في تاريخ فلسطين وهي مدرسة خضوري الزراعية. كما يشتهر هذا السهل بانتاج أجود أنواع الحمضيات والزيتون واللوز والعنب والتين، وكذلك الخضراوات وخاصة البطيخ والشمام، وقد ساعد على ذلك توافر الأمطار التي تسقط على المنطقة بمعدل عام يصل إلى ٦٠٠ ملم سنوياً حيث تكفي هذه الكمية لإرواء الزراعة البعلية فيها. إضافة إلى وجود بعض الأودية مثل وادي الزيمار، ووادي التين، كما يوجد بالمنطقة عدد كبير من الآبار الإرتوازية تستخدم في ري المزروعات.

ويبدو أن المدينة قد اكتسبت اسمها من هذا الواقع الزراعي المهم، وقد أكد ذلك المؤرخ الأستاذ مصطفى مراد الدباغ الذي أشار إلى أن طول كرم أصلها «طور كرم» فالطور تعني الجبل، وجبل ينبت الشجر، وعليه فيكون المعنى «جبل الكرم» والطور أيضاً ما كان على حد الشيء أو بحذائه، ولما كانت طول كرم تقع على نهاية التلال وفي طرف السهل فيكون المعنى «الكروم التي على الحد»، ولعل الأول هو الصواب، فالكروم (العنب) التي اشتهرت بزراعتها فلسطين منذ آلاف السنين كانت تزرع في طول كرم وناحيتها، حتى أنها أعطت اسمها لهذه البلدة ولعنبتا المجاورة.

ويظهر أنه مع مرور الزمن تحرف «الطور» إلى «طول» لسهولة النطق به. وهو ما تعرف به الآن.

التطور التاريخي

حسب الآثار المعروفة حتى الآن فإن تاريخ استيطان هذه المدينة يعود إلى القرن الثالث الميلادي، حيث عرفت في إيام الرومان باسم «بيرات سوريقا» وتعني «بئر كرم مختار»، بينما تشير كثير من المصادر التاريخية الموثوقة إلى أن الكنعانيين العرب كانوا أول من استوطن المدينة استدلالاً على ما تم العثور عليه من آثار متنوعة في القرى المجاورة لها كالكرمل، وجت، ومجدولين، وجلجال وغيرها من المدن والقرى التي لا زالت تحتفظ بأسمائها القديمة مع شيء من التحريف. إضافة إلى بعض كتابات الفراعنة[1].

وخلال حكم المماليك في القرن الثالث عشر الميلادي وهب الظاهر بيبرس سلطان المماليك طولكرم مناصفة لاثنين من أكبر قواده العسكريين مكافأة لهم.

وفي نهاية القرن التاسع عشر استحدث العثمانيون في فلسطين قضاء جديداً أسموه «قضاء بني صعب» وجعلوا «طول كرم» عاصمة له فتحولت تلقائياً من قرية إلى مدينة.

وربما يعود أصل هذه التسمية «بنو صعب» إلى آل صعب الذين اتخذوا من جبل عامل موطناً لهم في عهد صلاح الدين الأيوبي، ويعتقد أن سلطان آل صعب قد امتد إلى هذه المناطق، كما يعتقد أن هناك قبائل عربية أخرى أقامت في طولكرم وأثرت في أصل سكانها كقبائل الحوارث المنتسبين إلى قبيلة حارثة في طيىء القحطانية، وعرب العائد وهم من جذام القحطانية فأقاموا في مسكة وجلجوليا.

أما عرب البلاونة وهم من قضاعة القحطانية فأقاموا في قرية أم خالد. في حين أقام عرب الحويطات وعرب القطاطوة في غابة كفر صور، الرميلات مسكة والطيبة وقلنسوة فسكنها عرب، في حين أقام عرب السواركة وعرب النصيرات في كل من كفر سابا وغابة كفر وزيباد على التوالي[2].

وبالرغم من إتخاذ المدينة عاصمة للقضاء الجديد، فقد بقيت على صغر مساحتها العمرانية ومحدودية سكانها، ولم يتخذ العثمانيون يومئذٍ أي خطوة عملية من شأنها الإرتقاء بالمدينة بصورة عملية.

(١) الموسوعة الفلسطينية ـ مرجع سابق
(٢) المرجع السابق

وظل عدد سكانها متواضعاً. . فلم يزد عن ثلاثة آلاف نسمة في عام ١٩١٤ بداية الحرب العالمية الأولى، ولعل أهم مكانة معنوية حظيت بها المدينة في تلك الفترة اتخاذها مقراً لقيادة الجيش العثماني الثامن وهو أحد الجيوش العثمانية الثلاثة التي تولت مسؤولية الدفاع عن فلسطين.

وزاد عدد السكان بصورة ملحوظة خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين [١٩١٨ ـ ١٩٤٨] حيث وصل إلى نحو عشرة الآف نسمة، وتعزى أسباب هذه الزيادة بصورة مباشرة إلى هجرة كثير من الأفراد والعائلات من القرى المجاورة واستقرارهم في طولكرم نظراً لتوافر فرص العمل والخدمات المختلفة إضافة إلى الزيادة الطبيعية للسكان.

ولكن بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ تضاعف عدد سكان المدينة أضعافاً مضاعفة نتيجة لنزوح أعداد من اللاجئين الذين شردتهم ظروف الحرب. وقد أقام جزء منهم في مخيم نور شمس القريب من المدينة، وبالتالي ازدادت المساحة المأهولة بالسكان والتي دخلت ضمن التخطيط العمراني فاندمجت فيه قرى «ذنابة» من الشرق و «شويكة» من الشمال و «أرتاح» من الجنوب.

ولكن بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ انخفض المؤشر السكاني ليسجل انخفاضاً ملحوظاً في عدد السكان نتيجة لنزوح قسم كبير من أبناء المدينة، فتقلص عدد السكان المتبقين في نهاية عام ١٩٦٧ إلى (١٥١٧٧) نسمة أو ما يعادل ثلاثة أرباع مجموع سكانها عام ١٩٦١. إلا أن إصرار أبناء طولكرم على الصمود في الأرض ومقاومة الاحتلال جعلهم يزدادون إرتباطاً بها حيث واصلوا إعمارها وتطويرها فاتسعت رقعة المدينة لتصل ٥٨٠٠ دونماً عام ١٩٨٥. كما زاد عدد سكانها ليصل إلى حوالي (٣٠٠٠٠) نسمة عام ١٩٨١[١] ولكن يبدو أن هذا الرقم غير دقيق وربما يكون العدد أكثر من ذلك بكثير.

ويبدو أن طولكرم لم تستأثر باهتمام الرحالة والمؤرخين كالغالبية العظمى من المدن الفلسطينية، فلم يذكرها إلا عدد محدود مثل المقريزي والمجبي حيث جاء ذكرها عرضاً وبدون تركيز، وذلك راجع إلى عدم حدوث أحداث مهمة في تاريخها القديم والحديث، إضافة إلى أن مدينة نابلس العريقة قد استأثرت بالمجد والشهرة

---

(١) قصة مدينة طولكرم ـ علي حسن ـ سلسلة المدن الفلسطينية

عن غيرها من المدن المجاورة لها. . وقد ظلت طول كرم تتبع نابلس في الإدارة طوال الفترة السابقة لاستحداث «قضاء بني صعب».

غير أن مؤلفا «جغرافية فلسطين» [1] ذكرا ـ بعد زيارتهما للمنطقة بعد الحرب العالمية الأولى ما يشير إلى زيادة الأهمية التجارية لطولكرم بعد نزوح الناس إليها من نابلس والقرى المجاورة حسب ما تدعو إليه مصالحهم. وأشادا بجهود رئيس بلديتها آنذاك المرحوم عبد الرحمن الحاج إبراهيم المقدادي الذي «ما انفك يعمل على النهوض بالبلدية والقضاء كله، فقد وزع المياه على البيوت بأنابيب، وأنشأ حديقة واسعة غناء في بقعة جميلة من المدينة، وحارب الأمية بِحَثِّه القرويين على فتح المدارس والتبرع بسخاء في سبيل تهذيب أبنائهم، حتى أنه ليمكننا أن نقول أن قضاء طولكرم بذَّ سواه من الأقضية في كثرة مدارسه وعدد الذين يقرأون فيه ويكتبون مما يدلنا أصرح دلالة على أن الشعب الفلسطيني طيب قابل للارتقاء بسرعة إذا توافرت لديه القيادة المخلصة الرشيدة».

قضاء طولكرم

كان قضاء بني صعب في العقد الأول من القرن العشرين يضم مدينتي طول كرم وقلقيلية، إضافة إلى ٤٤ قرية.

وفي أواخر العهد البريطاني صار القضاء يحمل اسم طول كرم وكان يتألف من مدينة واحدة هي طول كرم، بينما أضيفت قلقيلية إلى قرى أخرى بلغ مجموعها ٧٠ قرية من أهمها: عنبتا، قلنسوة، بلعا، ذنابة، دير الغصون، شويكة، عتيل، علار، قاقون، زيتا، جت، كفر ثلث، النزلات، باقة، قافون، الطيبة، الطيرة، جيوس، عزون، كفر اللبد، وكفر قاسم، وهي القرية المعروفة التي ارتكبت فيها القوات الصهيونية مجزرة رهيبة يوم ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٥٦ وراح ضحيتها ٤٧ شهيداً فلسطينياً من بينهم ١٧ إمرأة!

وأهل القضاء مشهورون بنشاطهم الدؤوب وبخاصة طبقة الفلاحين منهم، وقد أشار إلى هذه الحقيقة مؤلف «شجرة الزيتون» بقوله: اشتهرت قرية كفر اللبد بحسن زيتها غير أن دير الغصون وبلعا وزيتا وعتيل نافستها هذه الشهرة. . لقد قفزت دير الغصون في بضع سنين لتحتل المكان الأول بين قرى فلسطين الزيتونية فشجرت

(١) جغرافية فلسطين ـ حبيب خوري وخليل طوطح ـ مرجع سابق

مساحات بلغ مجموعها ١١ ألف دونم تقريباً. . وكثر الغرس في أراضي هذه القرية الشاسعة بهمة عجيبة، حتى إن مزارعيها من نقر الصخر وعبأ مكان النقر بالتراب وغرسه بالزيتون. هذا. . وإن المتجه لدير الغصون من أية جهة من جهاتها ليعجب من هذا المجهود الجبار الذي بذله أهل هذه القرية النشيطون، فالسائر يسير في ظلال الزيتون الواسع حيثما اتجه.

ويعرف فلاح قضاء طول كرم بشدة مراسه ونخوته، ويقبل على الاقتباس ويستمع للنصح، ولقد أظهر استعداده للتقدم الزراعي بوضوح تام[1].

وقد بقي هذا القضاء ـ كغيره من أقضية فلسطين ـ ينعم بالطمأنينة وهدأة البال حتى اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨، فبرغم أن طول كرم ـ وهي مركز القضاء ـ بقيت في أيدي السلطات العربية الأردنية إلا أن ٢٦ قرية وخربة وثماني مضارب بدوية سقطت في أيدي القوات الصهيونية وحتى عام ١٩٦٧ ظلت ٤٢ قرية من قرى القضاء تتبع قضاء طول كرم تحت السيادة العربية الأردنية، ولكن بعد ذلك التاريخ أمسى كل القضاء وكل فلسطين تحت السيطرة الصهيونية.

ومنذ عام ١٩٧٧ عمدت هذه السلطات إلى تهويد القسم الغربي من القضاء وزرعه بالمستعمرات الصهيونية وهو الذي يشتمل على أخصب أراضي المنطقة وأكثرها جودة، وأيسرها اتصالاً، وقد تم تشييد سبع مستوطنات في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٧ و ١٩٨٥. وبعدئذ تضاعف هذا العدد ليستوعب آلاف المهاجرين اليهود الجدد.

النشاط التعليمي والثقافي

اشتهرت طول كرم ـ وقضاؤها ـ بأنها من أكثر مدن فلسطين حباً للعلم وتشجيعاً له وقد طلب أبناء طول كرم العلم في جميع بقاع الأرض، فظهر منهم عدد غير قليل من الشعراء والأدباء والعلماء ومن أهمهم على سبيل المثال:

العالم الجليل الشيخ سعيد الكرمي، والشاعر الفحل حسن الكرمي (أبو سلمى)، والشاعر الشهيد القائد عبد الرحيم محمود، والشاعر المرحوم جمال توفيق محمود، ورجل القانون المعروف الدكتور محمد خليل عميد كلية الحقوق سابقاً في

---

(١) شجرة الزيتون ـ علي نصوح الطاهر

الجامعة الأمريكية ببيروت، وعالم الرياضيات والفيزياء المعروف الدكتور حلمي سمارة الذي شارك في مؤتمر عالمي للذرة عام ١٩٤٦، والمؤرخ الدكتور محمود زايد عميد كلية التاريخ في الجامعة الأمريكية ببيروت سابقاً. وغيرهم.. وغيرهم.

والمتتبع لمسيرة التعليم في هذه المنطقة يدرك بأنها قد بدأت مبكرة جداً. فلم ينتظر المواطنون وقتئذٍ إفتتاح مدارس حكومية من قبل الدولة العثمانية. بل عمد الغيارى منهم إلى إنشاء بعض المدارس الإبتدائية والكتاتيب وتكليف بعض أكفاء المتعلمين من أبناء البلدة أيضاً إلى التدريس بها كما فعل المرحوم الشيخ خليل سعيد الكرمي.

أما التدريس الحكومي فقد بدأ بشكل رسمي عام ١٨٨٢م بافتتاح مدرسة طول كرم الإبتدائية وكما يقول «مؤلف بلادنا فلسطين» فبفضل رئيس بلدية طول كرم (عبد الرحمن الحاج إبراهيم) أحرز قضاء بني صعب مركزاً مرموقاً بين سائر الأقضية، إذ أن أهله مولعون بالعلم، وبلغ عدد طلبة مدرسة طول كرم أثناء الحرب العالمية الأولى (٢٥٠) طالباً معظمهم من أبناء القرى المجاورة، وكان معظم طلبة هذه القرى يبيتون في حوانيت طول كرم، لذا حاول رئيس البلدية إقامة مبيت للطلبة إلا أن الصعوبات المالية حالت دون تحقيق ذلك.

وفي نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين لم يكن في المدينة سوى مدرستين للبنين ضمتا (١٣٠٠) طالب ومدرسة إبتدائية واحدة للبنات ضمت نحو (٧٠٠) طالبة، إضافة إلى مدرسة خضوري الزراعية التي بلغ عدد طلابها ٦٢ طالباً عام ١٩٤٦.

وقد قفزت نسبة التعليم والمتعلمين قفزات هائلة إلى الأمام في العهد العربي الأردني (١٩٤٨ - ١٩٦٧)، وكان لوزارة التربية والتعليم الفضل الأكبر في إدارة وتمويل مدارس المدينة (وبقية مدارس الضفة الغربية)، ويليها في الأهمية وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين» - الأونروا -.

وبرغم العقبات العديدة التي تضعها السلطات الصهيونية ضد التعليم في المناطق الفلسطينية المحتلة فإن إصرار الشعب الفلسطيني على طلب العلم قد ذلّل كثيراً من هذه العقبات، وتشير الإحصاءات إلى أن عدد المدارس في مدينة طول كرم للعام الدراسي ١٩٨٦ - ١٩٨٧ بلغ (٣٠) مدرسة اشتملت على (١٨٤) معلماً و

(١٧٠ معلمة) يُدَرِّسون (٥٠٩١) طالباً و (٤٩٧٦) طالبة في المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية عدا بعض المدارس الأهلية[1].

هذا ويلاحظ أن كثيراً من مدارس المدينة تحمل أسماء ذات مدلولات عربية وإسلامية محضة مثل: عمر بن عبد العزيز، نور الدين زنكي، الأصمعي، زنوبيا، أجنادين، طه حسين، أشبيلية، الوطنية، الفاضلية، النهضة، جمال عبد الناصر.

هذا.. ونظراً للدور المهم الذي أداه ـ وما برح يؤديه ـ معهد الحسين الزراعي ـ أو مدرسة خضوري الزراعية سابقاً ـ فلا بأس أن نعطي كرام القراء نبذة عنه.

فقد أنشئت هذه المدرسة عام ١٩٣١، بأموال تبرع بها أحد أثرياء اليهود ويدعى «إلي خضوري» من «هونغ كونغ» فحملت المدرسة اسم العائلة التي ينتسب إليها (كما تبرع ببناء مدرسة أخرى لليهود). وكانت مدة التدريس فيها سنتان للطلاب الحاصلين على شهادة نجاح الصف الثالث الإعدادي.

وفي عام ١٩٦١ حملت المدرسة اسم «معهد الحسين الزراعي» ويقبل فيه الطلاب الحاصلون على شهادة الثانوية العامة بنسبة نجاح لا تقل عن ستين بالمائة للقسم العلمي. وأصبحت مدة الدراسة فيه منذ عام ١٩٦٦ ثلاث سنوات. والدراسة فيه مجانية وداخلية، وتبلغ مساحة أرض المعهد ٤٠٠ دونم، ومن أجل زيادة كفاءة المعهد، وقيامه بدور أكثر فاعلية ضمن خطط التطور العلمي فإن المسؤولين يطمحون لتحويله إلى كلية زراعية تتبع إحدى الجامعات الفلسطينية.

فراسة «أبي الطيب»

تذكِّرني قرية «عنبتا» القريبة من طول كرم، بأخي الشاعر معروف رفيق الذي تغنى بها باعتباره أحد أخلص أبنائها فقال في مطلع إحدى قصائده:

عنبتا ما حَنَتْ هاماً لِنَذْل ... ولا سَجَدَتْ لغير الله ساعه
سقَتْنا العزَّ من ثدي الروابي ... فكان المجد من عهد الرضاعه

وعنبتا جرتني إلى سالف أيامها، وإلى استذكار النخبة الطيبة من أبنائها، وفي طليعتهم شاعر القول والفعل الشهيد البطل عبد الرحيم محمود (أبو الطيب) صاحب البيتين الأشهرين اللذين أصبحا رمزاً للشاعر وعنواناً لحياته وحيوات شعبه:

---

(١) قصة مدينة طولكرم ـ مرجع سابق

سأحملُ روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تَسُرُّ الصديق وإما مَمَّاتٌ يغيظ العدا

وقد برَّ بوعده، فحمل روحه على راحته، وألقاها في مهاوي الردى، فاستشهد في معركة «الشجرة» عام ١٩٤٨.

وحملتني الذاكرة إلى يوم ١٩٣٥/٨/١٤ يوم مرّ الأمير سعود بن عبد العزيز (الملك فيما بعد) بعنبتا في طريقه إلى بيت المقدس. وقد أُعد له استقبال كبير في القرية شارك فيها «أبو الطيب» بقصيدة «نجم السعود» نقتطع منها بعض الأبيات التي يرحب فيها بالأمير السعودي، ويشكو إليه من سوء حال الوطن وخوفه من ضياع المسجد الأقصى الذي يراه وشيكاً في الغد القريب:

نجم السعودِ وفي جبينك مَطْلَعُه أنى تَوجَّه ركب عزك يَتْبَعُه
العُرْبُ جيشٌ لا يُفَلُّ عرمرم وأبوك في هذا العرمرم تُبَّعُه
ياذا الأميرُ أمام عينك شاعر ضُمَّت على الشكوى المريرة أضلُعُه
المسجد الأقصى أجئتَ تزورُه أم جئتَ من قبل الضياع تُوَدِّعه؟
وغدا. وما أدناه لا يَبقى سوى دمعٍ لنا يهمي وسِنٌّ نقرَعه!

عائلات طول كرم

عائلات طول كرم كثيرة العدد، بعضها قديم وبعضها حديث، ولكن أكثرها يعود بجذوره إلى بعض القرى والمدن المجاورة، ومن عائلات طول كرم العريقة: الكرمي، الجلاد، حنون، سيف (التي ينتسب إليها القائد الباسل عبد الرحيم الحاج محمد) سماره، الجيوسي، الحاج إبراهيم، العمر (وينتسبون إلى الثائر الفلسطيني ظاهر العمر) الفياض، الخندقجي، بدران، البرقاوي، قعدان، اسماعيل، عائلة حمد الله (الشيخ محمود) ويدعون أيضاً (الفقهاء) لكثرة ما ظهر فيهم من الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء وأبرزهم الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود. الناشف، المقدادي، الطيبي، أبو هنطش، بركات، الجيتاوية، عنبتاوي، شديد (وينسب إليهم الحاج علي شديد أكرم الكرماء في عصره)، حمدان، الحطاب، شحرور، أبو حفيظة، ملحم، المدني، العموص، نور، علم، القبج، عدس، كنعان، فارس، العورتاني، حنون، الخضر، الصباغ.

كما سكنت مدينة طول كرم بعض العائلات التي نزحت إليها من المدن المجاورة مثل نابلس وجنين ومنها عائلات: البسطامي، عبد المجيد، الشخشير، الدلو، عبد الهادي، جرار، وغيرها.

شخصيات بارزة من طول كرم وقضاها

كثيرة هي الشخصيات البارزة التي تنتسب إلى مدينة طول كرم وقضاها، وسنورد أسماء من استطعنا حصرها، مع الاعتذار لعدم تسجيل معلومات تبرز نبوغ هذه الشخصيات، علماً بأن التسجيل مقصور على من توفاها الله تعالى خلال القرن الحالي. أحمد شاكر الكرمي (١٨٩٥ ـ ١٩٢٧)، الشيخ سعيد علي الكرمي (١٨٥٢ ـ ١٩٣٥)، الشهيد ابراهيم حسين ناصر (١٩١٠ ـ ١٩٣٨)، الشهيد سليمان أبو خليفة (ـ ١٩٣٨)، الشهيد علي محمد اليوسف (ـ ١٩٣٨)، القائد الشهيد ابراهيم العموري (ـ ١٩٣٩)، القائد الشهيد عارف عبد الرازق (١٨٩٤ ـ ١٩٤٤)، الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود (١٩١٣ ـ ١٩٤٨)، القائد الشهيد عبد الرحيم الحاج محمد (أبو كمال)، (١٨٩٢ ـ ١٩٣٩)، رشيد عبد الفتاح (١٩٠٢ ـ)، المربي عبد اللطيف طيباوي (١٩١٠ ـ)، القائد عبد الله الأسعد، القائد عبد الرحمن الحطاب، المربي درويش المقدادي (١٨٩٨ ـ ١٩٦١)، السياسي عبد اللطيف صلاح (١٨٩٠ ـ ١٩٦٠)، القائد الشهيد وليد أحمد نمر (أبو علي إياد) (١٩٣٤ ـ ١٩٧١)، الشهيد محمود الهمشري (١٩٣٨ ـ ١٩٧٢)، محمد توفيق الطيبي (١٨٨٨ ـ ١٩٧٤)، الشيخ سعيد صبري (١٩١٠ ـ ١٩٧٣)، القائد الشهيد زهير محسن (١٩٣٦ ـ ١٩٧٩)، الشاعر الفحل عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، (١٩٠٧ ـ ١٩٨٠)، الوزير هاشم الجيوسي (١٩٠٥ ـ ١٩٨١)، الشاعر محمد شديد (١٩١٩ ـ ١٩٨٦)، الحاج بكر الشنطي، نبيل محمود الحاج عبد (١٩٥١ ـ ١٩٩٠).

* * *

وأخيراً... رأيتني أردد مع الشاعر العربي السوري المبدع خير الدين الزركلي قوله المؤثر:

العينُ بَعْدَ فِراقِها الوَطَنا ... لا ساكناً أَلِفَتْ ولا سَكَنا
ريّانَةٌ بالدّمعِ أقْلَقَها ... أنْ لا تُحِسَّ كرىً ولا وَسَنا

كانت تَرى في كل سانِحَةٍ ... حُسْناً، وباتَتْ لا ترى حَسَنا
ليتَ الذين أُحِبُّهُمْ عَلِموا ... وَهُمُ هنالك ما لقيتُ هنا
ما كنتُ أحْسَبُني مفارقهم ... حتى تفارقَ روحيَ البَدَنا
يا موطناً عَبَثَ الزمانُ به ... مَنْ ذا الذي أغرى بك الزَّمَنا
ما كنتُ إلا روضةً أُنفاً ... كَرُمَتْ وطابتْ مغرساً وجنى
عَطفوا عليكَ فأوسعوكَ أذىً ... وَهُمُ يُسَمُّونَ الأذىٰ مِنَنا!

قلقيلية

أكبر بلدة في قضاء طول كرم، وأكثرها سكاناً، وأوسعها مساحة، لذلك رأينا أن نفرد لها حيزاً متواضعاً للتعريف بها.

فهي تقع على مساحة ١٦ كم٢ جنوب طول كرم، وترتفع ٧٥م عن سطح البحر، وتبلغ مساحتها ٢٧٣ دونماً. ويصل عدد سكانها نحو ٢٥ ألف نسمة ، منهم عشرة بالمائة يعملون في الدول العربية والخارج.

وكانت قلقيلية معروفة في العهد الروماني باسم قريب الشبه باسمها الحالي، وخلال مسيرتها الحياتية أنجبت العديد من الفقهاء والعلماء. وقدمت لفلسطين العديد من الشهداء والأبطال.

وقد خسر أبناء قلقيلية بعد مأساة ١٩٤٨، وتوقيع إتفاقية الهدنة العربية الإسرائيلية في جزيرة رودس عام ١٩٤٩، مساحات واسعة من أراضيهم الخصبة المغروسة ببساتين الحمضيات. وكانت تلك المساحات جزءاً من نحو نصف مليون دونم تسلمها الصهاينة أثناء مداولات الاتفاقية المذكورة، هذا إضافة إلى العشرين مليون دونم التي احتلوها وأعلنوا «دولتهم» عليها!

وكانت قلقيلية قبل حرب عام ١٩٦٧ تمثل قمة من قمم المأساة الفلسطينية حيث كان خط الهدنة الجائر يفصل بين أفراد الأسرة الواحدة، والمزرعة الواحدة، ويوحد المصيبة المشتركة!

وعانى أهل قلقيلية كثيراً من الشدائد جراء ذلك الوضع، لكنهم أثبتوا جدارتهم وكفاءتهم، فتحدوا الصعاب وشهد بهذه الحقيقة الجنرال «جلوب» باشا البريطاني

الأصل ـ قائد الجيش الأردني السابق ـ حيث قال في كتابه «جندي مع العرب» (بيروت ١٩٥٨): لقد كان أهل قلقيلية أصحاب عزم وإقدام، فبعد أن قضوا الفترة الأولى في خيبة مريرة، شرعوا في العمل من جديد، لقد اغتصبت اسرائيل كل أراضيهم الخصبة، فلم يبق لديهم سوى تلك التلال الصخرية الجرداء شرقي المدينة، فأمعنوا فيها حفراً وتمهيداً وبنوا فيها المدرجات كي يؤمنوا لأنفسهم مورد رزق جديد مستعيضين به عن ذاك الذي فقدوه بالرغم من وجود الخطر الذي تشكله المستعمرات اليهودية النامية دون انقطاع وهي جد قريبة.

وقد زرع الصهاينة في سهول طول كرم أكثر من مائة مستوطنة ـ بما فيها مدينة ناتانيا ـ لأنهم أدركوا بأن هذه المنطقة ـ خاصة بعد حرب ١٩٤٨ وحتى حرب عام ١٩٦٧ ـ تشكل خطراً حقيقياً على وجودهم يمكن أن يشطر كيانهم إلى شطرين اثنين بصورة ميسورة خاصة وأن المسافة بين قلقيلية وساحل الأبيض المتوسط لا يزيد طولها عن ١٤ كم.

وتعرضت قلقيلية بالفعل إلى هجمات صهيونية متكررة عليها، وعندما سقطت عام ١٩٦٧ في قبضة القوات الصهيونية دفعت ثمن صمودها وبطولتها، وفقدت عشرات الشهداء والجرحى، وتهدمت عشرات البيوت.

ولم يتوقف الإجرام الصهيوني عند هذا الحد.. بل استمرت سلطات الاحتلال بهدم المدينة بعد إنتهاء الحرب بفترة ليست قصيرة. وقد ذكرت الكاتبة الصهيونية «ستيلاكورن» في مجلة «هعولام هزيه» تقول: «قررت الحكومة الصهيونية بعد احتلال هذه المدينة مباشرة هدمها بشكل كامل دون تردد».

وبالفعل بدأ جيش العدو يهدم المنزل تلو الآخر. وذكر الحاج أمين أبو النصر رئيس البلدية (١٩٧٩) إن ٦٦ بالمئة من منازل المدينة قد هدم. والجميع من أهالي القرية هربوا إلى الجبال، وقامت باصات الاحتلال بإبعادهم وقذفهم إلى الجسور لطردهم خارج فلسطين.

ومن أسباب الحقد الصهيوني على قلقيلية ما ذكرته نفس الصحيفة الصهيونية على لسان أحد محرريها.. «.. لكن حديثي ليس مقصوراً على محاولة تخريب المدينة من الناحية الزراعية والصحية، بل يتركز اليوم على ما تبقى من بيوت في هذه المدينة الفلسطينية بعد أن اتهم العشرات من شباب هذه المدينة بنشاطات أمنية ضد الجيش الصهيوني».

هذا.. وتقطن بالمدينة أربع عشائر عريقة هي: شريم، زيد، نـزال، داود، وتتفرع منها عديد من العـائلات مثـل: الحسن، ذره، حساين، خضـرج، برهم، هلال، زهران، عناية، جعيدة، قراقع، الداعور، النصر، نمر، الباشا، ويوجد بعض العائلات التي نزحت من القرى المجاورة، منها: سميك، سارة، الأقرع، سلمي، البياري، العطا، الحردان، هلال، صبري، الشنطي، الناطور، وغيرها..

وسلام الله عليك يا وطني..



جنيـــن

الماء والخضرة والوجه الحسن

هذه هي «جنين» . . مدينة «الماء والخضرة والوجه الحسن».

إحـدى المدن الـرئيسة في فلسـطين . . وذات الشهرة الـواسعة في جمـالهـا الطبيعي، وعطائها الاقتصادي الوافر . .

تلفظ بكسر الجيم والنون والياء والنون «جِنين»، وهي محرفة عن كلمة «عين الجنائن» العربية الكنعانية. وعندما فتحها العرب المسلمون ذكروها في كتبهم باسم «جينين» ثم حُذفتَ الياء الأولى للتخفيف.

وهي تقع على السفح الشمالي لجبال نابلس المطل بدوره على مرج ابن عامر الذي يفصلها عن جبال فلسطين الشمالية، والذي يعتبره الكثيرون «سلة خبز فلسطين» بالنظر لصلاحيته الكاملة لإنتاج الحبوب على اختلاف أنواعها، كما يعتبر أحد أجمل السهول في العالم. إضافة إلى ذلك فقد كان هذا المرج باباً رئيساً من أبواب فلسطين الإستراتيجية «فالفاتحون والغازون مروا من أوديته العميقة التي تصله بجميع الطرق الهامة» كما يقول مؤلف بلادنا فلسطين. وقد سماه العرب بهذا الاسم لأن كلمة المرج تعني «أرضاً واسعة ذات نبات ومرعى للماشية» «المعجم الوسيط» ونسبوه إلى «عامر الكلبي» جد الصحابي «دحيَّة الكلبي» المدفون في إحدى قرى المرج. . هذا وتقدر مساحة المرج الإجمالية بنحو ٣٦٠ كم مربعاً . .

وكان الرومان يعرفونه باسم «سهل اللجُّون»، بينما يعرفه الصهاينة باسم «وادي جزرائيل».

بعض من تاريخها

ولم تكن جنين تتمتع بأية أهمية قبل الحروب الصليبية، ولكن بعد أن احتلها دوق أدنبره عام ١١٠٣ ودخلت ضمن مملكة بيت المقدس، قام الغزاة بتحصينها وتسليحها وغيروا اسمها إلى «جراند جرين» أو الأرض الخضراء.

وبعد معركة حطين الشهيرة عام ١١٨٧م تحررت جنين من قبضتهم وعادت إلى الرحاب الإسلامية. ونزلها البطل صلاح الدين الأيوبي، وبات فيها ليلة الأحد الموافق ٨ من شوال عام ٥٨٨ هـ . ثم استأنف مسيرته إلى بيسان. ولكن التحرير النهائي لجنين لم يتم إلا عام ١٢٤٤م على يد الملك الصالح.

وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ دخلت جنين في حوزة المماليك، وفي عهدهم نالت قسطاً من الأهمية حيث أصبحت مركزاً للبريد الصادر والوارد بين غزة ودمشق، وكان بها برج للحمام الزاجل الذي يحمل الرسائل بين مصر والشام كما كانت محطة تحل فيها الهجن التي تحمل الثلج من دمشق إلى القاهرة في أيام الحر كما ذكر مؤلف «صبح الأعشى»!!

وفي أواخر الحكم المملوكي لبلاد الشام ظهر في سنجق اللجّون (منطقة جنين) أمراء من قبيلة حارثة الطائية فسيطروا على المنطقة طوال معظم القرن السابع عشر (١٦٠١ - ١٦٧٧) فازدهرت جنين نسبياً في عهدهم، حيث أنشأ أحد أمرائهم فيها مرافق عامة لمساعدة المسافرين ورجال البريد فأقام خانا (فندقاً) وألحق به سبيل ماء وحماماً ومسجداً، وعدة دكاكين.

ويعد موقع جنين على الطريق التجارية بين الشام ومصر، وعلى طريق الزوار الذاهبين إلى بيت المقدس والآيبين منه عاملاً آخر ساعد على نموها، كما أن إنشاء قلعة فيها جعل كثيراً من ذوي المصالح التجارية والزراعية يأوون إليها ليفيدوا من الحماية التي كانت توفرها[1].

ولكن مما كان يعيق تطورها هجمات العربان على مناطقها، وانشغال أميرها أحمد بن طرباي (١٦٤٧ - ١٦٧١) في خوض ثلاثة حروب ضد فخر الدين المعني، كان أشدها وقعة يافا التي استطاع أن يقنع فيها حسين باشا أمير غزة وابن فروخ أمير

---

(١) د. إحسان عباس - مجلة المستقبل العربي ١٩٧٩

نابلس بمحالفته وأن يخرج منها منتصراً، وقد أدت هذه الحروب إلى كثير من الخراب إذ أحرق المعني كثيراً من قرى الكرمل، وضرب كثيراً من قرى اللجون، كما أن ابن طرباي أخرب كثيراً من قرى حيفا وعكا وكفر كنا[1].

خلال القرن الثامن عشر زار الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي جنين، فكتب انطباعاته عنها في مخطوطه (سوانح الأنس في رحلتي لوادي القدس» فقال: وبعد صلاتنا العشاءين جماعة، قصدنا (جينين) فوصلناها قبيل الفجر بساعة، نزلنا بخانها المعد للمسافر، فوجدنا الحسن عن محياه سافر، وبجانبه مسجد قد كساه الجمال جلبابا، وعقد له من بهجة النفوس باباً، ترى الروض محيطاً بجوانبه، جارياً في مشارق الخان ومغاربه، ولا بدع إذا كان مُذْهِباً للحزن، فقد جمع الماء والخضرة والوجه الحسن:

يا حبَّذا يوماً (بجينين) مضىٰ كالغُرَّةِ البيضاء في وجه الزمنْ
فيه ثلاثٌ للسُّرور تجمَّعتْ الماءُ والخضرةُ والوجهُ الحسنْ

وخلال الحملة الفرنسية على بلاد الشام تعرضت جنين للخراب والدمار انتقاماً من أهلها الذين وقفوا إلى جانب العثمانيين ضد بونابرت وجنوده. لكن جنين نهضت من كبوتها بعد فشل الحملة الفرنسية، وعادت مركزاً لمتصرفية نابلس التابعة لولاية بيروت.

وقد عهد إبراهيم باشا قائد الحملة المصرية على فلسطين إلى الشيخ حسين عبد الهادي بحكم جنين نيابة عنه، ولكن عندما عادت جنين إلى السيادة العثمانية حولتها إلى مركز قضاء وبقي لآل عبد الهادي النفوذ الأكبر في المنطقة، وسرعان ما ظهر آل جرار في الساحة المحلية فنافسوا آل عبد الهادي على النفوذ فكانت لهم السيادة على جنوب شرق جنين، ووصلت حدة المنافسة أشدها بين العائلتين وصلت حد الاقتتال المسلح الذي أسفر في نهاية المطاف عن انتصار آل عبد الهادي «وقد اعتز آل عبد الهادي بقوتهم لدرجة أنهم تمردوا ضد الدولة العثمانية، ودفع هذا الأمر الدولة العثمانية لإرسال حملة بقيادة واليهم في دمشق، وانتهت بإخضاع آل عبد الهادي وتخريب بلدة عرابة معقلهم، وبعدها أشرفت الدولة العثمانية على منطقة جنين بصورة مباشرة عن طريق موظفيها[2].

---

(١) المرجع السابق

(٢) قصة مدينة جنين ـ حرب حنيطي ـ سلسلة المدن الفلسطينية

جنين في القرن العشرين

بعد استتباب الأمن في جنين. . بدأت تنتعش فيها الحياة الاقتصادية، حيث بنيت فيها بيوت حديثة. . ورصفت فيها شوارع رئيسة، وأقيم سوق منسق يعرف الآن «بالسوق القديم» أو السباط.

وشهد مطلع القرن العشرين ارتباط جنين بخطوط السكك الحديدية التي وصلتها بالعفولة ونابلس وبيسان، وأنشىء فيها مجلس بلدي، وارتبطت بنابلس بطريق بري معبد.

وخلال الحرب العالمية الأولى اتخذ الجيش الألماني المقيم في فلسطين «جنين» مركزاً لسلاح طيرانه، فأقام بها مطاراً ضخماً، وكان الناس معجبين يومئذٍ بقوة الطيران الألماني، فقال أحد الزجالين متباهيا:

طارت طيارة بالسما العالي   فيها جندرمة وضابط ألماني
حبي يا حبي رد الأماني   سيفي وسلاحي عندك مرهونه

كما أن جزءاً من الجيش العثماني عسكر في جنين، ولكن أمام زحف الجيش البريطاني اضطر الألمان والعثمانيون للانسحاب من جنين، فمهد الطريق لدخول الإنجليز مساء يوم ١٩١٨/٩/٢٠، فعقد فيها الجنرال اللنبي مؤتمراً عاماً لقادة جيوشه في فلسطين، وتم تعيين حاكم بريطاني عسكري للمدينة، وبذلك دخلت المنطقة كلها في عهد جديد. . كان وبالاً على فلسطين برمتها، ما برحت آثاره السيئة تدمي وجوهنا وقلوبنا منذ ذلك الحين وحتى يأذن الله سبحانه وتعالى بالتغيير الإيجابي.

وعانت جنين ـ مثل باقي المدن والقرى الفلسطينية ـ من الآثار السلبية المباشرة ـ وغير المباشرة ـ للاستعمار البريطاني الغادر.

ودفعت جنين ـ كغيرها من مدن وقرى فلسطين ـ ضريبة الجهاد المقدس ضد الاحتلال البريطاني.

وأتاح موقع جنين ميزة جيدة للثوار الفلسطينيين لكونها مركزاً رئيساً للطريق الوحيد الذي يربط شمال فلسطين بجنوبها، مما أتاح للمجاهدين فرص مهاجمة السيارات الإنجليزية المارة منها، وإيقاع الكثير من الاصابات بينها.

وحتى عندما افتتحت الطريق الساحلي ظل المجاهدون يترصدون للقوات

البريطانية ويهاجمونها، وشهدت يعبد - إحدى قرى قضاء جنين - ميلاد أول ثورة مسلحة منظمة ضد الوجود البريطاني عام ١٩٣٥ بزعامة الشيخ المجاهد عز الدين القسام. وكانت جنين آخر معقل انسحب منه القائد فوزي القاوقجي مع قواته بعد إيقاف الثورة.

في الرابع والعشرين من أغسطس (آب) عام ١٩٣٨، سجل البطل الفلسطيني علي أبو عين (قباطية) أهم حادث عرفته جنين في تلك الآونة، حيث أقدم على اغتيال حاكمها البريطاني الجنرال «موفيت» المعروف بعدائه الشديد لكل ما هو عربي، وذلك أثناء وجود الحاكم في دار الحكومة، وتمكن الفدائي الفلسطيني من النجاة بنفسه برغم وجود البوليس والحرس.

واستغل البريطانيون هذه الحادثة فصبوا جام غضبهم على المدينة، فاعتقلوا العشرات من أبنائها، ودمروا العديد من منازلها وهدموا سوقهاالتجاري.

وبعد نحو خمسين عاماً من هذا الحادث، نشرت إحدى الصحف البريطانية وثائق بريطانية تعود إلى عامي ١٩٣٨ - ١٩٣٩ تتناول أحداث الثورة الفلسطينية في ذلك الوقت[١].

وقالت الصحيفة إنها تمكنت من الوصول إلى هذه الوثائق، وكان ينبغي وفقاً لقانون سرية المعلومات الإفراج عنها بعد مضي ٣٠ سنة أي بين عامي ١٩٦٨ - ٦٩، إلا أن الحكومة البريطانية أجلت الإفراج عنها ٢٠ سنة أخرى بسبب «حساسيتها».

ومن ضمن ما أظهرته هذه الوثائق من معلومات مذكرة كتبها السير جون شوكبورو - وهو أحد كبار المسؤولين في وزارة المستعمرات آنذاك - في أعقاب اغتيال «موفيت» تدل على مدى غطرسة وحقد الاستعمار البريطاني على الشعب الفلسطيني. فقد شبه ذلك المسؤول المتغطرس الوضع في فلسطين بما واجهه البريطانيون أمام الثوار الإيرلنديين قبل ذلك بعشرين سنة، وكتب يقول: «يعين علينا أن نتعامل - ليس مع عدو شهم يحترم قواعد اللعبة - وإنما مع قتلة وقطاع طرق، ونحن لا يمكننا أن نتحمل تبني سياسة «الجنتلمان» التي تقضي بالرد فقط على النيران»!

وقد أوردت الكاتبة البريطانية «فرنسيس إميلي نيوتن» في كتابها «خمسون عاماً

---

(١) صحيفة «إندبندنت» - لندن - بتاريخ ١٩٨٩/٢/٢١م

في فلسطين» نص رسالة بعث بها أحد البريطانيين إلى صديقته في بريطانيا يصف لها جانباً من الجرائم البريطانية ضد جنين. فقال لها: تجدين ما لا يطاق، إرهاباً بريطانياً أشد من الإرهاب، لا يصدقه بريطاني مدني مثلي لولا أنه مشاهد بعينه، قُتِل بوليس بريطاني، فنسفوا بلدة جنين نسفاً، وما بالغ البيان الرسمي حيث أحصى ما هُدم من المساكن بمئة وخمسين، وما قولك في أشخاص ركضوا هروباً للنجاة، فأطلقت عليهم النار، فسقطوا؟! أما ذلك دأب النازية؟ أما التعذيب إبتزازاً للإقرار فمما تشمئز لوصفه نفس الأبي، وما أريدَ به إلا إلقاء الرعب في نفوس الناس، لا عقاب المذنب، وما وقفوا عند تدمير البيوت والدور تنكيلاً، بل تسفلوا فنهبوا وسلبوا نقوداً ومجوهرات ويستحيل عليّ أن أوقفك على كل ما هو جار من مثل ذلك، وما قولك في عمال عرب شجعان أوفياء يقضون النهار في اصلاح أسلاك التليفون عرضة لرصاص الثوار، عاد بعضهم مساء فوجدوا بيوتهم أنقاضاً، وقد نسفها الجنود البريطانيون، تلك حوادث تزيد الثوار نقمة ويأساً.

مع مرور الوقت.. تجاوز أهل جنين محنتهم، وبدأوا فصلاً جديداً في رحلتهم الحياتية. يبنون ويعمرون ويزرعون ويحصدون..

من جانب آخر وقع اختيار الإنجليز على مدينة «جنين» لتكون مقراً لإذاعة «محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية» وذلك في عام ١٩٤١ عندما كانت الحرب العالمية الثانية أشد احتداماً وهولاً، ولم يكن أحد يعرف ـ حتى الآن على ما أظن ـ لماذا اختار الإنجليز جنين دون سواها لتكون مقراً لهذه الإذاعة الاستعمارية؟ وأية جهة إنجليزية كانت تمولها؟ أهي وزارة الدفاع أم وزارة الخارجية؟ أم وزارة المستعمرات؟ أم جهاز الاستخبارات البريطانية؟ ولكن لم تلبث هذه الاذاعة طويلاً في جنين، إذ سرعان ما انتقلت أستديوهاتها إلى يافا، واتخذت مقرها في الضاحية الشمالية قرب محلة «الجبلية» ـ ومن ثم إلى القدس وقبرص بعد نكبة عام ١٩٤٨م.

جيش العراق يدافع عن جنين

بعد أن خرج البريطانيون من فلسطين بتاريخ ١٤ من مايو (أيار) عام ١٩٤٨م هاجم اليهود بعض القرى السهلية في شمال جنين وتمكنوا من احتلال سبع منها، تمهيداً ـ على ما يبدو ـ للهجوم على جنين ذاتها. وبالفعل قاموا بمحاصرتها من كافة الجوانب يوم ٣ من يونية من نفس العام، فاضطر أكثر من ثلاثمائة من المجاهدين

الفلسطينيين والعراقيين للاحتماء بعمارة البوليس عند مدخل جنين الغربي، بينما استطاع أكثر من أربعة الآف يهودي أن يستولوا على معظم أحياء المدينة. . وبدأ أن المدينة وشيكة الوقوع في أيديهم لولا أن مَنَّ الله سبحانه وتعالى عليهم بنجدة عراقية قوامها خمسمائة جندي، ونجدة فلسطينية من القرى المجاورة قوامها مائة مجاهد. . وبعد معارك دامية في شوارع المدينة وضواحيها كتبت الغلبة لجند الحق، فتطهرت المدينة من المعتدين بعد أربع وعشرين ساعة من بدء المعركة، وقد أبلى الجنود العراقيون بلاء حسناً في هذه المعركة. وإليهم. . وإلى قائدهم المقدم عمر علي ـ من كركوك ـ يعود الفضل في إنقاذ جنين.

هذا. . وقد اعترف اليهود في بياناتهم الرسمية بأن عدد قتلاهم وجرحاهم ومفقوديهم في معركة جنين بلغ (١٢٤١) فرداً، بينما أفادت بعض المصادر العربية بأن شهداء العرب كانوا أقل من مائة[1].

وذكر المجاهد نجيب الأحمد أن القوات العراقية فقدت (٧٥) شهيداً ومن المناضلين (٥٠) شهيداً[2].

واستمراراً لبطولتهم وإقدامهم فقد قام المجاهدون العراقيون والفلسطينيون أنفسهم بعد انتهاء الهدنة الأولى في ١٩٤٨/٧/٩ بهجوم شامل على القوات اليهودية التي كانت تتمركز في القرى السبع التي سقطت في بداية الحرب. . واستطاعوا تحريرها كاملة بعد يومين من القتال العنيف واستولوا على كميات ضخمة من الأسلحة الثقيلة والخفيفة.

وقد ترك هذا الانتصار أثراً سلبياً في نفوس اليهود من سكان المستعمرات المجاورة، وبدأوا يرحلون. . وبدت الطريق إلى تحرير حيفا ممهدة لدى المجاهدين العرب. . لكن ـ وألف آه من لكن ـ كانت حرب عام ١٩٤٨ كما يقول الدكتور فؤاد محمد محمود تمثيلية وضعت فصولها وأبوابها في لندن وباريس وواشنطن وبعض العواصم العربية. . وقامت الجيوش العربية بإخراجها وتنفيذها على أرض فلسطين، ويدل على ذلك ما استولى عليه اليهود من مدن وقرى وأراض بدون قتال، واستفرد جيش العدو الصهيوني بالجبهات العربية والجيوش العربية، وضربها واحداً بعد

(١) النكبة ـ مرجع سابق

(٢) فلسطين تاريخاً ونضالاً ـ نجيب الأحمد ـ دار الجليل للنشر ـ عمان ـ ١٩٨٥م.

الآخر، بينما الباقي يقف متفرجا مكتوف الأيدي، وهذا أحد أبطال تلك المسرحية وهو مصطفى راغب باشا رئيس أركان الجيش العراقي، آنذاك فقد أبى عليه ضميره أن يستمر في التمثيل، فقدم استقالته بعد معركة جنين ومما جاء فيها: أن معركة فلسطين على ما بدا لي عبارة عن رواية تمثيلية، ولما كنت لا أرغب في أن أكون أحد الممثلين فالرجاء «أن تقبلوا استقالتي[1]».

محمود شيت خطاب . . وشهادة حق

ومن جانبه شرح القائد العسكري العراقي اللواء الركن محمود شيت خطاب أبعاد الوضع العسكري في منطقة جنين فقال[2]:

منذ حللت أرض فلسطين كانت أفواج الفلسطينيين تتقاطر على المقرات العسكرية تطالب بالسلاح وبالتدريب العسكري وبالقاء مهمات عسكرية على عاتقها للنهوض بها.

وكانت اسرائيل قد احتلت (جنين) في شهر يونية ١٩٤٨، فاستطاع الجيش العراقي طرد الصهاينة من (جنين) بمعاونة المتطوعين الفلسطينيين. وقد جرت معارك طاحنة بين جيش اسرائيل والجيش العراقي لاستعادة قرية (عارة) وقرية (عرعرة)، وقرية (صندلة) من قرى (جنين). وكان للمتطوعين الفلسطينيين أثر أي أثر في انتصار الجيش العراقي على القوات الإسرائيلية، واستعادة هذه القرى وغيرها إلى العرب.

وكان للمتطوعين الفلسطينيين جهاد مشكور في منطقة (طولكرم) وفي المناطق الفلسطينية الأخرى.

وقد نظم الجيش العراقي في منطقة (المثلث العربي: نابلس ـ طولكرم ـ جنين) أربعة أفواج من الفلسطينيين أطلق عليهم اسم: المناضلين الفلسطينيين، وكان لهؤلاء جهاد مشرف في قطاع جنين وقطاع طولكرم.

وقد انخرط في فوج صلاح الدين وفوج خالد بن الوليد وفوج الكرمل وفوج سعد، رجال دين وأساتذة ووجهاء وطلاب جامعات وفلاحون وعمال وكتبة، وإني لأشهد أن الفلسطينيين كانوا جنوداً بكل ما في الجندية من معاني الضبط والنظام،

---

(١) جريدة الرأي العام الكويتية بتاريخ ١٩٧٨/٤/٦م

(٢) جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ـ صالح مسعود بويصير ـ دار الفتح ـ بيروت ١٩٧١م.

والتضحية والفداء، وكانوا ملء العين قدراً وجلالاً، وبطولة وشجاعة.

ومن جانب آخر يرى بعض المحللين العسكريين اليهود بأن الجيش العراقي قد أوشك ـ يومئذ ـ أن يقسم فلسطين إلى قسمين على محور طولكرم ـ ناثانيا، وقد وصلت طلائعه فعلاً إلى مسافة تقل عن تسعة كيلومترات من مستعمرة ناثانيا الساحلية، ولمواجهة ذلك نفذت قوات «الهاجاناه» اليهودية عملية ذات شقين: الشق الأول يقضي بالالتفاف حول العراقيين باحتلال جنين وتهديد مدينة نابلس، والشق الثاني يقضي بالتقدم من جهة (وادي عارة) وتهديد طولكرم، وبذلك يحاصر الجيش العراقي في المثلث.

وقد كلف «موشى كارمل» وزير المواصلات الصهيوني فيما بعد بقيادة العملية بأكملها، وقد عهد بدوره إلى «موردخاي ماكليف» بتنفيذ الجزء الخاص بجنين، وقد تسلم «ماكليف» فيما بعد رئاسة أركان الجيش الإسرائيلي خلفاً للجنرال «يادين».

وبدأ الهجوم ليلة ٣١ مايو (أيار) عام ١٩٤٨، واحتل اليهود جنين يوم ٣ يونيو (حزيران) ١٩٤٨، ولكن العملية الإسرائيلية فشلت بشقيها، فأخفق اللواء «الكسندروني» في الوصول إلى طولكرم، بينما تمكن الجيش العراقي مدعوماً بالمقاومة المحلية من إخراج اليهود من جنين وتكبيدهم خسائر فادحة بعد احتلال لها دام اسبوعاً.

وربما كانت جنين بذلك المدينة الوحيدة التي احتلها اليهود وطردوا منها بالقوة، ولكن الأهم من ذلك أن طردهم منها قد أخر احتلالهم للضفة الغربية بأكملها مدة تسعة عشر عاماً. أي حتى عام ١٩٦٧، كما يقول الرئيس الإسرائيلي «حاييم هيرتزوغ» في كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان «الحرب والسلام في الشرق الأوسط».

ثم يتابع القائد الكبير محمود شيت خطاب شهادته في «لمحات من إنسانية أهل فلسطين ممثلة بأهل جنين»:

كنت ضابط ركن جحفل اللواء الرابع الذي كان في مدينة (جنين) الحبيبة خلال حرب ١٩٤٨، فمكثت فيها سنة كاملة.

وأتاحت لي الظروف أن أتولى منصب الحاكم العسكري لمدينة (جنين) بالإضافة إلى منصبي في جحفل اللواء، فأصبح اتصالي مباشراً بأهل المدينة وبالنازحين إليها من منطقة (حيفا) من الفلسطينيين المدنيين.

استقر الجيش العراقي في المثلث العربي نابلس ـ طولكرم ـ جنين.

ولكنني بعد مكوثي فيها سنة كاملة، ازددت علماً بها فربطتني بأهلها ـ خاصة أهل جنين الكرام ـ روابط من الصداقة والثقة المتبادلة والحب الصادق، إنني أنبه إلى ما طوقني به وطوق به أهل (جنين) الأكارم كل العراقيين من فضل لا ينسى أبداً.

كان أهل جنين يرعون العراقيين رعاية لا توصف، بيوتهم مفتوحة للجميع، يتلقونهم فيها بالأحضان، ويغدقون عليهم من كرمهم وأريحيتهم فكانوا بحق أهلهم بعد أهلهم، وقد انسوهم بما بذلوه من كرم ولطف أنهم بعيدون عن وطنهم، وأشعروهم بأنهم بين ذويهم الأقربين.

لقد كانوا أهلي، وكانت (جنين) بلدي، ولا أزال حتى اليوم أتحسر على تلك الأيام التي قضيتها بين أهلي أهل جنين وفي بلدي (جنين).

وما يقال عني، يقال عن العراقيين الآخرين.

وكان ـ جزاه الله خيراً ـ قد ألقى قصيدة نابضة بالصدق في الاحتفال المهيب الذي أُقيم أمام النصب التذكاري لشهداء القطر العراقي عند مثلث جنين ـ نابلس ـ قباطية، نختار من بين أبياتها العذبة قوله:

أجنينُ إنك قد شهدت جهادنَا	وعلمْتِ كيف تَساقَطَتْ قتلانَا
أجنينُ لا أنسى البطولة حيةً	لبَنيكِ حتى أرتدي الأكْفانَا
أجنينُ بلد الكرامِ تجلَّدي	ما ماتَ ثأرٌ ضَرَّجَتْه دمانا
لا تعذلوا جيش العراق وأهله	بلواكم ليْسَتْ سوى بلوانا
إن السِّنانَ يكون عند مُكَبَّل	بالقيد في رجليه ليس سنانا

واختتم الشاعر الفارس قصيدته بهذين البيتين:

المُخْلصونَ تَسرَّبوا بقبورهم	والخائنون تَسَنَّموا البُنْيانا
ان الخلودَ لمن يموتُ مجاهدا	ليسَ الخلودُ لمن يعيش جبانا

لقد جسدت معركة جنين ذلك الالتحام الدمي العراقي الفلسطيني، مثلما جسدت معارك أخرى الالتحام الدمي الفلسطيني العربي بشكل عام، ولا نامت أعين الجبناء!

قضاء جنين . . خير وبركة

وبعد انتهاء الحرب ضُمَّت الضفة الغربية لنهر الأردن إلى المملكة الأردنية الهاشمية وفي عام ١٩٦٤ أصبحت جنين مركزاً «للواء جنين» ويتبع إدارياً محافظة نابلس، وقبيل النكبة كان «قضاء جنين» يشمل المدينة نفسها، ونحو سبعين قرية منها أربع قرى كبيرة تفوق بعضها مدينة جنين نفسها من حيث المساحة وربما عدد السكان.

ولكن موقع جنين على طرق المواصلات أتاح لها أن تكون مركز القضاء. والقرى الكبرى هي: عرابة ويعبد وقباطية وأم الفحم.

وضمن قرى القضاء المهمة أيضاً: سيلة الضهر، جبع، اللجون، مصمص، الطيبة، ميثلون، زرعين، كفر راعي، اليامون، فقوعة، تعنك، سيلة الحارثية، صانور وغيرها.

ويعتبر قضاء جنين من أشهر المناطق بزراعة الزيتون في فلسطين «فزارعوه شديدو المراس، عظيمو النشاط، محبون للغرس، مقبلون على التجديد، وهم من وجهة عام ذوو خبرة وعناية كبيرة[(١)]».

وإلى جانب الزيتون تشتهر جنين بأنواع ممتازة من الرمان والتين والتوت والقراصيا. . ولخضارها أيضاً شهرة واسعة من حيث النوع والجودة، وتصدر كميات كبيرة منها إلى المدن المجاورة ويتمتع بطيخ جنين بميزة الحلاوة ويقبل عليه المستهلكون إقبالاً ملحوظاً.

ولكن التوسع في المنتجات الزراعية اضمحل بشكل واضح بعد احتلال العدو الصهيوني لهذا القضاء. نظراً للقيود الصارمة التي فرضها المحتلون على الزراعة والمزارعين، إضافة إلى عزوف أعداد من الشباب عن الزراعة، والاتجاه نحو التعليم، وهجرة الكثيرين من أبناء جنين وقضائها للعمل في الدول العربية المجاورة وبخاصة إلى منطقة الخليج العربي حيث يعملون في المجالات التعليمية والادارية والطبية والمهنية، هذا إضافة إلى النشاط الإستيطاني المحموم الذي تمارسه السلطات الصهيونية في المنطقة بهدف خنق الاقتصاد الوطني الفلسطيني والسيطرة على

(١) شجرة الزيتون ـ مرجع سابق

مساحات واسعة من الأراضي لإقامة مستوطنات زراعية عليها، وخنق المدن العربية وقطع صلاتها بباقي القرى الفلسطينية المجاورة.

ولكن برغم هذه الممارسات الحاقدة فإن العوامل الديمغراطية تعمل ـ حتى هذه اللحظة ـ لصالح المواطنين العرب، حيث أثبتت الاحصائيات بأن عدد السكان اليهود لم يتجاوز عشرين بالمائة من عدد السكان العرب حتى الآن. . علماً بأن قضاء جنين كان يخلو من أي وجود صهيوني قبل عام ١٩٤٨م.

والجدير بالذكر ان أعداءنا اقتطعوا من هذا اللواء قرابة مائة ألف دونم كان من ضمنها تسعة عشر قرية عربية لم يتبق منها حتى الآن سوى ثلاثة عشرة قرية بعد أن دمر الأعداء القرى الست الأخرى، وأقاموا لهم إحدى وعشرين مستوطنة أقيمت غالبيتها على أماكن القرى العربية المدمرة[1].

تسميم الطالبات. . جريمة إضافية

في شهر مارس (آذار) عام ١٩٨٣ أضاف اليهود صفحة سوداء جديدة في سجل جرائمهم البشعة في حق الشعب الفلسطيني، وتمتاز الجريمة الجديدة عن غيرها من الجرائم باستخدام السلاح الكيماوي ضد طالبات فلسطينيات بريئات، حيث عمدت إلى تسميمهن بطرق شتى!

وبدأت ظاهرة تسمم الطالبات الجماعي في مدينة جنين، ثم اتسعت فيما بعد وشملت أقضية طول كرم ونابلس والخليل والقدس، وقد سجلت عديد من المستشفيات العربية والإسرائيلية خلال ثلاثة أسابيع ما يزيد عن ألف حالة تسمم أغلبيتها لطالبات في المرحلتين الإعدادية والثانوية.

ولم تعترف السلطات الصهيونية بجريمتها، بل ادعت بأن ذلك كله «لم يكن سوى حالات من التظاهر بالإصابة بالتسمم»!

لكن الأطباء الفلسطينيين العاملين في المستشفى الوطني بنابلس حيث عولجت حوالي ستين طالبة أثبتوا «أن السلاح الكيماوي المستخدم ضد الطالبات هو عبارة عن مادة كيماوية صلبة تتحول إلى غاز حال تفاعلها مع الجو بدرجة حرارة معينة، وإن هذا الغاز المتسامي (أي الذي يتحول من الصلابة إلى غاز دون المرور بحالة السيولة) هو

---

(١) قصة مدينة جنين ـ مرجع سابق

شبيه بالغاز الذي استخدمه الجيش الأمريكي في فيتنام».

ومن أعراض هذا التسمم المعاناة من نوبات متفاوتة أبرزها آلام حادة في المفاصل والرأس وشعور بالدوخة، وأحياناً الإصابة بغيبوبة.

ومن حق المرء أن يتساءل بعدئذ: هل أصبحت فتيات فلسطين حقلاً للتجارب الصهيونية القذرة؟ وإلى متى؟

عائلات جنين وقضاها

الأغلبية العظمى من عائلات جنين تعود بأصولها إلى مختلف المدن والقرى الفلسطينية المجاورة، وقد نزحت إليها خلال فترات زمنية سابقة لتحسين أوضاعها المعيشية وبخاصة بعد أن أصبحت جنين مركز قضاء حمل اسمها وذلك في عام ١٨٨٢ عندما استحدثت الدولة العثمانية أقضية جديدة في فلسطين.

ومن ضمن هذه العائلات: جرار، عبد الهادي، الجرادات، السعدي، الطاهر، أبو علي، عزوقة (الإمام)، الحنيطي، منصور، فزع، صباح، العبوشي، اللحام، الزغيبي، أبو الرب، أبو عيسى، الحافي، الصغير، أو عميرة، الشرايعة، الخالدي، الحسيّتي، لحلوح، العارضة (الشقران)، حمدان، موسى، الزريقي، عساف، البدارنة، العطاطرة، الجربان، أبو شملة، الحمارشة، الشواهنة، الغبارية، العلاونة، الحمامرة، الفاخوري، وهيب، الشلبي، العاروري، السعدي، أبو شملة، زيد، اكميل، الزكارنة، العمارنة.

شخصيات بارزة من جنين وقضاها

لقد أنجبت جنين وقضاها شخصيات بارزة، وهذه طائفة ممن توفاها الله تعالى خلال القرن الحالي:

الشهيد سليم الأحمد عبد الهادي (١٨٧٠ ـ ١٩١٥)، الشيخ الشهيد فرحان السعدي (١٨٦٠ ـ ١٩٣٧)، القائد الشهيد محمد صالح الحمد (أبو خالد)، (١٩١٣ ـ ١٩٣٨)، الشهيد محمد سليم الحسن (ـ ١٩٣٨)، الشهيد عبد الفتاح محمد الحاج مصطفى (١٩٠٥ ـ ١٩٣٨)، المجاهد عارف حمدان أحمد (ـ ١٩٣٨)، الشهيد مصطفى علي الأحمد (ـ ١٩٣٤)، القائد الشهيد يوسف سعيد أبو درة (١٩١٠ ـ ١٩٣٩) المجاهد داود الحوراني، القائد عبد الرحمن الحمد

(أبو عمر)، الشيخ أحمد محمود الحمدان (١٨٩٨ -) رجل الأعمال عبد السلام محمد أبو عيسى (١٩٢٨ - ١٩٨٢) الشيخ المجاهد نمر السعدي (١٩٠٥ - ١٩٤٨)، الشيخ محمد اليوسف جرار، المجاهد حافظ باشا عبد الهادي، المجاهد فوزي جرار، المجاهد أحمد مسعود المصلح، الشهيد الحاج محمد أحمد جرار (١٩٤٨)، الأديب عبد الله مخلص (١٨٧٨ - ١٩٤٧)، الشهيد سامي طه (١٩١١ - ١٩٧٤)، المجاهد عبد الغني سنان (أبو عارف)، (١٩٠٠ - ١٩٧٥)، الشاعر الأديب محمد العدناني، المجاهد حسن البابر (١٨٩٥ - ١٩٨٤)، الشيخ المجاهد محمد نجي أبو جعب (١٩١٠ -) الشيخ فريز جرار (١٩١١ -)، الوجيه حلمي نافع العبوشي (رئيس بلدية سابق)، (١٩٠٦ - ١٩٨٦)، الشهيدة إلهام زعرور (١٩٦١ - ١٩٨٣)، المجاهد تميم محمد العدناني (١٩٤٢ - ١٩٨٩)، القائد الشهيد عبد الله عزام (١٩٤٢ - ١٩٨٩) الشهيد البطل عصام دارغمة (١٩٦٦) - ١٩٩٢)، وغيرها.

* * *

وفي نهاية تطوافي أخذت أردد بعض أبيات للشاعر جميل صدقي الزهاوي يقول فيها متألماً:

وأبْخَلُ أرضٍ بالرجولةِ بقعةٌ يُضامُ الفتىٰ فيها ولا يَتَبَرَّمُ
فما بالُ أبناءِ العروبةِ أصْبَحَتْ على الذل أشْتاتاً تَشُبُّ وتَهْرَمُ
وما خَفَقَانُ القلبِ ما أنْتَ سامعٌ ولكنّه آمالُ قومٍ تَتَحَطَّمُ

أم الفحم[1]

مدينة خلف الذاكرة

تربطني بهذه المدينة الباسلة جملة من العلاقات العاطفية البحتة، فهي واحدة من مدننا العربية الفلسطينية التي تجرعت كأس الهوان الصهيوني منذ عام ١٩٤٨، واستنشقت - كغيرها من التجمعات الفلسطينية في وطننا المحتل - رائحة العنصرية الصهيونية النتنة، ودفعت ثمن صمودها وتشبثها بجذورها العربية العريقة، تفقيراً، وتجهيلاً، وترويعاً، وتخلفاً فما وهن عظمها، ولا لانت عريكتها.

وبقيت أم الفحم قابعة خلف الذاكرة العربية المتخمة «باللاشيء» وكان يوم التاسع والعشرين من شهر أغسطس (آب) عام ١٩٨٤ يوماً مشهوداً في تاريخ أم الفحم.. وتاريخ التحدي الفلسطيني بشكل أعم وأشمل.

وقفت أم الفحم بصلابة وشموخ تصد قطعان المستوطنين بزعامة الارهابي «كاهانا» وتصرخ من عمق أعماقها:

يا كاهانا أُخرج بَرَّه   أم الفحم جَمْرة حُرّه
يا كاهانا يا أنتيكا   ارجعْ لبلادك أمريكا

فتراجع الارهابيون.. وانتصرت إرادة أم الفحم.

وتناقلت أكثرية وسائل إعلام العالم ما حدث في أم الفحم.. التي استحقت منذ ذلك الموقف أن نطلق عليها اسم «أم الفخر».

---

(١) لم تكن «أم الفحم» واردة ضمن التقسيمات الإدارية لمدن فلسطين إبان الانتداب البريطاني على فلسطين، وقد أوردناها ضمن لواء السامرة بعد أن تحولت من قرية إلى مدينة حيث زاد عدد سكانها عن خمسة وعشرين ألف نسمة، وهو الحد الأدنى الذي يسمح بالتحويل من الوجهة القانونية.



وبدأ إعلامنا العربي يبحث في خارطة فلسطين عن موقع أم الفحم. . وتاريخ ميلادها. . وفصيلة دمها. . وحالتها الاجتماعية!! ومع ذلك بقيت أم الفخر تعيش خلف الذاكرة العربية، برغم أن العدو أدخلها في عام ١٩٨٥ في دائرة «المدن» بعد أن ازداد عدد سكانها عن ٢٥ ألف نسمة! واعتبرت بعدئذ المدينة العربية الثالثة بعد الناصرة وشفا عمرو.

فماذا نعرف ـ نحن العرب ـ عن أم الفحم؟

تقع أم الفحم في منطقة اشتهرت في الماضي بالأحراج، وما صاحبها من قطع الأخشاب وصناعة الفحم وتصديره إلى المناطق المجاورة. وقد اكتسبت اسمها من واقع حياتها يومئذ.

وتقع على قمة جبلية ترتفع نحو ٤٥٠ متراً عن سطح البحر الأبيض المتوسط، وتبعد مسافة ٢٠٠ متر عن وادي عارة.

ويوجد في الناحية الشرقية منها «جبل اسكندر» ويرتفع ٥١٨م عن سطح البحر، ويوجد فوق قمته مزار ديني يحمل اسمه، وقد شهد هذا الجبل الأشم ذات يوم معركة كبيرة دارت رحاها بين ثوار فلسطين وسلطات الانتداب البريطاني استشهد أثناءها ١٥ مجاهداً.

النشاط السكاني

تتـوسط أم الفحم مجموعـة من القرى والمـدن، ولا تبعد كثيـراً عن المدن المركزية فهي مثلاً تبعد مسافة ٤١ كم عن حيفا، و ٢٥ كم عن جنين، و ٣٠ كم عن الناصرة. ولا يفصلها عن حدود الضفة الغربية إلا ٢ كم فقط.

وأم الفحم لم تحتلها «اسرائيل» نتيجة القتال بينها وبين العرب عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، ولكن جرى تسليمها لاسرائيل وفق بنود اتفاقية رودس عام ١٩٤٩، وبسبب عدم احتلالها فلم يجر تشـريد أهلهـا مثل القـرى المجاورة: البـطيمات وخبيـزة، واللجون (مستوطنة مجدو حالياً) وغيرها، وبعض سكان هذه القرى يعيشون لاجئين في أم الفحم!

وقبل نجاح مشروع إقامة اسرائيل عام ١٩٤٨، كانت مساحة الأراضي الزراعية

التابعة لأم الفحم تبلغ نحو ١٤٥ ألف دونم (الدونم الواحد يساوي ألف متر مربع) بينما بلغ عدد سكانها نحو ٣٥٠٠ نسمة جميعهم عرب مسلمون.

أما في عام ١٩٨٥ فقد بلغ عدد سكانها ٢٥ ألف نسمة، ولم يبق من الأراضي التابعة لها سوى ١٦ ألف دونم أغلبها صخري لا يصلح للزراعة، وهذا الرقم يشمل المسطح الذي يقوم عليه البناء أو المعد للبناء، ويرى السيد هاشم محاميد رئيس بلدية أم الفحم «سابقاً» أنه إذا استمر الوضع بهذه الصورة «فقد نضطر حتى لدفن موتانا وقوفاً. لم يبق شبر أرض مناسب للتطوير، فالبيوت تبنى فوق بعضها البعض، ويعيش كثير من السكان في ظروف سكنية وصحية مزرية جداً»[١].

ويوضح السيد المحاميد بأن أراضي أم الفحم صودرت من قبل السلطات الصهيونية بمختلف الحجج، حيث صودر قسم منها بحجة المناورات العسكرية، وقسم منها بحجة أنها أملاك «غائبين»، وصودرت ثالثة بزعم أنها أراضي بور.

«وهكذا سلبوا منا الأرض وحرمونا من التصنيع في الوقت نفسه، وأصبحنا كغيرنا من المواطنين الفلسطينيين في هذه البلاد، زنوج المجتمع الإسرائيلي واحتياطي العمل الأسود، وآخر من يُقبل للعمل، وأول من يُطرد منه!»

وماذا عن الصناعة؟!

أم الفحم مثلها كمثل القرى العربية المجاورة لها.. الطيبة والطيرة وسخنين وعرابة وهي عبارة عن فندق كبير يأوي إليه العمال. ومنها ينطلقون لكسب أرزاقهم حيثما وجدت هذه الأرزاق، وعمالها ينتشرون في مساحات واسعة من الأرض.. من كريات شمونة شمالاً إلى ميناء إيلات جنوباً، حيث يعملون بدءاً من شروق الشمس وحتى مغيبها.. ولا يرجعون لأم الفحم إلا من أجل المبيت فقط، وأحياناً أخرى لا يرجعون إليها إلا بمعدل مرة واحدة في الأسبوع.

ولكن.. بماذا يعملون؟

إنهم يعملون في كافة الأعمال الصعبة التي لا يعمل بمثلها «السادة» اليهود في ورش البناء والمطاعم ومحطات البترول ومراكز تنظيف النفايات وورش إصلاح

---

(١) مجلة «فلسطين الثورة»، ٣١ من أغسطس (آب) عام ١٩٨٥م

السيارات والمعدات الزراعية والصناعية وتعبيد الطرق، وشق الانفاق وبناء الجسور.. الخ

شباب أم الفحم يعملون في إعمار المدن الأخرى وتصنيعها ومدينتهم تفتقر إلى الاعمار وإلى التصنيع معاً.. ليس فيها أي مصنع.. اللهم باستثناء مصنع يتيم للطحينة افتتحه الهستدروت (نقابة العمال) عشية إحدى انتخاباته والتي صاحبته حملة إعلامية ضخمة تحدثت عن إعمار القرى والمدن العربية التي تتمتع بحظ وافر من اهتمامات الحكومة والحزب!!

ومن المفارقات المضحكة المبكية أن أهالي أم الفحم، لم يعلموا بوجود هذا المصنع إلا من خلال تلك الحملة الدعائية الواسعة وذلك لأن المصنع استوعب ستة عمال فقط!

وأما بشأن العمال والموظفين الذين يعملون في أم الفحم فلا يزيد عددهم عن مائتي موظف يتبعون السلطة المحلية، ويقومون بالتدريس في المدارس الثانوية وبالعمل في أقسام الصيانة والنظافة والإدارة..

أما بشأن الورش الخاصة بالمدينة فهي لا تستوعب إلا أصحابها فقط، حيث يقومون بالعمل فيها، وفي حالات قليلة قد تستوعب بعض العمال، وهي تشمل الحوانيت والمقاهي والمتاجر والمحادد ومعامل «البلوك» و «الطابوق»، ومشاغل نسيج صغيرة تابعة لمصانع النسيج الكبرى في المدن «اليهودية». وقد لجأ أصحابها إلى افتتاحها في أم الفحم للاستفادة من تدني أجرة العمالة العربية.

وتشير إحدى الإحصائيات التي نشرت عام ١٩٨٥ إلى أن عدد العمال والموظفين داخل المدينة يبلغ ١٨٠٠ فرد بنسبة ٧,٢ بالمائة وعدد العمال خارج المدينة يبلغ ٦٠٠٠ عامل بنسبة ٢٤ بالمائة، ويبلغ عدد الاطفال حتى سن الرابعة ٣٢٠٠ طفل بنسبة ١٢,٨ بالمائة، ويشكل الطلاب أكبر نسبة في عدد السكان حيث بلغوا ٨٠٠٠ طالب وطالبة بنسبة ٣٢ بالمائة. أما ربات البيوت والشيوخ والعاطلون عن العمل فعددهم يصل إلى ٦٠٠ بنسبة ٢٤ بالمائة.

والجدير بالذكر أن نسبة ازدياد السكان والتكاثر في أم الفحم من أعلى النسب في العالم، فبين سنتي ١٩٧٢ ـ ١٩٨٢ بلغت نسبة الزيادة ٤,٢ بالمائة، وقبل هذه

السنوات كانت النسبة ٤,٨ بالمائة وتبلغ نسبة التكاثر في السنوات الأخيرة ٣,٥ بالمائة[1].

وماذا عن الخدمات التعليمية؟!

لا يختلف قطاع الخدمات التعليمية عن غيره من قطاعات الصناعة والزراعة والإسكان من حيث ترديه وسوء حاله وتعاسة أوضاعه. فمدينة بحجم أم الفحم لا يوجد فيها سوى ١٣ مدرسة (١٩٨٥م) منها ١١ مدرسة إبتدائية! ومدرسة ثانوية واحدة ومدرسة مسائية للراغبين في متابعة دراستهم. وعدد طلاب المدرسة الثانوية اليتيمة يزيد قليلاً عن ألف طالب من بينهم نسبة من طلاب القرى المجاورة.

أما العدد الإجمالي للطلاب فهو ـ كما ذكرنا آنفاً ـ يصل إلى ٨٠٠٠ طالب وطالبة، أغلبيتهم الساحقة يتعلمون في مدارس ابتدائية، ويصل عدد الغرف الدراسية إلى (٢٤٠) غرفة منها (٢١٣) صفاً ابتدائياً، ومنها ٧٠ غرفة مستأجرة ومنتشرة في أماكن متفرقة في أحياء المدينة وأغلبيتها بلا مراحيض، وبعضها بلا أبواب وشبابيك وإحداها بلا سقف، وأكثرها كانت في الأصل مستودعات وكراجات.

ويتابع المحاميد رسم الصورة المأساوية بريشة الواقع فيقول: مدارسنا إجمالاً عبارة عن «زرايب» بالمقارنة مع المدارس اليهودية، ولا أظن أن بعض الكيبوتسات والمستوطنات اليهودية المجاورة توافق على تربية الحيوانات والدجاج في هكذا غرف. وبناء عليه لا يمكننا حتى الحلم بملاعب رياضية وبفعاليات تربوية، وبمختبرات عصرية تابعة لهذه المدارس! وما دام الأمر بهذا السوء، فلا داعي للحديث عن الحاجة إلى الرعاية النفسية والاجتماعية، ولا إلى المستشارين التربويين أو الاخصائيين الاجتماعيين أسوة بالمدارس اليهودية فهو «ترف» لا يطمح «عرب إسرائيل» إلى تحقيقه.

وإذا ما أريد سد النقص في الغرف المدرسية فذلك يتطلب بناء خمس مدارس جديدة في وقت واحد، وسيكلف ذلك مبلغ أربعة ملايين ومائة وخمسة وثلاثون ألف دولار أمريكي، وهذا المبلغ يتعلق بكلفة البناء فقط، دون الأثاث والأدوات التعليمية المختلفة[2].

---

(١) المرجع السابق

(٢) مجلة «الوطن العربي» ـ باريس ٢٢ من فبراير (شباط) ١٩٨٥م.

هـذا وتحمل بعض أسمـاء مدارس أم الفحم أسمـاء شخصيات بـارزة ذات مضامين إسلامية عظيمة مثل: عمر بن الخطاب، ابن سينا، ابن خلدون، الخيام، الخنساء، الزهراء. وبرغم وجود أكثر من ستمائة شاب يافع حرموا من التعليم في أم الفحم، فإن الشباب يتطلعون بشغف إلى آفاق الدراسات الجامعية والعليا، وبرغم سياسة الاضطهاد والتمييز العنصري، إضافة إلى الفقر والحاجة والتكاليف المعيشية والتعليمية المرتفعة، فإن أم الفحم تفخر بأن من بين شبابها أكثر من مائتين وخمسين طالباً جامعياً. كثيرون منهم يدرسون على حسابهم الخاص في دول أوروبية غربية، وبعضهم يدرس في بعض دول أوروبية شرقية عن طريق منح دراسية.

شباب طموح

وربما تعطينا بعض نقاط السيرة الذاتية للسيد هاشم محاميد صورة مشرقة عن الطموح المتنامي للشباب الفلسطيني بأم الفحم.

فهو ينتمي إلى عشيرة المحاميد إحدى أربع عشائر تتكون منها أغلبية السكان، إضافة إلى عشائر الغبارية والمحاجنة والجبارين.

وقد وُلد السيد هاشم عام ١٩٤٥ لعائلة فقيرة مكونة من أحد عشر أخاً وأختاً، ولما لم تكن في قريته يومئذ مدرسة ثانوية، ولما كان طموحه غير محدود فقد اضطر للالتحاق بمدرسة يهودية ثانوية في مدينة العفولة، واجه خلال دراسته فيها كثيراً من المشاكل والمواقف العنصرية، ولكنه تصدى لها بصلابة إيمانه ومثابرته على التعليم. ونجح بتفوق حتى في مواد الديانة اليهودية والتلمود، وأحرز معدلاً لا يضاهي معدلات الطلاب اليهود المتفوقين: «ولضيق ذات اليد كان يذهب للدراسة في العفولة مشياً على الأقدام، وكان طوال فترة دراسته يستعمل قلم الرصاص حتى يستطيع محو ما انتهى إليه، ولكي لا يضطر إلى شراء دفتر جديد، وينقطع أحياناً عن التعليم لكي يعمل، كذلك العطل المدرسية كانت بالنسبة له فرصة عمل في البناء والحفريات ومد المواسير.. إلخ».

وبعد أن أنهى دراسته عمل في سلك التدريس مدة وجيزة، وواصل مسيرتـه الدراسية الجامعية في جامعة تل أبيب، وحصل على شهادة البكالوريوس في موضوع «اللغة الإنجليزية والاستشارة التربوية» ولم يقف طموحه عند هذا الحد، تابع دراسته وحصل على MA في موضـوع «علم النفس الاجتماعي» ثم عـاد للوظيفة وعمـل

مدرساً. . ثم نائب مدير لمدرسة أم الفحم الثانوية. وبدأ التحضير لشهادة الدكتوراه في علم النفس السياسي. . ولكن «السياسة» ملكت عليه نفسه وأوقفته عن متابعة مسيرته إلى الدكتوراه فقد انتخب رئيساً للمجلس البلدي لأم الفحم. . وكان من أبرز مؤسسي «الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة» وأصبح عضواً قيادياً في إدارتها القطرية.

. . هذا وتعاني أم الفحم كثيراً من المشاكل لعل من أهمها إضافة لما ذكرناه آنفاً ـ تدني الميزانية السنوية التي تدفعها وزارة الداخلية اليهودية للمجلس البلدي والتي لم تتعد المليون دولار في عام ١٩٨٥ والتي لا تكفي حتى لدفع مرتبات موظفي البلدية وأساتذة المدرسة الثانوية البالغ عددهم ٢١٠ أساتذة.

أما ميزانية المشاريع فلا تتعدى ٣١,٥ ألف دولار وهو مبلغ لا يكفي لتنفيذ أي مشروع مجد ولو كان صغيراً، وقد وضعت وزارة الداخلية هذه الميزانية من دون استشارتنا، فهي فرضت علينا، مما يؤكد لدينا اليقين بأن هناك خطة مرسومة لابقائنا متخلفينْ، حطابين، سقائي ماء، وعمالاً في المطاعم والمشاغل المختلفة[1].

وبرغم الاحتجاجات المتكررة التي يظهرها المجلس البلدي بأم الفحم إلى السلطات الصهيونية ومطالبته بزيادة الميزانية إلا إنها تعتذر دائماً بعدم توافر الأموال! والحق أن الأموال متوافرة. . ومتوافرة جداً ولكن من أجل الاستيطان وتطوير المدن والقرى اليهودية، أما بالنسبة لأم الفحم وأخواتها العربيات فالأموال غير متوافرة «لذا كثيراً ما نشعر بالغربة وبالضياع، أشعر حقاً أن البلاد بلادي والوطن وطني ولكن كل ما حولي يتنكر لي» كما يقول المحاميد، والذي يترجم واقع المدينة: إننا لا نحلم بحدائق وساحات وبركة سباحة، ولكن نريد مدارس بدون غرف مستأجرة، نريد شوارع معبدة وليست ترابية، وليست محفرة، ثم إن أم الفحم لغاية اليوم محرومة من مشروع المجاري، وتفيض المجاري في شوارعها وأزقتها، والروائح قاتلة والأمراض منتشرة، وفي هذه الأزقة يلعب أطفالنا لدرجة أن بعض أطباء المستشفيات سموا أحد الأمراض بـ «فيروس أم الفحم» لانتشاره الواسع بين أطفالنا[2].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.

مدينة . . رغم أنوفهم

وبعد كفاح مستمر، وطول انتظار أعلن وزير الداخلية الإسرائيلي اعتبار أم الفحم «مدينة» وإقامة «بلدية» فيها بدلاً من «المجلس البلدي».

وجاء هذا الإعلان بناء على توصية من لجنة تحقيق اسرائيلية شكلتها وزارة الداخلية استغرقت ستة أشهر في مهمتها من أجل التحقق من توافر المقومات المطلوبة لتحويل «القرية» إلى «مدينة». والتي كان من أبرزها بلوغ عدد السكان أكثر من خمس وعشرين ألف نسمة وهو الحد الأدنى الذي يسمح بالتحويل من الوجهة القانونية.

ولدى سماع خبر الاعلان زحفت جموع من المواطنين الفلسطينيين إلى مبنى المجلس البلدي للتهنئة والتبريك.

وقد استغل الاعلام الصهيوني هذا الحدث وتسابقت وسائله المختلفة لاظهار الاهتمام الصهيوني بتطوير المدن والقرى العربية كما المدن والقرى اليهودية!

وزير الداخلية الصهيوني رسم صورة مشرقة لصدى قراره حيث قال: كنا ننظر إلى أم الفحم كقرية كبيرة، وكان ذلك يحرمها من المشاريع الصناعية، والاعلان سيسمح من الناحية القانونية أن ندخل هذه المشاريع إلى القرية، وأن يكون هناك مجال لازدهار المدينة وتطورها، وسيكون بإمكان وزارة الداخلية أن تخصص لها ميزانية أكبر، لأن النظرة إلى البلدية تختلف عن القرية.

الإذاعة الإسرائيلية أجرت مقابلة مع رئيس المجلس البلدي لأم الفحم سُئل أثناءها عن مشاعره في تلك المناسبة فقال متوجساً:

أنا مسرور جداً لأن وزير الداخلية اتخذ قراراً صحيحاً انتظرناه سنوات طويلة، وآمل أن يؤدي إلى تطوير مدينتنا من الناحية الصناعية والسياحية، كي نكون بلدية فعلاً وليس نظرياً، ونأمل أن تصبح معاملتنا مختلفة عن ذي قبل بعد أن أصبحنا مدينة كما قال وزير الداخلية لنعيش مثلما يعيشون في الخضيرة والعفولة وكل المدن الأخرى[1].

غير أنه لا يريد أن يسترسل طويلاً في أحلامه، فالناصرة وشفا عمرو مدينتان قبل قيام اسرائيل ذاتها، ورغم ذلك لم تحصلا على حقوقهما كما تحصل عليها سائر

---

(١) مجلة فلسطين الثورة ٣ من مارس (آذار) ١٩٨٥م.

البلديات اليهودية (المدن) الفلسطينية ـ عدا الناصرة وشفا عمرو وأم الفحم ـ تهودت أو أصبحت يهودية ـ عربية مثل عكا ويافا واللد والرملة وصفد. . الخ).

وبعد عدة سنوات من صدور القرار الصهيوني الذي انتزعه مواطنو أم الفحم من الحكومة، لم تظفر إلا بالنزر اليسير مما ظفرت به البلديات اليهودية. ورغم ذلك يبقى القرار مكسباً وطنياً لهذه المدينة الصلبة.

وإذا نحن صرفنا النظر عن التمويل غير الكافي، نجد أن هناك مشكلة أخرى أثرت على أداء المجلس المحلي في أم الفحم وفي معظم القرى العربية ألا وهي غياب خطة محلية للتطوير. إن وجود مثل هذه الخطة ومصادقة السلطات الإسرائيلية عليها أمر لا غنى عنه عندما تتعلق المسألة بتوزيع الأرض المخصصة لأغراض البناء. ولكن عدم وجود هذه الخطة حتى الآن خلق صعوبات لمجلس أم الفحم بالنسبة للحصول على أرض للبناء. كما أن وجود مثل هذه الخطة هو أمر لا غنى عنه من أجل وضع استراتيجية للتطوير على المدى البعيد في القرية[١].

ولقد تسببت مجمل الأوضاع في أم الفحم ـ وبخاصة الاقتصادية منها ـ في احداث تحولات في الأوضاع الاجتماعية في المدينة، ومن هنا فإن أنماطاً جديدة في الصراع الاجتماعي قد ظهرت في أم الفحم، فهناك صراع بين الأبناء الشبان والسلطة الأبوية، وبين الاناث والسلطة التقليدية للذكور، وتعاني هذه المدينة ـ أكثر من غيرها ـ من هذه التوترات الاجتماعية وذلك راجع إلى ضخامة عدد السكان الذي تضاعف أربع مرات خلال نحو ثلاثين عاماً، وكذلك إلى ضخامة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تواجهها. ومن بين أبرز هذه المشاكل ارتفاع نسبة الجرائم، وتفشي البطالة، وانهيار الزيجات «التي تزداد يوماً بعد يوم لأن الرجال الذين يعملون بعيداً عن أم الفحم يفقدون صلتهم تدريجياً مع (قريتهم) ويهجرون زوجاتهم[٢].

يوم أم الفحم

تتمتع أم الفحم باحتياطي ضخم من المخزون «الثوري» العربي الاستراتيجي مثل سائر مدننا وقرانا ومخيماتنا الفلسطينية.

---

(١) أم الفحم: الأوضاع التعليمية والاجتماعية: أنجيلا بلومان ـ دار الكرمل للنشر والتوزيع ـ عمان ـ ١٩٨٥م.
(٢) المرجع السابق.

ففيها نما وترعرع أول تنظيم فلسطيني وطني في منطقة الجليل في أوائل الستينيات وحمل اسم «حركة الأرض».

وفيها تأسست وتجسدت «حركة أبناء البلد» التي أنشئت للرد على الظلم القومي، وعلى تدمير الصهاينة لإنسانية الإنسان الفلسطيني العربي في وطنه المغتصب كما عرفها أحد أبناء أم الفحم المحامي محمد كيوان.

وفي اليوم الرابع من شهر أغسطس (آب) عام ١٩٨٤ اندلعت فيها أكبر مظاهرة ضد العنصرية الصهيونية شهدتها فلسطين المحتلة، حيث شارك فيها أكثر من أربعين ألف من عرب ويهود ديمقراطيين، وحضروا الاجتماع الشعبي الذي أعقبها.

غير أن اليوم الأكثر خصوصية في تاريخ أم الفحم كان يوم ١٩٨٥/٨/٢٩ وهو «يوم أم الفحم» التاريخي.

فما الذي يعنيه ذلك اليوم؟

هو باختصار يوم انتصار إرادة التحدي الفلسطيني أمام العنصرية الصهيونية التي تمثلت في الحاخام الصهيوني المتطرف «مائير كاهانا» زعيم عصابة كاخ الدموية.

وكاهانا هذا من مدينة نيويورك الأمريكية، ومن حي بروكلين بالذات، ويحمل الجنسية الأمريكية الإسرائيلية المزدوجة.

وقد جاء إلى اسرائيل وهو يؤمن بنظرية طرد جميع العرب الموجودين في «اسرائيل» وفي الضفة الغربية وقطاع غزة إلى الدول العربية أو إلى أي مكان يريدونه.

وبعد أن فاز في الانتخابات النيابية الإسرائيلية في صيف عام ١٩٨٤، قرر هذا الكاهانا ـ بعد أن أصبح نائباً في الكنيست ـ تنفيذ وعده الذي قطعه لناخبيه، واختار «قرية أم الفحم» لتكون الميدان الأول لتجربته.

واتفق مع عدد من القطعان السائبة من أتباعه الذين يزيد عددهم عن المائة ـ للتجمع في مدخل أم الفحم أو «وكر الأفاعي» حسب تعبيره وذلك في صباح يوم الأربعاء بتاريخ ١٩٨٥/٨/٢٩، من أجل اقتحامها بالقوة وإبلاغ مواطنيها العرب بضرورة مغادرة «الأراضي الإسرائيلية». وأعلن أنه سيفتتح مكتباً خاصاً بالتهجير فيها، وسيدفع تعويضاً فورياً لمن يرغب في الهجرة في غضون عامين!

وأصدر وزير الداخلية الصهيوني في حينه تهديداً مباشراً لأهل أم الفحم قال فيه: «إن كاهانا عضو كنيست ويتمتع بحصانة برلمانية ويحق له دخول أية منطقة في البلاد».

وطوقت أرتال الشرطة الإسرائيلية أم الفحم من كافة جوانبها واستعدت مجموعات منها بتوفير الحماية الأمنية للنائب الصهيوني.

وتنادت أم الفحم برجالها ونسائها وأطفالها وشيوخها وشموخها.. وقالت الجماهير كلمتها: لن يمروا إلا على أجسادنا. وجاءت لنجدة الأهل أسراب من شبان القرى الفلسطينية المجاورة، وشكل الأهالي سلاسل بشرية عند منافذ القرية، وأخذت الآلاف تهتف من أعماقها:

«ياكاهانا أخرج بره أم الفحم جمرة حمره»
«ياكاهانا يا أنتيكا إرجع لبلادك أمريكا»

واختلطت زغاريد النساء بهتافات الرجال:

بالروح.. بالدم.. نفديك أم الفحم.

ووقف النواب العرب الأربعة في الكنيست الصهيوني توفيق زياد، ومحمد وتد وعبد الوهاب دراوشة ومحمد ميعاري إلى جانب شعبهم.

وأزفت لحظة الصدام المرتقب، وعندما لاحظت سلطات العدو أن مذبحة مروعة ستقع في البلدة، وأن كاهانا قد يقتل في حال اقتحامها مع أتباعه، تجاهلت «الحصانة النيابية» التي كان وزير الداخلية «يوسف بورغ» يتذرع بها، وقامت بإبلاغ كاهانا قبل وصوله إلى مداخل البلدة بضرورة التراجع لأنها غير قادرة على ضمان حياته وحياة أنصاره إذا أصّر على عملية الاقتحام[(١)]. وأصدر الوزير أمراً يمنع كاهانا من دخول القرية «لدواع أمنية».

وتراجعت العنصرية المجسمة في واحد من أبرز أفاعيها، وبقي تراب أم الفحم نقياً طاهراً لم تدنسه الأحقاد التوراتية المتوارثة.

يقول أحد قادة المواجهة الباسلة معلقاً على الموقف: إن العنصرية لم تظهر بظهور كاهانا، فالعنصرية سياسة رسمية لهذه الدولة منذ قيامها، ويبقى كاهانا

---

(١) مجلة الدوحة ـ عصام شريح ـ نوفمبر ١٩٨٤م

الإفراز الأوسخ لهذه السياسة، وتبقى الفاشية الكهانية هي التعبير الواضح عن أحلام الصهيونية المتطرفة، فنحن لم نتصد لكاهانا فقط. وإنما تصدينا لمجمل السياسة الكهانية، لقد سهلنا بصمودنا وبمعركتنا معركة جميع القرى والمدن العربية، وساعدنا في هذا اضطرار الكنيست إلى اتخاذ قرار فيما بعد يحد من حصانة كاهانا البرلمانية وإلا فستواجه الكهانية بأم أخرى كيوم أم الفحم[١].

ومنذ ذلك اليوم استحقت أم الفحم بجدارة مطلقة أن يصير اسمها «أم الفخر» فقد نجحت بكفاءة عالية في امتحان الإرادة الذي اجتازته بعزيمة وإصرار، فوعى الأعداء درسها، ولم تتخلف صحيفة عبرية عن التطرق إليه ـ ولو رغماً عنها ـ وأيقن الجميع أن هذه «القرية» الفقيرة في مواردها الاقتصادية، تكتنز في شرايينها وأوردتها مدداً من أنوار الايمان والحق والعدل لا تنفد موارده.

إن أم الفخر التي انتصرت على ظلام الكاهانية ستنتصر أيضاً على ظلام الفقر.. والعوز، والتخلف المادي وكل صنوف المعاناة.. والله لا بد ناصرها ومنصفها.

وقد أيَّدَ الله تعالى إرادة المخلصين العاملين من أبناء المدينة حيث حقق المسلمون الملتزمون بتعاليم دينهم الحنيف انتصارات ساحقة في الانتخابات البلدية التي جرت في أم الفحم يوم ٢٨ من فبراير عام ١٩٨٩م وفازت «الحركة الإسلامية» بأحد عشر مقعداً من أصل خمسة عشر مقعداً، وقد فسر المتحدث باسم الحركة الشيخ هاشم عبد الرحمن أسباب النجاح بقوله: لقد أنجزنا في هذه المدينة أعمالاً ضخمة من بناء مدارس وعيادات وإقامة نواد رياضية، وتقديم مساعدات للمعوزين والقيام بأشغال مختلفة ذات منفعة عامة، وإن كان سبعون بالمائة من السكان قد صوتوا مع الحركة الإسلامية فلأنهم يعلمون أن في مقدورنا نحن فقط تحسين ظروفهم المعيشية.

وأشار الشيخ عبد الرحمن إلى مجموعة من رجال الدين الشبان الملتحين، والذين يعملون على سطح مبنى إسمنتي ضخم هو الأكثر ارتفاعاً في المدينة وأوضح أنه «بيت القرآن الكريم» وهو مؤلف من أربعة طوابق ويمتد على مساحة ٢٥٠٠ متر مربع، ويضم مستوصفاً ومسجداً وقاعة للرياضة ومكتبة.

---

(١) فلسطين الثورة ـ عدد ١٩٨٥/٩/٨م.

والجدير بالذكر أن التطوع هو الحافز الرئيسي لإتمام جميع الإنجازات، فالسكان يقترحون لائحة من المشاريع، ومن ثم تقوم «الحركة الإسلامية» بجمع متطوعين شباناً لتحقيقها هدفهم الأوحد: التقرب إلى الله تعالى وخدمة مدينتهم ومواطنيهم. أما التمويل فمصدره الرئيسي من الزكاة وأموال تجمع في الخارج.

هذا.. وقد أضحى المغني الإنجليزي «كات ستيفنز» الذي اعتنق الإسلام قبل بضع سنوات واختار اسم يوسف إسلام ـ نجم أم الفحم بعد أن قدم مبلغاً مالياً ضخماً لبناء بيت القرآن الكريم[1].

وبرغم أوضاعها الاقتصادية السيئة إلا أن أم الفخر استنفرت كافة مقدراتها وإمكاناتها المادية والمعنوية لدعم الانتفاضة الفلسطينية المباركة التي تفجرت حممها في الثامن من شهر ديسمبر عام ١٩٨٧، مثلها في ذلك مثل باقي المدن والقرى الفلسطينية في منطقة الجليل والمثلث، وكافة التجمعات الفلسطينية في الوطن السليب.

* * *

بعد انتهاء هذه الجولة ـ غير الميدانية ـ مع مدينة أم الفخر، أخذت أردد بعضاً من مقاطع قصيدة «جيل الخيام» للشاعر الفلسطيني سالم جبران يقول فيها:

وطني، أحبك، يا أبي الباقي
أتعرف من أنا؟!
بالأمس مات أبي فواريناه في المنفى التراب
لم يبق إلا صورة
وحكاية عن عز أيام الشباب!!
هو عاش فيك، ومات في المنفى
وحملني هواك والاغتراب!
تتحدثون عن السلام.
وأنا هنا غصن بلا جذر
وسقف في الهواء الرحب قام
جيل أنا ينمو، ويكثر في الخيام
ولتسمعوها جيداً.. ينمو ويكثر في الخيام.

---

(١) جريدة الراية القطرية ١١/٣/١٩٨٩م

الباب السادس:

لواء غزة

ويتبعه أقضية
غزة وبئر السبع،
وأضيفت مدن
خان يونس ورفح ومجدل عسقلان


GAZA غزة

غـــزة...

تاريخ وعراقة وفداء

تبرز غزة هاشم في طليعة المدن الثورية كونها تمتلك رصيداً ضخماً لا ينفد من البطولة والتضحية والعراقة والفداء، وهي إلى جانب ذلك مـدينة من أبهى المـدن الفلسطينية المتربعة بإعزاز وكبرياء في أحضان الأبيض المتوسط..

عانقها المجد منذ القدم، وضمها الجمال الآسر إلى مملكته المهيبة، فتغزل في محاسنها الرحالة والشعراء وجوابو الأمصار، وبسبب موقعها الممتاز طمـع فيها الغزاة والفاتحون وهواة بناء الامبراطوريات فعانت الويلات الكثيرة نتيجـة غزواتهم وحروبهم وشهواتهم العدوانية، وما برحت غزة البطلة تعاني مذلة الاحتلال الصهيوني الذي جثم على أنفاسها منذ عام ١٩٦٧.

عراقة المحتد

وهي مدينة موغلة في القدم، وتعتبر من أقدم المدن التي تعرف عليها التاريخ، أما سبب تسميتها بهذا الاسم فهو غير مدرك بدقة، برغم أن هذا الاسم كان قابلاً للتبديل وللتحريف بتبدل الأمم التي صارعتها! فهي عنـد العبرانيين (عـزة)، وعند الكنعانيين (هزاتي)، وعند الفراعنة (غزاتو). أما الآشوريون واليونانيون فكانوا يطلقون عليها (عزاتي) و(فازا)، والصليبيون اسموها (غادرز)، والأتراك لم يغيروا من اسمها العربي (غزة)، أما الإنجليز فيطلقون عليها اسم (جازا).

وقد اختلف المؤرخون ـ كعادتهم بالنسبة لكثير من المدن القديمة ـ في سبب تسميتها بغزة، فهناك من يقول انها مشتقة من المنعة والقوة، وهناك من يقول أن معناها

(الثروة) وآخرون يرون بأنها تعني (المميزة) أو (المختصة) عن غيرها.

وياقوت الحموي يقول في معجمه: «غَزَّ فلان بفلان واغتز به إذا اختصه من بين أصحابه».

وكما اختلف المؤرخون في سبب تسميتها فانهم كذلك مختلفون في بناتهاالأول: فمنهم من يرى أنهم أجدادنا الكنعانيون العرب الذين نزحوا من الجزيرة العربية وأقاموا بفلسطين والشام في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد.

وأما البعض الآخر فيرى بأن المعينيين العرب هم الذين وضعوا حجر أساسها. أو أنهم على الأقل ساعدوا في نموها وازدهارها. وكانوا يحملون منها وإليها البضائع المختلفة. حيث كانت قوافلهم تحمل كثيراً من خيرات الهند وبلاد العرب وافريقية الشرقية من جنوب الجزيرة العربية مروراً بالبتراء ووصولاً إلى غزة، ومنها يتم شحن السفن بهذه البضائع إلى سائر سواحل البحر الأبيض المتوسط، وكان التجار في تلك الشواطىء ينتظرون بشوق ما تحمله تلك السفن من الطيب والبخور والتوابل واللبان وكثيراً من المحاصيل الصحراوية ومحاصيل المناطق المدارية في افريقية وآسيا[1].

ولعل المعينيين كانوا أول من اكتشف أهمية غزة التجارية ووقوعها على الطريق الصحراوي الذي يربط مصر بالهند، لأن الملاحة في البحر الأحمر كانت صعبة في ذلك الزمن البعيد.. ونظراً لوقوع غزة في الجنوب الغربي من فلسطين فقد كانت تلتقي عندها ـ يومئذ ـ أكبر قارتين في العالم القديم وهما افريقية وآسيا، وهي في نفس الوقت مواجهة لقارة أوروبا القديمة.

وهي كذلك تقع عند ملتقى المناطق الصحراوية (شبه جزيرة سيناء وصحراء النقب) بالمناطق الخصبة (بر الشام).

لقد اعتبر أرباب التجارة غزة (مفتاح الثروة والغنى). واعتبرها قادة الجيوش وكبار العسكريين (المخفر الأمامي لمصر وافريقية وباب آسيا)، ولهذا كانت موضع اهتمام الملوك الذين اعتلوا عرش مصر منذ عهود الفراعنة، وقد أحصى المؤرخون أسماء سبعة عشر فرعونا مروا بغزة أو فتحوها لأنهم كانوا يدركون أن الاستيلاء على غزة معناه السيطرة على طرق الحرب والتجارة بين آسيا وافريقية.

---

(١) بلادنا فلسطين ـ مرجع سابق.

وقد فتح الفلسطينيون غـزة منذ أقـدم أزمنة التـاريخ ويعتقـد أنها دخلت في حوزتهم قبل زمن إبراهيم عليه السلام ومنذ ألفي سنة قبل الميلاد.

شمشون. . . ودليلة

إن الكراهية بين الفلسطينيين وبين بني اسرائيل قديمة جداً، وإذا رجع المرء إلى أسفار العهد القديم وجد أمثلة كثيرة تدلـل على هذه الحقيقـة، لكن كره بني اسرائيل كان موجهاً بشكل خاص إلى مدينة غزة التي كانت تشكل إحدى أهم خمس مدن فلسطينية في ذلك الوقت إضافة إلى أسدود وعسقلان وعاقر وعراق المنشيـة. وليس ثمة برهان على ذلك أنصع من حكاية «شمشون» الجبار اليهودي مع «دليلة» الفلسطينية، إذ رضي بالموت ما دام في موته موت لأعدائه الفلسطينيين، وقال كلمته المشهورة «بي وبأعدائي يا رب». وكان شمشون بن ملوح مضرباً للمثـل في القوة الجسدية الخارقة، إضافة إلى كونه قاضياً من قضاة اليهود قبل عهد النبي داود عليه السلام.

وقد آذى ببطشـه كثيراً من الفلسـطينيين الأبريـاء وقتل منهم ثـلاثين فرداً في أشقلون (عسقلان) وسلب متاعهم، وأحرق زروع بعضهم ثم هرب إلى غزة، وكانت أمه عاقراً فبشرها ملاك الرب بأنها ستضع غلاماً «يكون نزيراً لله من البطن، وهو يبدأ يخلص اسرائيل من الفلسطينيين فولـدت المرأة إبنـاً ودعت اسمه شمشـون، فكبر الصبي وباركه الرب، وابتدأ روح الرب يحركه». وأوصاها بأن تهتم بتربيته، وحذرها من قص شعره.

وأثناء إقامته في غزة تعـرف على فتاة غـزية تـدعى «دليلة» فطلب من أبـويه تزويجها له، فقالا له «أليس في بنات أخوتك وفي كل شعبي امرأة حتى إنك ذاهب لتأخذ امرأة من الفلسطينيين الغلف»، فقال شمشون لأبيه: إياها خذ لي لأنها حسنت في عيني، ولـم يعلم أبوه وأمه أن ذلك من الرب كان يطلب علة على الفلسطينيين، وفي ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلطين على اسرائيل[1].

وعندما تزوج شمشون دليلة «صعد إليها أقطاب الفلسطينيين، وقالوا لها تملقيه وانظري بماذا قوته العظيمة، وبماذا نتمكن منه لكي نوثقه لإذلاله»، فكشـف لها عن

---

(١) الإصحاح ١٣.

مكنونات قلبه، وعرفت أن سر قوته يكمن في قوة شعر رأسه، وأخبرت دليلة سراة قومها فكمنوا قريباً منه وعندما أنامته على ركبتيها جاءوا وحصدوا شعر رأسه، وفقأوا عينيه وأوثقوه، بسلاسل من نحاس، وكان يطحن في بيت الجن، وابتدأ شعر رأسه ينبت، وعندما كان أقطاب الفلسطينيين ومعهم «ثلاثة آلاف رجل وامرأة يمرحون أمام (داجون) إلههم دعوا شمشون ليمرح معهم في المعبد لكنه قبض على العمودين المتوسطين اللذين كان البيت قائماً عليهما، فاستند عليها بيمينه ويساره وصاح قائلاً: بي وبأعدائي الفلسطينيين. . وانحنى فسقط البيت»! ومات هو وكثير ممن معه[1].

وقد دفن في موقع «أبو العزم» المعروف حالياً، وبجواره مسجد متواضع ويقال بأن اليهود نقلوا جثته فيما بعد إلى بلدة «ثمنة» التي ولد فيها غربي القدس.

ولقد غضب الإسرائيليون لمقتل (قاضي قضاتهم)، وظل صراعهم قائماً مع الفلسطينيين الذين قاوموهم مقاومة عنيفة خاصة بعد أن دخلت غزة في حكم بني اسرائيل أيام ملكهم سليمان الذي اعتلى الحكم بعد أبيه داوود عام ٩٦٠ ق . م وبرغم ذلك لم تستسلم غزة لحكمهم وذكر مؤلف كتاب (تاريخ غزة)[2]: إن الحرب كانت سجالاً بين الفريقين، تارة تغلب غزة وطوراً تُغلب على أمرها، وكثيراً ما كان الغزيون يحتالون على بني اسرائيل، فيسبون أولادهم، ويبيعونهم لعرب الجنوب سكان آدوم، وكان هؤلاء يحملونهم إلى سكان مصر، ولا عجب إذا غضب بنو اسرائيل على غزة، إذ كانوا يعدونها شوكة في حلق مملكتهم إضافة إلى إنهم يعتبرونها مسرح الخرافة التوراتية السابقة «شمشون ودليلة» ولذلك حمل عليها أنبياء بني اسرائيل حملة شعواء، وراحوا يصبون عليها جام غضبهم، ويتمنون لها الخراب والدمار.

غزة في عهد الفرس والرومان

كانت غزة تابعة للحكم الفارسي حينما هاجمها الاسكندر المقدوني عام ٣٣٢ ق. م. وقد قاومته غزة مقاومة عنيفة، وصمدت أمام جحافل المقدونيين شهرين كاملين، ويقال أن سهماً غزياً قد أصابه في ركبته، وعلى قول آخر في صدره، مما أثار حفيظته، وعندما تغلب عليها أعمل فيها وفي أهلها التنكيل والتعذيب، فدمر قلاعها،

---

(١) غزة ـ عارف العارف

(٢) تاريخ غزة ـ إبراهيم سكيك.

وهدم منازلها، وباع كثيراً من نسائها وأطفالها في أسواق العبيد!

يقول بلوتارخ: لقد كانت غزة أعظم مدينة في بر الشام عندما استولى عليها الاسكندر الأكبر.

وازدهرت فيها آداب اليونان وثقافتهم، وكان مشهوداً لمدارسها وكلياتها الجامعية بالتفوق خاصة في دراسة الفلسفة والبلاغة والخطابة واللاهوت في قرون الميلاد الأولى، وكثيراً ما كانت معاهد فارس تستعين بكفاءة المعلمين الغزيين للتدريس فيها. وكانت تسمى يومئذٍ «غزة المقدسة» أو «غزة المضيئة» وقد جاء في كتاب «أنطاكية» الذي ألفه المستر «دواني» أستاذ الأدب البيزنطي في جامعة هارفارد قوله: «. . ولقد كانت غزة ـ تلك المدينة الجامعية على الساحل الفلسطيني ـ بلدة تبعث على السرور والاعتزاز، ولكنها مثل أثينا لم تكن تقوى على منافسة عاصمة كبرى كأنطاكية المزدهرة».

ولقد لعبت إثنتان من المدن الجامعية وهما أثينا وغزة دوراً مهماً في بناء الثقافة اليونانية الجديدة.

وبلغت غزة ذروة مجدها العلمي في نهاية القرن الخامس.

وخلال عهد الرومان تقدمت غزة أيضاً في كثير من الصناعات وبخاصة الفخار والحرير والخمر، وقد اكتسب الخمر الغزي شهرة واسعة «ولم تكن موائد أغنياء فرنسا في القرون الأولى للميلاد تخلو من نبيذ غزة الفاخر»، وأشاد عدد من الشعراء الماجنين بالخمر الغزي المعتق الذي اكتسب شهرته من توافره «بسوق مجنّة» قرب مكة المكرمة قبل الإسلام.

وعندما نتحدث عن تاريخ غزة في هذه الفترة فلا بد من الإشادة بموقف الإمبراطور الروماني هادريانوس الذي قهر اليهود، وشتت جموعهم، وسبى نساءهم وباعهن في أسواق غزة.

لقد أحب هادريانوس غزة حباً كثيراً، وقد زارها مرات عدة، وخلال إحدى زياراته عام ١٢٩ ميلادية أسس (عيد غزة الكبير) ووضع مبدءاً للتقويم الغزي أو الهدرياني ويبدأ بسنة ٦٠ قبل الميلاد.

وفي عهد الرومان أيضاً ازدهرت صناعة الفخار والحرير.

غزة.. في رحاب الإسلام

ارتبط العرب بغزة ارتباطاً وثيقاً، فقد كان تجارهم يفدون إليها في تجارتهم وأسفارهم باعتبارها مركزاً مهماً لعدد من الطرق التجارية، وكانت تمثل الهدف لإحدى الرحلتين الشهيرتين اللتين وردتا في القرآن الكريم في (سورة قريش) رحلة القرشيين شتاء إلى اليمن، ورحلتهم صيفاً إلى غزة ومشارف الشام، وفي إحدى رحلات الصيف هذه مات هاشم بن عبد مناف جد الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام، ودفن في غزة، وما يزال قبره قائماً فيها حتى اليوم في الجامع المعروف بجامع السيد هاشم في حي «الدرج».

وقد أراد أهلها بعد ظهور الإسلام أن يشرفوها بنسبتها إلى جد رسولنا الأعظم هاشم بن عبد مناف فأطلقوا عليها (غزة هاشم)، وما يزال هذا الاسم متداولاً حتى اليوم. وقد قال أحمد بن يحيى بن جابر: أن هاشما مات بغزة وله من العمر خمس وعشرون سنة، ورثاه مطرود بن كعب الخزاعي في قصيدة قال في مطلعها:

مـاتَ النَّدى بـالشَّام لَمَّـا أن ثَـوى فـيـهِ بـغـزَّة هـاشـمٍ لا يَبْـعُـدِ

وفي غزة أيضاً عاش الخليفة عمر بن الخطاب فترة من الزمن، ويقال أنه أثرى فيها عن طريق التجارة، كما أن والد رسولنا الأعظم زارها قبيل وفاته حيث كان يخرج للتجارة. ويقال أيضاً أن النبي محمد قد جاء إليها قبيل بعثته المباركة[1].

يقول المؤرخ عارف العارف: إننا يجب أن نعتبر أن غزة كانت على مر الدهور مدينة عربية لا شك في عروبتها، وأن الفتح الإسلامي لغزة لم يكن سوى تأييد للفتح العربي الذي سبقه، ولم يكن الجنود المسلمون الذين احتلوها سوى أولئك العرب الذين كانوا يترددون عليها من جميع أنحاء الجزيرة العربية قبل الفتح الإسلامي.

عندما اعتزم الخليفة «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه مقاتلة الروم وفتح الشام جهز أربعة جيوش، وعقد الألوية لأربعة من دهاة القادة فبعث يزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن، وعبيدة بن الجراح إلى حمص، وعمرو بن العاص إلى فلسطين. وكان من نصيب غزة أن الكتيبة الإسلامية التي افتتحتها خاضت معركة «الدميثة»، مع جيش هرقل وكانت بقيادة البطل المسلم «أبي أمامة الباهلي»،

(١) بلادنا فلسطين ـ مرجع سابق.

وذلك يوم الجمعة ٢٧ من ذي القعدة سنة ١٣ هـ الموافق ٤ شباط (فبراير) عام ٦٣٤م.

وبهذا الفتح كانت غزة أول بلد دخله العرب في فتوحهم إلى فلسطين.. وعاد إلى غزة العربية وجهها العربي الصبوح..

وإنه لمن أسباب فخر غزة بل وفلسطين برمتها أن يكون الإمام الشافعي - أحد الأئمة الأربعة المجتهدين في الإسلام - فلسطينياً من مواليد غزة. وهو أعظم فلسطيني ظهر بعد الإسلام، وقد كان نادرة في الفطنة والذكاء، ومعجزة في الحفظ والافتاء، وعظمة في السلوك والاخلاق، حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وتولى الإفتاء وهو ابن خمس عشرة سنة.

يقول عن نفسه (ولدت بغزة سنة خمسين ومائة، وحُملت إلى مكة وأنا ابن سنتين، وكانت أمي من الأزد، وغزة من بيت المقدس على ثلاث مراحل). ويروى أنه كان يحن دوماً إلى غزة مسقط رأسه فقال معبراً عن هذا الحنين الجارف:

واني لمشتاقٌ إلى أرض غزة
وإنْ خانني بعد التفرُّقِ كتماني
سقى الله أرضاً لو ظفرتُ بتربها
كَحَّلْتُ به من شِدَّة الشَّوقِ أجْفاني

وقد توفي الإمام الشافعي رحمه الله عام ٢٠٤ هـ وهو ابن أربع وخمسين سنة، ودفن في مصر، وفي غزة دفنت ابنته آسيا وخادمه الشيخ عطية.

وإضافة إلى الإمام الشافعي، فقد شرفت غزة بمولد كثير من العلماء والفقهاء والشعراء والصالحين على ترابها.

وحظيت غزة بثناء من زارها، ومن زوارها الادريسي عام ١١٥٤م وابن بطوطة في أواسط القرن الرابع عشر، والشيخ عبد الغني النابلسي الذي قال ضمن قصيدة له:

سَقَى اللّهُ غزةَ وابلَ السُّحْبِ إننا
وجْدنا بها ما لا بمصرَ وجِلّقِ
بُدوراً وغزلانا وماءً وخضرةً
وكثبان من رمْلٍ على بحر أزرقِ

وعندما هبطها العالم مصطفى أسعد الحسني عام ١١٤٣ قال:

سِرْ بي إلى غزة الفيحاءَ ان بها
رياض زهر تحاكي جنة الخلد
مَرَّ النسيمُ عليها والصَّبا سَحَرا
يروي حديثاً لنا عن ساكني نَجْدِ
فهاجني بلبلُ الافراحِ حين شذا
بلحْن مُعَبِّد فوق الأغْصنِ المُلْدِ

وذكرت غزة طائفة من الجغرافيين القدماء من أمثال الاصطخري، وابن حوقل، والمقدسي، وياقوت الحموي، وشيخ الربوة، والقلقشندي، وابن شاهين الظاهري، وصاحب الأنس الجليل وغيرهم..

غزة إبان الحروب الصليبية

وقعت غزة أسيرة في قبضة المحتلين الصليبيين في شهر رجب عام ١١٠٩م، وعندما أراد بلدوين الثالث الملك الصليبي لبيت المقدس غزو مدينة عسقلان التاريخية المهمة، أخذ يحصن غزة تحصيناً منيعاً، وكلف فرقة «فرسان الداوية» للقيام بهذه المهمة، وخلال إقامة هذه الفرقة في غزة شيد منتسبوها كنيسة ضخمة سموها «كنيسة يوحنا المعمدان» أي كنيسة النبي يحيى عليه السلام ـ والتي تحولت فيما بعد إلى المسجد العمري الكبير المعروف حالياً، لكن غربة غزة عن سربها العربي الإسلامي ما لبثت أن عادت بعد معركة حطين الشهيرة عام ١١٨٧م بقيادة البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي.

غير أنه وبعد أقل من ثمانين عاماً، وبعد أن اكتسحت جيوش التتار بقيادة هولاكو كثيراً من المناطق العربية احتلت جحافلهم مدينة غزة عام ١٢٦٠م، إلا أن القائد المظفر الظاهر بيبرس استطاع أن يحرز النصر عليهم في معركة غزة، وبرغم محدودية هذه المعركة على المستوى العسكري إلا أن صداها المعنوي لدى العرب كان رائعاً جداً حيث استردوا ثقتهم بأنفسهم، فكانت حافزاً لانتصارهم الأكبر على التتار في معركة (عين جالوت) القريبة من مدينة بيسان الفلسطينية في نفس العام.

وأثناء الحكم العثماني مر بغزة الرحالة التركي «أوليا جلبي» فأطرى أهلها بقوله: «والغزيون بوجه عام بيض الوجوه، ذوو شعور قاتمة، وهناك فئة منهم سمر اللون

كأنهم مدبوغون بالشمس، وهم ذوو عزم ونشاط وإحساس، كما أنهم أحرار كرام محبون للضيف، ولا سيما إذا كان غريباً، فاحترام الغرباء عادة قديمة عندهم، وهم يصلون في سبعين مسجداً، وفي أحد عشر منها تقام صلاة الجمعة».

وفي الرابع والعشرين من فبراير (شباط) عام ١٧٩٩م، استولى الفرنسيون على غزة «وقد اغتبط الجيش الفرنسي باحتلاله غزة اغتباطاً عظيماً لأنه اتصل بالأراضي الخصبة والمياه العذبة وانتهى من الصحراء القاحلة، ولذا سماها نابليون «مقدمة جيش افريقية وباب آسيا»

ومضى نابليون فترة إقامته في قصر آل رضوان ـ المبنى القديم لمدرسة الزهراء الثانوية ـ بينما أقام معسكره على تل المنطار. ولكنه بعد عدة أشهر اضطر للانسحاب من كافة المدن الشامية بسبب ما لقي خلالها من المتاعب والمقاومة والمعاناة من الأمراض مما جعله يسفك الدماء ويدمر العمران أثناء انسحابه مخذولاً كما يقول الأستاذ إبراهيم سكيك في كتابه «تاريخ غزة».

غزة.. والاحتلال البريطاني

وفي عهد محمد علي توجهت القوات المصرية بقيادة ابنه إبراهيم باشا على رأس جيش تعداده أربعون ألف رجل في اتجاه فلسطين وسوريا، فاحتل غزة في نهاية عام ١٨٣١ في غير معارك تذكر، وبعد عشرة أعوام تقريباً انسحب منها.

وفي خلال الحرب العالمية الأولى انهزم الإنجليز مرتين أمام الأتراك في غزة، وبعد أن أعادوا تنظيم قواتهم شنوا عليهم هجوماً ثالثاً استمر ستة أيام كاملة، وقد استطاعت القوات البريطانية أن تحتل غزة بتاريخ ٦ من اكتوبر عام ١٩١٧ بعد أن هزمت الأتراك هزيمة قاسية. هذا.. وقد أقام الإنجليز في غزة مقبرة واسعة دفنوا فيها رفات أمواتهم، ولما حضر اللورد اللنبي فاتح فلسطين لتدشين هذه المقبرة عام ١٩٢٣ قال: (لقد كانت غزة منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا بوابة الفاتحين).

ومنذ عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٤٨ كانت فلسطين برمتها تابعة للانتداب البريطاني، يديرها مندوب سام عينته بريطانيا، وكان يساعده مجلسان أحدهما استشاري والآخر تنفيذي، وجميع أعضاء هذين المجلسين بريطانيون يعينون مباشرة

من وزارة المستعمرات بلندن، وقد قسم المندوب السامي فلسطين إلى ستة ألوية إدارية هي: لواء القدس ـ لواء حيفا ـ لواء الجليل ـ لواء السامرة ـ لواء اللد ـ لواء غزة. وجميع حكام ونواب هذه الالوية بريطانيون!! وهكذا كبلت بريطانيا فلسطين لتحقق وعد بلفورها بإقامة دولة يهودية على أنقاضها، وكانت غزة عاصمة للواء الجنوبي الذي تحمل اسمه ويضم ٥٤ قرية من أهمها: المجدل، خان يونس، رفح، دير البلح، بني سهيلة، بربره، بيت داراس، بيت حانون، أسدود، حمامة، الفالوجة، المسمية، جباليا.

ولادة حكومة عموم فلسطين في غزة

وسط ظروف سياسية وعسكرية ومعنوية بالغة السوء نتجت عن انهيار الكيان الفلسطيني، واعلان قيام «دولة اسرائيل»، وتشريد مئات الآلاف من الفلسطينيين، دعت الهيئة العربية العليا إلى عقد مؤتمر وطني فلسطيني في غزة في الثلاثين من شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٤٨، من الوطنيين الفلسطينيين الذين تتوافر في أشخاصهم صفة تمثيلية كأعضاء الهيئة العربية العليا ورؤساء المجالس البلدية والمحلية والغرف التجارية ورؤساء العشائر. وقد بلغ عدد الأعضاء الذين حضروا المؤتمر ٨٧ عضواً من أصل مائة وخمسين وجهت لهم الدعوات وتغيب ٦٣ عضواً منهم ٧ أعضاء لم تصلهم بطاقات الدعوة.

وكان انعقاد المؤتمر لاحقاً لاجتماع اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في بداية شهر سبتمبر حيث قررت بالتشاور مع الهيئة العربية أن تصبح «الإدارة المدنية المؤقتة» التي عينتها اللجنة السياسية في الثامن من يوليو حكومة لفلسطين، وفي الثاني والعشرين من سبتمبر اجتمعت الإدارة المدنية المؤقتة في مدينة غزة واختير سماحة الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا رئيساً للمجلس، وقررت اللجنة اعتبار نفسها حكومة عموم فلسطين وعين أحمد حلمي باشا رئيساً للوزراء.

وتم تعيين الوزراء، علي حسنة للعدل، وجمال الحسيني للخارجية وعوني عبد الهادي للشؤون الاجتماعية، ويوسف صهيون للدعاية والنشر، ورجائي الحسيني للدفاع، وميشيل أبكاريوس للمالية، والدكتور حسين فخري الخالدي للصحة، وفوتي فريج للاقتصاد، وسليمان طوقان للمواصلات، وأمين عقل للزراعة، وقد أضيف اسم أكرم زعيتر فيما بعد وزيراً للمعارف.

وثيقة استقلال فلسطين

وقف سماحة الحاج أمين الحسيني وأعلن نص وثيقة استقلال فلسطين: بناء على الحق الطبيعي والتاريخي للشعب العربي الفلسطيني في الحرية والاستقلال، هذا الحق المقدس الذي بذل في سبيله زكي الدماء، وقدم من أجله أكرم الشهداء، وكافح دونه قوى الاستعمار والصهيونية التي تألبت عليه وحالت بينه وبين التمتع به، فإننا نحن أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في غزة هاشم نعلن هذا اليوم الواقع في الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣٦٧ هـ وفق أول تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٤٨م استقلال فلسطين كلها التي يحدها شمالاً سورية ولبنان، وشرقاً سورية وشرق الأردن وغرباً البحر الأبيض المتوسط، وجنوباً مصر استقلالاً تاماً، وإقامة دولة حرة ديمقراطية ذات سيادة يتمتع فيها المواطنون بحرياتهم وحقوقهم، وتسير هي وشقيقاتها الدول العربية متآخية في بناء المجد العربي وخدمة الحضارة الإنسانية، مستلهمين في ذلك روح الأمة وتاريخها المجيد، مصممين على صيانة استقلالنا والذود عنه والله تعالى على ما نقول شهيد[1].

وتجاهل هذا الاعلان واقع «اسرائيل» الجديدة التي تم إشهارها فور الانسحاب البريطاني والتي باتت تهيمن على الجزء الأكبر من فلسطين التاريخية. كذلك تجاوزت «حكومة عموم فلسطين» وجود قوات الجيش العربي الأردني في الضفة الغربية من نهر الأردن وفي القدس بعد أن تمكنت قوات الملك عبد الله من السيطرة على هذه المناطق في بداية الحرب.

واستنكر الملك عبد الله قرار إنشاء هذه الحكومة معتبراً أن «إقامة دولة واهنة لعموم فلسطين في غزة يعني قبول التقسيم وتنفيذه».

وقال في رسالة وجهها في ٣٠ سبتمبر من نفس العام إلى وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل بن سعود «الملك فيصل لاحقاً»: «إننا لم نرفض وجود دولة فلسطينية، ولكننا رفضنا قطع الطريق على أهالي فلسطين في أن يختاروا لأنفسهم ما يريدون من شكل وحكومة بعد« الفتح والانتصار الحاسم» مضيفاً «لو قبلت دولة فلسطينية في عموم فلسطين قبل الانتصار لسخر مني الناس[2]».

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ـ الأستاذ أكرم زعيتر ـ ١٩٨٨/١٠/٢.

(٢) جريدة «الخليج» ـ الشارقة ـ بتاريخ ١٩٨٨/٩/٢٣م.

واعترفت بالحكومة الجديدة ست دول عربية كانت مستقلة آنذاك وهي : العراق ومصر وسورية ولبنان والسعودية واليمن.

ولكن «حكومة عموم فلسطين» لم تحظ بأية شرعية دولية لأن االأمم المتحدة كانت قد اقترحت قبل ذلك بسنة تقريباً ١٩٤٧/١١/٢٩ وعبر القرار رقم ١٨١ بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، والذي رفضته المجموعة العربية، لكن هذه الحكومة المهيضة لم تعش طويلاً حيث تقوضت أركانها بفعل عوامل عدة من أهمها تدخل السلطات الملكية المصرية وإصدار رئيس وزراء مصر محمود فهمي النقراشي باشا تعليماته الصارمة باعتقال الحاج أمين الحسيني وبعض أعضاء الهيئة العربية العليا ونقلهم تحت الحراسة المشددة من غزة إلى القاهرة، وقام بهذه المهمة الضابط أحمد سري عامر مع بعض معاونيه. وبقيت هذه الحكومة قائمة في القاهرة، دون أن تستطيع القيام بأي من الأعمال المنوطة بها، لا سيما في الحقل السياسي، في حين تم فرض حصار على دار الهيئة العربية العليا في القاهرة، ووضع المفتي تحت رقابة شديدة حرمته من حرية العمل والتنقل، وخلال المدة التي بقيت فيها الحكومة قائمة لم تدخل في أية مباحثات أو مفاوضات لحل قضية فلسطين، وظلت متمسكة بالدستور وبقرار المجلس الوطني الذي أكد استقلالها، ولم تقدم هذه الحكومة أي مشروع لحل القضية، إذ كان الرأي مستقراً على وجوب تحرير فلسطين كلها واستعادتها بكاملها وكما كانت قبل ١٥ مايو ١٩٤٨، وشهدت الأيام التي تلت ذلك استقالة قسم من أعضائها وانقطاع الآخرين عن حضور اجتماعها، فباتت هيئة شكلية استمرت إلى مطلع الستينيات حيث تم تأمين نفقاتها المادية من قبل الجامعة العربية حيث انتهت عملياً فانقرضت حكومة عموم فلسطين وتلاشت تحت سمع وبصر العالم العربي والدولي(١).

وبعد أربعين عاماً وبالتحديد في يوم ١٥ نوفمبر ١٩٨٨ أصدر المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الطارئة التي عقدت في الجزائر اعلان قيام «دولة فلسطين المستقلة» وضرورة عقد المؤتمر الدولي على قاعدة قراري مجلس الأمن رقمي ٢٤٢ و٣٣٨ وتنفيذهما.

---

(١) جريدة القبس ـ الكويت بتاريخ ١٩٨٨/١١/٨م.

مولد قطاع غزة

نتيجة لانهيار الكيان الفلسطيني وتوقيع اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية في جزيرة رودس بتاريخ ٢٤ من فبراير عام ١٩٤٩ احتفظت مصر بالمنطقة الفلسطينية المجاورة لحدودها والتي بقيت في حوزة القوات المصرية التي دخلت حرب فلسطين في الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ والتي كانت تسمى حتى ذلك الحين «بالمنطقة الخاضعة لرقابة القوات المصرية بفلسطين».

وقد أصدر وزير الحربية والبحرية المصري يومئذ قراراً يخول الحاكم الإداري العام المصري للمنطقة الصلاحيات التي كانت للمندوب السامي البريطاني على فلسطين(١).

وفي عام ١٩٥٥ استبدل الاصطلاح السابق رسمياً باصطلاح «قطاع غزة».

وهذا القطاع بحدوده التي حددتها اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية هو شريط ساحلي محدود ويمتد على الساحل الجنوبي الشرقي لحوض البحر المتوسط ويعتبر من الناحية الطبيعية امتداداً للسهل الساحلي الفلسطيني الذي ينتهي شمالاً بجبل الكرمل في منطقة حيفا ويمتد طوله لنحو ٥٠ كم وبعرض يتراوح بين ٨/٥ كم، وتبلغ مساحته الإجمالية ٣٢٦ كم مربعاً ويشمل ثلاث مدن رئيسة هي غزة وخان يونس ورفح إضافة إلى بعض البلدات والقرى منها: دير البلح، جباليا، بني سهيلة.

وكنتيجة مباشرة للحرب، فقد اكتظ هذا القطاع المحدود بأعداد ضخمة من اللاجئين الذين نزحوا إليه من المناطق المجاورة التي سقطت في أيدي القوات الصهيونية مثل بئر السبع والمجدل ويافا والرملة والفالوجا وقرى يُبنا وبشيت وعاقر وحمامة وبيت دراس وبربرة.

وقد توزع هؤلاء اللاجئون على ثمانية مخيمات كبيرة من أهمها: جباليا، الشاطىء، البريج، النصيرات، دير البلح، المغازي، رفح، خان يونس. هذا إضافة إلى سكان القطاع الأصليين، والعدد بمجمله يشكل أكبر كثافة سكانية في العالم نسبة إلى رقعة الأرض المحدودة التي يقطنها أكثر من نصف مليون نسمة، ويعتبر القطاع من أفقر مناطق فلسطين اقتصادياً، لكنه في المقابل يتمتع بأكبر مستوى تعليمي في العالم وبأعلى معدل للنمو السكاني في المنطقة.

---

(١) قطاع غزة ـ حسين أبو النمل ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ـ ١٩٧٩م.

مقارعة الغزاة

في عام ١٩٥٥ شنت القوات الصهيونية عدة غارات مؤثرة على مدينتي غـزة وخان يونس، وعلى أثرها تشكلت أولى التنظيمات الفدائية الفلسطينية بقيادة البطل المصري مصطفى حافظ الذي اغتالته اسرائيل فيما بعد بواسطة طرد بريد ملغم.

وإبان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وقع قطاع غزة في قبضة الصهاينة، فكانت فرصة ذهبية اغتنموها للانتقام من أهله، فارتكبوا مجزرتين رهيبتين سجلهما تاريخ الجريمة العالمي هما مجزرة خان يونس ومجزرة رفح.

ونتيجة للتدخل العالمي تقرر سحب القوات المعتدية من سيناء وبور سعيـد وقطاع غزة، وظل يوم السابع من مارس عام ١٩٥٧ يوماً مشهوداً في تاريخ قطاع غزة حيث انسحبت منه قوات «جيش الدفاع الإسرائيلي» وعاد لقطاع غزة وجهه العربي الإسلامي المنير. وقد استشهد في ذلك اليوم المواطن محمد علي المشرف الذي أصابته رصاصة أطلقها عليه أحد أفراد قوات الطوارىء الدولية حينما اعتلى إحدى السواري ورفع علم فلسطين بدلاً من علم القوات الدولية.

وفي الرابع عشر من ذات الشهر عادت الإدارة العسكرية المصرية لتتولى إدارة شؤون القطاع من جديد، في عام ١٩٦٤ أعلن عن إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية وأخذت تعمل على تنظيم الشعب الفلسطيني وتجنيده في «جيش التحرير الفلسطيني» الذي كان نواته الكتائب الفلسطينية التي تطوع أفرادها في الجيوش المصرية والعراقية والسورية، وكانت غزة مركز الثقل في الكفاح الفلسطيني حيث كانت القوات المصرية تدعم المقاتلين الفلسطينيين الذين كانوا يحصلون على قسط وافـر من الحريـة في عملهم بالقطاع الذي ظل حتى عام ١٩٦٧ يحمل اسم «فلسطين».

في اليوم الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ شن الصهاينة حرباً شاملة على مصر وسوريا والأردن، واستطاعوا احتلال قطاع غزة من جديد، إضافة إلى صحراء سيناء حتى ضفاف قناة السويس. وكذلك الضفة الغربية ومرتفعات الجولان السورية.

وقد سطر أهالي قطاع غزة آيات بيّنات من البطولة والفداء أثناء تلك الحرب، كما أظهر جيش التحرير الفلسطيني وقوات المقاومة الشعبية بطولات فذة ورائعة خلال وبعد العدوان، ويكفي دليلاً على هذا القول أن القوات الصهيونية لـم تكن لتسمح للمدنيين اليهود بـدخول القـطاع إسوة بـالمناطق المحتلة الأخـرى، وكانت تـواجه

القادمين إلى مدينة خان يونس يافطة حديدية ضخمة عليها هذه العبارة: احذروا. . . هذه مدينة القتلة. . مدينة السفلة!!

وأجمع الصحفيون الأجانب الذين زاروا الوطن المحتل خلال تلك الفترة بأن (الفدائيين يحكمون قطاع غزة ليلاً واسرائيل تحكمه نهاراً).

ولقد شهد القطاع الباسل عمليات فدائية مشرفة ومكثفة في الفترة من عام ١٩٦٨ وحتى عام ١٩٧٣، ولكن حدة هذه العمليات قد خفتت بعد حملات القمع الصهيونية الشرسة، ولكنها سرعان ما عادت إلى التأجج بصورة أكثر عنفواناً بعد تفجر الانتفاضة الباسلة يوم ٩ من ديسمبر عام ١٩٨٧م وبالقطع سوف تعجز هذه الصفحات المعدودة على استيعاب كل أشكال البطولة والرجولة التي سجلها ـ وما برح يسجلها ـ أبناء فلسطين ضد المحتلين الصهاينة الذين مارسوا وما فتئوا يمارسون ضد أهلنا أبشع صنوف الإرهاب والتنكيل والتضييق عليهم في كل السبل الحياتية بما فيها مصادرة أراضيهم، وبناء المستعمرات الصهيونية عليها.

بلدية غزة

أوجد الأتراك في عام ١٨٩٣م مجلساً بلدياً يقوم على خدمة المدينة ويعتبر المرحوم مصطفى العلمي أول رئيس لهذا المجلس، ثم أعقبه على التوالي أحمد العلمي وعلي الشوا وعبد الله العلمي وخليل بسيسو والحاج سعيد الشوا.

وخلال الإنتداب البريطاني كان من أبرز الرؤساء فهمي الحسيني الذي أخذت غزة في عهده «طابع المدينة» ثم تلاه رشيد سعيد الشوا. وقد برز فيما بعد من الرؤساء عمر الصوراني، عبد الرزاق قليبو، الشيخ عمر صوان، منير الريس، الحاج راغب العلمي، الحاج رشاد الشوا.

مساجد غزة

اشتهرت غزة منذ القدم بمساجدها الكثيرة والتي من أشهرها حالياً:

الجامع العمري ويعتبر من الجوامع الكبرى في فلسطين، وكان في الأصل كنيسة للروم الكاثوليك وهو ضخم البناء، جميل الشكل ويقوم على سلسلة من العقود الحجرية الضخمة.

وفي خلال الحرب العالمية الأولى تعرض لنيران المدفعية الإنجليزية فتهدم

القسم الأعظم منه، ولكن تم ترميمه بعد ذلك. كما توجد عدة جوامع مثل جامع السيد هاشم وقد بني عام ١٨٥١ بمساعدة مفتي الأحناف بغزة، ويقع بمحلة الدرج.

جامع كاتب الولاية ويقع في حي الزيتون مجاوراً لكنيسة الروم الأرثوذكس (٩٨٠ هـ). جامع ابن عثمان، جامع الشيخ زكريا القديري في محلة الدرج (٤٤٩ هـ). جامع المحكمة البرديكية في الشجاعية (٨٥٩ هـ). جامع الشيخ علي بن مروان (٧٠٠هـ). جامع الأيبكي بحي التفاح (٦٨٠ هـ). وهناك أيضاً مسجد الغزالي، ومسجد الشيخ خالد، ومسجد الشيخ فرج، وجامع السيدة رقية..

كما توجد بغزة وضواحيها مزارات عديدة منها، مزار الأوزاعي، مزار الشيخ عجلين ومزار الشيخ رضوان، مزار أبو العزم. مزار البطاحي، مزار الشيخ علي المنطار وهو من رجال البطل صلاح الدين الأيوبي، ويعتقد الناس بحسن أخلاقه وبركته. وقد أطلق اسمه على التل الواقع شرق المدينة، وله قيمة دفاعية متميزة حيث يرتفع مسافة ٨٣م عن سطح البحر.

هذا ويوجد للمسيحيين في غزة ثلاث كنائس، وهي كنيسة الأرثوذكس، (١٥٢٠)، كنيسة اللاتين (١٨٧٩)، كنيسة البروتستانت (١٨٩٣). ومن أشهر الأماكن الأثرية بغزة. سوق القرية، والعواميد، سوق السروجية، الحمامات، تل العجول، السباطات. ومن أحياء غزة المعروفة: الشجاعية، المنطار، الزيتون، الدرج، المحطة، السيد هاشم، الفواخير، الصبرة، الرمال، النصر، الشيخ رضوان، معسكر الشاطىء، السرايا، البساتين.

شؤون إجتماعية غزية

يحتفل أبناء غزة كمثل أبناء فلسطين بعيد الأضحى والفطر المباركين، كما يحتفلون بمولد رسولنا الأعظم ﷺ في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول حيث يجتمع العامة حول ضريح جده هاشم بن عبد مناف.

ويحتفلون أيضاً بذكرى رأس السنة الهجرية، وبيوم عاشوراء وبليلة الإسراء والمعراج، والنصف من شعبان.

وقد أورد الأستاذ سكيك أسماء مواسم خاصة بغزة وأهلها من أهمها: موسم الداروم ويطابق اليوم الثاني لعيد الفصح أو عيد القيامة كما يسميه النصارى ويقع بين

٤ نيسان و٨ أيار. ويشترك المسلمون والمسيحيون في هذا العيد ويصبغون فيه البيض المسلوق والحلويات من كعك ومعمول وغريبة. وكذلك موسم أربعة أيوب ويهتم أبناء غزة والقرى المجاورة بالذهاب إلى البحر مساء يوم الثلاثاء للاستحمام إعتقاداً منهم بأن النبي أيوب في مثل ذلك اليوم اغتسل في البحر وشفي من مرضه. وكذلك موسم السيد هاشم، وموسم المنطار.

وبالمناسبة فإنه تنسب إلى غزة أكلة مشهورة تدعى «السماقية» إضافة إلى أكلات أخرى معروفة مثل: الفقّاعية، الرمّانية، الحرق أصبع، القدرة، المقلوبة، الحماصيص. .

والغزيون مشهورون بأكل الفلفل الحار جداً، ويأخذ عليهم البعض حلفهم بالطلاق مرات عديدة أثناء أحاديثهم الحادة. . ولجوئهم إلى الشخر عند الغضب (صوت من الحلق أو الأنف).

واشتهرت غزة منذ فترة بعيدة بجودة فخارها الأسمر المشهور، وهو من الصناعات اليدوية المتوارثة، وتعتبر عائلة «بلبل» هي الأشهر في هذه المهنة، ويوجد حي باسمها يدعى «الفواخير».

وكان الفخار الغزي يصدر إلى كافة المدن والقرى الفلسطينية والسورية والمصرية.

ومما ساعد على جودته وشهرته توافر الطين المحتوي على نسبة قليلة من الحديد مما يجعل الفخار متيناً.

وأهم الأواني الفخارية المعروفة في المنازل الفلسطينية: الإبريق، الكراز، البلبل، العسلية، الجرة، القدرة، المحلبة، الزير، اللقان، السكرجة، الكشكولة، الفكيك، الزبدية، ولعل الأخيرة هي الأشهر والأحب ويحرص كثيرون من أبناء غزة في بلاد الإغتراب على توافرها في منازلهم لتجهيز أكلة «الدقة» المشهورة.

غزة. . وروعة الطبيعة

لقد أبدعت يد الخالق عز وجل صياغة اللوحة الطبيعية الخلابة في غزة وما حولها. . ساحل البحر المتوسط يعانقها في حنو ودلال من الغرب فيمنحها البرودة المحتملة شتاء، ويجود عليها بالنسيم العذب صيفاً وخريفاً وربيعاً. .

البساتين المنبسطة الممتدة شرقاً وشمالاً وجنوباً تلتف حولها وبداخلها أشكال شتى من غروس الحمضيات واللوزيات والأعناب والتين والجميز والنخيل والموز والتوت والزيتون. .

كما تزرع في أراضيها أنواع عديدة من الحبوب والقطاني والخضراوات. . وهذا الجمال ليس جديداً على غزة. . فكثير من الرحالة والمؤرخين أشادوا به، وقد ورد في دليل المشرق (١٨٤٤) أن «الإقتراب من غزة متعة للنظر، فالطريق يمر بسلسلة من الحدائق الموشاة بأشجار الجميز التي تعطي ظلًّا محبباً في الصيف ولا توجد في غزة بقايا من الآثار القديمة!!!، شوارعها ضيقة، وأغلب بيوتها وسط حدائق غناء، ولا تغطي نوافذها بالزجاج، والمؤن وافرة زهيدة الثمن».

ويبدو أن جميز غزة كان مشهوراً خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين. فقد ورد في كتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» لابن البيطار (بولاق ١٢٩١ هـ) أنه يوجد في غزة نوعان من الجميز، نوع صغير جداً في مقدار البندق، رقيق القشر، شديد الحلاوة، كثير الماء يسمونه «البلمي» ومنه يتخذ لعوق الجميز، ونوع يبلغ حجمه ضعف حجم البلمي، وهو أشد حمرة وتورداً وأشد حلاوة، وأقل ماء (البوطي)، وهذا الثاني هو الغالب على جميع منطقة غزة.

الجامعة الإسلامية بغزة

نتيجة لعدم قبول معظم خريجي الثانوية العامة سنة ١٩٧٧م بالجامعات المصرية، قامت اسرائيل بفتح أبواب العمل أمامهم في مصانعها ومزارعها بأجور سخية، فاندفعت أغلبية الشباب للعمل في إسرائيل، تحت ضغط الحاجة إلى الكسب واليأس من استكمال دراستهم الجامعية، وأدرك نفر من أبناء القطاع المخلصين خطورة الموقف، وأن مستقبل أبناء القطاع سيؤول إلى التيه والضياع في مخططات الصهيونية والاستحواذية العاتية، لذلك فكروا في إنشاء جامعة في القطاع لتحول دون ضياع أبنائهم، وتقضي على المخطط الصهيوني الذي يقضي باستيعابهم وهضمهم، وخرج ستة نفر من القطاع إلى عمان ثم إلى المملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج العربي للدعوة لفكرة الجامعة، وتعاضد معهم أحد عشر من أبناء القطاع والمهتمين، به من الفلسطينيين، وعرضت الفكرة على ذوي الاختصاص فباركوها وتحمسوا لها، وانضم إلى المجموعتين السابقتين عدد من المهتمين فتكونت من هؤلاء جميعاً هيئة المؤسسين للجامعة «٢٤ عضواً» والتي أصبحت فيما بعد «هيئة

المشرفين على الجامعة» وتكوَّن من مجموعة القطاع أول مجلس لأمناء الجامعة، وجمعت التبرعات الكافية لبدء المشروع، وفي مطلع العام الجامعي ١٩٧٩/٧٨م كانت أول كليتين في الجامعة تفتحان أبوابهما لاستقبال أبناء القطاع وهما كليتا الشريعة وأصول الدين[١].

وللجامعة الإسلامية فلسفة متميزة، لها بُعد حضاري يرسخ الإنتماء ويعزز روح الأمة وقدرتها على مواجهة التحديات، وآخر يرسخ الإنتماء للوطن ويربط الطالب بقضية صراعه المباشر مع العدو الصهيوني.

وجاءت برامج الدراسة فيها تختلف إلى حد كبير عن برامج التدريس في الجامعات الأخرى. ويجب أن تختلف خصوصاً إذا كانت الجامعة كالجامعة الإسلامية تواجه تحدياً حضارياً معيناً على أرض الصراع، فإن هذا يجعل التأكيد على القيم والمبادىء الأصيلة للأمة الزم وأكد في العملية التعليمية، بالإضافة إلى اهتمام الجامعة بمستواها الأكاديمي وبرامجها التعليمية، فإنها تولي عناية خاصة لقضية وطننا الفلسطيني الحبيب، حيث تدرس مقررات موجهة لتعميق انتماء الطلاب لوطنهم وربطهم بقضيتهم المصيرية ودراسة الظاهرة الصهيونية والاستلاب دراسة منهجية أكاديمية، والتعرف الواعي على الجوانب السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية للصراع مع العدو الصهيوني.. ودراسة المؤسسات الوطنية ودورها في مواجهة الغزوة الصهيونية.

مسيرة الجامعة

في مطلع العام الجامعي ١٩٧٩/٧٨م افتتحت كليتا الشريعة وأُصول الدين لتكونا امتداداً لمعهد فلسطين الدِّيني التابع للأزهر، وتغاضت السلطات الإسرائيلية عنهما على اعتبار أنهما امتداد لمؤسسة كانت قائمة قبل الاحتلال، ونظمت الكليتان وفقاً لفلسفة الجامعة بأجنحة مستقلة للبنين وأخرى للبنات بدون اختلاط، واستجابت الطالبات للروح الإسلامية فالتزمن بالزي الإسلامي المحتشم الوقور.

ولكن الجامعة لم تكتف بالكليتين، ففي خلال سبع سنوات مضت من عمر الجامعة أصبح بها ست كليات هي: الشريعة، أُصول الدين، الآداب، التربية، الاقتصاد والعلوم الإدارية، العلوم. وانضمت الجامعة إلى اتحاد الجامعات العربية

---

(١) الجامعة الإسلامية بغزة رسالة ومسيرة ـ كتيب صادر عن مكتب ارتباط الجامعة الإسلامية ـ عمان ١٩٨٩م.

سنة ١٩٨٠م كعضو كامل العضوية، وإلى رابطة الجامعات الإسلامية سنة ١٩٨٤، بالإضافة إلى كونها عضواً بمجلس التعليم العالي الفلسطيني في الداخل. إلا أن السلطات الإسرائيلية ترفض الاعتراف بها حتى وقتنا الحاضر.

وعمل بالجامعة في العام الجامعي ١٩٨٩/٨٨م ٥٣ أستاذاً وأستاذاً مساعداً ومدرساً من حملة الدكتوراه، و٤٧ مدرساً من حملة الماجستير، و٣٧ معيداً بالبكالوريوس، بالإضافة إلى ٩٨ موظفاً و٥٤ عاملاً، وقد بلغ عدد المبتعثين من الجامعة لدراسة الدكتوراه والماجستير ٥٩ مبتعثاً.

تفتقر الجامعة إلى البُنى الأساسية إذ لا زالت مباني الجامعة قاصرة عن استيعاب الطلاب، مما اضطرها إلى إقامة مجمع كبير من الخيام تلقى فيه المحاضرات، وبذلك تكون أول جامعة خيام في تاريخ العالم، كما اكتملت قاعات الهيئة التدريسية والإدارة والمختبرات ومكتبة الجامعة ومسجدها ولكنها متوقفة عن التطور بسبب محدودية الدعم المالي للجامعة، وعدم قدرة الأغلبية العظمى من الطلاب على سداد الأقساط الجامعية، إضافة إلى تعنت سلطات الاحتلال ومضايقاتها المستمرة للجامعة وممارساتها التعسفية والتي كان من ضمنها طرد عدد من خيرة أعضاء هيئة التدريس وعدم السماح لهم بالعودة لتأدية واجبهم الاكاديمي والوطني.

الجامعة في ظل الانتفاضة المباركة

لقد صبت سلطات الاحتلال جام غضبها على الجامعة الإسلامية بشكل خاص، ملقية تبعية الانتفاضة وانطلاقة شرارتها الأولى على الجامعة، وتناست جرائمها البشعة ضد أبناء الشعب الفلسطيني من مصادرة الحريات العامة، ومحاولات طمس الهوية الحضارية والثقافية والعلمية، والحصار الاقتصادي والارهاق الضريبي، ومحاولات تدمير بنية الاقتصاد الفلسطيني وفتح الأسواق الفلسطينية لمنتجاته الزراعية وهدر الطاقات العمالية بأجور بخسة، إضافة إلى عمليات الاعتقال والمداهمة ومصادرة الأراضي وهدم المنازل وإبعاد المواطنين. وغير ذلك من الممارسات الإجرامية والتي كانت السبب الأساس والغضب المخزون الذي فجر ثورة الشعب.

ولم ترعو سلطات الاحتلال الغاشم عن غيها، فكم من مرة اقتحمت دباباتها ومجنزراتها ساحة الجامعة، وأطلقت الرصاص على الطلاب والطالبات، وقد بلغ عدد الشهداء حتى سبتمبر ١٩٨٩ إثنا عشر شهيداً، وبلغ عدد المعتقلين من أعضاء هيئة

التدريس والإداريين ٧٠ عضواً، أما عدد الطلبة المعتقلين فلقد زجت سلطات الاحتلال بالجميع تقريباً على فترات في السجون والمعتقلات[١].

ولقد كان الأمر العسكري بإغلاق الجامعة، محاولة يائسة لخلع الجامعة من نفوس أبنائنا وأهلنا في القطاع، ولكن الجامعة لم تستسلم لهذه القرارات فبادرت إلى برامج التعليم الشعبي في المساجد والدواوين والبيوت والتي كان من ثمرتها تخريج الفوج الأول في بداية الانتفاضة والمكون من ١٥٠ طالباً وطالبة. وما برحت الجامعة تشق طريقها بعزيمة ومضاء.

المؤسسون في الداخل

يعتبر المؤسسون هم الهيئة العليا التي تعتمد الخطوط العريضة لتطوير الجامعة وإرساء أنظمتها، وتوفير الموارد المالية والبشرية لها، وإيجاد صناديق الوقف الإسلامي لصالح الطلبة، والإنفاق على الابتعاث العلمي وتمويل بناء الجامعة واستكمال مرافقها. والمؤسسون في الداخل هم السادة: فضيلة الشيخ محمد حسن عواد، السيد أحمد حسن الشوا، السيد راغب عبد الرحمن مرتجى، السيد سليمان زارع الأسطل، السيد توفيق اليازجي، السيد سليمان الشنطي.

المؤسسون في الخارج

الأستاذ الدكتور إسحاق أحمد الفرحان (عمان)، الأستاذ الدكتور قنديل شاكر شبير (عمان)، الدكتور خيري حافظ الآغا (جدة)، السيد عبد الرحمن الحوراني (جدة)، الأستاذ الدكتور محمد أحمد صقر (عمان)، السيد سعد الدين الزميلي (عمان)، الدكتور أمين سليم الآغا (الكويت) «سابقاً»، الدكتور أحمد رجب عبد المجيد (قطر)، السيد عبد الكريم الشوا (الكويت) «سابقاً»، الدكتور رياض الزعنون (قطر) «سابقاً».

عائلات غزية عريقة

توجد في غزة عائلات عريقة معروفة، وتعميماً للفائدة سنورد أسماء بعض منها:

النخالة، مكي، آل رضوان، الحسيني، الريس، الشوا، الغصين، العلمي،

(١) المرجع السابق.

الطباع، دلول، حلس، مرتجى، مشتهى، الوحيدي، السقا، برزق، أبو خضرا، الصوراني، فلفل، خيال، أبو رمضان، أبو شعبان، بسيسو، حسنين، السراج، عياد، شحيبر، فرح، الصايغ، سيسالم، الضاني، سكيك، أبو شهلا، عاشور، أبو عاصي، السوسي، العيلة، البلتاجي، الشرفا، ساق الله، حرز الله، أبو سمرة، حمادة، أبو العوف. المغني، الخازندار، اللولو، المزين، شعشاعة، أبو حصيرة، بكر، صوان، كحيل، الطرزي، سابا، القدوة، كساب، عبد الشافي، عكيلة، البربري، الديب، الدهشان، زمو، البورنو، النونو، غربية، الغلاييني، اللوح، البطنيجي، محيسن، التلاتيني، أبو رحمة، أبو حصيرة، النباهين، المشهراوي، شعث، الهليس، النديم، أبو كميل، القيشاوي، عرفات، حتحت، مراد، العشي، العكلوك، الوزير، أبو راس، الحتو، الميقاتي، غزال، أبو سعدة، الحلو، الزميلي، الزعنون، الزهارنة، الزرد، البنا، سويدان، شراب، عاشور، الشوباصي، المخللاتي، المبيض، الودية، الجَمَلة، العجلة، شيخة، صلوحة، خلف، البرعصي وغيرها.

شخصيات مرموقة من غزة

تنسب إلى غزة أعداد كبيرة من الشخصيات المرموقة، وحسبنا أن نورد أسماء من قضت نحبها خلال القرن الحالي:

شيخ العلماء أحمد أبو المعالي بسيسو (١٨٢٥ - ١٩١١)، المفتي الشهيد أحمد عارف الحسيني (١٨٧٣ - ١٩١٦)، القاضي الشيخ سعيد مراد (١٨٧٥ - ١٩٢٨)، الدكتور محمد حتحت (١٨٨١ - ١٩٣٤)، الشيخ عبد الله حسن العلمي - رئيس بلدية سابق (١٨٦٢ - ١٩٣٦)، العين خليل يوسف بسيسو - رئيس بلدية سابق (١٨٦٠ - ١٩٣٩)، العين الحاج سعيد الشوا - رئيس بلدية سابق (١٨٦٨ - ١٩٣٠)، الوجيه فهمي الحسيني - رئيس بلدية سابق (١٨٨٦ - ١٩٤٠)، الحاج عادل سعيد الشوا - رئيس بلدية سابق (١٨٩٥ -   )، القاضي الشيخ محيي الدين عبد الشافي (١٨٧٥ - ١٩٥٥)، القاضي الشيخ عمر صوان - رئيس بلدية سابق (١٨٧٨ - ١٩٥٨)، المربي والمحامي سعيد علي زين الدين - رئيس نقابة المحامين في يافا (١٨٩٤ - ١٩٥٩)، القاضي الشيخ عبد الله القيشاوي - رئيس الغرفة التجارية (١٨٧٨ - ١٩٦٢)، المربي الأديب شكري شعشاعة (١٨٩٠ - ١٩٦٣)، الشيخ حسن أبو شهلا (١٨٨٥ - ١٩٦٣)، المجاهد مدحت الوحيدي، القاضي الشرعي الشيخ محمد خلوصي بسيسو الكيالي - (١٩١٠ - ١٩٦٥)، الأديب والاقتصادي علي رشيد شعث

(١٩٠٨ ـ ١٩٦٧)، المحامي الشهيد كمال البربري (١٩١٥ ـ ١٩٦٧)، الشهيد مازن أبو غزالة (ـ ١٩٦٩) المناضل والزعيم الوطني منير محمد الريس ـ رئيس بلدية سابق (١٩١٥ ـ ١٩٧٤)، المحسن الحاج حمزة عثمان مشتهى (١٩١١ ـ ١٩٧٤)، الوجيه الحاج موسى الصوراني (١٨٩٠ ـ ١٩٧٢)، المربي بشير طالب الريس ـ مدير الشؤون الثقافية بقطاع غزة (١٩٠٥ ـ ١٩٧٦)، المربي حلمي أبو شعبان (١٩١٣ ـ ١٩٧٨)، رجل الزراعة والسياسة عز الدين الشوا ـ قائمقام طول كرم فجنين (١٩٠٩ ـ ١٩٧٩)، المربي وديع رزق ترزي ـ أسس مع أخيه شفيق كلية غزة العريقة (١٩١٠ ـ ١٩٧٩)، الشهيد القائد زياد محمد الحسيني (١٩٤٢ ـ ١٩٧٢)، الشيخ الشهيد هاشم الخازندار (١٩١٠ ـ ١٩٨٠)، الشهيد، ماهر جميل البورنو (١٩٥٠ ـ ١٩٨٠)، القانوني فاروق فهمي الحسيني ـ رئيس المحكمة المركزية (١٩٢٩ ـ ١٩٨١)، القاضي هشام فهمي الحسيني ـ قاضي المحكمة العليا (١٩٣٣ ـ ١٩٨٦)، الشهيد العقيد منذر أبو غزالة ـ قائد البحرية الفلسطينية (١٩٤٤ ـ ١٩٨٦) المصلح المحسن الحاج مصباح الزميلي (١٩١٠ ـ ١٩٨٦)، الشاعر العلم معين بسيسو (١٩٣٠ ـ ١٩٨٥)، محمد عبد الحكيم أبو شعبان ـ وكيل ديوان المحاسبة بدولة قطر (١٩٢٧ ـ ١٩٨٥)، الأديب عابدين بسيسو (١٩٢٩ ـ ١٩٨٢)، المهندس الكيميائي الشهيد عوني سعيد الريس (١٩٢٩ ـ ١٩٨٨)، العين الحاج صادق المزيني (١٩٠٥ ـ ١٩٨٨)، الزعيم السياسي الحاج رشاد الشوا ـ عمدة غزة ورئيس بلديتها (١٩٠٩ ـ ١٩٨٨) الشهيد كامل محمد مهنا (١٩٤٨ ـ)، الصحفي حسن الوحيدي (١٩٤٦ ـ ١٩٨٨) القائد الشهيد خليل الوزير (أبو جهاد) نائب القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية، (الرملة ١٩٣٥ ـ ١٩٨٨). المربي عبد الكريم حسين أبو دف (١٩١٦ ـ ١٩٨٨)، الشهيد القائد العقيد جمعة الجملة (١٩٣٨ ـ ١٩٨٨)، العين كمال الدين السراج ـ مدير مكتب حركة «فتح» ببنغازي (١٩٢٣ ـ ١٩٩٠)، الشيخ محمد ناجي أبو شعبان (١٩٢٠ ـ ١٩٩٠)، السياسي المخضرم حمدي فيصل الحسيني (١٨٩٠ ـ ١٩٨٨)، الشهيد القائد الأشهر صلاح خلف (أبو اياد) الرجل الثاني في منظمة التحرير الفلسطينية (١٩٣٤ ـ ١٩٩١)، المربي رامز محمد فاخرة (ـ ١٩٩٢)، الحاج راغب ابراهيم العلمي ـ رئيس بلدية سابق (ـ ١٩٩٢)، القائد الشهيد عاطف بسيسو (ـ ١٩٩٢).

وهناك شخصيات غزية بارزة، لكننا نجهل تاريخ وفاتها. ومنها: الشيخ المؤرخ عثمان الطباع، الشيخ محمد نجيب النخالة، الشيخ خليل عاشور، الشيخ محمد

كمال الدين البكري، الشيخ خليل الحلو، الشيخ علي البدري، الشيخ محمد صالح سكيك، الشيخ صالح السقا، الشيخ يوسف كساب، الشيخ اسماعيل جنينه، رشدي عبد الله السقا، الشهيد محمد محمود زمو، الحاج منيب أبو غزالة، جعفر فلفل، الحاج محمد يونس دلول، سليم يوسف شراب، الشيخ محيي الدين الملاح، يعقوب الطويل، رجب أبو رمضان، الدكتور صالح أو كميل، الشيخ محمود سكيك، سعدي الشوا، عز الدين الشوا، محمود الأسود، كامل العمصي، عبد المالك الحايك، عبد القادر أبو الفحم، الشيخ عبد المجيد البورنو، الشيخ سليم شعشاعة، الشيخ محمد أحمد ساق الله، الشيخ عبد الله السراج، الشيخ عبد اللطيف الخازندار، الشيخ محمد فاخرة.

شعراء غزيون

هذا.. وينسب إلى مدينة غزة عدد من الشعراء منهم:

هارون هاشم رشيد، معين بسيسو، ناهض منير الريس، رامز فاخرة، يحيى برزق، حسن شكري فلفل، سعيد جعفر فلفل، عبد الكريم السبعاوي، محمد حسيب القاضي، وليد الهليس، الدكتور عبد الرحمن بارود، مي الصايغ، ياسر سعيد الشوا، كمال الوحيدي، عبد الرحمن غنيم، أكرم أحمد عرفات، حنا دهده فرح، غازي بدوان، الشيخ محمود سرداح، حسن خليل حسين، خالد عبد العزيز داود.

* * *

في نهاية هذه الرحلة وجدتني أسترجع قصيدة «غزة» لابنها الشاعر المجيد ناهض منير الريس والتي يقول فيها:

بَــرَزَتْ لهم والـنـارُ سيـلٌ جـائـحٌ ... ونسـاؤُهـا خلفَ الـرجـالِ تكـافحُ

وكـذا عـلى أبـوابِ غـزةَ يـنـحـني ... هـامُ الـطغـاةِ ولا يـمـرُّ الـفـاتـحُ

أرضُ الـيـمـامِ تـفـوحُ بـيـاراتُـهـا ... فـيُـجَـنُّ سـاكـنُـهـا بـهـا والـنـازحُ

مـا رامَـهـا الأعـداءُ إلا ردَّدت: ... لـحمي أنـا مـرٌ وبـحـري مـالـحُ

* * *

نـارٌ على المنـطارِ حـاشـا تَخْمُـد ... من ألفِ ألفٍ حـجـرُهـا يـتـوقَّـدُ

مـا جـرّبَ الغـازي صـواعقَ حـربِهـا ... إلا تـمـنّـى لـو يـغـورُ ويـشـرُدُ

مهـلاً فمـا صهيـونُ أولُ معتـدٍ كـلُّ الـغـزاةِ تـهـدَّدوا وتـوعَّـدوا
هم مـوجـةٌ في بحـرِ غـزةَ ينقضي لـكـنَّ أهـلَ الأرض لـن يـتـهـوَّدوا

مجدل عسقلان

تعتبر مدينة عسقلان من أقدم مدن فلسطين، وقد عاصرت فترات المد والجزر التي تعاقبت على المنطقة، وما زالت توجد بها حتى اليوم آثار كثيرة يعود بعضها إلى العصر الحجري الحديث، والعصر البرونزي الحديدي، والعصر الروماني والهيليني، والعهد الصليبي، وتغطي خرائبها حالياً منطقة واسعة تزيد مساحتها عن خمسين دونماً على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

وتعرضت المدينة لعدة تغييرات وتسميات، فقد عرفت منذ نشأتها الموغلة في القدم باسم «أشقلون» (Asckalon) ثم تحول في العصر الهيليني الأول (٢٣٢ - ٦٤ ق.م) إلى «أسقلون» (Ascalon)، وفي مرحلة الفتح الإسلامي اكتسبت المدينة اسم «عسقـلان»، وبقي الأمر كـذلك حتى سقـوطها في قبضـة المحتلين الصهاينـة في الخامس من نوفمبر عام ١٩٤٨، وبعدئذ ضموا إليها منطقتين مجاورتين لها هما مدينة «المجدل» وقرية «الجورة»، وفي عام ١٩٥٥ أطلق العدو اسم «أشكلون» على منطقة «المجدل والجورة وخرائب عسقلان». وتقع المدينة على ساحل البحر. وتبعد مسافة ٢٠ كلم شمال غزة، ومسافة ٥٦ كلم جنوب تل أبيب.

وأهل المجدل (حسب التسمية العربية) معروفون بنشاطهم ومهارتهم الصناعية، وبخاصة صناعة المنسوجات «المجدلاوية» المشهورة، وكانت المجدل تحتل المرتبة الأولى في صناعة النسيج بفلسطين قبل اغتصابها.

وقد لعب قضاء المجدل دوراً مهماً في مقارعة اليهود وخاصة في عامي ١٩٤٧، ١٩٤٨ وأثناء حدة هذه المقارعة تشكلت «لجنة المجدل القومية» لإدارة القضاء برئاسة المجاهد السيد أبو شرخ رئيس البلدية، وعضوية عدد من وجهاء المدينة، وشمـل نشاط اللجنة توفير السلاح للمجاهدين وتأمين الدفاع عن المجدل وقراهـا. وجمع ضريبة دفاع عن المواطنين بمعدل عشرة قروش شهرياً عن كل فرد! وعندما تم تقسيم فلسطين إلى خمس جبهات عسكرية من قبل اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول

العربية تولى المجاهد محمد طارق الأفريقي قيادة جبهة المجدل إنابة عن المجاهد الشيخ حسن سلامة باعتباره القائد العام المسؤول عن الجبهة الغربية الوسطى.

هذا وقد ضمت جبهة المجدل قرى: الجورة، الجية، عراق سويدان، كراتيا، الفالوجا، حمامة، اسدود، جولس، بيت دراس، السوافير، القسطينة، يبنا، عاقر.

وجاهد أبناء هذا القضاء جهاداً حميداً، لكن أثر هذا الجهاد تاه في زحمة النكبة، ومن مفاخر أبنائه أنهم ظلوا صامدين في وجه الهجمات الصهيونية الشرسة حتى وصول القوات المصرية إليها في الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ بقيادة العميد أحمد علي المواوي، وبرغم صمود الجنود المصريين إلا أن العدو الصهيوني استطاع يوم ١٩٤٨/١٠/٢٢ إغراق السفينة الحربية المصرية «فاروق» قبالة المجدل، وهي سفينة القيادة المصرية وذلك بعد إعلان وقف اطلاق النار في نفس اليوم(*).

وتم انسحاب القوات المصرية من المجدل والقرى المجاورة يوم ٥ ـ ١١ ـ ٤٨، وأمام القصف الجوي اليهودي الشرس في المنطقة بدأت أفواج متتالية من أهل المنطقة ينزحون إلى قطاع غزة. ولا يوجد في المجدل اليوم عربي واحد، وقد تم بعدئذ تدمير قرى المجدل عن بكرة أبيها، وأبقى العدو على مباني المجدل وأسكن فيها أعداداً كثيفة من المهاجرين اليهود.

مجدل عسقلان في الوقت الحاضر

تعتبر عسقلان في الوقت الحاضر واحدة من أهم المدن في الجنوب الفلسطيني المحتل سواء من الناحية الصناعية أو السياحية، ففيها توجد مصانع للإسمنت وآلات صناعة النسيج، والبلاستيك، والألكترونيات، والأدوات الطبية، والسيارات، ومكيفات الهواء، والأثاث، والعطور، كما يوجد فيها مركز لقياس الاشعاعات النووية، ومحطة تجارب زراعية، ومدرستان عاليتان للتكنيك والزراعة.

أما من الناحية السياحية فإن الدعاية الإسرائيلية تركز على شاطىء المدينة وتصفه بأنه «امتداد على مد النظر من الرمل الأبيض الصافي»، وتوجد بها أكثر من عشرة فنادق راقية، وعشرات المطاعم الفاخرة من أشهرها مطعم يحمل اسماً تاريخياً ذي مدلول سياسي هو «دليلة» ويقع على الشاطىء مباشرة ويشتهر بتقديم السمك

(*) حرب فلسطين ١٩٤٨ ـ الرؤية المصرية د. إبراهيم شكيب ـ القاهرة ـ ١٩٨٦م.

الطازج، وكذلك مطعم «خيمة البدوي» وتقدم فيه مأكولات شرقية متنوعة.

ومن ناحية أخرى فإسم عسقلان مرتبط في أذهـان الفلسطينيين المقيمين في الوطن المحتل بالبطش والارهاب، حيث يعتبر سجن عسقلان من أشهر السجـون المخصصة لهم، حيث ينزل فيه أولئك الذين تزيد مدة محكوميتهم عن عشر سنوات، وتتميز زنازينه بالرطوبة والحرارة، ومن بين الأبطال الذين قضوا فيه المناضل عمـر أحمد عوض الله أحد قادة المقاومة في قطاع غزة.

عائلات بارزة من قضاء المجدل

تنتمي إلى المجدل وقراها عائلات بارزة منها:

أبو شرخ، المدهون، اليعقوبي، الشريف، الخطيب، زقوت، شقورة، لبّد، عبيد، عباس، عودة، شبلاق، عوض، جبريل، نجم، المجبر، الأستاذ، محسن، الهشيم، تميم، أبو سمرة.

ومن أشهر عائلات الفالوجا: اولاد أحمـد (ومنها آل عبـد القادر، وآل عبـد الفتـاح)، وأولاد عيسى (السمامقـة) ومنهـا (آل شحـادة، آل عـواد، آل كتكت)، السعافين ومنها آل رمضان، المطرية، النشاشين، الشريف، البايض، السرادين (آل أبو سردانـة)، عزام، ومن عـائلات الجـورة: صيام، المسحـال، الهباش، مـطر، البردويل، عياش أبو دية، حسونة، قنن، راضي، أيوب.

هذا وقد دفن في أرض عسقلان عدد كبيـر من الصحابـة والتابعين والأوليـاء والعلماء والشهداء على امتداد تاريخ هذه المدينة العريقة.

شخصيات بارزة من القضاء

ومن أهم شخصيات قضاء المجدل التي قضت نحبها خلال هذا القرن نذكر:

الوجيه عبد ربه شحادة (ـ ١٩٢١)، الشيخ عبد العزيز عبد الفتاح وابنه يوسف، محمد محمـد الشيخ علي (ـ ١٩٦٥)، حسين الهبـاش (ـ ١٩٦٧)، خليل اسماعيل المسحال، القائد الشهيـد العقيد عبـد الله محمد صيـام (الجورة ـ ١٩٣٤ ـ ١٩٨٢)، المجاهـد الحاج عبـد القـادر حسين قنن (ـ ١٩٦٨)، القائمقام السيد أبو شرخ (ـ ١٩٧٤)، محمود يوسف نجم (رئيس المجلس التشريعي بقطاع غزة ـ ١٩٧٩)، يوسف وشفيق الشريف، الشيخ محمـد

الشريف، (١٩١٠ ـ ١٩٨٠)، الحاج سليم أبو شرخ (١٨٨٥ ـ ١٩٧٤)، الحاج خليل محمود الخطيب (١٨٩٠ ـ ١٩٧٧)، الحاج طه زقوت، خليل عبيد، محمد خليل المدهون، إبراهيم عباس، الحاج محمد سليم عواد (ـ ١٩٨٢)، القائد ممدوح صيدم (أبو صبري)، الشهيد الدكتور اسماعيل الخطيب (١٩٤١ ـ ١٩٨٤)، يوسف تميم نجم، الشهيد رفيق السالمي (١٩٥٥ ـ ١٩٨٠). شفيق يوسف نجم، الشهيد القائد كمال نمر عدوان (أبو يوسف) بربره (١٩٣٥ ـ ١٩٧٣).

بئر السبع

مدينة البداوة والحضارة

رحم الله جدي لأمي فقد كان لا يفتأ يتنهد ويتحسر على أيام «العز» التي عاشها قبل ضياع فلسطين، ويذكر أملاكه في «بئر السبع» و «الشيخ نوران».

وقبيل أن يأذن الله بوفاته عام ١٩٧٢ جمع حوله أولاده وبناته وبعض ذوي رحمه بضاحية «السطر» وأملى عليهم نصائحه ووصاياه، وما لبث أن سلم لخالي الأكبر «نايف» مفتاح بيته القديم في بئر السبع، مع شهادة تثبت امتلاكه لنحو أربعمائة (دونم)[1] من أراضي «الشيخ نوران» بقضاء بئر السبع، مكتوبة بالإنجليزية والعربية والعبرية ومؤرخة في عام ١٩٤١!

والأمر الغريب أن جدي لم يذرف دمعة واحدة في هذا اللقاء «الباكي» ليس لأنه لا يتقن «فن» البكاء في مثل هذه المناسبات، بل لأنه كان صاحب فلسفة ترتكز على إيمانه المطلق بأن الإنسان ما دام قد استقبل هذه الحياة باكياً ساعة ولادته، فليودعها قانعاً قانتاً متأهباً لاستقبال الحياة الأبدية بنفس موغلة في الثقة برحمة الله عز وجل.

تذكرت هذا الموقف، وأنا متجه من خان يونس إلى بئر السبع ـ عاصمة صحراء النقب الفلسطينية ـ عصر يوم رمضاني مبارك من عام ١٩٧٩. ولقد حرصت ـ مع إثنين من أقربائي ـ على أداء صلاة العصر في مسجد خان يونس الكبير لأن سائقنا «حامد» أخبرنا سلفاً بأنه لا توجد مساجد في بئر السبع! لأن المسجد الجامع الذي بني فيها عام ١٩١٥ حوله الصهاينة إلى متحف يضم ـ فيما يضم ـ عدداً من الوثائق التي لها علاقة بتاريخ المنطقة ذاتها.

---

(١) الدونم يساوي ألف متر مربع، والفدان يساوي أربعة دونمات تقريباً.



وفي الطريق قال لنا حامد: أن البوابة التي سنمر منها مقامة على خط الهدنة الذي كان يفصل بين «إسرائيل» وقطاع غزة منذ عام ١٩٤٩، وعندما انهزم العرب للمرة الثانية عام ١٩٦٧ أزال اليهود خط الهدنة «وفتحوا البلاد على بعضها».

وانطلقنا عبر منطقة النقب وسط سهول خصبة شاسعة قد يرى المرء بدايتها، لكن من الصعوبة بمكان أن يرى نهايتها، وعلى كلا الجانبين تناثرت مستعمرات صهيونية تشبه خلايا الدبابير في دقة تحركات ساكنيها وليس في كثرة عددهم، فالأفراد قليلون في صحراء النقب، وهذه مشكلة عدونا. فلقد كان ضمن أهدافه ـ وما زال ـ جلب أكبر عدد من المهاجرين إلى فلسطين، وهو يعتبر النقب أفضل مكان لإيوائهم نظراً لقلة سكانه وكثرة اتساعه، حيث يشكل نصف مساحة فلسطين تقريباً وبالتحديد ١٢,٥٧٧ كم مربعاً.

وما الهدف من محاولات تحويل مياه نهر الأردن ووادي النيل ومد قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر إلا من أجل استصلاح هذه الأراضي الواسعة الجرداء للمساهمة في بناء اقتصاد صهيوني قوي. ويساهم في ذلك اتصال النقب بالبحر الأحمر عند خليج العقبة، ووجود ميناء إيلات الإسرائيلي منفذهم الاستراتيجي إلى افريقية والشرق الأقصى.

الأهمية الاستراتيجية للنقب

والنَّقْبُ والنُّقْبُ هو الطريق، وقيل الطريق الضيق بين جبلين، والمنقبة هي الطريق بين الدارين، وتدل هذه التسمية على أهمية موقع النقب، وعلى أنه ممر يؤدي إلى المناطق المحيطة به.

ويتصل من جهة الجنوب بصحراء سيناء، وشمال شرق إفريقية (وادي النيل ودلتاه) وبشمال شبه جزيرة العرب براً، أو عن طريق خليج العقبة، ومياه البحر الأحمر بحراً.

أما في الشمال فيتصل النقب بأرض فلسطين الأم، ومنها إلى باقي بلاد الشام.

ويعتبر النقب بوابة بلاد الشام الجنوبية الغربية لأية حركة تجارية أو هجرية أو حربية.

ويلاحظ أن بئر السبع تمتعت في العصر الحديث بأهمية حربية لدى الجيش

المصري في حرب عام ١٩٤٨م. وبعد إنشاء اسرائيل أضحت بئر السبع منطلقاً للقوات البرية والجوية الإسرائيلية في هجومها على قطاع غزة والعريش وسيناء في حروب ١٩٥٦، و ١٩٦٧، ١٩٧٣.

أما من حيث التضاريس فتعتبر منطقة بئر السبع والصحراء الفلسطينية امتداداً لنطاق المرتفعات الوسطى في فلسطين، ولهضبة شبه جزيرة سيناء، وتتألف من تلال وعرة المسالك تتوسطها السهول الحصوية والرملية الناتجة عن الرياح في القسم الشمالي.

وفي القسم الجنوبي والجنوب الغربي ترتفع مجموعة من القمم الجبلية تبلغ مساحتها ٢٩٤ كم مربعاً، أي بنسبة ٣٠,٦٩ بالمائة من مساحة فلسطين، وتمثل هذه النسبة ٧٩ بالمائة من الصحراء الفلسطينية بشكل عام[١].

وبالنسبة للمناخ في الصحراء الفلسطينية (النقب) فإن مداه الحراري السنوي يزيد عن أربعين درجة مئوية وخاصة في منطقة إيلات، وتزيد عن ٣٥ درجة مئوية في منطقة بوصير ويروحام وذلك خلال أشهر الصيف وخاصة أغسطس (آب). بينما يصل معدل الرطوبة إلى ٥٨ بالمائة في مدينة بئر السبع.

ونظراً لأهمية النقب في تنفيذ الخطط الصهيونية البعيدة المدى فقد حاول اليهود التملك فيه طيلة عهد الانتداب البريطاني لفلسطين (١٩١٧ ـ ١٩٤٨) وساعدتهم حكومة الانتداب، ورغم ذلك فلم يحرزوا إلا تقدماً متواضعاً تجسد في إقامة ثلاث مستوطنات زراعية في عام ١٩٤٣م، وأضافوا إحدى عشرة مستوطنة بعد ثلاث سنوات بهدف «خلق حقائق في المنطقة» وضرورة إثبات «حضور» يهودي في النقب، وذلك في «الوقت الذي كانت فيه الوفود الدولية تتوافد إلى فلسطين للنظر في الحدود المستقبلية لفلسطين مقسمة».

ومن هنا ندرك أحد أسرار اغتيال اليهود للوسيط الدولي «الكونت برنادوت» السويدي الجنسية بتاريخ ١٩٤٨/٩/١٧ في حي القطمون بالقدس حيث دعا في خطته لتسليم النقب إلى العرب!

وعندما استولى اليهود عليه كاملاً بعد النكبة الأولى لم يتمكنوا من إعماره لقلة

---

(١) فلسطين، أرض وتاريخ ـ محمد سلامة النحال ـ دار الجليل للنشر ـ عمان.

الماء والسكان معاً، ولكنه بقي هاجسهم الكبير. وظهر ذلك بوضوح على لسان دافيد بن جوريون أول رئيس لوزراء «اسرائيل» حيث قال في عام ١٩٥٦ (. . . في النقب ترتسم أعظم آمال اليهود، فاسرائيل الصغيرة لا تستطيع الصبر طويلاً على وجود صحراء النقب على وضعها الحالي، وهي تشكل نصف مساحة أراضيها، وإعمار النقب والسكن فيه ضرورة مطلقة لسلامة اسرائيل وأمنها»!

وعمدت «اسرائيل» بعدئذٍ إلى غرس خمسة ملايين شجرة سنوياً في النقب لتلطيف مناخه من ناحية، ولتوفير الأخشاب اللازمة للصناعات المحلية وللأغراض العسكرية من ناحية أخرى.

إن فراغ النقب يفزع أعداءنا، وقد سعوا لتحصينه بالخطوط الدفاعية والمستعمرات الزراعية والعسكرية لئلا يكون الفراغ سلاحاً إضافياً يشهره العرب ـ وخاصة مصر ـ في وجه العدو الصهيوني ولو بعد حين!

إن قلة كثافة السكان تسهل اندفاع القوات المصرية وتجعلها تطوي منطقة النقب بسرعة وسهولة لتقف عند القلاع اليهودية الحقيقية في عمق الوطن المحتل حيث الكثافة السكانية المضاعفة في وسط فلسطين وشمالها.

شيء من تاريخها

وردت في سبب تسمية بئر السبع عدة روايات منها رواية النعاج السبع التي تدعي أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام قدمها إلى «أبيمالك» زعيم المنطقة في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وذلك لكي يعوضه ويشهد له على حفره البئر التي نسبت فيما بعد إلى هذه النعاج السبع.

وهناك رواية بأن اسم المدينة مأخوذ من بئر كان يرده «السبع» وهو اسم من أسماء الأسد فنسب البئر إليه!

وهناك رواية بأن المدينة دعيت باسمها نسبة إلى وجود سبعة آبار قديمة فيها، وهذا الرأي أورده ياقوت الحموي وأخذت به الأنسكلوبيديا البريطانية.

هذا وتذكر بعض كتب التاريخ بأن إبراهيم الخليل عليه السلام رزقه الله ببكره إسماعيل جد العرب العدنانية في بئر السبع.

وإن هذه المنطقة شهدت مرور سيدنا يعقوب بن إسحق عليهما السلام في طريقه إلى مصر.

ويقال بأن سليمان بن داود عليه السلام استقبل في بئر السبع الملكة بلقيس ملكة سبأ المشهورة حينما أتت لزيارته من اليمن والله تعالى أعلم.

وقد ورد في سفر التكوين (٢٦ : ٢٣ ـ ٢٥) أن سيدنا إسحاق بن الخليل إبراهيم عليهما السلام ضيوف الكنعانيين العرب في فلسطين قد نصب خيمته في بئر السبع وحفر له الخدم بئراً.

ونص سفر التكوين أيضاً (٢٥ : ٢١ ـ ٢٦) على أن يعقوب وعيسى إبنا سيدنا إسحاق قد ولدا في بئر السبع عند حدود فلسطين الجنوبية.

ومن العلامات البارزة في التاريخ القديم لبلاد بئر السبع أيضاً أنها كانت تشكل ممراً حيوياً لتجارة العالم القديم، حيث كانت تمر خلالها القوافل العربية وهي تحمل خيرات الهند وافريقية إلى غزة ومصر.

وقد أدى هذا الوضع التجاري المهم إلى إنشاء العديد من المحطات التجارية على طريق القوافل والتي أصبحت مدناً فيما بعد.

وفي أوائل القرن الثالث الميلادي تحولت طرق التجارة من الهند واليمن عن طريق البتراء إلى الخليج العربي أو الفرات وتدمر، فانتهت بذلك فترة ازدهار المنطقة.

ولكن عندما فتح المسلمون تلك الديار خلال القرن السابع الميلادي قرر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعيين القائد «عمرو بن العاص» والياً على فلسطين وما جاورها، وعرفت بئر السبع فيما بعد بأنها بلدة «عمرو بن العاص» حيث كان يأنس للاقامة فيها وكان له قصر مشهور بها ينزله كلما أراد الاعتكاف.

وعندما حدثت الفتنة بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه كان عمرو معتزلاً ببئر السبع فتم استدعاؤه منها على عجل.

وذكر أبو زكريا السهمي في كتاب «الفوائد» بأن عبد الله بن عمرو بن العاص

مات بالسبع. وأيد هذا القول المؤرخ البكري في كتابه «معجم ما استعجم».

ومرة أخرى تطوي صفحات النسيان مدينة بئر السبع، ويعتبر تحول الطرق التجارية عنها أهم أسباب تأخرها، وتراجع أخبارها إضافة إلى القحط والجفاف.

وفي عام ١٩٠٠م أعاد الأتراك بناء المدينة في مكان قريب من موقعها الأول، وجعلوها مركزاً «لقضاء بئر السبع». الذي يتبع بدوره متصرفية القدس. وعينوا لها مجلساً بلدياً، وابتنوا داراً للحكومة ومضخة لتوزيع الماء، ومطحنة للحبوب، وبعض المرافق الحيوية الأخرى.

وفي بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ اتخذ العثمانيون من بئر السبع قاعدة رئيسة لانطلاقات جيوشهم المناوئة للإنجليز في مصر. فعبدوا الطرق البرية إلى الخليل وغزة وسيناء، وكانت لهم في تلك الآونة قوة عسكرية ضخمة تتألف من خمسة آلاف مقاتل.

ولما قرر الإنجليز فتح فلسطين عام ١٩١٧ دارت معركة حاسمة بينهم وبين القوات التركية في بئر السبع.. وما لبث البريطانيون أن احتلوا المدينة، وكانت أول مدينة يحتلونها في فلسطين، فكان احتلالها فاتحة شؤم على أمتنا العربية الإسلامية ما برحنا نعاني من آثاره حتى اليوم وحتى يأذن الله بنصرنا!

ومع مرور الزمن تطورت بئر السبع بصورة سريعة، وذكر مؤلفا جغرافية فلسطين ١٩٢٩ «ليس بخاف أن بئر السبع اليوم مدينة جديدة بناها العثمانيون على طراز حديث حتى أصبحت بانتظامها واتساع شوارعها لا تضاهيها مدينة في فلسطين وسورية، فهي من هذه الوجهة أكثر شبها بالمدن الأورربية والأمريكية منها بالمدن الفلسطينية، وكان في النية عند تجديدها إدارة شؤون بدو تلك الناحية ونقلهم من طور البداوة إلى طور الحضارة».

عائلات بئر السبع

بالنسبة لسكان بئر السبع فمعظمهم يعود بأصوله الأولى إلى مدينتي غزة والخليل بصورة خاصة.. والقدس والمجدل وغيرهما من المدن والقرى المجاورة، إضافة إلى العائلات الموجودة فيها أصلاً.

وعائلات بئر السبع المعروفة كثيرة منها: مشتهى، الزميلي، سويدان، شراب،

البلتاجي، العكلوك، العشي، الخولي، أبو خاطر، القدرة، المبيض، الشرباصي، الضابط، النابلسي، أبو عيشه، الشويخ، الخضري، البيطار، بسيسو، العلمي، أبو دلال، دلول، الحموي، الصوراني، عرابي، أبو شعبان، الكردي، السقا، عاشور، القيسي، السيد، الشرفا، الجمالي، الفران، الحداد، العمر، السويركي، الصفدي، الحلبي، أبو سعدة، التميمي، رشيد، حرز الله، الناجي، الشوا، الشيخ ذيب، التركماني، أبو العوف، واكد، السبع، السبعاوي، الرمادي، عبد الواحد، حبيب، بدير، الأقرع، رشيد، الهليس، أبو عويد، السراج، الأحول، التاجي، العقيلي، غنيمة، حمام، الحلبي، القهوجي، عويضة، رضوان، بلال، العلقماوي، أبو عجوه، سابا، أبو عاصي، شعث، شحيبر، مرزوق، ضبان، صافي، الطرزي، مراد، الزبده، حرب، المصري، سكيك، درغام، أبو رية، الفار، عليوه، القصاص، بلبل، البنا، قدورة، اللداوي، فرح، الترك، جراده، قميلة، أبو الخير، أبو سمور، غربية، السوسي، برغوت، خلف، حمو، عكيله، الجروشة، حجاج، عزام، الكرش، المغربي، عصفور، العشماوي، صقر، الخازندار، غالي، فطاير، الكالوتي، قطينة، العلمي، أبو غزالة، الصراف، السلايمة، الدويك، شعشاعة، أبو حشوة، البيطار وغيرها.

هذا.. وعندما سقطت بئر السبع في أيدي الإسرائيليين يوم ٢١ من أكتوبر عام ١٩٤٨ اضطرت هذه العائلات وغيرها إلى الهجرة من المدينة، فاتجه بعضها إلى قطاع غزة والضفة الغربية، بينما اتجه البعض الآخر إلى المملكة الأردنية الهاشمية حيث استوطن معظمهم في العقبة والكرك ومعان، وما برحوا يقيمون فيها حتى الآن[١].

قبائل بئر السبع

تمثل القبائل البدوية الأغلبية العظمى من سكان النقب، وتتمثل في هذه القبائل جميع الصفات والمزايا العربية الأصيلة كالكرم والشجاعة، والنخوة، وإغاثة الملهوف، وحماية الجار، شأنهم في ذلك شأن جميع الأعراب الأصلاء في مختلف أصقاع الوطن العربي، ولذا وجدنا الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصي

(١) بئر السبع والحياة القبلية ـ أحمد أبو خوصة ـ عمان ـ ١٩٧٢م.

مبعوثيه بقوله: «أوصيكم بالأعراب، فانهم أصل العرب، ومادة الإسلام، إنهم إخوانكم وعدو عدوكم».

غير أن أدق وصف لبدو بئر السبع قرأناه للمرحوم عارف العارف فقد وصفهم بأنهم «محبون للضيف، أذكياء، ولكنهم ليسوا بمتعلمين، كلامهم شرف، ولعون بركوب الخيل والهجن، متعصبون لدينهم الإسلامي وهم شوافع، الانتقام من أظهر خصالهم، لا يصبرون على ذل، ولا يقيمون على ضيم، ثابتون في حبهم وبغضهم، لا يقربون الخمر قط، المرأة محترمة في أشياء وممتهنة في أشياء».

هذا.. وتوجد في قضاء بئر السبع قبائل كثيرة إلا أن المشهورة منها سبع قبائل هي:

أولاً: الجبارات

يعودون بأصولهم الأولى إلى مدينة الطائف بالمملكة العربية السعودية، ويقولون بأن جدهم الأول هو جابر الأنصاري من صحابة رسولنا الأعظم عليه الصلاة والسلام، وقد غادروا الحجاز في بداية الفتح الإسلامي وأقاموا في أماكن متفرقة في باديتي الشام والعراق، وهم أصحاب بأس وجبروت. وكانوا قبل نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ينزلون في الشمال الشرقي من غزة بشكل خاص، أما بعد النكبة فقد هاجر أغلبهم إلى الأردن وقطاع غزة، وتتألف قبيلة الجبارات من أربع عشرة عشيرة هي: الرتيمات، الدقس، أبو جابر، المشارفة، الحسنات، السواركة، الوحيدات، القلازين، الولايدة، الرواوعة، عمارين الراعي، عمارين ابن عجلان، سعادنة أبي جريبان، سعادنة النويري، ومن المؤرخين من يضيف التوابته[1].

ثانياً: التياها

سموا بذلك لاستيطانهم قديماً في صحراء التيه (سيناء)، ويظهر أن أصلهم من قبائل مضر العدنانية، ويقول آخرون أنهم يمنيون من «الأزد» أو أنهم من بني هلال تاهوا عنهم أثناء رحلتهم المشهورة إلى المغرب، وإن جدهم سالم التيهي كان قائداً لاحدى السرايا التابعة للنبي عليه الصلاة والسلام، وإنه خرج من عشيرته أثناء الفتوحات الإسلامية ونزل في أطراف سيناء[2].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) غزة عبر التاريخ - إبراهيم سكيك جـ ٥ غزة - ١٩٨١م.

وتتألف القبيلة من ٢٣ عشيرة (وقيل ٢٦) يسكن أفرادها بين منطقتي الخليل والبحر الميت، وهي من أشهر قبائل التيه وأقدمها.

أما العشائر فهي: الحكوك، الأسد، البريقي، أبو عبدون، علامات أبو شنار، علامات أبو جقيم، علامات أبو لبيدة، العطاونة، بلي، الظلام، القريناوية، القطاطوه، شلاليون، أبو غيث، قديرات العثمان، قديرات الحريزان، قديرات المطارقين، الجفافلة، بنو عقبة، العر، رماضين الشعور، المسامرة، القلازين، البدينات، جهالين أبو داهوك، جهالين الهرش.

ثالثاً: الترابين

وتعتبر من أغنى القبائل أرضاً، وأكثرها عدداً، ويقال بأن أصولها تعود إلى قبيلة بني عطية الحجازية المعروفة في منطقة تبوك «وقد عرف الترابين بالالفة والاتحاد، كما اشتهر بعضهم بجودة الرأي، والبعض الآخر بالشجاعة والإقدام، فيقتحمون غمرات الوغى بعزم صادق على نية النصر أو الموت كما يقول مؤلف «بلادنا فلسطين».

وتتألف قبيلة الترابين من عشرين قبيلة (وقيل ٢٤) وهي: الصانع، الصوفي، غوالي أبو ستة، الصواصين، العواذرة، القصار، النعيمات، الضوايحة، غوالي البكور، غوالي أبو الحصين، غوالي أبو ختلة، أبو عمره، الزريعي، العمور، النبعات، الوحيدات، الحسنات، المحافظة، جراوين أبو غليون، جراوين أبو صعيليك، جراوين أبو يحيى، حناجرة أبو مدين.

وهناك من يضيف أبو طعيمة، أبو شلهوب الملالحة، الوحيدي.

رابعاً: العزازمة:

يقطنون جنوبي قضاء بئر السبع، وتمتد أراضيهم الواسعة من بئر السبع حتى وادي عربة وحدود سيناء، وهي تقع بين أراضي التياها والترابين. وبها بعض المواقع التاريخية مثل الخلصة وسبيطة، ورحيبة، وعسلوج، والعوجا التي كانت بريطانيا تنفي فيها بعض أحرار فلسطين، ومن ثم أصبحت مقراً للجنة الهدنة المصرية الإسرائيلية المشتركة بعد نكبة فلسطين الأولى.

ويقال إن قبيلة العزازمة أصلها من قضاعة من حمير بن بني قحطان، وتتألف من

عشر عشائـر (وقيل إحـدى عشرة) هي: المحمـديون، الصبيحيـون، الصبيحات، المسعوديون، الزرية، الفراحين، السواخنـة، العصيات، المـريعات، السـراحين، الرباطة، وقيل «المحافظة» أيضاً.

خامساً: الأحيوات

تقيم أغلبيـة هـذه القبيلة في صحـراء سينـاء، والبقيـة تقيم في الجنـوب الفلسطيني، وهي تتألف من عدة عشائر هي: أبو خليل، أبو فاضوم، أبـو عينين، الحناظلة، الصقايحة، الخلايفة.

سادساً: السعيديون

وهم فرع من قبيلة الحويطات المعروفة في المملكة الأردنية الهاشمية. وهم من أشهر العشائر وأمهرها في اقتفاء الأثر والتعرف على صاحبه، تتألف هذه القبيلة من أربع عشائر «وقيل ست» هي: ابن رمان، ابن رويض، ابن ذكر، ابن شقيـر، ابن حميطة، ابن السوية.

سابعاً: الحناجرة

وينسبون إلى جبل حنجر، وأكثرهم من «السواركة»، يسكنون المنطقة الشرقية الجنـوبية لغـزة، وموطنهم الأصلي بمنـطقة العـريش والشيخ زويـد. وتتألف قبيلة الحناجرة من أربع عشائر هي: أبو مُدِّين، الظواهرة، الحمدات، النباهين.

شخصيات بارزة من قضاء بئر السبع

تنسب إلى قضاء بئر السبع شخصيات بارزة، نذكر منها بعض من توفاهم الله تعالى خلال القرن الحالي:

الشيخ حماد الصوفي (- ١٩٢٢)، الشيخ محمد باشا ابن جازي أمير الحويطات، الشيخ شاكر أبو كشك (- ١٩٦٤)، المجاهد الشيخ الشهيد عبد الله أبو ستة (- ١٩٧٠)، الشيخ فريح أبو مدّين، الشيخ حماد خليل أبو ربيعة (- ١٩٨١)، الحاج إبراهيم الصايغ، الشيخ سليمان أبو ربيعة، الشيخ فريح المصدر، الشيخ علي فريح أبو مدّين (- ١٩٨٦)، الشيخ حسن الأفرنجي (- ١٩٨٧)، الشيخ حسن أبو جابر (- ١٩٨٩)، الحاج حرب أبو رقيق، الشيخ موسى أبو راشد، عبد الكريم الزريعي، تاج الدين شعث، رئيس بلدية سابق

(١٨٨٠ ـ) الشيخ حسين أبو كف، حسين الدقس، الشيخ جدوع الصوفي، الشهيد سعيد صالح العشي وغيرها.

سقوط بئر السبع

عندما أعلنت بريطانيا عزمها على الانسحاب من فلسطين، تنادى أهل بئر السبع وقضاها لتنظيم أنفسهم بغية الدفاع عن مدينتهم، وكونوا حامية قوامها نحو مائة وستين مناضلاً. الستون من أفراد البوليس الوطني والهجانة، والمائة من أبناء بئر السبع ذاتها، وقد ألف قائم مقام بئر السبع محمد عبد الهادي «جبهة الشباب»، وانضم إليها عدد من الشباب منهم: شريف الحلبي، عودة أبو عاذرة، يوسف الوحيدي، إبراهيم أبو ستة، محمد الطلاع، مصطفى فريح أبو مدين.

وقد أصدرت الهيئة العربية العليا بمصر قراراً بتعيين الشيخ عبد الله أبو ستة قائداً لحركة النضال في بئر السبع.

كما أصدرت اللجنة العسكرية بالجامعة العربية قراراً بتعيين اللواء سليمان عبد الواحد سبل (مصري) قائداً عاماً للجبهة الجنوبية التي تشمل بئر السبع وغزة والخليل.

وقد شكلت بعدئذٍ لجنة قومية للاشراف على شؤون النضال والجهاد، وشملت بعض وجهاء المدينة منهم: شفيق مشتهى (رئيس البلدية)، حسين علي الشرفا، الحاج توفيق الشوا، تاج الدين شعث، عبد الله أبو ستة، الحاج حسن الافرنجي، سعيد بسيسو، سعيد السراج، عبد الله الخطيب، علي العطاونة، حمدي حرز الله، هاشم الشوا، يونس وعلي شعث، كامل مشتهى، رشاد السقا، محمد الرمادي وغيرهم[1].

هذا وقد قويت معنويات السكان بوصول بعض المجاهدين من «الاخوان المسلمين» بقيادة أحمد عبد العزيز وكانوا نحو ثمانين مجاهداً.

وفي يوم ١٤ من مايو (أيار) عام ١٩٤٨م غادرت آخر قوافل الجيش البريطاني بئر السبع، وفي حفل مهيب لم تشهد له فلسطين مثيلاً تم إنزال العلم البريطاني عن

---

(١) النكبة ـ عارف العارف جـ ٣ ـ صيدا ـ ١٩٦٣م مرجع سابق.

سارية دار الحكومة بالمدينة، وقام المجاهد شفيق مشتهى بـرفع العلم الفلسـطيني مكانه، وسط فرحة شعبية واسعة.

وفي الوقت الذي كان البريطانيون ينسحبون من قطاع بئر السبع، كان اليهود يثبتون أقدامهم في المناطق المجاورة غزة وخان يونس، والعوجا، وكانوا قد استولوا من قبل على الطريق الرئيسي الذي يربط بئر السبع بغزة وعسلوج.

وقد أقام المصريون بعد وصولهم إلى بئر السبع إدارتين: إحداهما لتصريف الشؤون العسكرية والأخرى لتصريف الشؤون المدنية، وقد عملتا مدة خمسة أشهر.

أما بالسنبة لمجاهدي الاخوان المسلمين والذين كانوا خليطاً من المصـريين والليبيين فقد اتجه أكثرهم مع القائد أحمد عبد العزيز إلى الخليل والقدس لأن مهمته قد انتهت في بئر السبع كما قال!

يقول المرحوم عارف العارف مفصـلاً[1]. حدثني إثنان من كبار المناضلين في بئر السبع (عبد الله أبو ستة ورشاد الشوا) أن أحمد عبد العزيز رفض عندما هبط في مدينة بئر السبع أن يتعاون مع الفلسطينيين أو أن يقبلهم في صفوفه ليقاتلوا مع الإخوان المسلمين المصريين قائلاً إنهم (أي الفلسطينيين) لا يحسنون القتال (!)، وكذلك فعل المواوي قائد الجيش النظامي المصري عندما دخل فلسطين في ١٥ أيار، وقابله عند الحدود (الشيخ زويد) الشيخ عبد الله أبو ستة، فعرض عليه نفسـه ومائـة من المناضلين الذين كانوا يعملون تحت قيادته، فرفضهم المواوي ورفض الإفـادة من أسلحتهم، لا، بل ورفض استخدامهم أدلة يرشدونه إلى مداخل البلاد ومعابرها!! ليس هذا فحسب، فقد صادر المصريون أسلحة المناضلين من أبناء بئـر السبع!! والأغرب من ذلك أن هذا المواوي سحب من المدينة خيرة جنوده ومعظم الأسلحة التي كانت هناك، ولما أبدى آمر الحامية أسفه اعتذر المواوي بقوله: أنه مضطر لهذا العمل بسبب اشتداد المعارك في الناحية الأخرى من الجبهة!

ومن المعلوم أن اللواء أحمد علي المواوي قاد الجيش المصري عندما اجتاز حدود فلسطين، وقد انكسر في المعارك التي خاض غمارها عند المجدل وعسقلان وبئر السبع، فاستبدلت به الحكومة المصرية اللواء أحمد فؤاد باشا الذي تغلب على اليهود في معارك النقب الثانية وله يعود الفضل في بقاء قطاع غزة بيد العرب لمدة

---

(١) المرجع السابق.

تسعة عشر عاماً قبل أن تحتله اسرائيل في عام ١٩٦٧م.

الهجــوم

في الثامن عشر من أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٤٨م دكت الطائرات الإسرائيلية المدينة بعشرين قنبلة.. واستمر القصف خمسة أيام متتالية.. ومما ساعد في إزدياد الخسائر المادية والبشرية عدم وجود ملاجىء وعدم توافر مدافع مضادة تتصدى للطائرات المغيرة، وهاجم المدينة خمسة آلاف مقاتل يهودي تدعمهم الطائرات والمدافع الثقيلة والدبابات.. يقابلهم ٢١٦ مقاتلاً من العرب، منهم ١١٦ مصرياً، ومائة مناضل فلسطيني. «وبدأ الهجوم من عدة نواح، وعبثاً حاولت حامية المدينة الاستنجاد بالقيادة المصرية فلم تأتها أية نجدة، هذا رغم البرقيات التي تلقاها آمر الحامية (الصاغ إبراهيم شهيب) من المواوي بالمجدل، ومن سيف اليزل خليفة بالخليل بأن النجدة آتية، والطائرات المصرية قادمة، فدب الرعب في قلوب الأهلين وأرادوا ترحيل نسائهم وأطفالهم، إلا أن المصريين لم يسمحوا لهم بذلك[1].

وتقدم اليهود حتى دخلوا المدينة، بينما تحصن المقاتلون في مركز البوليس الرئيسي ولم يجدوا في النهاية مندوحة من الاستسلام، فرفع المصريون العلم الأبيض فسقطت بئر السبع.. عاصمة النقب، وهمزة الوصل الأرضية التي تربط عرب آسيا بعرب أفريقية..

وهكذا ضاعت «زهرة النقب» في حمأة التخاذل العربي.. فمن هو الفارس المنتظر الذي سيرد لها غربتها؟!

ذكريات الجنرال «يادين»

لعل من المفيد هنا أن نثبت شهادة الجنرال «إيجال يادين» الذي كان يعمل رئيساً لأركان حرب الجيش الإسرائيلي في عام ١٩٤٨ لنعرف جزءاً من تخطيطات أعدائنا. وقد أدلى بهذه الذكريات إلى مجلة «الجيش» الإسرائيلي حيث تحدث في جزء منها عن تقدم الجيش المصري بمحاذاة الساحل على محور العريش/ تل أبيب فقال: لقد علمت من خلال دراستي لتاريخ الحروب السابقة على هذه الأرض أن فلسطين عبارة عن دار لها بوابة ذات مصراعين: أحدهما غزة والثاني بئر السبع، وأنه

---

(١) المرجع السابق.

من الخطورة بمكان لأي جيش يتقدم من الجنوب إلى الشمال أو بالعكس أن يجتاز هذه البوابة ما لم يكن في يديه كلا المصراعين. فلما وجدت أن الجيش المصري اجتاز غزة بهدف الوصول إلى تل أبيب دون أن يسعى بالاحتفاظ في يده ببئر السبع وجدت أن فرصتي قد سنحت، فجمعت قواتي المتوافرة تحت يدي ببئر السبع فقطعت على الجيش المتقدم خط رجعته!

ويستطرد الجنرال يادين قوله: ولقد قرأت في دراسة للحروب الصليبية أن صلاح الدين الأيوبي عبر من العريش إلى بئر السبع على طريق لم يكن جزء كبير منه معروفاً لدينا عام ١٩٤٨. فذهبنا نبحث عنه حتى وجدناه مطموراً في الرمال، ولما كان من غير المستطاع في ظروف الحرب إزاحة الرمال عن الطريق في وقت مناسب فضلاً عن أن ذلك العمل سوف يلفت نظر المصريين مما يفسد عنصر المفاجأة، لذلك لجأت إلى الطريقة التقليدية الأكثر سرعة في الحروب بمد الشباك فوق تلك الرمال التي تكسو الطريق وعبرنا عليه بعرباتنا من بئر السبع إلى عسلوج إلى العوجا إلى أبو عجيلة، فطلعنا على مؤخرة الجيش المصري بالعريش في حركة تطويق سريعة، وبها مركز الإشارة لجميع القوات المصرية المتقدمة، فكانت مفاجأة مكنت قواتنا من تدمير سلاح الإشارة المصري. وبذلك فقدت القوات المصرية المتقدمة الاتصال بين وحداتها ومع قيادتها، وصار من الميسور علينا توجيه ضرباتنا إلى كل وحدة على حدة، وحينما أرادت بعض الوحدات التراجع على عجل أدى التراجع غير المنتظم إلى انعزال قوة الفالوجة التي حوصرت[1].

مأساة عرب النقب

بعد سقوط بئر السبع يوم ٢١ من أكتوبر (تشرين أول) افتتحت الصفحة الأولى في سجل مأساة عرب النقب، فلم تكتف السلطات العسكرية الصهيونية يومئذٍ باغتصاب أراضي البدو الذين غادروا فلسطين بعد نكبتها، بل صادروا أراضي العرب الذين لم يغادروا فلسطين أيضاً، فمع إحتلال الإسرائيليين لصحراء النقب طرد الكثيرون من أراضيهم ومساكنهم ضمن خطة صهيونية تم تنفيذها في أوائل الخمسينات أسفرت عن تهجير قسري لنحو ستين ألف بدوي والذين بقوا تم تجميعهم في مكان واحد أسموه «محمية البدو». وحين أجرت سلطات العدو الصهيوني أول

(١) الطريق إلى المدائن ـ أحمد عادل كمال ـ بيروت ـ ١٩٧٢م.

إحصاء رسمي لعرب النقب في عام ١٩٥٣م ظهر أنه لم يبق منهم في المنطقة سوى ١٣ ألف نسمة ينتمون إلى عشائر: أبو معمر، أبو رقيق، أبو ربيعة، الهزيل والأسد، أبو عبدون، والأعسم، والصانع، وأبو قرينات، وأبو جويعد، والعطاونة، والعقبية والرماضين. وقد ألحق بهم فيما بعد أفراد قبيلتي العزازمة والترابين[١].

وفي عام ١٩٦٠ ارتفع العدد إلى ١٦ ألف نسمة، أما في عام ١٩٨٥ فقد بلغ العدد الإجمالي للفلسطينيين في النقب ٤٤,٤٠٠ نسمة (مقابل ٢١٣ ألف يهودي) أي نحو ثلثي العدد الذي كانوا عليه في عام ١٩٤٨ وهو ٦٥,٠٠٠ مواطن عربي أو نحو مائة ألف نسمة كما ذكر عارف العارف قائم مقام بئر السبع في كتابه «القضاء بين البدو». وقد فرضت السلطات العسكرية سياسة الاقتلاع من الأرض، فاختاروا منطقة تقع إلى الشمال والشمال الشرقي من مدينة بئر السبع وحشروا ما تبقى من عرب النقب فيها واعتبروها منطقة عسكرية.

ومنذ ذلك الوقت تحول هؤلاء البدو من رعاة ومزارعين ومشتغلين إلى أناس يعتمدون في حياتهم اعتماداً كلياً على الاقتصاد الإسرائيلي، وفي هذه الأثناء فَقَدَ البدو كل حق لهم في تملك أي أرض في النقب، وأما الفوارق التي ما تزال تفرقهم عن بقية الفلسطينيين الذين يعيشون في اسرائيل فإنها من صنع اسرائيل ذاتها، وهي تستخدمها لأغراض السيطرة ولا تعود هذه الفوارق إلى عوامل ثقافية أو بيئية قد تكون مسيطرة على حياتهم[٢]. وقد لجأت السلطات الصهيونية إلى الاستفادة من بعض «الثغرات القانونية» في القانون العثماني الذي كان سارياً في فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى، وكذلك في قانون الانتداب البريطاني الذي صدر في عام ١٩١٨ وذلك بغية إضفاء الصفة القانونية لمصادرة أملاك المواطنين الفلسطينيين في النقب وتشييد المستوطنات الصهيونية عليها تحت ذريعة (المصلحة العامة)!

ومهما كانت التبريرات الصهيونية في طرد السكان الأصليين أو مصادرة أراضيهم الموروثة لهم عن آبائهم وأجدادهم فإن ذلك لا يغير شيئاً من واقع الاغتصاب والسطو والعدوان..

وازدادت حدة مأساة العرب في النقب بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر

---

(١) بئر السبع والحياة القبلية ـ مرجع سابق.

(٢) العرب في الدولة اليهودية ـ إيان لوستيك ـ جامعة تكساس ـ ١٩٨٠م.

واسرائيل في عام ١٩٧٩، فقد تعرض البدو بعدها إلى حالة مضاعفة من التشتت أكثر من أية فئة عربية أخرى في الأرض المحتلة، وذلك لأن انسحاب الإسرائيليين من سيناء قد أجبرهم على إقامة مطارات ومنشآت عسكرية أخرى في النقب (تعهدت الولايات المتحدة الأمريكية بتسديد كامل نفقات تشييدها)، وقد قامت اسرائيل بمصادرة نحو ٢٠ ألف فدان من أراضي البدو من منطقة تسمى «تل الملح»، وقد توكأت في تنفيذ هذه الإجراءات التعسفية على قانون صادق عليه الكنيست الصهيوني يؤدي إلى امتلاك أراضٍ في النقب خدمة لقضية السلام مع مصر»[١].

وتقول المحامية الإسرائيلية «إيريت ياعر» المتخصصة بقضايا عرب النقب بأن «جوهر القضية ليس مساعدة البدو على بناء بيوت وتزويدهم بخدمات إجتماعية معاصرة كما تزعم السلطات. وإنما نهب الأرض العربية لصالح السلطات وحصر عرب النقب في جزء صغير من أراضيهم في بعض المراكز السكنية، وإن الهدف من هذه العملية هو إبعاد البدو عن أراضيهم وتقليص مساحة الأرض التي يمتلكونها بغية تعزيز السيطرة الأمنية الإسرائيلية على هذه المنطقة حيث بالمفهوم الإسرائيلي لا أمن بدون سيطرة على الأرض»[٢].

هذا. . وتعتبر قرية «راهط» أحد المشاريع الحكومية الأولى التي أريد لها أن تكون نموذجاً صهيونياً يجذب إليها البدو للتوطين والإقامة فيه. وتبلغ مساحة القرية نحو تسعة آلاف دونم مقسمة إلى أحياء وكل حي يضم عشيرة كبيرة، أو عدة عشائر صغيرة، ويقدر عدد المقيمين في «راهط» بين ١٥ ـ ٢٠ ألف نسمة، ولها مجلس محلي معين يرئسه يهودي من خارج القرية ويضم أربعة أعضاء يهود وسبعة عرب.

صحيح أن القرية ذات تخطيط حديث ومنسق، ومعبدة تعبيداً شبه كامل، وتتمتع بخدمات الماء والكهرباء لكن لا يوجد فيها دونم واحد صالح للزراعة، وليس للسكان أي مصدر للرزق سوى الأعمال المأجورة في المستوطنات والمدن الإسرائيلية المجاورة، وأهم هذه الأعمال هي الرعي، وحراسة الحقول ومنشآت الجيش، والأعمال المؤقتة مثل التنقيب عن الماء والنفط ومد سكك حديد إلى ديمونة، وأعمال موسمية في الزراعة مثل قطف محاصيل البرتقال والخضروات، وكذلك العمل في المؤسسات والمصانع الإسرائيلية.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) جريدة الدستور ـ عمان ـ تاريخ ٢٠/٨/١٩٩٠م.

ومن الملاحظات التلقائية التي يتم طبعها في ذاكرة الزائرين لراهط وجود نصبين تذكاريين متجاورين فيها، أحدهما لضابط المظلات الإسرائيلي المدعو «إميل غرينتسفايغ» باعتباره عضواً في حركة «السلام الآن» والذي اغتاله الفاشيون الإسرائيليون المتطرفون، والنصب الآخر لشهداء صبرا وشاتيلا.

إن البدو في راهط واللقية وغيرهما ليسوا أبداً سعداء بإقامتهم شبه الإجبارية في هذه القرى وهم الذين يعشقون البر والصحراء والزراعة، وقد صدرت من جانب زعمائهم مطالب متكررة للإقامة في قرى زراعية إذا لم يكن بالإمكان إعادتهم إلى الأرض التي كانوا يملكونها لأجيال عديدة، وهم على وعي كامل بأن (قانون الاستيلاء على أراضيهم) هو قانون عنصري تمييزي موجه ضدهم مباشرة، وهو في جوهره مخالف لإعلان حقوق الانسان من حيث أنه يسد الطريق أمامهم لنيل حقوقهم من خلال اللجوء إلى المحاكم.

وهم في أضعف مطالبهم يطالبون المسؤولين الإسرائيليين بتنفيذ وتطبيق بنود القانون الإسرائيلي الخاص بالمزارعين في اسرائيل على مزارعي النقب من الفلسطينيين! ليس هذا فحسب، بل أن السلطات اليهودية عمدت يوم ١٩٩٠/٥/٨ إلى هدم عدد من بيوت اللقية واقتلاع كميات من أشجار الزيتون، بسبب المشاركة الفعالة للأهالي في الاضراب العام الذي حدث في أعقاب مجزرة «ريشون لتسيون» يوم ١٩٩٠/٥/٢٠م، وكالعادة عبرت الجهات الحكومية عن دهشتها تجاه الترابط الوثيق الذي كشف عنه الاضراب فيما بين عرب النقب وبين إخوتهم في الجليل والمثلث، ومدى تأثير الانتفاضة عليهم، غير أن الأمر لا يفاجىء إذا أخذنا بعين الاعتبار التمييز الفادح والسياسة القمعية الممارسة ضد عرب النقب رغم استعدادهم التقليدي لدعم اسرائيل والخدمة في جيشها[١].

عصابة الدورية الخضراء

ورغبة منها في إحكام سيطرتها على منطقة النقب، ومضايقة من تبقى فيها من العرب، فقد عمدت سلطات العدو إلى تكوين منظمة إرهابية لبث الذعر بين السكان لإجبارهم على مغادرة المنطقة بمشيئتهم! وأعلن عن إشهارها رسمياً في شهر يوليو (تموز) عام ١٩٧٦م وبهدف معلن هو «حماية الطبيعة، ومراقبة المناطق المفتوحة».

---

(١) جريدة الدستور عدد ١٩٩٠/٨/١٦ ـ عمان.

وهذه الدورية عبارة عن فرق متحركة ومسلحة تجوب أنحاء النقب بسيارات الجيب العسكرية ويضع جنودها على رؤوسهم القبعات الخضراء، ويقومون بمطاردة البدو وحشرهم في منطقة واحدة لتسهيل مهمة الاستيلاء على الأراضي ومصادرة المياه. وقد اشتهرت هذه الدورية بسمعة سيئة للغاية، وشاعت عنها قصص التعذيب الوحشي والتدمير العشوائي لكافة الممتلكات، ويعتبر أفرادها من أشد الإسرائيليين كراهة للعرب مع أن أغلبيتهم من اليهود العرب!

وعن حقيقة أهداف «الدورية الخضراء» تقول الكاتبة اليهودية «دان مارغليت» في دراسة لها نشرتها صحيفة «هاآرتس» اليهودية عام ١٩٧٧ : لقد تم تشكيل الدورية الخضراء لكي تكافح تسرب الأراضي الإسرائيلية إلى البدو (لاحظ أن البدو هنا هم مواطنون اسرائيليون)، كما عهد إليها بمهمة الكشف عن «المتعاونين» من اليهود.. أي المستوطنين الذين يجعلون أرضهم ومياههم تحت تصرف البدو.. وقد طلب من هذه الدورية أن تتولى تنظيف المنطقة من البدو بأقل قدر من الضجيج، وخلال عمليات شبه عسكرية قام بها أفراد الدورية الخضراء تمكنوا من إزالة خمس وعشرين «مستوطنة» في وادي عارة، ومن الأهداف التي أرادت الدورية الخضراء تحقيقها إجبار البدو على الانتقال من مواقعهم الحالية، فقد نص القانون الإسرائيلي على أنه إذا بقيت مستوطنة بدوية في مكانها لمدة عشر سنوات، فإن البدو يكتسبون حق اشغال هذه الأرض.

هذا وقد رسمت السياسة الصهيونية «خطة كبرى» للمنطقة الجنوبية من فلسطين المحتلة تعتمد على عدة خطوط من أهمها العمل على نقل مركز الثقل السكاني من وسط البلاد إلى منطقة بئر السبع وتخصيصها لتوفير المتطلبات الاقتصادية والصناعية والزراعية والترفيهية والعلمية والسياحية، وكذلك تخطيطها باتجاه السلام بحيث يتم ربط المنطقة بسيناء «وبالمنطقة الواقعة إلى الشرق».

وقد قامت هذه الخطة على ثلاثة أسس هي :

أولاً: النقب هي أكبر أرض احتياطية لاسرائيل وهي القادرة على استيعاب أعداد كبيرة من اليهود.

ثانياً: النقب هي الجسر الأرضي الذي يربط بين محيطين، المحيط الاطلسي والمحيط الهندي عبر البحرين المتوسط والأحمر. لذلك فإن النقب لها أهمية استراتيجية واقتصادية من الدرجة الأولى.

ثالثاً: النقب هي صحراء «نظيفة وخالية» مع كل ما يعنيه ذلك من حيث تطويرها والحفاظ على الطبيعة فيها[1].

ولما كان نقص الماء أكبر مشكلة تواجه تحقيق الخطط الصهيونية في النقب فقد قامت بإنجاز مشروع المياه القُطري الذي انتهى العمل به عام ١٩٦٤، وتم نقل الماء خلال أنبوب بقطر ١٠٦ إنش وبطول ١٣٠ كم، وكانت السلطات الصهيونية قد أوصلت هذا المشروع بمشروع «اليركون» الذي أنشىء عام ١٩٥٥. واستهدف الإيصال بينهما إحضار مياه نهر العوجا إلى بئر السبع والمستعمرات المجاورة، وينقل هذا المشروع ١٣٠ مليون متر مكعب من الماء، كما أنشىء خط آخر عام ١٩٦١، طوله ١٠٦ كم وقطره ١٦٦ إنش، وقد بلغ عدد المستعمرات التي أقيمت في النقب ٩٧ مستعمرة موزعة على خمس مناطق[2].

بئر السبع.. الحديثة

أضحت بئر السبع بعد اغتصابها نقطة مواصلات على درجة كبيرة من الأهمية، ولقد دهشنا حينما رأينا كثرة الطرق المؤدية إليها، والمنطلقة منها والمتشعبة، كما أدهشنا اتساع ودقة تنظيم المدينة.

والزائر إليها يمر بمساحات واسعة من المنشآت الصناعية الخفيفة والثقيلة والمتوسطة، المدنية والعسكرية.

وبئر السبع هي موضع فخر الإسرائيليين، والجوهرة الثمينة التي يبرزونها أمام كبار الزائرين وقوافل السائحين لإثبات المقولة الصهيونية عن «إعمار الصحراء واستصلاح القفار» والحق أن هذه نقطة بحاجة إلى إيضاح سريع يتمثل في أن بئر السبع قبل احتلالها كانت مؤهلة لأن تصبح مدينة عصرية مزدهرة وأن الصهيونيين لم يفعلوا أكثر من قطع تطورها العربي، وإيصال التطور الصهيوني «المعجزة» بدلاً منه!

توجد بالمدينة حالياً مصانع يهودية مختلفة لصناعة النسيج وتقطيع الماس والخزف، والزجاج وغير ذلك.

---

(١) المجتمع البدوي في النقب واقتصادياته ـ مرجع سابق.

(٢) قصة مدينة بئر السبع ـ حسن أبو سمور ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ سلسلة المدن الفلسطينية.

ويوجد بها مقر جامعة «بن جوريون» المعروفة، وفرع لكلية الهندسة التطبيقية ومركز أبحاث النقب المتخصص في بحث الوسائل الحديثة لإنماء الموارد الزراعية والمعدنية بالمنطقة. والمعروف أن صحراء النقب غنية بالمعادن المختلفة كالكبريت والنحاس، والملح والفوسفات والبترول، والمغنيسيوم، وقد استغلها الصهاينة استغلالاً كاملاً.

وتوجد فيها بعض الفنادق والمتاجر لخدمة السياح بشكل خاص والذين يقبلون على شراء الهدايا التذكارية مثل: غلايات القهوة والخناجر المزخرفة، وأسرجة الخيول، ويوجد بالمدينة بيت للفنانين اليهود ومسرح وعدة دور للسينما[1].

وفي يوم الخميس من كل أسبوع يعقد سوق عام للبدو حيث يأتي الأعراب من المناطق المجاورة لبيع بضائعهم وشراء حاجياتهم.

وأثناء تجوالنا في المدينة لاحظنا أن بعض المساكن والأحياء العربية ما زالت على حالها الذي كانت عليه قبل الاحتلال الصهيوني. رأيت بيتاً قديماً كتبت عليه الآية الكريمة «هذا من فضل ربي» وتاريخ بنائه ١٩٤٥م. كما رأيت عدة محلات تجارية ما زالت مغلقة منذ النكبة، وقد تجمعت حولها القاذورات.

وقد كان في بئر السبع مسجدان: المسجد الصغير وقد أصبح مطعماً لكن تقاطيعه ما زالت تثبت هويته الأولى، والمسجد الكبير تحول بإرادة المحتلين إلى متحف يتبع بلدية بئر السبع، ولم تفلح مجهودات المسلمين لإعادته إلى المصلين. . أنه برهان جديد على ديمقراطية مزيفة تؤكد فعلاً أقوال المسؤولين الإسرائيليين بأنه لا حقوق في فلسطين المحتلة إلا لليهود فقط.

وقد شاهدنا في إحدى المناطق بيتاً جميلاً من دورين، تزينه سلسلة من الأقواس والزخارف العربية الباهتة بفعل الزمن. وقد قيل لنا أن هذا البيت يخص المرحوم الشيخ فريح أبو مدين.

أما مبنى محطة القطار فما زال على حاله، وما برحت كلمة «بئر السبع» ظاهرة عليه إلى حد ما.

وعلى أية حال فبئر السبع تعد الآن «ثالث مدينة من حيث السكان والمؤسسات

---

(١) اسرائيل والسياحة ـ إلياس سعد ـ مرجع سابق.

العامة والخاصة»، ولم يبق من مظاهر عروبتها وبداوتها سوى موقعها الصحراوي وبعض عماراتها القديمة.

هذا.. وقد شهدت بئر السبع في اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو (أيار) عام ١٩٧٩ افتتاح «مؤتمر الحكم الذاتي للضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين» بين الرئيس المصري محمد أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي ميناحيم بيجن.

واستمرت المباحثات بينهما لمدة يومين، وقد أعلن بيجن في ختامها: «أن أكبر إنجازات الاتفاق هو بقاء القوات الإسرائيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة بمقتضى مشروع الحكم الذاتي، وأنه لن يسمح بقيام دولة فلسطينية في الضفة والقطاع، ولن يقبل بهذا تحت أي ظروف، وأن الحكم الذاتي ليس دولة، بل العكس تماماً، وسنبقى عند موقفنا هذا[١]».

كما أكد بيجن موقفه السابق بشأن القدس وقال: «ستبقى القدس إلى الأبد عاصمة اسرائيل، كما كانت دائماً عاصمة وطنية أكثر بمئات السنين من لندن وباريس وحتى روما، وأكثر بخمس عشرة مرة من واشنطن[٢]».

هذا وكان الرئيس السادات قد وصل إلى بئر السبع على متن طائرة هيليوكبتر عسكرية اسرائيلية، واستعرض مع إسحق نافون رئيس الدولة الإسرائيلي حرس «الشرف» الصهيوني، ومن ثم استقل بيجن والسادات وفانس طائرة مصرية حلقت بهم فوق القاهرة وتل أبيب كأول رحلة مؤذنة بافتتاح خط جوي بين العاصمتين.

أم الرشرش.. إيلات

ولقد جرى تهويد المدينة تهويداً كاملاً، كما جرى بناء عشرات المستوطنات في المنطقة، وقد أقيم بعضها على أنقاض قرى عربية كما هو الحال بالنسبة إلى إيلات التي أقيمت على أنقاض قرية «أم الرشرش» على شاطىء خليج العقبة، وإيلات هي أيلة المعروفة تاريخياً وجغرافياً بأنها ـ كما ذكر «القزويني» ـ: مدينة على ساحل بحر القلزم بما يلي الشام وكانت مدينة جليلة في زمن داود عليه السلام، وهي القرية التي ذكرها الله تعالى «حاضرة البحر»، وكان أهلها يهوداً حرم الله عليهم صيد السمك في

---

(١) الموسوعة الفلسطينية ـ عبد الرزاق محمد أسود ـ جـ ٤ ـ مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

يوم السبت، وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرَّعاً بيضاً سماناً حتى لا يُرى وجه الماء لكثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فكانوا على ذلك برهة من الدهر، ثم ان الشيطان وسوس إليهم، وقال إنما نهيتم عن صيدها يوم السبت، فاتخذوا حياضاً حول البحر، وسوقوا إليها الحيتان يوم السبت، فتبقى فيها محصورة، واصطادوا يوم الأحد، وفي غير يوم السبت لا يأتيهم حوت واحد، ففعلوا ما أمرهم الشيطان خائفين، ثم انهم بعدئذٍ أخذوا وأكلوا وملّحوا، ولعنهم داود عليه السلام فمسخ الله المتعدين منهم قردة ثم ماتت القردة بعد ثلاثة أيام.

هذا ويعتبر الصهاينة اليوم مدينة إيلات «حيفاالبحر الأحمر» وهي منفذ عدونا للاتصال البحري بافريقية وشرقي آسيا، ومطار إيلات هو ثاني أنشط مطارات فلسطين المحتلة بعد مطار اللد. وفي عام ١٩٥٧ أنشأ الأعداء خط أنابيب لنقل البترول من إيلات إلى مصافي حيفا ماراً ببئر السبع

والحقيقة إن اسرائيل قد نجحت في جعل إيلات مركزاً سياحياً للاستجمام والسباحة وبوجه خاص في فصل الشتاء، وأغلبية السياح الذين يرتادونها من البلاد الإسكندنافية ويمارسون أنواعاً شتى من الرياضات المائية.

ويوجد في إيلات متحف ملاحي وحديقة للحيوانات، وأكثر من ثلاثين فندقاً، ونسبة امتلائها مرتفعة عن أية مدينة أخرى في فلسطيننا المحتلة.

وجدير بالذكر أن إيلات هي المدينة الوحيدة التي لا يمكن لعربي أن يزورها إلا بإذن مسبق من الحكومة الصهيونية.

● سدوم: أنشئت عام ١٩٣٤ في جنوب البحر الميت، وتنخفض عن سطح البحر بمقدار ٤٠٠ متر تقريباً، وهي مركز مهم لاستخراج البوتاس والبروميد والملح وكلورايد المغنيزيوم، وتعتبر اسرائيل ثالث دولة في العالم في إنتاج البروم بعد الولايات المتحدة وبريطانيا.

ديمونة.. مستعمرة الحياة أو الموت

انشئت عام ١٩٥٠، والمعلومات عنها قليلة جداً لأن العدو يحيطها بسرية تامة وشاملة، فهي مستعمرة المفاعلات الذرية اليهودية، وهي باختصار «مستعمرة الحياة أو الموت» بالنسبة لاسرائيل.. وبالنظر لأهمية ذلك بالنسبة للمواطن العربي رأينا أن نتحدث عنها ببعض الإسهاب.

ويعود اهتمام اسرائيل بكل ما هو نووي إلى أواخر عام ١٩٤٨، غير أن تطوير الخيار النووي العسكري قد بدأ في أواسط الخمسينيات عندما تم اتخاذ قرار صهيوني ببناء مفاعل نووي كبير لا يخضع لأية قيود دولية.

وقد ظلت دائماً ترفض التفتيش الدولي على مؤسساتها النووية. ومعلوم أن النرويج قد زودت اسرائيل بواحد وعشرين طناً من الماء الثقيل اللازم لتشغيل مفاعل ديمونة وذلك في الستينيات والسبعينيات، وهناك تعاون نووي وثيق بين اسرائيل وجنوب أفريقيا.

والحقيقة أن مفاعل الأبحاث الحرارية في ديمونة فرنسي الصنع، ولذلك فإن فرنسا تتحمل مسؤولية كبيرة إزاء حيازة اسرائيل على القدرات النووية. واستناداً إلى مذكرات الرئيس الفرنسي السابق شارل ديجول الذي وقع على الصفقة الفرنسية الإسرائيلية عام ١٩٥٦ فإن المفاعل «يهدف إلى تحويل اليورانيوم إلى بلوتونيوم بحيث يصبح بالإمكان ذات يوم انتاج قنابل ذرية منه» غير أن الكشف الأكبر لإمكانات اسرائيل النووية جاء على يد الخبير الإسرائيلي السابق مردخاي فانونو لصحيفة «الصنداي تايمز» البريطانية عام ١٩٨٦ فقد أعلن تفاصيل برنامج اسرائيل النووي، وأبلغ عن وجود معمل قريب تحت الأرض ظل طوال عشرين سنة ينتج أسلحة نووية في ديمونة التي عمل بها تسع سنوات.

وبالاستناد إلى الأدلة والصور الفوتوغرافية التي قدمها فانونو فإن اسرائيل قد أنتجت مئتي قنبلة ذرية في عشرين عاماً.

هذا وقد استطاعت المخابرات الإسرائيلية«الموساد» خطف فانونو من إيطاليا إلى تل أبيب بصورة سرية، وتم تقديمه إلى المحاكمة بالقدس المحتلة وأدين بالخيانة والتجسس وصدر عليه الحكم بالسجن ١٨ عاماً يوم ١٩٨٨/٣/٢٧. وقال محاميه أن هدف فانونو كان تنبيه الإسرائيليين للمشكلة النووية، وليس الإضرار بأمنهم أما فانونو نفسه (٣٤ عاماً) فقال أنه يشعر بالارتياح لما قام به.

هذا.. ويبلغ عدد سكان مستعمرة ديمونة نحو ٣٠ ألف نسمة، ينتمي معظمهم إلى يهود المغرب وتونس والجزائر، ثم انضم إليهم ثمانية آلاف يهودي من الهند وسيريلانكا في نهاية الخمسينيات، فضلاً عن ٣٠٠ أمريكي أسود يقيمون في حي

خاص بهم، والسلطات لا تعترف بـانتمائهم اليهـودي ومحرومـون من العمل ومن الخدمات الاجتماعية[1].

عملية ديمونة الفدائية

عملية بطولية نفذها ثلاثة شباب فلسطينيين في صحراء النقب يوم ١٩٨٨/٣/٧ حيث استولوا على سيارة عسكرية صهيونيـة وتوجهـوا بها حتى وصلوا على مسـافة كيلومترين من ديمونـة، ثم قامـوا بنصب كمين على الطريق المؤدي إلى المفـاعل النووي، واستولوا على حافلة ركاب عسكرية واحتجزوا من فيها، وطالبوا بالإفراج عن المعتقلين الفلسطينيين مقابل إطلاق سراح الرهائن.

وبعد عدة ساعات من حصار الحافلة، تم اقتحامها من قبل الجيش الصهيوني الذي حاصر المنطقة بقوات إضافية من الوحدات الخاصة وبحضـور وزير الحـرب الصهيوني ورئيس الأركان وقائد المنطقة الجنوبية.

وقد اعترف العدو الصهيوني فيما بعد بمصرع ثلاثة من الإسرائيليين العاملين في ديمونة وإصابة أحد عشر آخرين، واستشهاد الفدائيين الثلاثة.

وأكد بيان عسكري فلسطيني بأن اختيار هذا الهدف قد تم لكشف الخطر القادم على المنطقة بأسرها من خلال وجود رؤوس نووية في مفاعل ديمونة، والقيام بعمل عسكري يتناسب مع حجم الثورة الشعبية في الأرض المحتلة.

ويقال إن نجاح هذه العملية كان سبباً مباشراً لاقدام المخابرات الصهيونية على اغتيال القائد الفلسطيني خليل الوزير (أبو جهاد) في منزله بتونس في شهر إبريل عام ١٩٨٨ باعتباره المخطط الرئيسي لعملية ديمونة.

السجون الاسرائيلية في النقب

توجد في النقب ثلاثة سجون اسرائيلية على درجة كبيرة من الرهبة والبشاعة، هي نفحة وبئر السبع، وأنصار.

وقد أنشيء سجن نفحة عام ١٩٧٧ ويقع على بعد ثمانين كم جنوب مدينة بئر السبع، وأغلبية نزلائه من القيادات الفلسطينية الوطنية التي تقضي أحكاماً بالسجن المؤبد. وقد كتب المعتقلون بتاريخ ١٩٨٠/٧/٤م وثيقة موجهة إلى «الإنسان في كل

---

(١) لوموند دبلوماتيك ـ باريس ـ عدد مارس (آذار) ١٩٨٩م.

مكان» شرحوا فيها بعضاً من معاناتهم داخل هذا السجن الرهيب، وقد ورد ضمنها وصف موجز له، فهو مؤلف من بنايتين كبيرتين من الزنزانات الضيقة طول كل زنزانة ٦,٥م، وعرضها ٣م ويوضع فيها عشرة سجناء، وتظل مغلقة بباب من الحديد الأصم، ولا يسمح بفتحها إلا ساعة واحدة في اليوم والليلة، ولكل زنزانة ثلاث فتحات ضيقة في أعلى الجدار الشرقي وثلاث فتحات أخرى في أعلى الجدار الغربي ويبلغ طول كل فتحة ١٢ سم× ٦٠ سم.

وقد أضرب المعتقلون عن الطعام مرات عديدة احتجاجاً على سوء المعاملة. وورد في الوثيقة القول: نريد هواء. . نريد أن نتنفس، نريد أن نرى لون رمال النقب، وقد قالوا ذات مرة لمدير الشؤون الصحية بمصلحة السجون الإسرائيلية: أعطونا يا دكتور كوهين شروط السكن التي تعطى لأبقاركم في زرائب الكيبوتسات. . من هواء ونور.

أما سجن بئر السبع فهو سجن رهيب كذلك، وقد بنته أيدي السجناء العرب المحكومين بالأشغال الشاقة المؤبدة، ونزلاؤه سجناء عمل تستنزف طاقاتهم في صناعة صناديق الفواكه والخضراوات، وفي صناعة شباك التمويه للجيش الإسرائيلي مقابل أجرة يومية مقدارها ست سجائر!

وبعد تصاعد الانتفاضة الفلسطينية المباركة التي تفجرت براكينها في الثامن من شهر ديسمبر عام ١٩٨٧ أنشأت السلطات الصهيونية معتقلاً رهيباً في شهر فبراير من عام ١٩٨٨ اسمته «أنصار ٣» ويوجد فيه أكثر من عشرة آلاف معتقل فلسطيني يواجهون أعتى المعاملات اليهودية وأشدها إجراماً. وقد استشهد العشرات منهم أثناء اضراباتهم المستمرة واحتجاجاتهم المتواصلة على سوء أوضاعهم المعيشية. وقد وصلت صيحاتهم إلى أكثر الهيئات الدولية التي لم تفلح في تحقيق مطالبهم الإنسانية العادلة. وشهد هذا المعتقل صدامات دامية بين نزلائه وحراسه، سقط على أثرها كثيرون من الشهداء من بينهم أسعد الشوا من غزة، وبسام الصمودي من جنين، وحسين حرب من الخليل، وعبد الله علاونه من طول كرم.

* * *

انتوينا العودة إلى خان يونس بعد أن مكثنا عدة ساعات في حاضرة النقب، وأسقط في يد حامد، فلم يهتد إلى منفذ المدينة الخارجي، وأخذ يدور بنا على غير هدى، فقادنا هذا اللاهدى إلى منطقة سكن شعبية، وفي أحد الشوارع الخلفية سمعنا

ضجة وضوضاء، فأخذنا حامد على مقربة منها فرأينا عائلتين يهوديتين مشتبكتين في عراك بالأيدي والعصي والحجارة وأطباق الطعام وطناجره، وبعد بضع دقائق ناشدنا حامداً أن يذهب بنا بعيداً تحسباً لوقوع أمر لا تحمد عاقبته، وكان آخر مشهد سجلته حدقات عيوننا هو وقوع حلة طعام فارغة على رأس إحدى السيدات اليهوديات!

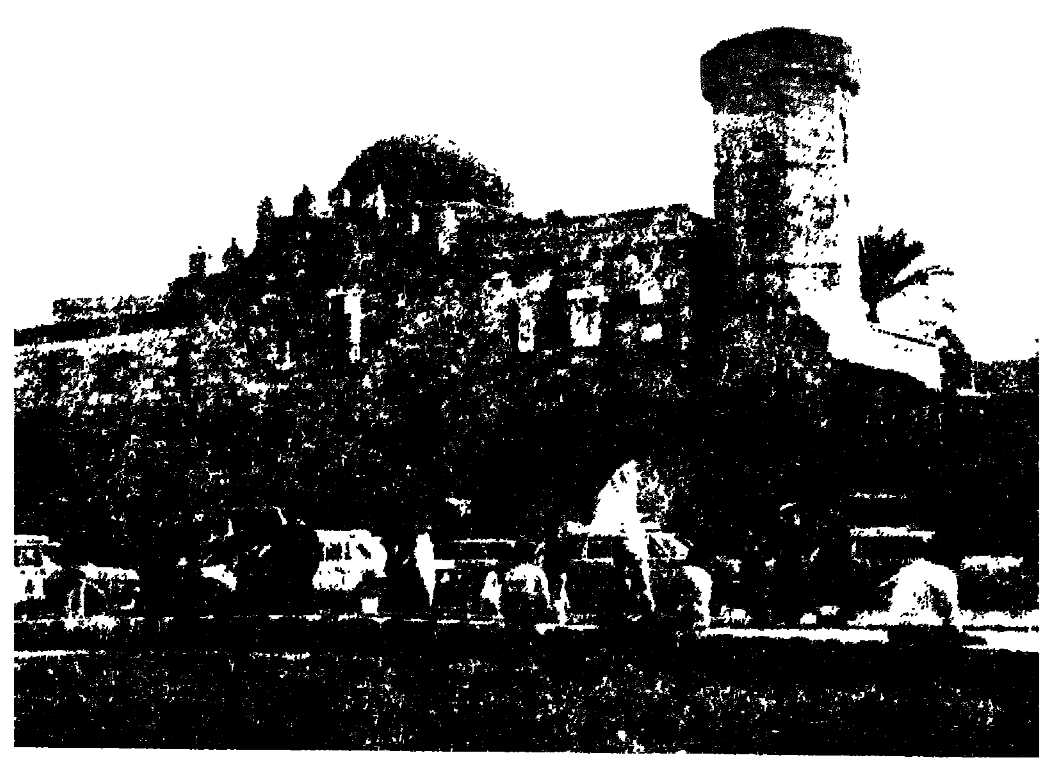
أما المقذوفات الكلامية المتبادلة بين الطرفين من شتم وسب وتهديد فحدث عنها ولا حرج، فقد ترجم لنا حامد شيئاً منها، ولما قارنتها ببعض شتائمنا ـ نحن العرب ـ وجدتنا أكثر «حضارة» وأكثر رقياً في عالم الشتائم ـ فقط ـ من اليهود!!

ورجعنا نبحث عن منفذ المدينة من جديد فلم نهتد بيسر، واضطر حامد أن يسأل بعض اليهود، فظهر لؤمهم على حقيقته حين رفض أربعة أفراد منهم إرشادنا، منهم من تظاهر بعدم المعرفة، ومنهم من أراد معرفة هويتنا ولماذا حضرنا، وأين كنا.. وأخيراً هدانا الله إلى صالون للحلاقة لنسأل صاحبه، وعرفنا فيما بعد أنه يهودي مغربي فأرشدنا إلى الطريق العام.

وفيما نحن عائدون أخذت أردد بعضاً من قصيدة الدكتور غازي القصيبي التي يقول فيها:

● .. أريد أن أغني
أغنيةً حزينه
كمشية الغروب في شوارع المدينه
كنظرة في مقلة الحب الذي تهزمه
الضغينه
أحس حزناً في دمي..
ينبع من نافورة دفينه
نموت نحن يا رفاق
نموت دون لحظتين للوداع والعناق
نضرب في ليل الفراق للوداع والعناق
وتنتهي أحلامنا.. أشواقنا.. أسرارنا
الثمينه.
كخطوة على الرمال
تمضغها الصحراء في السكينه.





خـــان يونـــس..

مدينـة الشهـداء

خان يونس.. هي مسقط رأسي، نهلت منها الحب كله، وعشقتها كما لم أعشق سواها، فعلى ثراها كان ميلادي، وفي حماها نما جسدي، وتحت سمائها شب عودي، واشتد زندي.

عندما كنت صغيراً، تخيلت أفقها المنحني نهاية العالم، فتجسدت لي فيها كل آفاق الحب والدفء والحياة، وعندما صرت شاباً فوجئت بضياعها في ساعة سوداء خارجة عن إطار الزمن، وعندما أصبحت رجلاً صرت أتجرع كؤوس الحسرة عليها في كل لحظة تجلد الغربة كبريائي بسياطها اللاهبة، فأهرع إلى مسكنات الصبر معتصماً بها، راضياً كل الرضى بقضاء الله الواحد القهار.

إنني ما برحت أذكر لحظة فراقي لخان يونس في بداية عام ١٩٦٧م، فقد كنت متوجهاً يومها لاستكمال السنة النهائية من دراستي الجامعية بالقاهرة. استيقظت فجراً على دعوات أمي وهي تخترق حجب السكون والقلوب فكانت دعواتها تهز شغاف قلبي، وتمنحني طمأنينة لم يهبني إياها كائن بشري آخر، منحتني تأشيرة الدخول إلى رحاب السكينة والرضى والأمان.

وتشاء إرادة الله تعالى أن أغيب عن بلدي وأمي، وأعود إليهما بعد إثني عشر عاماً. ولم يكن عوداً أحمد، فقد كان مشبعاً بهموم الاغتراب مترعاً بمآسي الاحتلال، مثقلاً بضياع الوطن والخلان!

لقد تركت مدينتي العزيزة حرة نقية أبية، وعدت إليها لأجدها أسيرة حسيرة تجرجر وراءها كل مفردات القهر والذل والاستعباد، وتركت أمي الحبيبة وهي بأَنْخَيْرِ

حال، وأهنأ بال، فعدت إليها لأجد حالها كحال خان يونس، فنسجت من أوردة أحزاني بردة سميكة مددتها بين مدينتي وأمي كي أُداري هجير الماضي، وزمهرير الحاضر، ولوعة المستقبل!! ووجدتني أنشد من شعر شرف الدين الهكاري قوله:

أأحبابنا إن غِبْتُ عنكم وكان لي إلى غير مغناكم مراح وإيسامُ
فما عن رضى كانت سليمى بديلةً بليلي، وكان للضرورات أحكامُ

وجهاً لوجه

ها هي ذي السيارة قد أوصلتني إلى البيت بعد طول غياب، ووضعت قدمي على عتبته، فتذكرت لحظة الفراق البعيدة، عشرات من الأهل والأقارب والجيران ملتفون حولي يتفرسون صورتي التي غيبها الزمن عن ذاكرتهم، وأنا أيضاً أتفرس في وجوههم وأجسامهم، ولكنني لا أعرف منهم إلا القلة من كبار السن، رفعت رأسي عالياً ونظرت إلى شجرة العنب التي تظللنا، وأخذت أحيي «دالية» الخير التي ما زالت وفية على عهدها وعطائها، ولكن ما بالي شردت في أفكاري، والأحباب حولي، هل أقول الحقيقة؟ أجل سوف أقولها، فطالما أرقني كتمانها؛ أقسم بالله العلي العظيم أنني في تلك اللحظات شككت في حقيقة وجودي بين أهلي، وظننت ـ بيني وبين نفسي ـ أنني أعيش في حلم ممتع وسيطر ذلك الشعور على تفكيري، فأردت أن أعرف الحقيقة وأتأكد مما أشك فيه، فضغطت على اصبعي بشدة فشعرت بالألم، فاستبشرت خيراً، ثم شربت ماء وتعمدت أن تسقط بعض القطرات الباردة على وجهي وصدري، ! وأخيراً. . لقد ثبت لديَّ بالتجربة والبرهان انني موجود بين أهلي في خان يونس فحمدت الله، ونهضت لأؤدي صلاة العصر.

وتوجهت برفقة أخي عدنان إلى «مقبرة الشيخ يوسف» لزيارة ضريح والدي رحمه الله حسب السنة النبوية الشريفة فسلمت عليه، وقرأت الفاتحة على روحه، وتذكرت في تلك اللحظات إحدى أعز أمنياته التي كان يرددها على أسماعنا: أتمنى أن أقتل ولو يهودياً واحداً ثم أموت!

ووجدت من واجبي أن أزور الأضرحة المجاورة فقال أخي عدنان: إن أغلبية هذه القبور تخص الشهداء الذين لقوا وجه ربهم في مجزرة خان يونس إبان العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦، يوم استباح اليهود أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم، فانقضوا على البيوت وأفرزوا الشباب ثم قتلوهم زرافات زرافات على سور القلعة وفي الملاجىء والساحات العامة، ونظرت على شواهد القبور فإذا بي أقرأ

أسماء الأخوين نظمي وفؤاد العالي، والأخوين عطا ومجدي بربخ، والأخوين حسن ونديد البطة، والأخوين فائق ونعيم صوالي، خليل أحد الآغا، رمضان الخطيب، علم العلمي، محمود شبلاق، الحاج مصطفى الآغا، محمد كامل الشقرة، الحاج محمود الأزعر، الشهيد البطل محمد أبو الكاس. إضافة إلى أسماء عديدة أخرى لا يتسع المجال لسردها.

وفي طريقنا إلى البيت مررنا بقلعة خان يونس الأثرية الشامخة، ورأيت أن أصحب معي كرام القراء لنقرأ معاً صفحة من حياتها.. وحياة مدينة الشهداء.

أصل التسمية

خان يونس مدينة حديثة الإنشاء لا يتجاوز عمرها ستمائة وخمسين عاماً.. واسمها مركب من مقطعين «خان» بمعنى فندق أو نُزُل و «يونس» نسبة إلى مؤسسها الأمير «يونس النوروزي الداوادار». وقد كان مقرباً لدى السلطان سيف الدين برقوق أول ملوك المماليك الشركسية الذي تولى عرش مصر في عام ١٣٨٢م.

وقد حدث أن أحد ولاة حلب أعلن العصيان على السلطان برقوق فانتدب له الأمير يونس ليقوم بتأديبه وإعادته إلى الحظيرة المملوكية.. غير أنه أخفق في حملته.. وفي طريق عودته إلى مصر قتل بصورة غامضة على مشارف دمشق عام ١٣٨٨م.. ولم يعرف له قبر. ويروى عنه أنه كان عابداً زاهداً كثير الصوم والصلاة.. يحب الفقراء والمساكين ويكرم الفقهاء والعلماء والاتقياء.

وبنى الأمير يونس هذا الخان عام ٧٨٩ هـ : ١٣٨٧م على هيئة قلعة ضخمة حصينة، عالية الجدران حتى تكون مأمناً للتجار والمسافرين الذين كانوا يستريحون بها وهم في طريقهم من الشام إلى مصر أو العكس.. ومع مرور الزمن وقلة الاهتمام تصدعت كثير من جدران هذه القلعة إلا أن واجهتها الغربية ما زالت سليمة، إضافة إلى قسم كبير من الحائط الجنوبي.

ويوجد في أعلى باب القلعة بعض الكتابات التي تشير إلى اسم مؤسس الخان «الداوادار يونس»، وكذلك إلى تاريخ التأسيس «.. وتم الخان لتسع سنين مضت بعد ثمانين بعون الجليل وسبع مئة».

ويوجد على مسجد القلعة قطعة رخام نقشت عليها هذه الأسطر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ولم يخْشَ إلا الله

فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ أنشأه الموفق الشريف العالي المولوي الأميري المشاغري الشرفي يونس داوادار مولانا السلطان الملك الظاهر نشر الله عدله وبلغه أمله آمين». وإلى جانب هذا الكلام تم نقش شعار الأمير يونس وهو عبارة عن كأسين ومحبرة، وتطلق العامة كلمة «قلاعي» على من يسكن مدينة خان يونس من سكانها الأصليين. وذلك بالنسبة لهذه القلعة.

في الرحلة الثانية إلى ديار الروم زار البكري الصديقي (١٧٣٠م) المنطقة فقال: «ثم سرينا العريش ثم الزعنفة والوحشة ومنها إلى خان يونس» وقلت فيه مواليا:

فلما أتينا لخان عمّره يونس ... بالأنس فزنا لأنو للغريب يونس
عوذته بمرآة هو دمع يونس ... من شر قوم لئام ما بين مونس

وأثناء رحلته «المصرية» قال حين رآها:

يا فرحتي مذ بدا المحبوب لي يونس ... مسامري بين ندماني لخان يونس

أحداث في تاريخها

شهدت خان يونس بعض الأحداث الكبيرة في تاريخها ومن أهمها:

● كانت ملتقى للجيش العثماني والجيش المصري، حيث انهزم الأخير وأضحت المدينة تحت سيطرة العثمانيين في ديسمبر عام ١٥١٧م.

● بعد أن استولى نابليون على مصر توجه إلى سورية عن طريق العريش وغزة عام ١٧٩٩م وبعد أن سقطت العريش في يده واصل الجيش الفرنسي زحفه وكان (كليبر) في مقدمة الجيش و(لان) في المؤخرة.

أما نابليون ذاته فقد تأخر عن الركب لبعض شأنه.. ثم أسرع للالتحاق بجيشه عند رفح. ولم يكن هناك أي دليل يشير على أن كليبر قد سار في تلك الطريق، وازداد الشك في إحتمال أن يكون الجيش قد ضل الطريق.. وسار نابليون ومن معه بسرعة فائقة إلى الامام نحو خان يونس.. غير أنهم لم يعثروا على الجيش.. ووجدوا أنفسهم وحيدين أمام عرب خان يونس الذين لم يعرفوا هوية القائد الكبير.. وخشي نابليون من جانبه أن يأسره أعداؤه فاضطر إلى الفرار بجلده بعيداً عن الأعين ولم يلتق بجيشه إلا في اليوم التالي.

وهكذا ضاعت الفرصة، فلو عرف أهل خان يونس شخصية نابليون لألقوا القبض عليه ولو فعلوا ذلك لتغير مجرى التاريخ كما يقول مؤرخ بلادنا فلسطين.

● تتفق كافة المصادر العربية والإسرائيلية وهيئة الأمم المتحدة على كبر حجم نشاط الفدائيين الفلسطينيين بقطاع غزة في الفترة ما بين سبتمبر عام ١٩٥٥ حتى نوفمبر عام ١٩٥٦ وقد تميزت عمليات الفدائيين بالقسوة وخصوصاً تلك التي كانت تتم مباشرة بعد غارات اسرائيلية على أهداف فلسطينية. . كحادثة قصف مستشفى غزة وقتل وجرح حوالي مائة شخص معظمهم من المرضى في ٢٨ شباط عام ١٩٥٥م وعلى مدينة خان يونس في نهاية شهر أيار من نفس العام حيث استشهد أكثر من عشرين شخصاً وجرح أكثر من عشرين آخرين.

وكذلك «غارة مركز الشرطة» التي حدثت ليلة ٣٠ سبتمبر من نفس العام أيضاً حيث هاجمت وحدة اسرائيلية محمولة مركز البوليس في خان يونس عشاء. وفجرت معظم المبنى على من فيه من عسكريين ومدنيين، وقد قتل في هذه الغارة ستة وأربعون قتيلاً، وجُرح خمسون آخرين، وقد أعلنت اسرائيل «أن اختيار مركز بوليس خان يونس كهدف للهجوم لأن عمليات الفدائيين كانت تقاد منه».

ولم تكتف اسرائيل بانتهاج سبيل الغارات والاعتداءات انتقاماً من النشاط الفدائي في القطاع بل عمدت إلى أسلوب الاغتيال الفردي بواسطة الطرود المتفجرة، وقد استشهد من جرائها البطل المصري المقدم مصطفى حافظ المسؤول الأول عن تنظيم نشاط الفدائيين الفلسطينيين يوم ١٣ يوليو عام ١٩٥٦. فكان استشهاده ضربة قاصمة للنشاط الفدائي بشكل عام حيث (كانت علاقة الفدائيين به أقرب ما تكون إلى العلاقة الأبوية، ولقد تم نسج درجة عالية جداً من الثقة به حيث كان يلم بأدق تفاصيل حياتهم وهمومهم اليومية).

وفي اليوم التالي انفجر طرد مشابه أودى بحياة المقدم صلاح مصطفى ملحق مصر العسكري في العاصمة الأردنية.

خان يونس والعدوان الثلاثي

لقد كانت المقاومة العربية في قطاع غزة ضارية ضد أطراف العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وكانت المقاومة على جبهة خان يونس أشد عنفاً بالقياس للقتال الذي شهدته مدينة غزة مما أدى إلى «تعطيل تقدم القوات الإسرائيلية إلى قطاع خان

يونس إلى حين الإستعانة بالدبابات لتحطيم الحـزام الدفـاعي، وقد أطلقت ذلـك الصباح أكثر من ثمانين ألف طلقة لتطهير المواقع» كما يقول مجرم الحرب موشى ديان.

أما المؤرخ العسكري المعروف إدغار أوبلانس فيقول واصفـاً مقاومـة خان يونس: «حالما دخلت القوات الإسـرائيلية أجبـرت على التوقف، فقـد كانت بيـد الفلسطينيين بعض المواقع الجيدة حيث كانوا يصبون النار منها على المهاجمين من أسلحة آلية متوسطة، وعندها قرر قائد الكتيبة التوقف وإحضار دباباته لإسناد الهجوم، ولم يبدأ بالتحرك باتجاه الجنوب قبل حوالي منتصف الليل، في هذا الوقت كانت الكتيبة الثانيـة قد استكملت احتـلال غزة. . وتحـركت جنوبـاً باتجـاه خان يـونس للمساعدة في احتلال المدينة التي استمرت في المقاومة الباسلة، وجابهت المعتدي بعنف وقاتلته من موقع إلى موقع إلى درجة ثمة نقطة دفاعية داخل المدينة استمرت في المقاومة الأمر الذي أجبر العدو على الاستعانة بالطيران حيث وجهت إليها ضربة جوية أدت إلى شل مقاومتها نهائياً».

ويقول الأستاذ حسين أبو النمل: «لا بد من تسجيل الدور القتالي الذي لعبه الفدائيون الفلسطينيون وخصوصاً في نقطة تجمعهم الرئيسة في خان يونس، حيث صمدوا حتى اللحظة الأخيرة، ومن تبقى منهم بعد سقوط مواقعهم شقوا طريقهم إلى الأرض المحتلة ومن هناك عبروا إلى الضفة الغربية للأردن. . هذا. . إضافـة إلى دورهم في إنقاذ عدد كبير من الضباط المصريين ممن لم يتمكنوا من الانسحاب في بدء المعركة، وذلك من خلال تهريب هؤلاء الضباط إلى مصر.

ووقعت خان يونس في قبضة غريمها وبقدر عنف ضربات الفدائيين المؤثرة في الكيان الصهيوني كانت درجة الانتقام شديدة من المدنيين الفلسطينيين. . ولقد كررت اسرائيل في خان يونس الأساليب الإرهابية نفسها التي طالما لجأت إليها عبر تاريخ الإجـرام اليهودي الـطويل، وبمجـرد دخولهـا القطاع ارتكبت سلسلة من المـذابح استهدفت العنصر البشري الفلسطيني بالذات كما حدث في غزة ورفح. . ولا يتسع المجال لسرد نماذج مأساوية عـديدة حـدثت في الأيام الثـلاثة الأولى التي أعقبت احتلال خان يونس، وحسب إحصاءات الأمم المتحـدة فقد فقـدت المدينـة ٤١٥ شهيداً، و٣٨٨ جريحـاً، و٥٧ مفقوداً، لكن الكثيـرين ممن عاصـروا تلك الفترة، وعاشوا المحنة ذاتها يؤكـدون تواضـع هذه الأرقـام تواضعـاً شديـداً بالنسبـة للعدد

الإجمالي للشهداء والجرحى والمعوقين والمفقودين.

ولقد استشهد الزعيم العربي الراحل جمال عبد الناصر بكفاح مدينة خان يونس تسع مرات في مناسبات عديدة كقوله في إحداها: «لقد حارب الشعب الفلسطيني في غزة وخان يونس ورفح، وهو يعلم أن الجيش المصري قد انسحب، ولكنهم حاربوا دفاعاً عن شرفهم وكرامتهم، وفي خان يونس كانت هناك معركة مريرة عنيفة مات فيها عدد كبير من المدنيين، وأثبت هذا الشعب أنه لم تؤثر فيه المحن» (١٩٥٧).

ولقد انسحب الإسرائيليون من قطاع غزة يوم ٧ من مارس عام ١٩٥٧م ومن المصادفات غير السعيدة أن يعودوا إليه بعد عشر سنوات أي في السادس من يونيو عام ١٩٦٧ وتتكرر صور شتى للبطولة والفداء، لكن ليل الهزيمة أرخى سدوله عليها فطمسها، ونتيجة لكفاح خان يونس فلقد نظر إليها العسكريون اليهود نظرة خاصة وحفاظاً منهم على أرواح مدنييهم الذين تعاقبوا على زيارة «المناطق المحررة» فلقد كتبوا إليهم تحذيرات عديدة في مدخل المدينة قالوا فيها: احذروا مدينة القتلة، احذروا مدينة السفلة!

وسجل الشاعر الفلسطيني الصديق عز الدين المناصرة بعض صور هذه البطولة في إحدى قصائده التي تحمل اسم «خان يونس» قال في جزء منها:

الخامس من يونيه
السادس من يونيه
العاشر من يونيه
كل المدن الحمقى قدمت الطاعة
إلا خان يونس
«مَزِّقْ جدائلها
واقلب عاليها سافلها»
الموت الأحمر يمتد
وعيون صبايانا تنسج أحلام الغد
كانت نسوتنا يقذفْن الحقد
غضباً يلهب كل الدبابات
ناراً تعصف بالطيارات
وتغنّي في الليل الأسود

والموت الأحمر يمتد.

ولكن قبيل احتلال المدينة حدثت أمور بلغت غاية الدهشة والغرابة، فلقد فوجىء كل السكان في المدينة - وبلا استثناء - بدخول عربة جيب عسكرية تتقدم رتلاً من الدبابات التي ترفع الأعلام الجزائرية والعراقية والفلسطينية وتصدر من مكبرات الصوت فيها أعذب الألحان الثورية، وأشجى أغاني الوحدة العربية، إضافة إلى وجود بعض آيات القرآن الكريم مكتوبة بخط جميل على واجهات الدبابات.

واستبشر الناس - كل الناس - بقرب تحقيق أحلام النصر والعودة والتحرير، فأخذوا يتهافتون على الدبابات في حبور وسرور، ويقدمون لأطقمها البشرية كل مظاهر الترحيب والتأييد والعرفان بالجميل.

وتمركزت تلك القوة في المراكز الحيوية بالمدينة، وفجأة أخذت تقصف مواقعنا، وجماهيرنا، وطموحاتنا وأحلامنا، وكان تدمير عربة الجيب وقتل قائد الرتل فيه أول إعلان حقيقي عن اكتشاف الخديعة المحكمة التدبير التي لجأ إليه العدو لمساعدته في إسقاط خان يونس، وسيمضي وقت طويل قبل أن يتحول جليد الهزيمة إلى نار موقدة تلتهم الاتكالية والارتجالية والتخاذل!

أما على أرضية الواقع العسكري البحت فقد نشبت معركة شرسة بين القوات الإسرائيلية الغازية وبين جانب من جيش التحرير الفلسطيني المرابط في المدينة، واستمرت ثلاثة أيام، وأمام عنف المقاومة الفلسطينية اضطرت قوات العدو للانسحاب التكتيكي ثلاث مرات من المدينة قبل أن تسقط نهائياً في أيديهم مساء يوم الأربعاء ١٩٦٧/٦/٧م، ودفع الغزاة خسائر كبيرة من قواتهم من بينها ١٨ مصفحة تركها الإسرائيليون معطوبة في وسط المدينة، بينما دفع الفلسطينيون أكثر من ألف قتيل من مدنيين وعسكريين كان من بينهم ١٢٨ شهيداً من المدافعين عن المدينة، وقتل ما لا يقل عن مئة شخص داخل مستشفى «ناصر».

إن قوافل الشهداء الذين قدمتهم «مدينة الشهداء» على امتداد صراعها مع العدو الصهيوني، كانوا معيناً لا ينضب من العطاء الوطني غير المحدود. وقد أكد المؤرخ الدكتور حسن عبد القادر صالح أن الشرارة الأولى للانتفاضة الفلسطينية قد انطلقت من معسكر اللاجئين بخان يونس في مساء يوم ١٩٨٧/١٢/٩، وهو اليوم الذي شهد تدبير حادث سيارة كبيرة يهودية انحرفت عمداً قرب قرية بيت حانون نحو سيارتين

صغيرتين تقلان بعض العمال العرب العائدين من إسرائيل إلى غزة، وأدى هذا الحادث إلى قتل ثلاثة شباب عرب وجرح آخرين.

وفي اللحظة التي سمع فيها أهالي خان يونس نبأ الحادث انفجروا كغيرهم من سكان قطاع غزة كالبركان في انتفاضتهم المباركة. كما كان ذلك الحادث سبباً مباشراً في اشتعال شرارة الانتفاضة التي عمت الضفة الغربية بعدئذ.

ويؤكد الدكتور صالح أن انتفاضة معسكر اللاجئين في خان يونس قد وجدت صدى قوياً لها في معسكر اللاجئين بجباليا الذي تلا معسكر خان يونس في البدء بانتفاضته[1].

واقع المدينة وقراها

تقع خان يونس على الخط الحديدي الرئيسي الذي يمتد من القاهرة إلى حيفا وقد كانت لهذا الخط أهمية كبيرة إبان الانتداب البريطاني واستخدام القوات البريطانية الموجودة في مصر وفلسطين له، وكثيراً ما كان هذا الخط هدفاً لهجمات الثوار الفلسطينيين وبخاصة خلال ثورة عام ١٩٣٦م، وقد سجل شباب خان يونس في تلك الفترة كثيراً من الهجمات الناجحة التي استهدفت الخط والقطارات البريطانية التي تستخدمه.

تحيط بالمدينة أراضٍ زراعية واسعة تزرع فيها أصناف شتى من الفواكه والخضراوات، وكثيراً ما استثمر الثوار وجود الأشجار الكثيفة في تنفيذ عملياتهم الجريئة ضد المحتلين.

وتجاور خان يونس أراضي رفح من الجنوب وأراضي دير البلح من الشمال، أما إلى الشرق فتجاورها أراضي بني سهيلة وعبسان وقضاء بئر السبع. ونظراً لتوسع العمران في الآونة الأخيرة فقد ارتبطت قرى بني سهيلة وعبسان وخزاعة مع بعضها البعض وأصبحت كأنها بلدة واحدة، كما أنه لا يفصل بني سهيلة عن خان يونس سوى الشارع الرئيسي الذي يمتد من رفح إلى شمال فلسطين.

وترجع أصول هذه القرى إلى قبائل عربية أصيلة وفدت إلى هذه الديار في صدر الإسلام، وبسبب هذه الصلة الوثيقة فإنهم يتزاوجون مع بعضهم البعض

(١) قصة مدينة خان يونس ـ سلسلة المدن الفلسطينية.

ويتشاركون في الأفراح والأتراح، وتعتبر قرية بني سهيلة الأكبر مساحة والأكثر سكاناً، ومن عائلاتها المشهورة: البريم، صقر، أبو جامع، أبو بركة، الرقب، أبو فياض، أبو لحية، أبو خاطر. ومن شخصياتها البارزة في المجالات الاجتماعية: حمدان أبو عمرو، عبد الرحمن القرا، أحمد أبو صقر، عوض حجازي، أحمد أبو جامع.

ومن شهدائها الأبطال صبحي ومجدي أبو جامع، وجمال قبلان، وهم أبطال عملية «الباص» المشهورة التي حدثت عام ١٩٨٥، وأثارت ضجة عالمية في حينها نتيجة لاغتيال صبحي ومجدي بعد وقوعهما في الأسر.

وتجمع أهالي عبسان الصغيرة أصول واحدة هي عائلة «الدغمة» وتتفرع منها عائلات: أبو عصفور، أبو عنزة، أبو عرفات، أبو شاهين، أبو طعيمة، الجرف، ومن أهم الشخصيات التي تركت أثراً محموداً في هذه البلدة والمنطقة المجاورة: محمد حمدان الدغمة الذي كان مختاراً للبلدة ورئيساً لمجلسها القروي، ويعرف عن السيد الدغمة بأنه من أمهر أبناء قطاع غزة في القضاء البدوي، ومن أهم عائلات عبسان الكبيرة : أبو دقة، أبو دراز، أبو طير، أبو طبش، أبو عامر. ومن أهم عائلات قرية خزاعة: النجار، قديح، أبو ريده، .

وتشمل أراضي خان يونس ضاحية «القرارة» ومعناها الروضة المنخفضة، وبسبب خصوبة هذه المنطقة فقد كانت في القرن التاسع عشر هدفاً لصراع مرير بين قبائل التياها والترابين من جانب، وبين السواركة والرميلات من قبائل سيناء في الجانب الآخر، وانتهت بعقد صلح القرارة بينهم في شتاء عام ١٨٥٦م.

وتسكن القرارة حالياً عائلة «العبادلة» أو «عبد الإله» وهم من أشهر بطون بني جذيمة، ومشهورون بالتقوى والكرم وحسن الخلق.

ومن ضواحي المدينة أيضاً «السطر» قاع القرين، العلوة، المعسكر، السطلان، سوق الخميس، ظهرة الشيخ محمد، جورة اللوت، الأمل حي الكتيبة الجديد.

ولخان يونس أراض زراعية مهمة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط معروفة باسم «المواصي». . وهي عبارة عن مزارع خصبة تحيط بها الكثبان الرملية البيضاء وبعضها لا تبتعد عن الشاطىء أكثر من ثلاثمائة متر تقريباً، ومما يزيد في أهميتها عذوبة الماء ووفرته بصورة دائمة وسهلة، وهي لا تكلف الفلاح أكثر من حفر حفرة لا تزيد في عمقها عن المتر أو المترين فيتوافر له الماء العذب! وفي فصل الصيف

تتحول هذه المواصي إلى مصايف رائعة نادرة الوجود وفرتها العظمة الربانية لكافة المصطافين على شواطىء قطاع غزة بصورة خاصة.. إضافة إلى توافر الأسماك الطازجة، والفواكه المختلفة، والطيور العديدة وبشكل خاص الطيور المهاجرة كالسمان (الفر)، والهداهد والحمام والكروان، والقبّرة، والزرزور والسنونو، اضافة إلى بعض أنواع الصقور والغربان، وكلها تقريباً تأتي خلال شهري سبتمبر وأكتوبر من كل عام.

عادات أصيلة

بلغ عدد سكان خان يونس الأصليين عام ١٩٤٦ ما يقرب من ١٣ ألف نسمة وفي عام ١٩٦٣ وصل العدد إلى حوالي سبعين ألف نسمة بما فيهم سكان المخيم الذين وفدوا إلى المدينة بعد عام ١٩٤٨م. وفي نهاية عام ١٩٨٨ ارتفع عددهم إلى تسعين ألف نسمة منهم نحو ٣٧,٠٠٠ مواطن أصلي و٥٣,٠٠٠ لاجىء.

ويعود السكان الأصليون بجذورهم الأولى إلى مختلف القبائل العربية التي نزلت قديماً إلى هذه المنطقة، وبينهم جماعات من الأتراك والشراكسة الذين كانت تعهد لهم حراسة القلعة، وبعضهم وفد إليها من مصر.

ويقول أستاذنا مصطفى مراد الدباغ واصفاً أهل خان يونس: «عرف أهل خان يونس بتمسكهم بعاداتهم العربية والإسلامية، فهم كرماء لضيوفهم محافظون على تقاليدهم وشعائر دينهم، ولعائلاتهم «دواوين» يجتمعون فيها، وهم في عاداتهم أقرب إلى القبائل العربية منهم إلى أهل المدن».

والديوان في خان يونس عبارة عن مجلس واسع مخصص لقبيلة معينة تفتح أبوابه في العادة عصراً، وتقام فيه الصلاة إذا كانت المساجد بعيدة، ويتحدثون في مختلف شؤون حياتهم ويناقشون مشاكلهم ويشربون القهوة العربية «السادة» ويستقبلون ضيوفهم ويحيون أفراحهم، أو يقيمون مآتمهم.

أما في شهر رمضان المبارك فيتحول هذا الديوان إلى مضافة عامرة بالضيوف الذين يفدون إليه لتناول طعام الإفطار الذي يتكفل به المختار وبعض أثرياء العائلة طوال الشهر.

وأشهر دواوين خان يونس هي التي تخص عائلات الآغا، الفرا، الأسطل، شراب، العقاد، شبير، المصري، وافي.

عائلات خان يونس وأبرز شخصياتها

ومن العائلات المعروفة في المدينة إضافة لمن سبق ذكرهم: الجبور، الشاعر، العبادلة، زعرب، عاشور، القدرة، شهوان، اللحام، أبو ناهية، أبو شقرة، الطويل، شعث، النجار، السقا، عبد الباري، وادي، عابدين، فارس، البطة، صادق، المجايدة، صوالي، رشوان، عبد الغفور، الأزعر، بربخ، أبو صقر، البيوك، أبو جزر، الغلبان، أبو نجا، فسفوس، أبو معروف، أبو طه، الدالي وغيرها.

وينسب إلى خان يونس عدد من الشعراء منهم: أحمد فرح عقيلان، الدكتور محمد صيام، عبد الحميد طقش، عبد الشكور الطويل، عبد الدائم عاشور، زكريا العقاد، الشهيد يوسف عبد الرحيم ذيب وغيرهم.

كما عرفت المدينة أعداداً من الشخصيات البارزة التي كان لها أثر محمود في المجالات الوطنية والاجتماعية والعلمية والدينية، مثل: الشيخ سعيد حمدان الآغا، الشيخ حافظ البطة (١٩٦٠)، عبد الرحمن أسعد الفرا، الحاج مصطفى علي العبادلة، المحسن الجواد الحاج حافظ عثمان الآغا، القاضي الشهيد شوقي الفرا (١٩٦٧)، المحامي الشهيد أحمد الأسطل، الشيخ فهمي حافظ الآغا، المجاهد حلمي أحمد الآغا، الشهيد وليد العبادلة، المصلح الحاج محمد النجار، الشهيد عبد سليم الآغا (١٩٣٦)، الشهيد محمد مصطفى الفرا (١٩٤٨). الشهيد رضوان الأسطل (١٩٤٨). الشهيد شاكر صليح، الشهيد شرف الطيبي، الشيخ علي شراب، الشيخ حسن العقاد، الحاج سليم حسين الآغا، المختار مصطفى حسن الفرا، المهندس علي محمد فارس، المختار عيد حسين الآغا (١٩٨٨)، الصحفي أحمد خالد الآغا (١٩٨٩)، الشيخ يحيى شبير، محمد إبراهيم السقا، الشيخ سليم سرحان شراب، الحاج علي محمد العبادلة، المربي حسن سليم البطة، حمد أبو جزر، مضيوف شعث، الشيخ حمدان المصري، المصلح الحاج علي الأمير الأسطل، قاسم الفرا (أبو منار)، المربي يس علي الأسطل (أبو علي)، الشهيد حمادة طاهر حافظ الآغا، الشهيد محروس محمد فارس (١٩٩٠)، المختار الحاج عليان المصري، الحاج سعيد عاشور وادي، الحاج عيادة بربخ، طاهر يوسف الآغا (أبو يونس)، الشهيد البطل أسامة النجار (١٩٩٢)، الشيخ زكريا الآغا (١٩١١ - ١٩٩٢) وغيرها.

مكثت أسبوعين.. بين أحضان أمي ومدينتي.. وأزفت ساعة الرحيل بعد أن أوشكت على الانتهاء صلاحية تصريح الزيارة الصهيوني، وكانت لحظة الفراق شاقة ومؤثرة، فلقد تجمع الكثيرون من الأهل والأحباب والجيران للمشاركة في الوداع كما هي العادة في بلدنا.

وأيقنت بصدق بأن العاشق إنما يفتضح ساعة الرحيل، فكم بكيت، وانتحبت على الفراق الذي تمنيت أن لا يكون أبداً، وقد أخذت أتمتم بأبيات من رائية محمد بن ظاهر المؤثرة:

إلى كم أُمنِّي النفسَ بالقرب واللِّقا	بيومٍ إلى يومٍ وشهرٍ إلى شهرِ
وحتى مَ لا أحْظى بوَصْلِ أَحبَّتي	وأشكو إليهم ما لقيتُ من الهجرِ
فلو كان قلبي من حديد أذابَه	فراقكم أو كان من صالب الصخرِ
ولما رأيتُ البَيْنَ يزدادُ والنوى	تمثَّلتُ بيتاً قيلَ في سالفِ الدهرِ
متى يستريحُ القلبُ والقلبُ مُتْعَبٌ	بَيْنٌ على بَيْنٍ وهَجْرٌ على هَجْرِ

وحينما وصلت إلى الطرف الشمالي من خان يونس، تلفت ورائي مودعاً قلعتها، ومآذنها، وأشجار النخيل الباسقة فيها. وألقيت عليها نظراتي الأخيرة، وقلبي يلهج بمقولة الحبيب المصطفى وهو يخاطب مكة لحظة وداعه لها: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن «قومي» أخرجوني منك ما سكنت غيرك». وأخذت أردد بكل أبعاد الأسى والألم في نفسي شكواه لربه وقد آذاه أهل الطائف: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك [١]

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار إحياء التراث العربي ـ لبنان.

رفــح

مدينة على حد السيف

تبرز مدينة رفح ـ ثالثة مدن قطاع غزة ـ واحدة من الطلائع الرئيسية التي تساهم في تطريز التاريخ الفلسطيني الحديث عبر الانتفاضة الجماهيرية المباركة.

والحق أن هذه المدينة ـ في نظري ـ ذات وجهين.. جميل وغير جميل.. وذات لونين: أبيض وغير أبيض.. وذات حدين: عالٍ وغير عالٍ، ورغم ذلك فهي جميلة بسمائها الصافية، وأشجارها الكثيرة الباسقة، ومواصيها البرمائية، وكثبانها الناعمة..

وهي بيضاء بجهادها، ونضالها، وتضحيات أبنائها.. وصبرهم على شتى المحن والمكاره، وهي تمثل الحد الأعلى من شفرة السيف العربي المتوحد قوة وإرادة وصلابة.

ورفح.. في جانبها الآخر تمثل واقع الهوان العربي لأنها ـ بموقعها الجغرافي فقط ـ تجسد مأساة الحدود والتفتيش وتأشيرات الدخول والخروج حيث لا ينبغي أن تكون بين أتباع «.. وهذه أمتكم أمة واحدة» حدود وسدود ونقاط تفتيش وتدقيق!

ورفح ـ حالها كحال أية مدينة حدودية عربية بل وإسلامية ـ تمثل لي حالة اكتئاب لما تعمقه من معاني الأثرة والتفرقة والتشرذم.

أحب رفح لأنها جزء غال من الكبد الفلسطينية العربية الإسلامية.. ولا أحب رفح التي تمثل الواقع المقروح للكيان العربي الإسلامي المترهل بالضياع واللامبالاة.

ولكن.. وبكل معايير الحق المجرد تبقى لرفح مكانتها في ضمير النضال العربي ضد الصهيونية.

وهذه.. بطاقة تعريف وتعارف بالمدينة الأسيرة المنتصبة على حد السيف.

مدينة فلسطينية قديمة، وذات موقع مهم لكونها نقطة الحدود الفلسطينية الجنوبية من جمهورية مصر العربية، بوابة فلسطين جنوباً.. وبوابة مصر شمالاً..

تقع إلى الجنوب من غزة التي تبعد عنها مسافة ٣٨ كم، وتبعد عن خان يونس مسافة ١٣ كم، وتبعد عن العريش نحو ٤٥ كم..

تبعد عن ساحل البحر الأبيض المتوسط نحو ٥ كم.. وترتفع عن سطحه ٤٨ متراً.

يقسم خط الحدود السلكي مدينة رفح إلى قسمين قسم فلسطيني وآخر مصري.

كانت المعبر البري الوحيد لقوافل التجارة بين مصر والشام، وكانت ممراً لكل الجيوش العابرة، قابعة على رأس الطريق الحربي الكبير منذ أيام الفراعنة، الطريق الذي أطلق عليه قديماً ـ طريق حورس ـ والذي كان يبدأ بالقنطرة ماراً بتل الحير ورمانة وقطية ـ البردويل ـ مزار ـ العريش ـ الشيخ زويد ثم إلى مدينة (رافيا) أي رفح.

كما كانت رفح قنطرة لكل القبائل المهاجرة، قبائل بني اسرائيل، وقبلهم قبائل بني كنعان، كما مر على ثراها الأنبياء الكرام عليهم السلام: إبراهيم ويعقوب ويسوع الطفل، وجيوش عمرو بن العاص كما كانت طريق جيوش صلاح الدين لطرد الصليبيين من فلسطين وسوريا، وأيضاً جيوش نابليون عام ١٧٩٩ واللنبي في الحرب العاليمة الأولى.

وقد نشأت رفح أساساً على كثبان رملية لا تصلح للزراعة، لذلك تجد المباني فيها متناثرة وليست مندمجة مع بعضها البعض كباقي مدن العالم، وقد غلبت الأهمية التجارية لرفح على أهميتها الزراعية الضعيفة، برغم أن سكانها خلال الفترة الزمنية القليلة الماضية قد نجحوا في استصلاح أجزاء واسعة من هذه الكثبان وزراعتها بأشجار الحمضيات بشكل خاص.

وتدلنا مراجع التاريخ بأن رفح قديمة النشأة، لكنها لا تدلنا على تاريخ هذه

النشأة، وقد عرفها المصريون القدماء باسم «روبيهوي»، وعرفها الآشوريون باسم «رفيحو»، وعرفت عند اليونان والرومان باسم «رافيا». . وعند العرب «رَفَحْ» بفتح الراء والفاء وتسكين الحاء.

ولم نعثر ـ فيما توافر بين أيدينا من مراجع تاريخية ولغوية ـ على سبب تسميتها بـ «رفح» ولا لمعنى «رفح» لغوياً، ولكن الفيروزبادي ذكر في «القاموس المحيط» بأن «الأرفح هو الذي يذهب قرناه قبل أذنيه في تباعد ما بينهما»، ورفّحه ترفيحاً قال له بالرفاء والبنين قلبوا الهمزة حاء».

وقد ارتبط اسم رفح بعدة مواقع تاريخية حاسمة بالمنطقة منذ عهد زمني بعيد، ففيها وقعت معركة ضارية بين الآشوريين والمصريين عام ٧٢٠ ق. م وهي التي عرفت بمعركة رفح الأولى.

فبعد أن فتح «سرجون» السامرة زحف على غزة لفتحها، وكان «حانون» ملك غزة قد حالف «سباجون» ملك مصر، ففر «حانون» إلى رفح واستنجد بحليفه المصري فأتاه ومعه نجدة قوية، بينما مضى سرجون بجيوشه حتى وصل رفح والتقى فيها بجيشي غزة ومصر وأسفرت المعركة عن أسر ملك غزة وهروب ملك مصر[١].

وفي عام ٢١٧ ق. م شهدت رفح أيضاً وقائع معركة فاصلة جرت بين السلوقيين حكام سوريا والبطالمة حكام مصر وهي المعروفة تاريخياً بواقعة رفح الثانية حيث انتصرت فيها قوات الملك المصري بطليموس الرابع على قوات السلوقيين بقيادة أنطيوخوس نفسه، ولكن السلوقيين تمكنوا من استعادة تلك المناطق بعد سبعة عشر عاماً[٢].

وبعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام صارت رفح مركزاً لأسقفية، وإبان الفتوحات الإسلامية الظافرة لفلسطين، فتحها العرب المسلمون على يد القائد البطل عمرو بن العاص في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب.

---

(١) تاريخ سيناء ـ نعوم بيك شقير ـ مطبعة المعارف ـ مصر ١٩١٦م.
(٢) الموسوعة الفلسطينية ـ مرجع سابق.

أهلها عرب أقحاح

وتشير دراسة النشاط السكاني للمدينة بأنها عمرت بسكن بعض القبائل العربية من لخم وجذام قبيل الفتح الإسلامي وبعده، وقد ذكرها ابن خرداذبة «المتوفى في حدود عام ٣٠٠هـ» في «المسالك والممالك» بأنها من أعمال فلسطين، على الطريق بين مصر وفلسطين، تقع بين محطتي غزة والعريش، وعلى مسيرة ١٦ ميلاً من الأولى، منها عشرة أميال معمورة بالبساتين، وستة معمورة في الرمال.

وقد ذكرها أبو الحسن المهلبي «المتوفى عام ٣٧٦ هـ» قائلاً: «رفح مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق، وأهلها من لخم وجذام، وفيهم لصوصية وإغارة على أمتعة الناس حتى إن كلابهم أضر كلاب أرض بسرقة ما يسرق مثله الكلاب ولها والي معونة برسمه عدة من الجند، وعلى ثلاثة أميال من رفح من جنب هذه شجر جميز مصطف من جانبي الطريق عن اليمين والشمال نحو ألف شجرة متصلة أغصان بعضها ببعض مسيرة نحو يومين».

والواضح أن إعمار رفح توقف ذات فترات زمنية مختلفة، وقد ذكر ذلك ياقوت الحموي «المتوفى عام ٦٢٦ هـ» في معجمه قائلاً: «رفح منزلة في طريق مصر بعد الداروم (دير البلح»، بينه وبين عسقلان يوما للقاصد مصر، وهو أول الرمل، وخرب الآن».

وفي القرن السابع الهجري. . الثالث عشر الميلادي لم تزد رفح عن كونها محطة للبريد بين غزة ومصر، وقد زارها السلطان الملك الأشرف برسباي أثناء سفره إلى الشام عام ١٤٣٢م[1].

وقد تردد اسم رفح عندما مرَّ بها الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت في شباط من عام ١٧٩٩ في طريقه إلى عكا.

وفي بداية حكمه لمصر (١٨٦٣) قام الخديوي إسماعيل بزيارة رفح، كما زارها في عام ١٨٩٨ الخديوي عباس حلمي الثاني، ويبدو أن الزيارة كانت مرتبطة بتحديد الحدود البرية بين مصر وفلسطين أي بين متصرفية القدس وولاية سورية حينئذٍ، وذلك بشأن مد خط للسكة الحديد يمتد من القنطرة حتى رفح، ومن رفح إلى

---

(١) نيابة غزة في العهد التركي ـ محمد علي خليل ـ بيروت ١٩٨٦م.

حيفا. . وفي تلك الزيارة أقر الخديوي بأن عمودي الجرانيت القائمين تحت شجرة السدر القديمة هما الحد الفاصل بين سورية ومصر.

وجدير بالذكر أن إنشاء السكك الحديدية في فلسطين بدأ عام ١٨٨٩ حينما نالت شركة فرنسية امتياز خط حديدي يربط يافا بالقدس والذي تم إنجازه عام ١٨٩٢ وطوله ٨٧ كم. . وكان الباعث الأساسي لانشائه تسهيل وصول الحجاج المسيحيين القادمين بحراً عن طريق ميناء يافا إلى القدس. أما الخط الحديدي الممتد بين رفح وحيفا فقد بلغ طوله ٢١٢ كم.

وبهذه المناسبة نذكر بأن طول الحدود المصرية الفلسطينية ـ بين رأس طابا على خليج العقبة ورفح على البحر الأبيض المتوسط ـ يبلغ نحو ٢٤٠ كم.

وزيادة في المعرفة نذكر بأن طول الساحل الفلسطيني غرباً يبلغ ٢٢٤ كم، ويبلغ طول الحدود الفلسطينية السورية ٧٠ كم، أما طول الحدود الفلسطينية اللبنانية فيبلغ ٧٩ كم، والحدود الفلسطينية الأردنية ٣٦٠ كم (بلادنا فلسطين مرجع سابق) ويبلغ طول الساحل الفلسطيني على خليج العقبة عشرة ونصف كم.

تخطيط الحدود

في عام ١٩٠٦ عندما أرادت تركيا أن تشدد من قبضتها على الشرق العربي في مواجهة النفوذ البريطاني المتزايد، رأت أن تحيي ـ بمساعدة ألمانيا ـ مشروعها القديم الخاص بمد خط السكك الحديدية الذي يربط الولايات العثمانية من الحجاز حتى الآستانة، ماراً بفلسطين والعراق وسوريا، والذي كان مقرراً أن يمتد أيضاً حتى وسط أوروبا وألمانيا.

وكإجراء يخدم هذا المشروع الكبير، قامت تركيا بإنشاء نقط عسكرية في القصيّمة والكونتيلا وخليج العقبة كمناطق سيمر بها هذا الخط من الجزيرة العربية إلى عمان في الأردن عن طريق القصيمة.

وبعد أن أقر الخديوي عباس حلمي الثاني بتحديد الحدود بين مصر وسورية عند عمودي الجرانيت تحت شجرة السدر القديمة طلب البريطانيون من السلطان العثماني تعيين لجنة مشتركة من الطرفين لتحديد الحدود بصفة نهائية. فرفض السلطان هذا الطلب بحجة أن مصر والشام هما من أملاكه، وأرسل مجموعة من

جنوده فاحتلت منطقة طابا الواقعة على خليج العقبة. ثم أرسل بعضاً من جنوده لاحتلال رفح فأزالوا عمودي الحدود من مكانيهما تحت السدرة، وجعلوا مكانيهما أعمدة تركية، فلما بلغ الخبر حكومة مصر أمرت الطراد «منيرفا» البريطاني بالانطلاق فوراً من بور سعيد والاتجاه إلى رفح للتحقق من الخبر، وعينت الكابتن«ويموث» معتمداً للدولة البريطانية، ونعوم بك شقير معتمداً للحكومة المصرية فإذا وجدوا الخبر صحيحاً احتجوا على العمل رسمياً باسم الدولة البريطانية والحكومة المصرية معاً ويسلموا الاحتجاج إلى ضابط العساكر التركية في رفح ومن ثم يعودون إلى مصر.

يقول نعوم بك شقير في وصف وصوله إلى رفح[1]: عندما وصلنا العريش صباح اليوم الثالث قابلت محافظها محمد بك إسلام وانتقيت أربعة من رجالها العارفين ميناء رفح ومكان عمودي رفح بالدقة وهم: الشيخ سلام عرادة عمدة السواركة، والشيخ سليمان معيوف شيخ الرميلات، وحسين عبد الكريم الجعلي من أنشط بوليس العريش، وقطامش أغا عيد كبير هجانة العريش، فأرسلت إثنين منهم في الحال بطريق الشاطىء على أن يقفا عند ميناء رفح ويومئا إلينا لنقف عند الحد وأخذت إثنين معي في الطراد وقام الطراد بنا قاصداً ميناء رفح. . وفي صباح ٣٠ ابريل نزلت إلى البر وركبت ومعي الخبراء الأربعة قاصداً رفح، أما الكابتن «ويموث» فإنه بقي في الطراد ينتظر مني الخبر وقد تركت له على الشاطىء جواداً مع خبير.

وفي طريقي إلى رفح في التلال الرملية التقيت بعض فرسان الرميلات فأكدوا لي أن عمودي الحدود قد أزيلا من مكانيهما يوم ١٢ أبريل، وأن ١١ عموداً من عمد التلغراف المصري من بئر رفح إلى طريق رفيح قد بدلت بعمد تركية في ٢٨ أبريل. وقالوا أن في رفح خمسين عسكرياً ومعهم موظف ملكي مأمور الجفالك (مفردها جفتلك. . وهي كلمة تركية تعني الأراضي المملوكة للدولة).

ويواصل نعوم بك حديثه قائلاً:

وقد تأكدت من صحة هذه المعلومات. . وناقشتها مع مأمور الجفالك لأن «مفيد بك» قومندان النقطة كان غائباً في خان يونس لتأدية إحدى المهمات. . وقد أنكر المأمور تغيير عمد التلغراف. . وعمودي الجرانيت تحت السدرة وقال: أن هذا المكان مملوء بالعمد لأنه قد قام عليه في القديم هيكل عظيم وهذه العمد هي من

---

(١) تاريخ سيناء ـ مرجع سابق

آثاره. . وقد كانت أراضي رفح كلها بيد أناس من خان يونس، ولكن لم يكن معهم حجج تثبت ملكيتهم فانتزعتها منهم وضممتها إلى إدارة الجفالك باسم الحضرة السلطانية وبقي الواضعون أيديهم على الأرض يحرثونها كما كانوا من قبل ويدفعون العشور.

وعندما أتى مفيد بك من خان يونس وسألته عن العمودين أنكر وجودهما بتاتاً برغم أن مجموعة من عرب الرميلات اعترفت بوجود العمودين أمامنا جميعاً وقالت: لقد كنا نرى العمودين منذ نشأنا، ونعلم أنهما الحد الفاصل بين مصر والشام وقد ورثنا هذه العلم عن الآباء والأجداد، وفي سنة ١٨٩٨ زار خديوي مصر الحدود ونقش تاريخ زيارته على العمود الذي إلى جهة العريش، فلما جاءت عساكر الدولة مؤخراً أزالت العمودين في ١٢ ابريل ١٩٠٦، فامتعض مفيد بك من صراحة الرميلات وجرأتهم ولكنه كظم غيظه.

واعتبرنا أن مهمتنا انتهت بعد أن أوضحنا لمفيد بك رأينا، وفي مساء يوم ٢ مايو وصلنا إلى بورسعيد عن طريق الطراد نفسه.

الرضوخ لمطالب بريطانيا

وبعدئذٍ صرحت الحكومة البريطانية بأنها لا تسمح بأي تغيير يحصل في امتيازات مصر الممنوحة لها في الفرمانات إلا إذا صدقته وأقرته، وقالت إننا دخلنا مصر وسيناء جزء منها وتحت إدارتها وسنرى أنها تبقى كذلك ما دمنا فيها.

ورأت إنجلترا أن في قبول مطالب تركيا بالتوسع في منطقة رفح وطابا يعتبر خطراً على حرية القناة ومصر نفسها. . بل والعائلة الخديوية أيضاً!

فوجه وزير خارجية بريطانيا السير إدوارد جراي يوم ٣ مايو إنذاراً نهائياً إلى تركيا يدعوها إلى إجابة مطالب إنجلترا في غضون عشرة أيام. وتمثلت هذه المطالب في ثلاث نقاط: الانسحاب من طابا. وعودة عساكر رفح إلى حدودهم الأصلية وإعادة عمودي الحدود في رفح إلى مكانيهما، وقد أيدت فرنسا وروسيا مطالب بريطانيا التي استعدت بدورها للطوارىء في مصر وسيناء والآستانة.

والواضح بصورة جلية أن ألمانيا هي التي حرشت تركيا سراً وحرضتها على المقاومة لغاية في نفسها، لكن الأمور لم تسر كما اشتهتها، فاضطر سفيرها في

الأستانة إلى الإيحاء للسلطان العثماني بالاستجابة لمطالب إنجلترا بحجة أن دولته لا تستطيع أن تنصره عليها في الأحوال الحاضرة، إضافة إلى الوهن الذي كان يعتري العثمانيين حينئذٍ.. الأمر الذي أدى في النهاية إلى الرضوخ لمطالب إنجلترا، فانسحب الأتراك من طابا «وصدر الأمر إلى قائمقام بئر السبع وقائمقام غزة فحضرا إلى رفح ونبشا عمودين من خرائب رفح وأحضرا عموداً من الجرانيت الأسود طوله ٦ أقدام وآخر من الجرانيت الرمادي طوله ٤ أمتار ونصباهما تحت السدرة بقرب مكان العمودين الأولين.

وبعد ذلك قام موظفون من كلا الطرفين وعينوا الحدود بالتفصيل ووقعوا على الاتفاقية التي تبودلت في رفح ١٣ شعبان المعظم سنة ١٣٢٤ ـ الموافق أول أكتوبر سنة ١٩٠٦ بين مندوبي الدولة العلية، ومندوبي الخديوية الجليلة المصرية بشأن تعيين «خط فاصل إداري» بين ولاية الحجاز ومتصرفية القدس، وبين شبه جزيرة طور سيناء[1].

وقد نظم فرج سليمان شاعر الرميلات برفح قصيدة شعبية في هذه المناسبة جاء فيها:

في أول دهرنا ما لنا حد مظبوط	وأما رفح في الذكر نسمع بطرياه
التمت الباشات بين المحاديد	واحنا صبرنا بينهم للمداعاه
واليوم صار حدادنا بطن بارود	والكل من حده يرجع لممشاه
نعوم بيك والمدير المسمى	وفتحات باشا والعساكر بتبراه
يوم الأحد مشيوا على خيرة الله	وغزوا علايم حدهم بالمواتاه
يا رب تحميهم وتنصر دولهم	ارتاحت العربان بعد المقاساه

في اليوم التاسع من شهر يناير عام ١٩١٧ تمكنت الفرقة النيوزلندية التابعة للجيش البريطاني من القضاء على الحامية العثمانية المتحصنة في رفح.. حيث خضعت للحكم البريطاني الذي فرض انتدابه على فلسطين حتى عام ١٩٤٨، ثم دخل الجيش المصري رفح وبقيت تحت اشراف الإدارة المصرية حتى عام ١٩٥٦ حيث وقعت تحت الاحتلال الصهيوني إبان العدوان الثلاثي على مصر.

---

(١) تاريخ سيناء ـ مرجع سابق.

رفح تحت نير الاحتلال الصهيوني

إن وقائع حرب ١٩٥٦ أكدت أن احتلال قطاع غزة (ومن ضمنه رفح) كان هدفاً عسكرياً اسرائيلياً قائماً بحد ذاته، وللخلاص من دوره كلسان ممتد إلى داخل الأرض المحتلة يصلح منطلقاً لهجوم مصري مسلح ضد اسرائيل، إضافة إلى دوره كقاعدة آمنة لأعمال الفدائيين الموجهة ضدها[١].

هذا وقد تم احتلال مدينة رفح في الأول من نوفمبر عام ١٩٥٦ واستطاع الصهاينة أن يعزلوها عن بقية مدن وقرى قطاع غزة وكانت القوات المصرية فيه في حالة معنوية سيئة، كما أنها لم تكن قادرة على تنظيم نفسها للصمود طويلاً إذ كانت مجزأة وحدات صغيرة مركزة في عشرات المواقع المتناثرة[٢].

وبعد ظهر يوم ٢ نوفمبر سقطت غزة، بينما استمرت خان يونس في مقاومتها العنيفة حتى سقطت في اليوم الثالث من نوفمبر.

وقد ارتكب العدو بعدئذٍ مجازر رهيبة في القطاع من ضمنها مجزرة رفح التي وقعت في اليوم الثاني عشر من ذات الشهر حيث أحاطت بالمدينة قوات اسرائيلية ضخمة وأمرت ـ عن طريق مكبرات الصوت ـ الشباب من سن ١٥ إلى ٤٥ بالتجمع في ثلاث مدارس محددة خلال نصف ساعة وقبل نهاية المدة المحددة اقتحم الجنود معسكر اللاجئين من جهاته الأربع وأخذوا يطلقون النيران على من تخلف منهم.

وفي اليوم التالي للمجزرة ـ وكان الجرحى ما يزالون ينزفون في بيوتهم والجثث تملأ الطرقات ـ سمح بفترة ثلاث ساعات لتضميد الجراح. وجمعوا الجثث المبعثرة في خمس سيارات شحن كبيرة وقذفوا بها في حفرة خارج البلد وكان الناس يذهبون إليها للتعرف على جثث أقاربهم وانتشالها لدفنها في أماكن معروفة[٣].

وقُدِّر عدد القتلى من «اللاجئين» فقط في ذلك اليوم بنحو مائتي شخص، أمكن التثبت من شخصيات ١٢٧ شخصاً شطبت أسماؤهم فعلاً من سجلات تموين وكالة الغوث، وكانت القوات الإسرائيلية قد اعتقلت عشرات من الشباب، وأمرتهم بحفر عدة حفر عميقة واروا فيها جثث إخوانهم الشهداء، ثم استغلتهم تلك القوات في نقل

---

(١) قطاع غزة ـ مرجع سابق.

(٢) قصة مدينة غزة ـ هارون هاشم رشيد ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ سلسلة المدن الفلسطينية.

(٣) اعتداءات اسرائيل على قطاع غزة وسيناء ـ جامعة الدول العربية ١٩٦٥م.

معدات حربية ومواد تموينية غنمتها من معسكرات الجيش المصري المنسحب، وقد عاد جزء من هؤلاء المعتقلين إلى بيوتهم ولم يعد جزء آخر أبداً.

ولم يستمر ليل الاحتلال طويلاً فبعد نحو أربعة أشهر كشف الله سبحانه وتعالى الضر عن المكروبين ففي السابع من مارس (آذار) عام ١٩٥٧م انسحبت اسرائيل من قطاع غزة تنفيذاً للقرار الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم ١٩ من يناير من ذات العام بإخلاء المواقع الإسرائيلية الباقية في سيناء وقطاع غزة، والانسحاب إلى ما وراء خطوط الهدنة.

وفي اليوم الرابع عشر من مارس آذار ـ أي بعد أسبوع من الانسحاب الإسرائيلي ـ وصل اللواء محمد حسن عبد اللطيف الحاكم الإداري «المصري» العام للقطاع بطريق البر إلى مدينة رفح حيث خرجت المدينة عن بكرة أبيها تستقبله بكل الود والترحاب وجرت له استقبالات مماثلة في باقي مدن وقرى ومخيمات القطاع.

للمرة الثانية رفح محتلة

بعدئذٍ شهد القطاع تغيراً جذرياً في شؤونه السياسية والاقتصادية من أهمها تشكيل الاتحاد القومي وإنشاء المجلس التشريعي وزيادة الوعي القومي لدى الجماهير الثائرة وقيام منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ ومطالبتها بالتدريب العسكري وتوفير السلاح استعداداً ليوم التحرير.

إضافة إلى الشعور الجماهيري بالفرح نتيجة انتصار ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ في العراق وانتصار ثورة الجزائر عام ١٩٦٢.

أما على الصعيد الاقتصادي فقد أصدرت الإدارة المصرية قرارات أدت إلى إنعاش الحركة الاقتصادية وزيادة الدخل المادي للمواطنين.. إضافة إلى إتاحة الفرص لسفر من يرغب من المواطنين للعمل في المهاجر العربية بشكل خاص، وفتح الجامعات المصرية على مصاريعها لدخول أبناء القطاع وتعليمهم مجانياً.

وباختصار.. عاش السكان عيشة سعيدة لم يظفروا بمثلها سابقاً.. لكن فترة الهناء لم تستمر طويلاً.. إذ سرعان ما دقت طبول الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ حيث قامت اسرائيل بالهجوم على القوات العربية: المصرية والسورية والأردنية، واستطاعت خلال ستة أيام أن تحتل مساحات

كبيرة من الأرض العربية تزيد كثيراً على ما سبق لها احتلاله في حرب عام ١٩٤٨، إذ كانت مساحة الأرض المحتلة من فلسطين في حدود ٢٠,٧٠٠ كم مربعاً، فضمت إليها سيناء ٦١,١٩٨ كم مربعاً، وقطاع غزة ٣٦٣ كم مربعاً، والضفة الغربية ٥,٨٧٨ كم مربعاً والجولان ١,١٥٠ كم مربعاً، وبذلك أصبح مجموع الأراضي التي احتلها الكيان الصهيوني ٨٩,٣٥٩ كم مربعاً أي بزيادة أربعة أضعاف ما كانت تحتله عند إقامة هذا الكيان وفتحت اسرائيل مضائق تيران، وسيطرت على شرم الشيخ، وضمنت لنفسها حماية الملاحة في خليج العقبة[1].

وقد عمدت السلطات الإسرائيلية منذ احتلالها لمدينة رفح إلى ترويع السكان وبخاصة الشباب منهم، وزجت بالكثيرين إلى السجون والمعتقلات كما فعلت في مناطق كثيرة من فلسطين المحتلة، كما قامت بعدئذ بوضع يدها على نحو ١٢ ألف دونم من أراضي رفح مدعية أنها أراضي «مير» تابعة للدولة، وأقامت عليها عدة مستوطنات من بينها: موراج، متصبية، عتصمونة، رفيح يام، كذلك قامت سلطات الاحتلال العسكرية بمصادرة ٣٥٠ دونماً في منطقة الشوكة شرقي رفح بحجة إقامة محطة مركزية للمجاري، وهذه المساحة من الأرض تعود ملكيتها لعائلتي القرا، وأبو قشطة، كما قامت سلطات الاحتلال أيضاً بمصادرة ١٥ دونماً يملكها المواطن نعمان سليمان زعرب، وقامت الجرافات الإسرائيلية بتدمير كافة الخضروات وأشجار الجوافة التي كانت مزروعة فيها. وقد دمرت أيضاً أجهزة الري وبئر المياه تحت إشراف الحاكم العسكري نفسه، والمعروف أن هذه الأراضي التي صادرتها سلطات الاحتلال قريبة جداً من منطقة التدريب العسكري الخاصة بالمستوطنين الإسرائيليين والمعروفة باسم «المطخ»(*).

عائلات رفحية كريمة

وبحجة محافظتها على الأمن قامت هذه السلطات الجائرة بهدم كثير من المباني السكنية المطلة على بعض الشوارع الرئيسية بالمدينة وعمدت لترحيل السكان إلى معسكر خاص تم انشاؤه فوق الكثبان الرملية الواقعة غربي المدينة باتجاه البحر المتوسط. وقد نما هذا المعسكر نمواً سريعاً.

---

(١) الموسوعة الفلسطينية ـ مرجع سابق.

(*) الاستيطان ومصادرة الأراضي في قطاع غزة، ١٩٦٧ ـ ١٩٨٤، د. شريف كناعنة ورشاد المدني ـ مجلة صامد ـ فبراير ـ ١٩٨٧م.

ومن ناحية أخرى فقد تم دمج أجزاء من رفح الشرقية ببعضها البعض، واكتظت المنطقة بالمحلات التجارية وامتدت حتى وصلت إلى الحد الفاصل بين رفح الفلسطينية ورفح المصرية، وهذا الحد عبارة عن حاجز من الأسلاك الشائكة وضع في بداية الأربعينات، ولكن رغم وجوده فإن النمو العمراني أدى إلى التحام «الرفحين» إحداهما بالأخرى.

أما بالنسبة لعدد السكان، فقد قدر عدد المواطنين الأصليين في عام ١٩٦٦ بنحو خمسة آلاف نسمة، ومن اللاجئين بنحو ستين ألف نسمة، وقد قدر عددهم جميعاً في عام ١٩٧٩ بنحو تسعين ألف نسمة[1].

وجدير بالذكر أن معظم سكان رفح يعودون بجذورهم الأولى إلى خان يونس، وبعض منهم أتى إليها من المضارب البدوية المجاورة.

وهناك أواصر قربى ومصاهرة بين بعض عائلات رفح وخان يونس، فعلى سبيل المثال تستقر عائلات خان يونسية ورفحية في كلا المدينتين مثل عائلات زعرب والشاعر وشراب والبيوك والنحال، كما توجد لبعض أفراد عائلة «الآغا» الخان يونسية الأصل أملاك واسعة في مدينتي رفح المصرية والفلسطينية.

ونفس الوضع ينطبق على بعض العائلات مشتركة الإقامة في كل من غزة وخان يونس مثل عائلات: شراب والسقا وعاشور، وشعث وغيرها.

وربما يعود سبب ذلك إلى الموقع الجغرافي المهم التي تميزت به خان يونس بحكم وجودها على حافة الصحراء، وبحكم قربها من غزة (٢٥ كم)، ومن رفح (١٢ كم).

ومن أشهر العائلات «الرفحية» المعروفة: زعرب، قشطة، ضهير، الشاعر، النحال، حجازي، شعث، القاضي، شلوف، عوكل، بريكة، ماضي، برهوم، النحال وغيرها.

ويعتبر عمدة رفح الحاج شحده زعرب أبرز الشخصيات الرفحية وتوفي عام ١٩٨٣.

---

(١) الموسوعة الفلسطينية ـ مرجع سابق.

وتتألف رفح الغربية من عشيرة زعرب بصورة أساسية، بينما تتألف رفح الشرقية من عشيرتي قشطة وضهير بصورة أساسية أيضاً.

ويقوم مخيم رفح للاجئين الفلسطينيين ـ الذي أقيم عام ١٩٤٩ ـ في المنطقة الواقعة بين «الرفحين» ويكاد يكون مستقلاً من حيث توافر المواد الغذائية والمدارس والعيادات الصحية، وخلاف ذلك، ومنه تنطلق المجموعات الشبابية الضاربة ضد الوجود الصهيوني.

هذا.. وقد أثر الموقع الحدودي المتميز لرفح في إنعاش الحركة التجارية بها، ففيها يتبادل التجار و«المهربون» منتجات فلسطين ومصر، وزاد في أهميتها وجود سكة الحديد التي تربط القطرين الشقيقين، إضافة إلى الطريق البري المعبد الذي يصل بينهما. وقد أدى الطريقان خدمات جليلة إلى المسافرين والتجار والمهربين، إضافة لاستعمالهما في النواحي الحربية من قبل القوات البريطانية والتركية والمصرية والإسرائيلية، وذلك خلال فترات تاريخية سابقة.

وبالقرب من رفح الشرقية أقامت القوات البريطانية معسكراً ضخماً كانت تعتمد عليه اعتماداً كبيراً خلال فترة احتلالها لمصر (١٨٨٢ ـ ١٩٥٤) وخلال فترة انتدابها على فلسطين (١٩١٧ ـ ١٩٤٨).

مأساة مخيم «كندا»

مخيم.. أو معسكر كندا.. مصطلح يطلق على تجمع سكني فلسطيني يقع على الحدود المصرية الفلسطينية عند رفح. ويعود سبب هذه التسمية إلى وجود الكتيبة الكندية التابعة لقوات الطوارىء الدولية التي كانت مقيمة في نفس المكان قبل عدوان الخامس من حزيران عام ١٩٦٧.

وتبلغ مساحة الأرض المقام عليها المخيم نحو ٢١٦ دونما، وتعود ملكيتها إلى الحاج حسين الآغا من سكان مدينة خان يونس. وسكان المخيم هم أساساً من لاجئي قطاع غزة الذين رحلوا إلى المنطقة عام ١٩٧٢ بعد أن هدمت سلطات الاحتلال الصهيوني بيوتهم في المخيمات الفلسطينية ضمن مخطط العدو الهادف إلى تفريغها من سكانها بدعوى أنها تمثل بؤراً ثورية.

وبلغ عدد سكان المخيم (عام ١٩٨٦) حوالي ٥٥٠٠ نسمة موزعين على ٧٠٠

أسرة تقطن في ٤٩٦ مسكناً[١].

وبعد انسحاب القوات الإسرائيلية من شبه جزيرة سيناء بتاريخ ٢٥ من ابريل (نيسان) عام ١٩٨٢ وإغلاق الحدود المصرية الإسرائيلية بدأت مأساة سكان هذا المخيم حيث انقسم ـ شأنه شأن رفح ـ إلى قسمين: قسم في فلسطين المحتلة والقسم الآخر في مصر العربية. وبقي سكان هذا المخيم الشقي في الأراضي المصرية يقيمون فيها «كسياح» وتتجدد إقامتهم كل ستة أشهر.

ولم تفصل الأسلاك الشائكة بين القسمين جغرافيا فحسب، بل شطرت الأسرة الواحدة شطرين، الوالدان في جانب، والأبناء في جانب آخر.. أو أخوة في جانب والأخوة الآخرون في جانب آخر..

وتفككت العائلات وأصبحت لا ترى بعضها البعض إلا عبر الأسلاك الشائكة حيث تتناجى وتتناقش لحل مشاكلها على مسمع من القوات الإسرائيلية الرابضة في نقاط مراقبتها[٢].

والوضع الاقتصادي في المخيم بائس بدرجة كبيرة.. صحيح أن وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) تصرف لبعض السكان بعض المعونات العينية المتواضعة، لكن نسبة البطالة مرتفعة جداً.. وقد ازدادت نسبتها كثيراً بعد إغلاق الحدود مع فلسطين المحتلة حيث كانت أعداد من الشباب تعمل في الجانب الفلسطيني المحتل. ولكنها لم تستطع العمل في الجانب المصري بعدئذٍ نتيجة لصدور القوانين المصرية الجديدة التي تحظر على الفلسطينيين العمل في الإدارات والمؤسسات المصرية.

أما الوضع الصحي في المخيم فهو أكثر بؤساً وشقاءً، فلا توجد فيه أية عيادة تخصصية على الإطلاق.. ولا أية عيادات خاصة.. إنما الموجودة حالياً عيادة مصرية واحدة يتردد عليها الجميع وتقدم ما يمكن حسب إمكاناتها، وقد حالت ظروف المعسكر الخاصة دون فتح عيادة للهلال الأحمر الفلسطيني فيه (!!) فقام الهلال بتعيين إثنين من الأطباء الفلسطينيين لمعالجة المرضى وتقديم الأدوية لهم بأسعار

(١) الفلسطينيون العرب في مصر العربية. د. نادرة السراج وآخرون ـ القاهرة ١٩٨٦م.
(٢) المرجع السابق.

رمزية كما ذكر مؤلفو كتاب «الفلسطينيون العرب في مصر العربية».

وأخيراً.. فإن جمهورية مصر العربية تعتبر أن وجود مخيم كندا على الأراضي المصرية هو وجود مؤقت، وهي تسعى جاهدة لعودة سكانه الفلسطينيين إلى قطاع غزة، لكن «اسرائيل» تماطل كعادتها في تنفيذ بنود اتفاق جرى بينها وبين مصر بتاريخ ٢٥ من فبراير عام ١٩٨٢ والذي يقضي بعودة المصريين الموجودين في صحراء النقب الفلسطينية إلى الأراضي المصرية وعودة الفلسطينيين الموجودين في رفح إلى قطاع غزة، وأن يتم هذا الانتقال خلال ستة شهور!

ولكن.. متى أقامت «اسرائيل» وزناً لقرار أو قيمة لاتفاق؟! اللهم إلا إذا كان الأمر يصب مباشرة في صالحها!

جريمة في منتصف الليل

ينسب إلى رفح الشهيدان نسيم إبراهيم عابد (٢٦ عاماً) وابن عمه سعيد إسماعيل عابد وينسب إلى مخيم خان يونس الشهيد خليل عبد الله (٤١ عاماً) وكان ثلاثتهم يعملون في بناء المركز الثقافي الرياضي لشبيبة «أويهودا» بفلسطين المحتلة، وينامون في الكوخ المقابل لموقع البناء.

وفي منتصف ليلة ٨ أغسطس عام ١٩٨٨ يوم كانت الانتفاضة الفلسطينية في ذروتها قام بعض الطغاة اليهود بإشعال النيران في الكوخ بعد أن أحكموا إغلاقه على الأبرياء الثلاثة، وبصعوبة بالغة تمكن «نسيم» - وهو أب لطفلين وزوج لامرأة حامل في شهرها السابع - من الخروج وهو يعاني من حروق بليغة في جميع أنحاء جسده، ولكنه استشهد بعد ستة أيام من العذاب متأثراً بحروقه الشديدة.

أما سعيد فلم يستطع حتى الوقوف على قدميه واستشهد في المستشفى بعد يومين من الحادث متأثراً بحروقه أيضاً.

أما بالنسبة لخليل عبد الله فقد انتهى أجله في نفس الليلة، كان أشد الأبرياء الثلاثة حرقاً..

وعلى أثر الحادث قامت الشرطة الصهيونية باعتقال ثلاثة شبان يهود «للاشتباه» بأنهم قاموا بتنفيذ هذه الجريمة المروعة. وقضوا في السجن مائة يوم قبل أن يطلق سراحهم! ولكن لماذا أطلق سراحهم؟

يجيب الناطق بلسان الشرطة أنه بسبب الإجراءات القضائية كان يتوجب على الشرطة أن تطلق سراحهم بعد مرور مائة يوم على اعتقالهم وقد استمر التحقيق معهم على أمل تقديم لائحة اتهام ضدهم!

وقد نفى المتهمون الثلاثة مسؤولياتهم عما حدث، ولما سئلوا: من الذي قام بقتل العمال العرب الثلاثة، أجابوا جميعاً: لا يهمنا ولا نريد أن نعرف، ربما كانوا عرباً مثلهم(!!)[1].

* * *

... وأخيراً... وفي غمرة أتراحي الوطنية وجدتني أُردد مع الشاعر المحامي محمد خلاد قوله:

الله يا وطني، شوقي يسابقني   والقيدُ والحزْنُ، والأقدار تعصف بي
ولم أزل أحمل الذكرى وتحملني   فكل مغتربٍ يأوي لمغترب
قل للذين استباحوا الأرض يا وطني   وزيّفوا فوقه، بيتاً بلا طُنُبِ
(لو كنت من مازن لم يستبح وطني   بنو اللقيطة) لكن عقّني نَسَبي
هجرتُ داري وأحلامي فما ظفرتْ   أذني بغير فنون القولِ والخُطَبِ
يا موطن السحر والأحلام ها أنذا   أراك بالقلب في بُعْدي وعن كَثَب
فإن غبتَ يوماً عن الأنظار يا وطني   فعن فؤادي، وحق الله لم تغبِ
وأنتَ في كبدي تحيا، وفي خَلَدي   وفي ضميري، وفي نبضي، وفي عصبي

تم بحمد الله وفضله.

الدوحة ـ ١٩٩٣م.

---

(١) جريدة الراية القطرية نقلاً عن جريدة معاريف الإسرائيلية ـ ترجمة وإعداد دار الجليل ـ عمان بتاريخ ١٩٨٩/١/٣٠م.

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ ـ جعفر الخليلي ـ بغداد ـ ١٩٧٩م.
٣ ـ الصهيونية وربيبتها اسرائيل ـ عمر رشدي ـ ١٩٦٥م.
٤ ـ المركز القانوني لمدينة القدس د. سالم الكسواني ـ ١٩٧٨م.
٥ ـ تقرير اللجنة الدولية إلى عصبة الأمم عام ١٩٣٠ ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـ بيروت ـ ١٩٦٨م.
٦ ـ إحصاءات القرى لعام ١٩٤٥ ـ سامي الهراوي ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ـ ١٩٦٨م.
٧ ـ فلسطين أرض وتاريخ د. محمد سلامة النحال ـ دار الجليل للنشر ـ عمان.
٨ ـ بلادنا فلسطين ـ مصطفى مراد الدباغ ـ دار الطليعة للطباعة والنشر ـ أحد عشر مجلداً ضخماً ـ بيروت ـ ١٩٧٤م.
٩ ـ عروبة بيت المقدس د. إسحق موسى الحسيني ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ـ ١٩٦٩م.
١٠ ـ نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ـ عارف العارف ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ لبنان.
١١ ـ من آثارنا في بيت المقدس د. كامل العسلي، عمان ـ ١٩٨٢م.
١٢ ـ المفصل في تاريخ القدس ـ عارف العارف ـ مطبعة المعارف ـ القدس ـ ١٩٦١م.
١٣ ـ القدس ـ سمير جريس ـ بيروت ـ ١٩٨١م.
١٤ ـ بلدانية فلسطين المحتلة ـ أنيس صايغ ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ـ ١٩٦٨م.
١٥ ـ قضية القدس في محيط العلاقات الدولية د. عزالدين فودة ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ـ ١٩٦٩م.
١٦ ـ رام الله والبيرة ـ يحيى الفرحان ـ سلسلة المدن الفلسطينية (٥) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ بالاشتراك مع دائرة الإعلام بمنظمة التحرير الفلسطينية.
١٧ ـ رام الله قديماً وحديثاً ـ خليل أبو ريا.

١٨ ـ تاريخ رام الله ـ يوسف قدورة.
١٩ ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ مجير الدين الحنبلي ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٧٣م.
٢٠ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ محمد بن أحمد البشاري «المقدسي» ـ.
٢١ ـ الموسوعة الفلسطينية ـ ١٩٨٤م.
٢٢ ـ فلسطين وتجديد حياتها ـ يعقوب حنظل ـ نيويورك ١٩١٩.
٢٣ ـ خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية ـ عبد الله التل ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.
٢٤ ـ عروبة فلسطين في التاريخ ـ محمد أديب العامري ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ١٩٧٢م.
٢٥ ـ جغرافية فلسطين المصورة ـ قسطنطين خمار ـ بيروت ـ ١٩٦٩م.
٢٦ ـ جغرافية فلسطين ـ خليل طوطح وحبيب خوري ـ صيدا ـ ١٩٢٣م.
٢٧ ـ اللد.. دراسة في الموقع والتاريخ والشهرة ـ مصطفى محمد الفار ـ الأردن.
٢٨ ـ قصة مدينة اللد ـ عبد الرازق أبو ليل ـ سلسلة المدن الفلسطينية رقم (١٣).
٢٩ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة العربية ـ القاهرة.
٣٠ ـ المسالك والممالك ـ أبو إسحق الأصطخري ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ القاهرة ١٩٦٠م.
٣١ ـ خمس جنسيات والوطن واحد ـ من مذكرات طلعت يعقوب الغصين ـ مطبعة حكومة الكويت ـ ١٩٨١م.
٣٢ ـ النكبة ـ عارف العارف ـ صيدا ـ ١٩٦٣م.
٣٣ ـ قصة مدينة يافا ـ د. عزالدين غربية ـ سلسلة المدن الفلسطينية.
٣٤ ـ اسرائيل والسياحة ـ إلياس سعد ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ـ ١٩٦٨م.
٣٥ ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٦٥م.
٣٦ ـ يوميات أكرم زعيتر ـ أكرم زعيتر الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩ ـ الطبعة الأولى ١٩٨٠ ـ بيروت.
٣٧ ـ فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ـ عيسى السفري، الطبعة الأولى ـ يافا ـ ١٩٣٧م.
٣٨ ـ قصة مدينة صفد ـ يسار العسكري ـ سلسلة المدن الفلسطينية رقم(١١).
٣٩ ـ ولاية بيروت ـ التميمي والكاتب ـ بيروت ـ ١٣٣٥ هـ.
٤٠ ـ مجلة الشرق ـ مجلد ٢١.
٤١ ـ صفد في التاريخ ـ محمود العابدي ـ عمان ـ ١٩٧٧.
٤٢ ـ تهويد فلسطين د. إبراهيم أبو لغد ـ ترجمة أسعد رزوق ـ بيروت ـ ١٩٧٢م.
٤٣ ـ قصة مدينة بيسان ـ يوسف عبيد ـ سلسلة المدن الفلسطينية.

٤٤ ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء ـ إحسان النمر ـ الجزء الثالث.
٤٥ ـ قضية فلسطين في سيرة بطل الشهيد الحي عبد القادر الحسيني ـ نبيل خالد الآغا ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨٠م.
٤٦ ـ قصة مدينة طولكرم ـ علي حسن ـ سلسلة المدن الفلسطينية.
٤٧ ـ شجرة الزيتون ـ علي نصوح الطاهر ـ عمان ـ ١٩٤٧.
٤٨ ـ جغرافية فلسطين ـ محمد سلامة النحال ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٦٦م.
٤٩ ـ قصة مدينة جنين ـ حرب حنيطي ـ سلسلة المدن الفلسطينية.
٥٠ ـ فلسطين تاريخاً ونضالاً ـ نجيب الأحمد ـ دار الجليل للنشر ـ عمان ـ ١٩٨٥م.
٥١ ـ جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ـ صالح مسعود بويصير ـ دار الفتح ـ بيروت ١٩٧١م.
٥٢ ـ أم الفحم ـ الأوضاع التعليمية والاجتماعية ـ أنجيلا بلومان ـ دار الكرمل للنشر والتوزيع ـ عمان ـ ١٩٨٥م.
٥٣ ـ تاريخ غزة ـ عارف العارف. مطبعة دار الأيتام الإسلامية ـ القدس ١٩٤٣م.
٥٤ ـ غزة عبر التاريخ ـ إبراهيم سكيك ـ غزة ـ ١٩٨١م.
٥٥ ـ قطاع غزة ـ حسين أبو النمل ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ـ ١٩٧٩م.
٥٦ ـ بئر السبع والحياة القبلية ـ أحمد أبو خوصة ـ عمان ـ ١٩٧٢م.
٥٧ ـ الطريق إلى المدائن ـ أحمد عادل كمال ـ بيروت ـ ١٩٧٢م.
٥٨ ـ العرب في الدولة اليهودية ـ إيان لوستيك ـ جامعة تكساس ـ ١٩٨٠م.
٥٩ ـ المجتمع البدوي في النقب واقتصادياته.
٦٠ ـ قصة مدينة بئر السبع ـ حسن أبو سمور ـ سلسلة المدن الفلسطينية.
٦١ ـ تهذيب سيرة ابن هشام ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار إحياء التراث العربي ـ لبنان.
٦٢ ـ تاريخ سيناء ـ نعوم بيك شقير ـ مطبعة المعارف ـ مصر ـ ١٩١٦م.
٦٣ ـ نيابة غزة في العهد التركي ـ محمد علي خليل ـ بيروت ـ ١٩٨٦م.
٦٤ ـ قصة مدينة غزة ـ هارون هاشم رشيد ـ سلسلة المدن الفلسطينية رقم ١٢.
٦٥ ـ اعتداءات اسرائيل على قطاع غزة وسيناء ـ جامعة الدول العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦٥م.
٦٦ ـ الجامعة الإسلامية رسالة ومسيرة ـ كتيب صادر عن مكتب ارتباط الجامعة الإسلامية ـ عمان ـ ١٩٨٩.
٦٧ ـ الفلسطينيون العرب في مصر العربية د. نادرة السراج وآخرون ـ القاهرة ـ ١٩٨٦م.
٦٨ ـ سفرنامه ـ ناصر خسرو ـ نقله عن الفارسية الدكتور يحيى الخشاب ـ القاهرة ـ ١٩٤٥م.
٦٩ ـ حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ القاهرة ١٩٥٦م.
٧٠ ـ رجال من فلسطين ـ عجاج نويهض، بيروت ـ ١٩٨١م.
٧١ ـ الاستيطان ومصادرة الأراضي في قطاع (١٩٦٧ ـ ١٩٨٤) د. شريف كناعنه ورشاد المدني ـ مجلة صامد ـ فبراير ١٩٨٧م.

٧٢ ـ قصة مدينة خان يونس د. حسن عبد القادر صالح ـ سلسلة المدن الفلسطينية (١٨).
٧٣ ـ من أعلام الفكر والأدب في فلسطين ـ يعقوب العودات «البدوي الملثم» عمان ـ ١٩٧٦م.
٧٤ ـ الشيخ عز الدين القسام ـ قائد حركة وشهيد قضية ـ حسني أدهم جرار ـ دار الضياء ـ عمان ـ ١٩٨٩.
٧٥ ـ محمد علي الطاهر ـ المؤلف سميح شبيب ـ الاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين ـ شرق برس ـ ١٩٩٠.
٧٦ ـ حرب فلسطين ١٩٤٨ ـ الرؤية المصرية د. ابراهيم شكيب ـ القاهرة ١٩٨٦م.
٧٧ ـ مقابلات شخصية.

الصحف والمجلات

(مراجع)

١ ـ مجلة الدوحة ـ الدوحة ـ دولة قطر.

٢ ـ مجلة أرض الإسراء ـ عمان ـ الأردن.

٣ ـ جريدة دافار الإسرائيلية.

٤ ـ مجلة التضامن ـ لندن.

٥ ـ جريدة الحياة ـ لندن.

٦ ـ مجلة الجيل ـ قبرص.

٧ ـ مجلة المجلة ـ جدة.

٨ ـ جريدة القبس ـ الكويت.

٩ ـ جريدة الخليج ـ الشارقة.

١٠ ـ جريدة صوت الشعب ـ عمّان.

١١ ـ جريدة الدستور ـ عمّان.

١٢ ـ مجلة فلسطين الثورة ـ قبرص.

١٣ ـ جريدة الشرق الاوسط ـ جدة.

١٤ ـ مجلة النهضة ـ الكويت.

١٥ ـ مجلة اليوم السابع ـ باريس.

١٦ ـ جريدة الاهرام ـ القاهرة.

١٧ ـ جريدة معاريف الإسرائيلية.

١٨ ـ جريدة الراية ـ دولة قطر.

١٩ ـ مجلة القدس ـ القاهرة.

٢٠ ـ جريدة الأنباء ـ الكويت.

٢١ ـ مجلة فلسطين ـ بيروت.

٢٢ ـ جريدة «هعولام هزيه» الإسرائيلية.

٢٣ ـ مجلة صوت فلسطين ـ دمشق.
٢٤ ـ مجلة الحوادث ـ لندن.
٢٥ ـ مجلة المستقبل العربي ـ لندن.
٢٦ ـ جريدة إندبندنت ـ لندن.
٢٧ ـ جريدة الرأي العام ـ الكويت.
٢٨ ـ مجلة الوطن العربي ـ باريس.
٢٩ ـ لوموند ديبلوماتيك ـ باريس.

محتويات الكتاب

رام الله والبيرة... ريحانتنا فلسطين

الخليل.. منجم الأصالة والفداء

بيت لحم.. ميلاد السلام

أريحا.... بوابة التاريخ

الباب الثاني ـ لواء اللد
ويتبعه أقضية: يافا، الرملة، اللد

اللد... مدينة تبحث عن أهلها

الرملة.. هبة سليمان بن عبدالملك

يافا . . حديقة النجوم

الباب الثالث: لواء حيفا
ويضم قضاءي حيفا وعكا
حيفا . . قلادة على صدر الوطن

عكا... مدينة تغازل الزمن

الباب الرابع: لواء الجليل
ويضم أقضية: الناصرة، طبرية، صفد، بيسان

الناصرة.. أقحوانة الجليل

طبرية... قيثارة الجليل

صفد.. زنبقة الجليل

بيسان.. مدينة الينابيع

الباب الخامس: لواء السامرة (نابلس)
ويتبعه أقضية نابلس، طول كرم، جنين، وأضيفت أم الفحم

نابلس.. شامة على خد الوطن

طول كرم... بسمة على وجه الوطن

بئر السبع . . . مدينة البداوة والحضارة

خان يونس... مدينة الشهداء

رفح... مدينة على حد السيف

رجاء من المؤلف

إحقاقاً للحق، وتبياناً للواقع، أُناشد كرام القراء والباحثين وكافة المهتمين بقضيتنا الفلسطينية العادلة، أن يتكرموا بالاتصال بي لتصويب أي خطأ ربما يكون ورد في هذا الكتاب، أو لإضافة أية معلومة أو صورة تزيد من ثراء مادته، فكل القراء شركائي في تأليف هذا الكتاب.

الشكر والثناء لكل قارىء ومهتم ومتجاوب،

المؤلف

نبيل خالد الآغا

العنوان المؤقت: ص ـ ب ٧٣٨٥ ـ الدوحة ـ دولة قطر

العنوان الدائم: ص. ب ـ ٦٠٩٩ ـ عمان ـ الأردن

مدائـن فلسطين

تزخر المكتبات العربية بكم هائل جداً من الكتب والدراسات التي تتناول فلسطين وقضيتها من كافة الأركان والجوانب والزوايا، يشعر المرء في لحظة من اللحظات بأنه لم يبق في الجعبة زيادة لمستزيد.

لكن برغم ذلك تبقى لبعض الكتب خصوصياتها ومذاقاتها الخاصة.

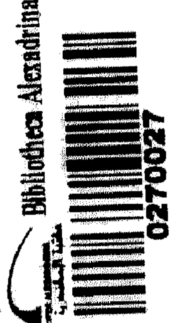
ولقد سبق لمؤلف الكتاب الكاتب الصحفي نبيل خالد الآغا أن قدّم للمكتبة العربية أول كتاب وثائقي عن الشهيد الحي القائد عبد القادر الحسيني، فكان ولا يزال مرجعاً مُهمًا في مادته وموضوعه.

وهذا الكتاب الجديد «مدائن فلسطين.. دراسات ومشاهدات»، يعتبر بحق كتاباً مميزاً لأنه يبسط أمام القارىء كافة المدن الفلسطينية. ولكل مدينة بطاقتها الشخصية الخاصة بها والتي تتناول تاريخ تأسيسها، وسبب تسميتها، وجغرافيتها، وأهم الأحداث في تاريخها، وخصوصياتها الاجتماعية، إضافة إلى أهم العائلات التي تسكنها، وأهم الشخصيات البارزة التي أنجبتها المدينة ثم توفاها الله تعالى خلال القرن الحالي.

وكل هذه المادة المشوقة عُرضت بطريقة متزنة وذلك بإسهاب غير مُمِلّ، وبإقلال غير مُخِلّ. وبأسلوب صحفي متأدب عكس انطباعات المؤلف عن زيارته الميدانية لوطنه المحتل بعد طول غياب واغتراب.

ومهما يكن إلمام القارىء واسعاً عن المدائن الفلسطينية، فبين دفتي هذا الكتاب توجد كثير من المعلومات المثرية لكافة القراء وهي أكثر إثراء لأجيال الاغتراب والشتات.

الناشر



Bibliotheca Alexandrina
0270027



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ١١-٥٤٦٠، العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٧٩٠٠/١، تلكس LE/DIRKAY ...

الغلاف: زهير أبو شايب ●